

الأخبار الأثرية في القبر

في أسبانيا والبرتغال

تأليف

عبد الرحمن بن عبد الله

مكتبة دار الحديث

الناشر مكتبة دار الحديث



20

NC




محمد عبد الله غنّان

الأثار الأندلسية اقبينا

في اسبانيا والبرتغال

دراسة تاريخية أثرية


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(شراء)

رقم التسجيل ٦٧٥ ٦٣٥

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

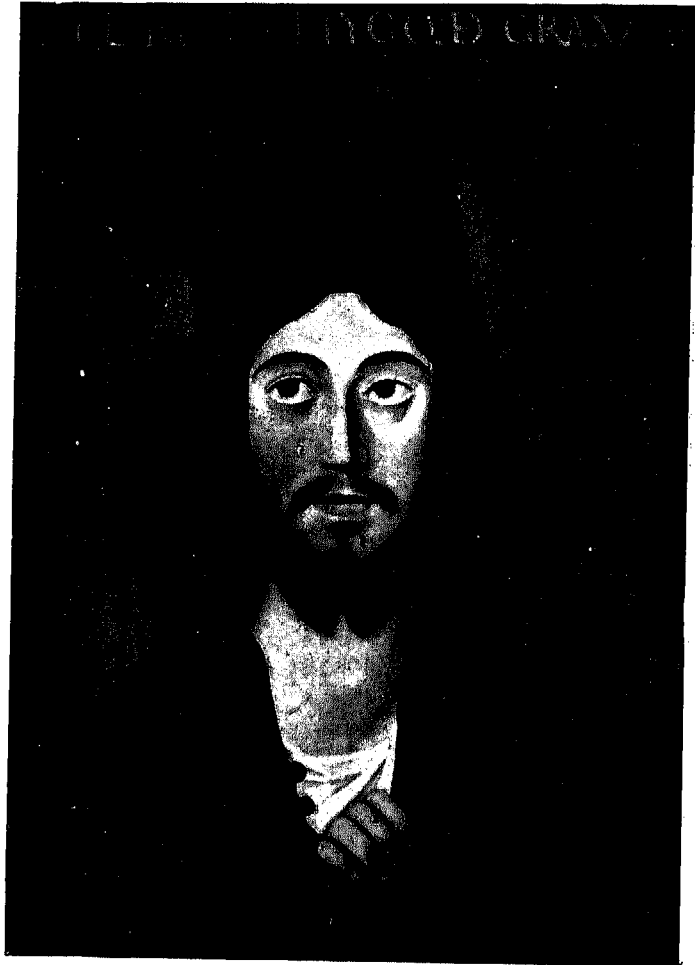
١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

رقم الإيداع : ٩٧/٣/٢٩

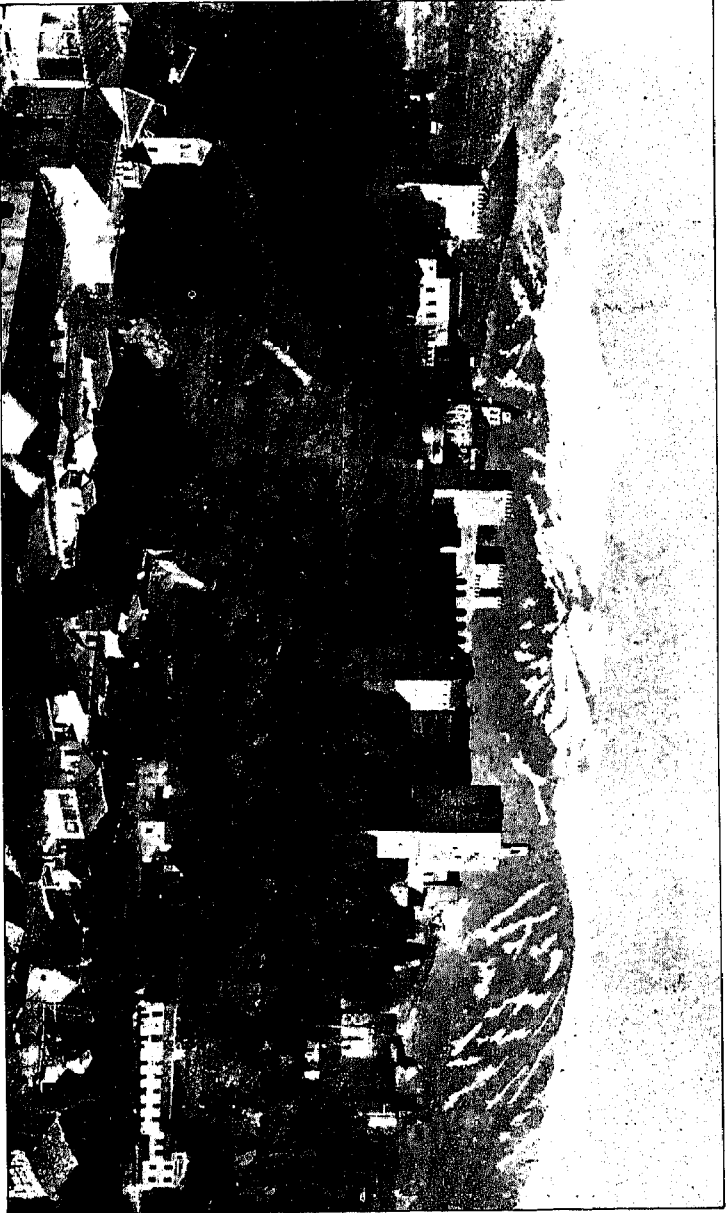
التقييم الدولي I.S.B.N

977-5046-33-5

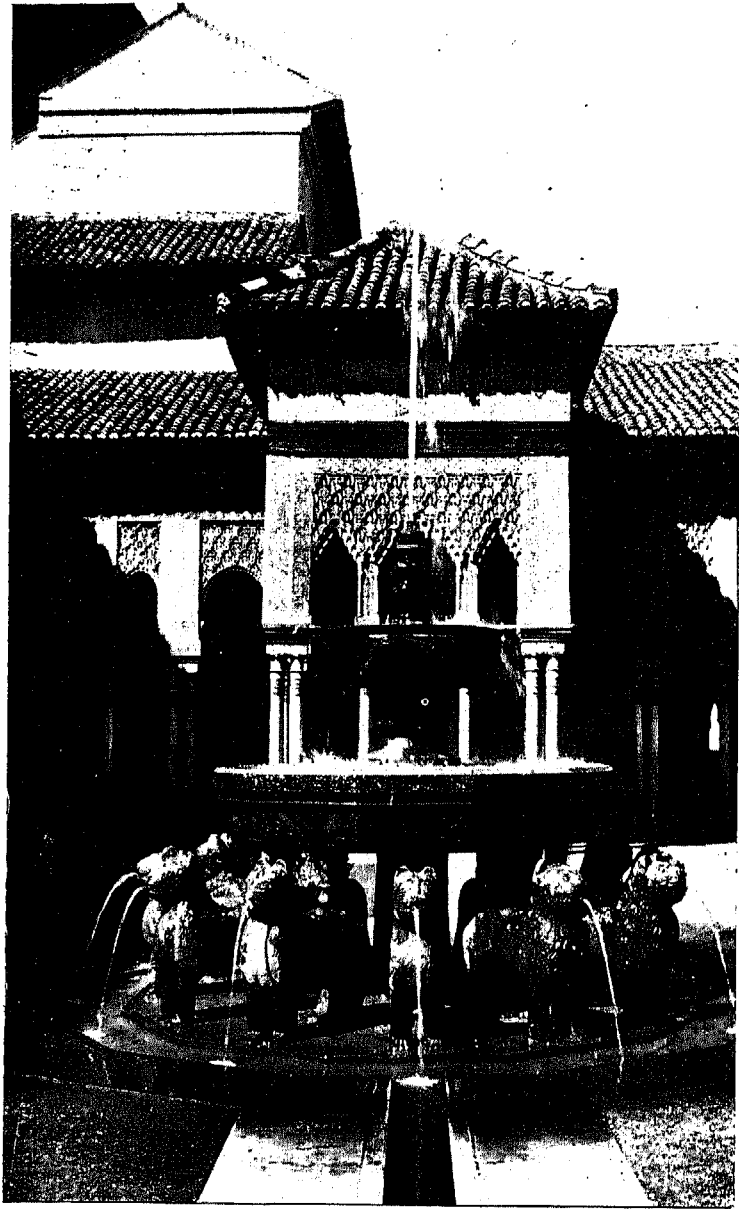
مطبعة المكنفي
المنشأة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت. ٤٨٧٨١١



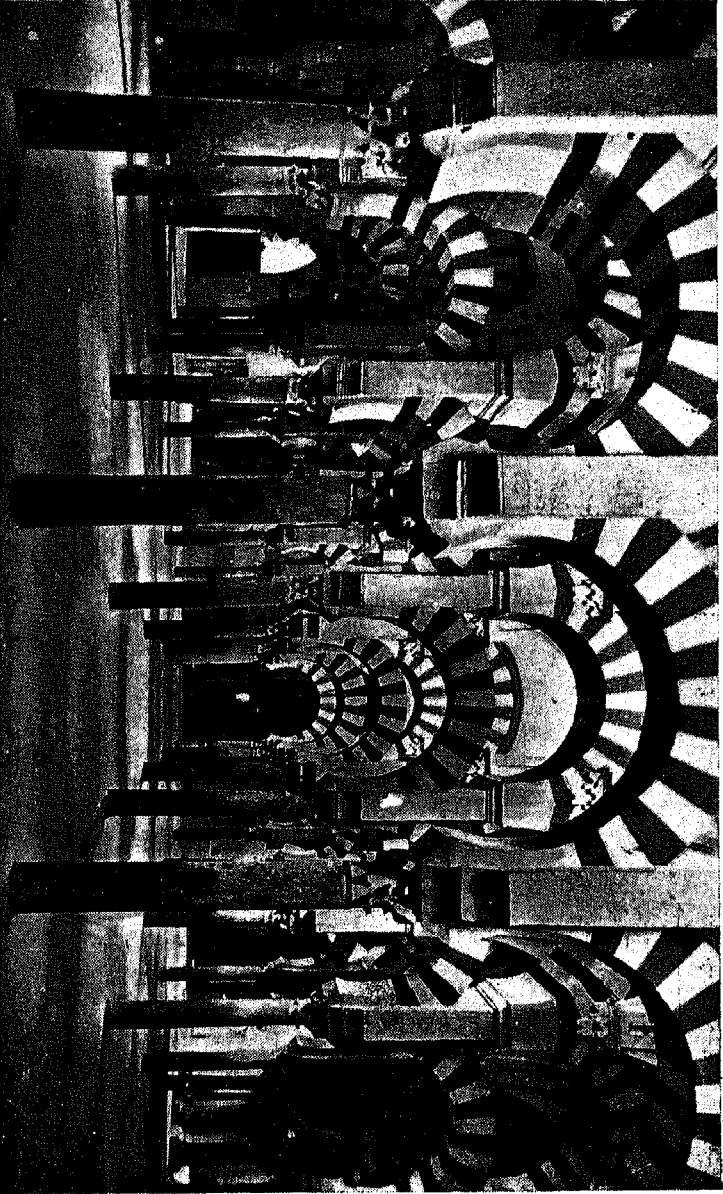
أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بفرنانطة



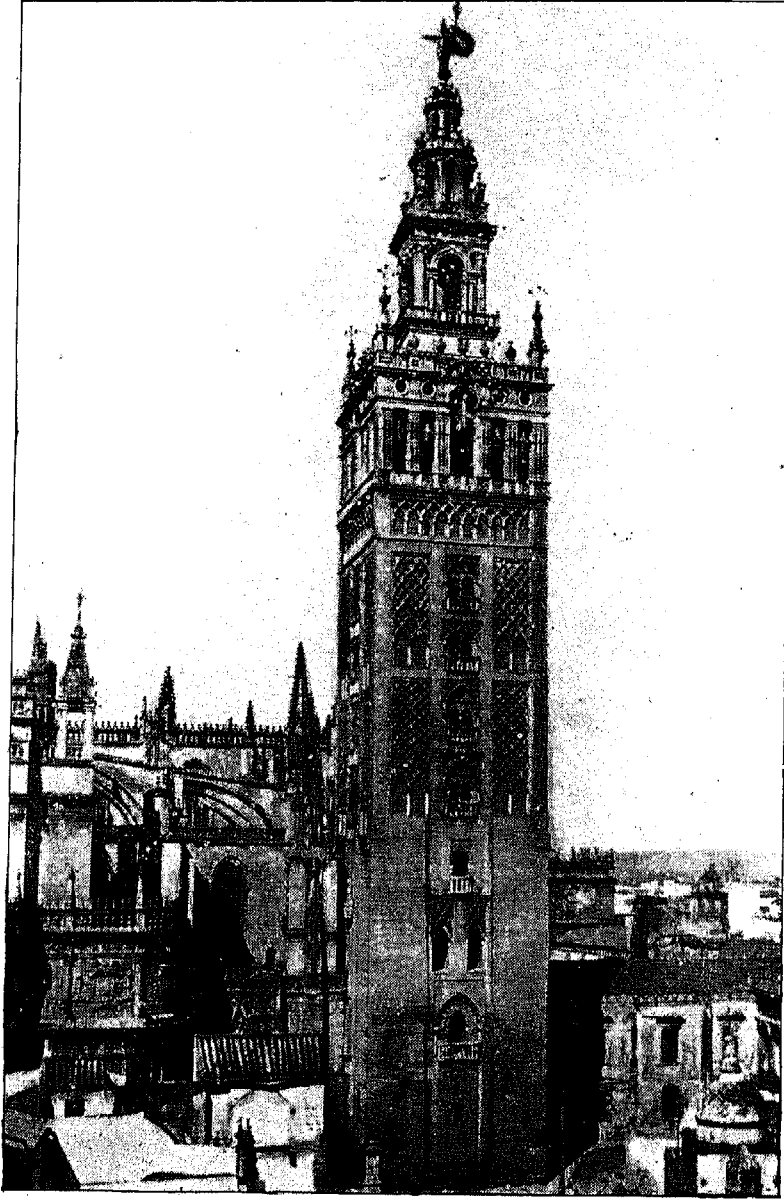
غز تانقه . منظر عام لمدينة الخسراء وقد ظهرت من وراءها جبال سيرا فنادا بجلاء بالسهج



قصر الحمراء . نافورة فناء الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى



جامع قرطبة. إيخاخ القديح الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وولده هشام
(سنة ١٧٠ - ١٧٧هـ) (٧٨٦ - ٧٩٣م)



إشبيلية . منارة المنصور أو « الخيرالدا » La Giralda وهي الآن
برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى



سرسطة . عقد من عقود قصر الجعفرية (قصر بني هود) محفوظة بمتحف مدريد الوطني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كان من عناية الله أن أتيج لي ، أن أحقق أمنية قديمة طالما جاشت بها نفسي ، وأنا أكتب تاريخ الأندلس ، هي أن أزور هذه الربوع القديمة ، التي لبثت قروناً مشوى دولة إسلامية عظيمة ، وحضارة إسلامية زاهرة ، وأن أشهد ما تبقى فيها من الآثار الأندلسية الباقية ، وأنقصى بنفسى ، ما تبقى منها منطبغاً من العادات والتقاليد الأندلسية ، وأعيش حيناً في هذا الجو ، الذي عاش فيه من قبل ملايين من المسلمين ، في عز وسؤدد ورخاء .

واليوم وقد زرت هذه الربوع العزيزة مراراً ، وتجولت في سائر مدنها ونواحيها ، وشهدت خواصها الطبيعية ، واستطعت أن أستشف كثيراً من طبائع أهلها ، وتقاليدهم وعاداتهم ، يجدر بي أن أقدم نتيجة هذه الدراسة ، وهي ما تزال حية في نفسي ، ماثلة في مشاعري .

إن الأندلس القديمة ، تبدو اليوم بلاداً إسبانية نصرانية محضة ، لانتكاد تشعر وأنت تتجول فيها ، أن هذه البلاد ، كانت يوماً منزل أمة عربية إسلامية ، اللهم إلا ما يصادفك من آثار قليلة ، تذكرك بهذا الماضي البعيد . وحتى هذه الآثار ، فيما خلا بضعة صروح عظيمة ، مثل حمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وبعض الحصون والقصبات الأندلسية القديمة ، تكاد تختفي تحت أثوابها النصرانية ، التي خلعتها عليها الأمة الغالبة ، منذ عصر « الإسترداد » La Reconquista .

إن قرطبة ، وإشبيلية ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ووادي آش ، ومالقة ، ورندة ، وشريش ، وبطليوس ، وماردة ، وباجة ، ويابرة ، وأشبونة ، وغيرها وغيرها ، من القواعد الأندلسية القديمة ، لانتكاد فيما خلا غرناطة وإشبيلية وقرطبة ، تبدى شيئاً من مظاهرها الإسلامية القديمة ، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد ، أن نظفر في

بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة ، بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسي . فالمساجد كلها قد هدمت ، أو حولت إلى كنائس ، أو بنيت الكنائس فوق أنقاضها ، والأحياء الأندلسية القديمة ، قد اختفت في معظم المدن أو غاضت معالمها ، ولم تبق منها إلا بقايا متناثرة ، هنا وهناك في سفوح القصبات والحصون الأندلسية القديمة ؛ وحتى هذه الأحياء الأندلسية التي مازالت تقوم في أعماق بعض المدن القديمة ، تبدو في أثواب متواضعة رثة ، وقد أسلم معظمها لغمر النسيان والعفاء .

على أنه توجد مع ذلك طائفة هامة من الصروح والآثار الأندلسية ، التي شاعت العناية أن تنجو من أحداث الزمن وعادية الحو والفناء ، في عدة من القواعد الأندلسية الذاهبة . وإذا تركنا حمراء غرناطة وجامع قرطبة جانباً ، فإن معظم هذه الصروح والآثار ، يتمثل في طائفة من القلاع (القصبات) الأندلسية القديمة ، والقصور التي كانت ملحقة بها ، وفي بعض القناطر العربية ، التي أبقت عليها يد الدهر ، وبقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، ثم في بعض الأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دارسة ، وأخيراً في عدد عديد من الدخائر والتحف واللوحات الأندلسية ، المبعثرة هنا وهناك في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية . وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد ، في طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود وغيرها ، وفي زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذي اشتق من الفن الأندلسي ، من الآثار الظاهرة في طراز كثير من الصروح ، التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر .

* * *

ولقد تجولت في سائر القواعد الأندلسية الذاهبة ، التي أضحت اليوم ملدناً نصرانية إسبانية أو برتغالية ، أشاهد وأتقصى هذه الآثار والأطلال ، والدخائر الأندلسية الباقية ، هنا وهناك ، وأستوعب لمحاتها المندثرة . وقد استغرق مني هذا التجوال خمس رحلات متوالية ما بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٤ ، ولم يكن دائماً سهلاً ولا هيناً في ظروف المواصلات الإسبانية المعروفة ، ومع ذلك فقد استطعت أن أزور نيفا وستين مدينة أندلسية ونصرانية لها علاقة بتاريخ الأندلس ، واستطعت

أن أقيد خلال تجوالي ومشاهداتي ، كثيراً من المعلومات والملاحظات القيمة . وكنت أقيد مذكراتي على الفور ، فوق الصروح والأطلال الدارسة ، وفي ثنايا الكنائس الجامعة ، وفي أروقة المتاحف العديدة ، حتى اجتمعت لدى منها طائفة كبيرة ، رأيها جديرة بالتدوين والتنسيق والإخراج .

وقد لفتت نظري أثناء هذا التجوال الشامل ظاهرة تبعث إلى كثير من التأمل . ذلك أني شاهدت في كثير من المدن الإسبانية والبرتغالية . التي كانت من قبل قواعد أندلسية إسلامية ، كثيراً من الآثار الرومانية والقرطاجنية والإيبيرية . ومنها معابد ومسارح . وهياكل أخرى كاملة . ودعك من القناطر والحصون والعقود والأسوار الرومانية . التي كانت قائمة في كثير من مدن شبه الجزيرة الإسبانية حينما فتحها المسلمون ، والتي مازال معظمها قائماً حتى اليوم في حالة جيدة ، مثل أسوار آبله وطركونة العظيمة ، والقناطر المائية الضخمة في شقوبية . وماردة . وغيرهما ، ومن الحصون والعقود والقناطر النهرية عدد عديد ، فهذه كلها أبقى عليها المسلمون طوال عهدهم ، وعملوا على تجديدها وإصلاحها والانتفاع بها . ودعك من الكنائس القوطية التي كانت قائمة وقت الفتح ، وأبقى المسلمون على معظمها لعبادة رعاياهم النصراني . ولكن المدهش حقاً هو أن المسلمين قد أبقوا في نفس الوقت على المعابد الوثنية والنصرانية الرومانية وغيرها ، لم يقوموا بهدمها ، ولم يمسوها بسوء . وإليك بعض أمثلة بارزة لهذه الآثار الوثنية والنصرانية ، التي كانت قائمة أيام المسلمين ، وما زالت قائمة إلى يومنا :

- (١) في مدينة يابرة البرتغالية ، يوجد معبد روماني كامل ، هو المعروف بمعبد ديانا ، وهو من أجل وأكمل المعابد الرومانية في شبه الجزيرة .
- (٢) في مدينة ماردة يوجد معبد روماني ، ومسرح روماني عظيم ، يقابله «أمفتياتر» روماني ، يضارعه في الروعة والفخامة . كما يوجد قوس تراجان الشهير .
- (٣) في مدينة ساجنتو (مريبطر) وهي ضاحية بلنسية ، يوجد مسرح روماني كامل . وقد لبث المسلمون قروناً سادة في هذه القواعد الأندلسية ، ولم يفكروا في هدم هذه الآثار القديمة ، من رومانية أو غيرها ، مع كونها وثنية أو نصرانية . والسرف في ذلك بسيط واضح ، هو أن المسلمين كانوا بعقليتهم المستنيرة ، ودينهم السمح ، يرون أن هذه الآثار إنما هي ذخائر فنية من تراث العصور الغابرة يجب الإبقاء عليها ، وكانوا بذلك يرتفعون بالقيم الفنية إلى مستوى لاتصدع منه

الإعتبرات الدينية الضيقة . وهذه الإعتبرات الدينية الضيقة هي التي حملت السياسة الإسبانية في عصور التزمّت والتعصب ، على أن تقصد بالحو والإفناء الشامل ، كل ما خلفته الأمة الأندلسية من مساجد وصروح وآثار جلييلة . وربما كان ثمة إلى جانب الإعتبرات الدينية ، اعتبار معنوي آخر هو أن لا تبقى الأمة الغالبة على شيء أو على كثير من روائع الفن الأندلسي ؛ حتى لا تكون شاهداً أمام الأجيال اللاحقة ، بما كانت عليه حضارة الأمة المغلوبة من مستوى رفيع باهر . وقد يرجع إفلات بعض الصروح والآثار الأندلسية القليلة ، التي نجت من سياسة الحو والإفناء ، إلى كفاح بعض الأذهان الإسبانية المستنيرة ، كما حدث بالنسبة لجامع قرطبة ومنارة إشبيلية ، وحمراء غرناطة ، والتي اقتصر ظفر التعصب على بترها أو تشويهها .

* * *

وقد تحدثت وأنا بمدريد في هذا الموضوع مع العلامة والمؤرخ الإسباني الكبير الأستاذ منديث بيدال ، فحاول أن يشرح موقف السياسة الإسبانية من هذه المسألة على النحو الآتي :

« إنه من المستحيل أن يطلب إلى عقلية القرن الثالث عشر والرابع عشر ، أن تحترم مساجد مخصصة لعبادة أخرى . ولم يكن من المعقول أن تترك المساجد ، إذ لم يكن لوجودها محل ، فهدمت لتقوم الكنائس . وإنه ليكون سبقاً للتاريخ أن يطلب احترامها . وقد كانت إسبانيا في عصر البروتستانتية (الإصلاح الديني) بلداً لا يدين بالتسامح .

ولكن إسبانيا كانت قبل سقوط غرناطة ، تحتفظ بالأديان الثلاثة : النصرانية والإسلام واليهودية ، وكان سان فرناندو (الملك فرناندو الثالث) ملك الأديان الثلاثة ، وشعار قبره مكتوب باللاتينية والعربية والعبرية .

وكذلك كانت إسبانيا تبدو في هذه العصور أحياناً أكثر تسامحاً من غيرها . مثال ذلك أن الصليبيين الفرنسيين في موقعة العُقاب (١٢١٢ م) نكلوا عن متابعة الحرب ، حينما رأوا زملاءهم الإسبان يأبون قتل الأسرى المسلمين . وقبل ذلك في موقعة باب الشزرى Roncesvalles (٧٧٨ م) ، أمر شارلمان أن يقتل من لم يعتنق النصرانية من الأسرى المسلمين » .

ولا بأس بهذه التعليقات والمقارنات التاريخية . بيد أنها لا يمكن أن تكفي لتبرير سياسة الأمة الغالبة في القضاء على الآثار الأندلسية ، وقد كان من هذه الآثار غير

المساجد ، مدارس وقصور وحمامات وصروح مختلفة أخرى ، تناولتها جميعاً سياسة الهدم والإفناء الشامل . وهذا اليوم لموقف السياسة الإسبانية من تراث الأمة المغلوبة ، يردده كثير من العلماء الإسبان أنفسهم حسبما يجيء خلال الكتاب .
وكذلك لا يمكن أن تصدع هذه التعليقات والمقارنات التاريخية ، من قدر السياسة المستنيرة السمحاء ، التي أملت على الفاتحين المسلمين ، احترام تراث الأجيال الغابرة الفنى ، المدني والدينى ، فى اسبانيا وفى غيرها .

* * *

وانى لأضع اليوم بين أيدي قراء العربية هذه الدراسة الشاملة ، وهذه الصور المختلفة للآثار الأندلسية الباقية ، فى سائر القواعد الأندلسية الذاهبة ، مليئة بالعبير التاريخية المؤلمة . وأود أن أنوه بأنى لم أقصد بما كتبت تدوين رحلة أو مشاهدات شائقة عابرة ، ولكنى أردت أن أقدم قبل كل شىء دراسة تاريخية أثرية لهذا التراث الأندلسى ، الذى مازال ماثلاً أمام أعيننا ، يبيننا بكثير من عظمة الماضى وروعته .
وقد عنيت عناية خاصة بمسألة الخرائط والصور ، فحصلت على مجموعة كبيرة من الخرائط الإسبانية التفصيلية ، وخطط المدن الأندلسية ، كما حصلت على مجموعة كبيرة من صور الآثار الأندلسية فى مختلف البلاد التى زرتها ، ومنها ما صورته بنفسى ، وقد أوردت منها فى هذا السفر طائفة كبيرة ، تستبين منها عظمة هذه الآثار وروعها .
وإنى أتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى مختلف السلطات الإسبانية ، ولا سيما دور البلديات ، ومكاتب السياحة ، والمتاحف ، والكنائس والأديار ، ودور المحفوظات ، فى مختلف البلاد التى زرتها ؛ وكذلك إلى العلماء والأصدقاء الإسبان الذين لقيتهم ، واتصلت بهم خلال رحلاتى المتوالية ، لما لقيت منهم جميعاً من ضروب المعاونة والحاملة . وأخص بالذكر منهم الأستاذة لويى سىكو دى لوثينا وسبستيان لومبريرو بغرناطة ، وفيلكس هرنانديث بقرطبة ، والدكتور بايرى بطرطوشة ، والأستاذ كادينا بقسطلونة ، والدكتور سارتاوو كاريرس بشاطبة ، والدكتور بوسكيتس مولت بميورقة ، والأب رмбаو و برنده ، والسنيور خوان تمبورى ألفاريث بمالقة ، وغيرهم ممن لم تحضرنى أسماؤهم .
كما أقدم جزيل الشكر إلى معهدنا المصرى بمدريد لما أسدى إلى من معاونات قيمة لدى مختلف الهيئات العلمية .

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى يوليه سنة ١٩٥٦

خطاب إلى المؤلف

من العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال

ثارثال ، رقم ٢٣ (شامرتين) مدريد - في ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الأستاذ م. ع. عنان - مدريد

صديقي المحترم

لك خالص الشكر لإرسالك إلى كتابك «الآثار الأندلسية في إسبانيا والبرتغال» وهو الذي تعرض فيه نتائج رحلاتك ودراساتك في هذه الأعوام الأخيرة في الجزيرة الإسبانية ؛ وإنه لما يستحق جزيل الشكر ، أن تقوم بالتعريف بهذه الأشياء باللغة العربية ، لأنني أعتقد أنه من الضروري جداً ، أن تقع المعرفة المتبادلة ، والإدراك المتبادل ، والتقدير المتبادل .

بيد أني أود فقط أن أبدى بعض إيضاحات صغيرة حول التأكيدات التي أبديتها بالنسبة للمعاملة المختلفة التي قام بها كل من المسلمين والإسبان تجاه الآثار التي لقوها عند فتوحهم ؛ وعند استردادهم لهذه الفتوح . واعتقادي أن الآثار الرومانية ، وما قبل الرومانية ، قد بقيت مصونة لمتانتها الفائقة ، في حين أن العمارة العربية هي أقل بكثير في المتانة ، وأكثر اهتماماً بزخارفها الجصية الجميلة ، ولم يحم الإسبان بهدم المساجد الإسلامية ، ولكن الذي حدث هو أنهم - وهو ما يطابق المنطق - حولوها إلى كنائس نصرانية ، مثلما فعل العرب حينما استخدموا المزاولة شعائرهم الكنائس النصرانية القديمة . وثمة أمر آخر ، وهو أنه عند ذكر التعبيرات الخاصة بالمناصب العسكرية والقضائية المشتقة من العربية ، تسرب سهو صغير حيث ذكرت كلمة Alvarez ، وهي لقب عائلي ، ويجب أن يذكر بدلا منها Alférez ، وهي منصب عسكري .

وأما فيما يتعلق بما تبقى ، فإني متفق معك . ذلك أن ما كاد ينتمي العصر الوسيط ، عصر التعايش المشترك ، حينما كان يقوم في القرى حتى إسلامي بمساجده وحي يهودي بمعابده ، حتى جاء عصر الزمت وعدم التسامح .
وإني مع أخلص تحياتي ، ما زلت أحتفظ عن محادثتنا بأطيب الذكريات .

ر . مننديث بيدال

تلقيت هذا الخطاب من صديق العلامة المؤرخ الكبير الأستاذ منديث بيدال ، رئيس الأكاديمية الملكية الإسبانية ، وذلك على أثر ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، واطلاعه على ترجمة ما ورد في مقدمته خاصاً بموقف المسلمين من الأندلس ، وموقف الإسبان من الآثار الأندلسية .

ولني مع تقديري لما جاء في خطاب العلامة الكبير من الملاحظات ، أود أن أسجل هنا فقط نقطتين :

الأولى - ان الصروح الأندلسية من مساجد وقصور ومدارس وغيرها ، لم تندثر ، لأن العمارة الإسلامية أقل متانة من العمارة الرومانية ، ولكن لأنها قوضت وهدم معظمها تبعاً بأيدي الإسبان ، عقب « الإسترداد » . وأما فيما يتعلق بمدى متانة العمارة الإسلامية فيني أود أن أذكر هنا فقط صرحاً إسلامياً واحداً ، هو جامع قرطبة ، الذي حول إلى كنيسة جامعة ، والذي ما زال قائماً بعقوده وسواريه ، وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته ، وهو الجناح الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل الأموي ، قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائتي عام .

الثانية - أن العرب عند الفتح لم يقوموا بهدم جميع الكنائس التي كانت قائمة بالمدن المفتوحة ، أو تحويلها جميعاً إلى كنائس ؛ وإنما الذي حدث وتوידه جميع الروايات ، هو أنهم حولوا بعض الكنائس الرئيسية إلى مساجد ، وبنوا مكانها المساجد ، كما حدث في قرطبة وطائطلة ، وبعض قواعد أخرى ، ولكن الثابت المحقق إلى جانب ذلك ، هو أنهم تركوا في نفس الوقت في سائر المدن الأندلسية كثيراً من الكنائس ، لكي يزاول فيها النصارى شعائرهم أحراراً كما كانوا من المسلمين . وقد كان المستعربون أو النصارى المعاهدون يكونون في مختلف القواعد الأندلسية أقاليم كبيرة ، وكانوا إلى جانب كنائسهم القديمة ، يقيمون كنائس من وقت إلى آخر . وكانت هذه الكنائس في أحيان كثيرة ، تقوم إلى جانب المساجد . فأين هذا كله من سياسة الهدم الشامل التي اتبعتها اسبانيا النصرانية عقب « الإسترداد » نحو سائر المساجد والصروح الأندلسية الأخرى ؟ أنه لا شيء سوى التباين الواضح بين التسامح المستنير ، والتزمت المطبق .

محمد عبد الله عنانه

تصدير

للطبعة الثانية

مذ ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، استطعت أن أقوم برحلات جديدة لطائفة من المدن والأماكن الأندلسية التي لم يتح لى زيارتها من قبل مثل جيان وأبدة وبياسة فى شرقى الأندلس ، وإستجة وقرمونة ولبلة فى غربها ، وأرشدونة ومربله والمنكب وشلوبانية ومتريل فى جنوبها ، وهذا فضلاً عن زيارتى الحديدة المتكررة للقواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ، ومالقة وغيرها ، وقد استطعت خلال هذه الرحلات الحديدة ، أن أقوم بدراسة طائفة كبيرة أخرى من الآثار الأندلسية الباقية ، وأن أجمع كثيراً من المعلومات الأثرية المفيدة .

ومن ثم فقد رأيت أن أصدر هذه الطبعة الحديدة من الكتاب ، متضمنة لتلك الدراسات الحديدة ، متضمنة فى نفس الوقت لكثير من الزيادات والتصحيحات ، الإصطلاحية والأثرية ، التي اجتمعت لى خلال المراجعات العديدة التي قمت بها فى الأعوام الأخيرة ، ومنها مراجعات لمصادر مخطوطة هامة .

وقد أضيفت إلى الكتاب طائفة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن والأماكن الحديدة التي زيدت فى هذه الطبعة ، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور الحديدة ، لبعض المدن والأماكن السابقة .

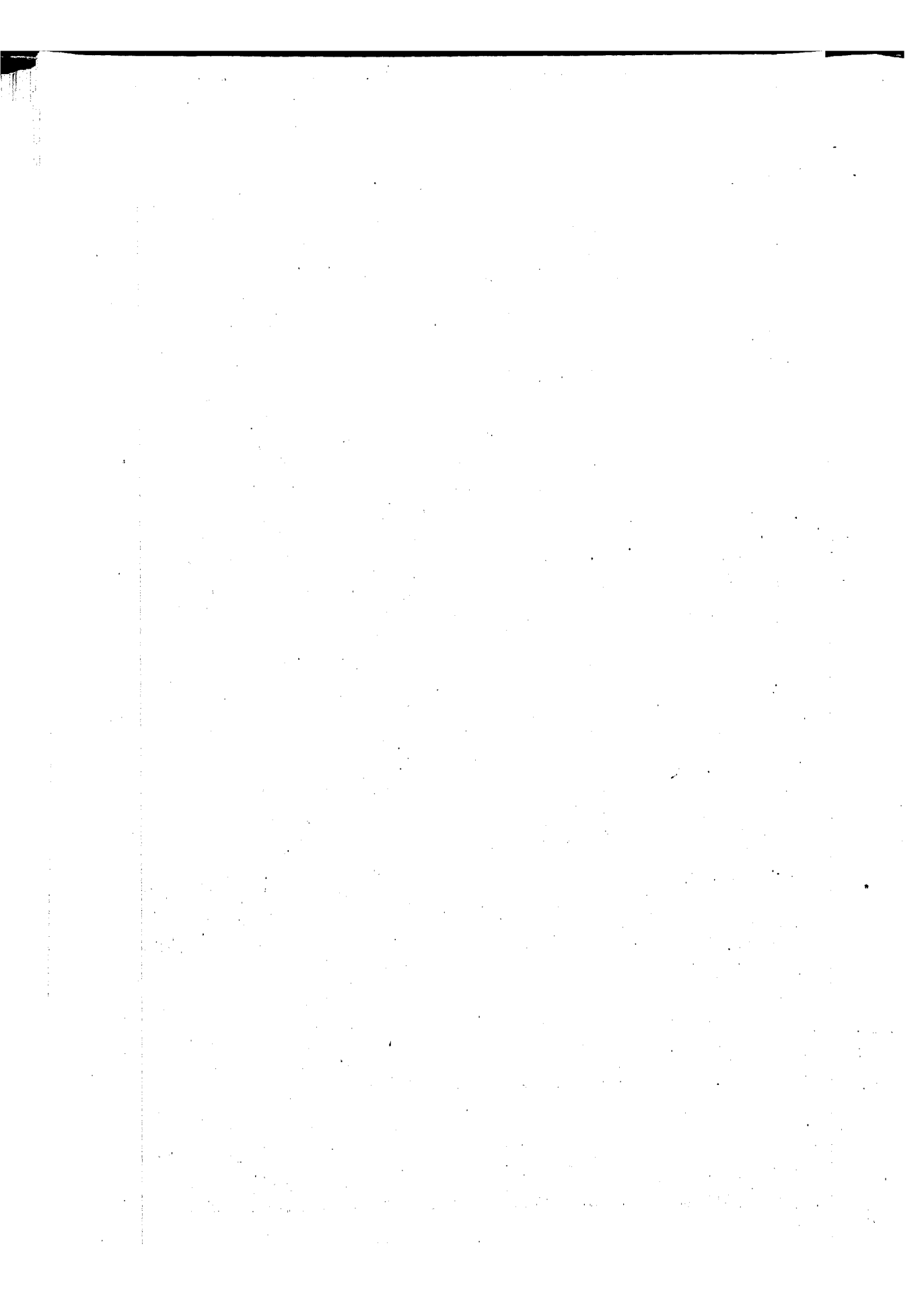
وكذلك أجريت فى تنظيم الكتاب بعض التعديلات ، من تقديم وتأخير اقتضاه تنسيق المواد القديمة والحديدة .

وإلى إذ أضع هذه الطبعة الحديدة من الآثار الأندلسية الباقية ، بين أيدي القراء ، أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث الأثرى المؤثر - تراث الأمة الأندلسية المحيدة .

محمد عبد الله عثمان

القاهرة فى ربيع الثانى سنة ١٣٨١

سبتمبر سنة ١٩٦١



تصدير
للطبعة الثانية

من هذا الكتاب ، استطعت أن أقوم برحلات
كن الأندلسية التي لم يتح لي زيارتها من قبل مثل
الأندلس ، وإستجة وقرمونة ولبلة في غربها ،
وبانية ومتريل في جنوبها ، وهذا فضلا عن زياراتي
لسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ،
خلال هذه الرحلات الحديدة ، أن أقوم بدراسة
الأندلسية الباقية ، وأن أجمع كثيراً من المعلومات

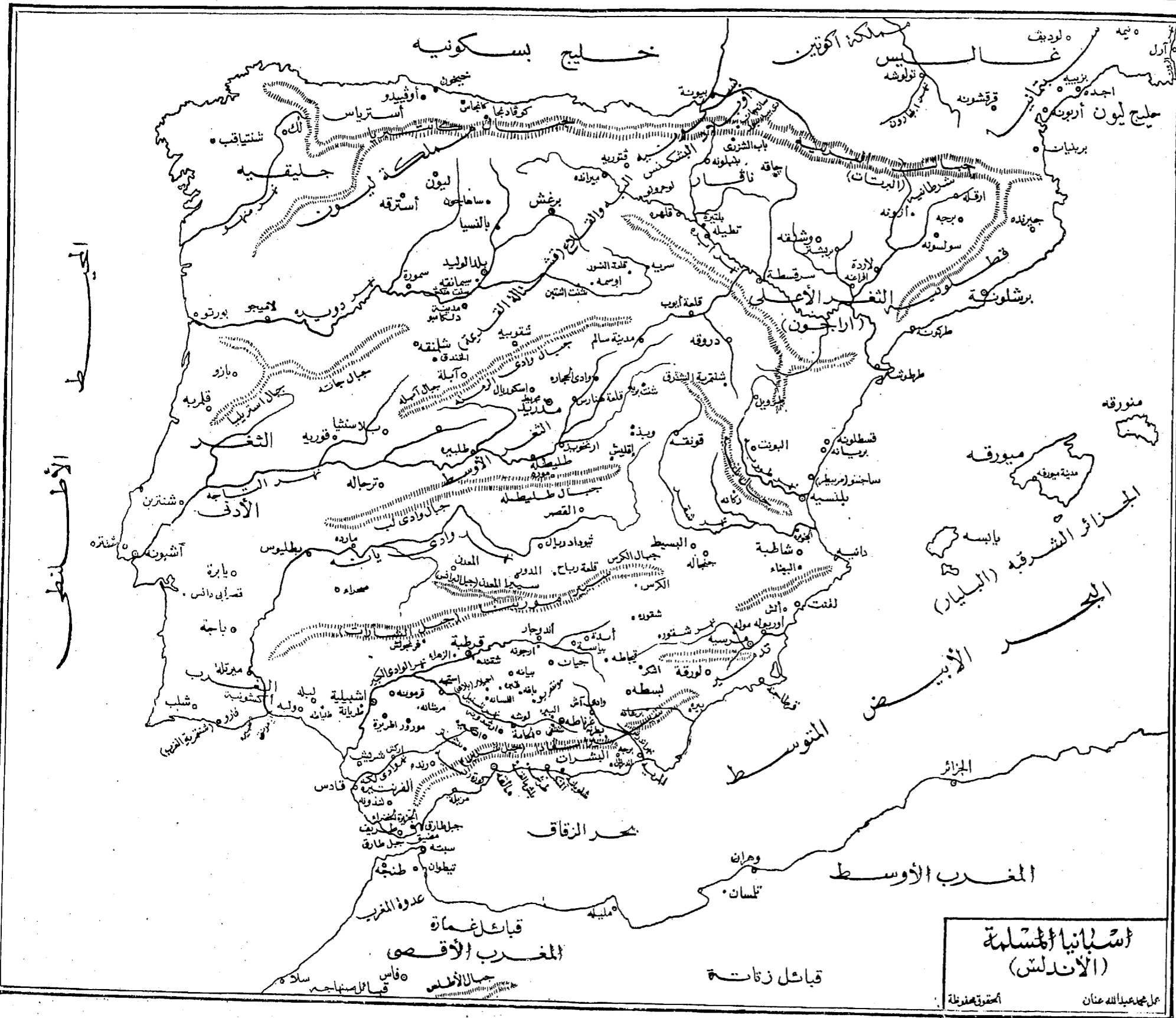
ر هذه الطبعة الحديدة من الكتاب ، متضمنة لتلك
نفس الوقت لكثير من الزيادات والتصحيحات ،
تمت لي خلال المراجعات العديدة التي قمت بها
جماعات لمصادر مخطوطة هامة .

ثافة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن
من هذه الطبعة ، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور
من السابقة .

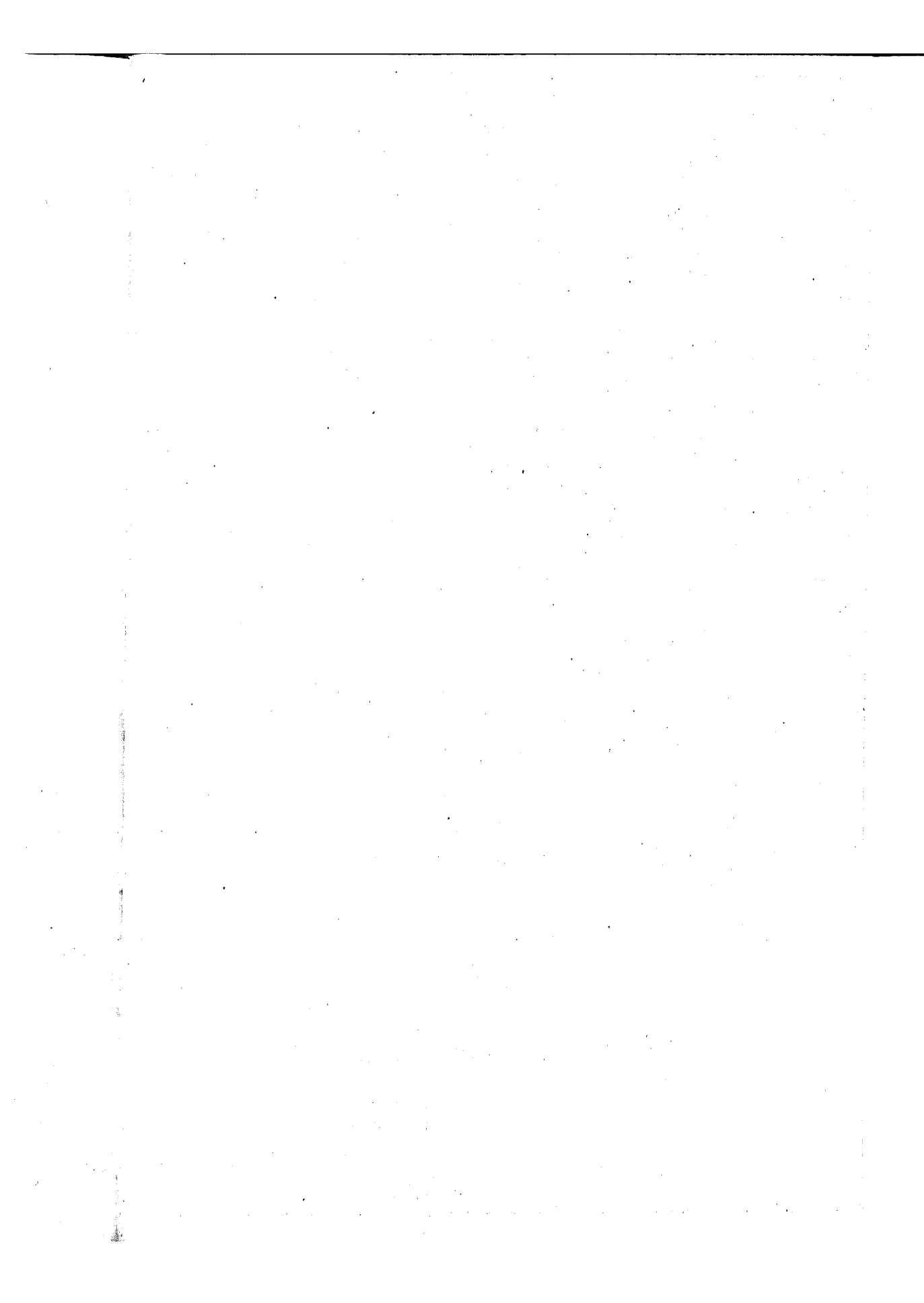
بعض التعديلات ، من تقديم وتأخير اقتضاه

الحديدة من الآثار الأندلسية الباقية ، بين أيدي
طعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث
الأندلسية الحديدة .

محمد عبد الله عنان



إسبانيا المسلمة
(الأندلس)
عمل محمد عبد الله عنان
المختوم بمندوبه



الكتاب الأول

القواعد الأندلسية الكبرى

١ - قرطبة

Córdoba

لبثت قرطبة زهاء ثلاثة قرون ، قاعدة الدولة الإسلامية بالأندلس ، ومركز الفتوح والغزوات المختلفة ، ومثوى الحركة العقلية الأندلسية . ولبثت حتى بعد انهيار الخلافة ، تحتفظ في ظل الطوائف ، ثم المرابطين والموحدين ، بكثير من هيبتها الثالثة ، كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام في أسبانيا . وكان لسقوطها في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٣٦ م (٦٣٣ هـ) أعظم وقع في الأندلس ، وفيما وراء البحر . ومع أن مجتمعا الإسلامى الثالث ، أخذ يهار منذ سقوطها بسرعة ، وقد غادرها أكثر سكانها المسلمين ، ولاسيما الأشراف وأبناء الطبقات الممتازة ، فراراً إلى القواعد الإسلامية الأخرى ، فقد بقي بها في ظل حكم القشتاليين كثير من المسلمين الذين تدجنوا^(١) ، ثم فقدوا بمضى الزمن ، وحكم الاندماج في المجتمع الجديد ، خواصهم ودينهم ولغتهم ؛ ولم يمض زهاء قرن أو قرنين ، حتى كان المجتمع الإسلامى في قرطبة ، قد غاضت آثاره الأخيرة .

وقرطبة مدينة أندلسية إسبانية عريقة ، ترجع إلى العصر الرومانى . وهى تقع على سفح جبال قرطبة الجنوبي ، على منحى الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير ، وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وترتبط مزيج بين البساتن الخضراء ، حيث تزرع الحبوب والكروم ، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والليمون ، وبين السفوح المنحدرة من جبال سييرا مورينا^(٢) حيث توجد المراعى الطيبة . وهى فى الوقت نفسه ، مدينة صناعية ، بها مناجم الفحم والرصاص والنحاس ، وأهم صادراتها الفواكه والنبيد والزيت .

ولانعد قرطبة اليوم ، من المدن الإسبانية الكبيرة ، وهى ليست فى مرتبة بلنسية أو إشبيلية من حيث اتساع الرقعة ، أو كثافة السكان ، ولايعندو سكانها

(١) من تدجن أى ألف واستأنس ، ومنها مدجن ومدجنون ، وبالإسبانية Mudéjares وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإسبان .

(٢) جبال سييرا مورينا Sierra Morena هى بالعربية « جبل الشارات » .

اليوم مائة وثمانين ألف نفس ، وقد بلغوا في عهد ازدهارها أيام الدولة الإسلامية زهاء خمسمائة ألف .

واليوم تبدو عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة ، مدينة أوريبة بكل معاني الكلمة . وهي تكاد تكون مربعة الرقعة . وأعظم شوارعها « متزه القبطان الأعظم » "Paseo del Gran Capitán" ، وهو شارع عريض جداً تقوم على جانبيه طائفة من المباني الفخمة الحديثة ، والقبطان الأعظم الذى سمي باسمه هو « جونثالفو دى كوردبا » وهو من أعظم قواد اسبانيا أيام الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيسابيلا ، فاتحى غرناطة ؛ ويقاطع هذا الشارع . شارع عظيم آخر هو شارع « كناليجاس » ، "Avenida de Canalejas" ، وعند تقاطعها يقع « ميدان الثيران » ، حيث توجد ساحة مصارعة الثيران . وأهم ميادينها التجارية « ميدان كانوفاس » "P. de Cánovas" (١) ، وعلى مقربة منه يقع « ميدان إشبيلية » ، ويتفرع من كليهما بعض الشوارع الضيقة التى تؤدى إلى المسجد الجامع . ومن أهم شوارعها الوسطى « شارع سان پابلو » وشارع « سان لورنسو » وشارع « سان فرناندو » . وتقوم المدينة كلها فى شمال النهر ، ما عدا ضاحيتها الصغيرة المسماة « حى الروح القدس » "Barrio del Espíritu Santo" ، وهى تقع على الضفة الجنوبية من النهر تجاه المسجد الجامع . ومما يجدر ذكره أنه ما زالت توجد بقرطة اليوم شوارع صغيرة تحمل أسماء « المنصور » « وابن رشد » « وابن ميمون » وهى تقع متجاوزة على مقربة من المسجد الجامع .

وقد نزلت قرطبة الحديثة كل معالمها القديمة ، فلم يبق بها اليوم - إذا استثنينا مسجدنا الجامع القديم - ما يذكرنا بماضيها الإسلامى الحيد . وتكاد قرطبة - إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع - تخلو حتى من الأحياء الأندلسية القديمة ، ذات الدروب الضيقة والطابع الخاص . وقد غاض من مبانيها الحديثة كل أثر للطراز الأندلسى القديم ، الذى مازال يمثل فى كثير من مدن الأندلس الأخرى ، ولا سيما إشبيلية وغرناطة ، وهى تبدو على الحملة بشوارعها الشاسعة الحديثة ، وعماراتها العالية ، مدينة أوريبة محضة ، لا تذكر لأول وهلة بشيء من ماضيها القديم .

(١) كناليجاس وكانوفاس من أعلام السياسة الإسبان فى القرن التاسع عشر .

ولكن قرطبة الأوربية النصرانية ، ما زالت حتى اليوم تحتفظ بأثر من أعظم الآثار الأندلسية ، وهو مسجدها الجامع القديم ، الذي عاصر أيام عظمتها الزاهية ، منذ بداية الدولة الأموية ، وأيام محنتها خلال الفتنة والثورات المتعاقبة ، وأيام المرابطين والموحدين ، حتى سقوطها في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس فرناندو وذلك في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م .

ويقوم هذا الأثر الإسلامي العظيم - مسجد قرطبة الجامع أو "La Mezquita Aljama" كما يسميه الإسبان - فوق بقعة صخرية ، تقع في نهاية جنوب غربى قرطبة ، على مقربة من القنطرة العربية القديمة ، المقامة على نهر الوادى الكبير ، وتحيط به الدروب الضيقة من جوانبه الأربعة ، وتبدو على جدرانها وواجهاته الخارجية آثار العفاء والقدم . ولكنك متى جزت إلى داخل فنائنه الشاسع ، وتأملت مدخله الرئيسى ، أدركت لأول وهلة أنك تواجه أثر آمن أجل وأبدع الآثار الإسلامية الباقية .

وفي قصة المساجد الأندلسية الجامعة ، تمثل عبرة التاريخ الخالدة . فقد حولت - أو حولت مواقعها - جميعاً إلى كنائس جامعة (كاتدرائيات) . وفي أمثلة كثيرة ، كانت تبنى الكنيسة الجامعة كلها أو بعضها من أنقاض المسجد المهدوم ، كما هو الشأن فى كنيسة طليطلة الجامعة ، وأحياناً تستبق منارة الجامع لتغدو برجاً لأجراس الكنيسة ، كما هو الشأن فى كنيسة إشبيلية الجامعة ، وذلك كله إشادة بظفر النصرانية على الإسلام فى إسبانيا . ولم يشذ مسجد قرطبة عن هذه القاعدة ، فهو اليوم بالرغم من محاربه وعقوده الإسلامية ، كنيسة قرطبة الجامعة (كاتدرائية) . وقد بديء بإنشاء مسجد قرطبة ، فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، على يد عبد الرحمن الداخل الأموى . وكان موضعه كنيسة قوطية . وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها ، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المموه ، من أربونة ونيمة وإشبيلية وقسطنطينية . ولكنه توفى قبل إتمامه . فأتمه ولده هشام ، وأنشأ به منارته الأولى . وزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بهوين جد يدين من ناحية القبلة ، أعنى من الناحية الجنوبية المواجهة للنهر (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م) . وجدده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأنشأ به مقصورة فخمة كانت الأولى من نوعها بمساجد الأندلس . وفى عهد ولده الأمير عبد الله أنشئ « الساباط » الموصل من القصر إلى الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير ، يفضى من

القصر إلى مقربة من المحراب . وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها منارة أخرى أرفع وأفخم (سنة ٥٣٤٠هـ - ٩٥١م) . وكانت منارة الناصر مربعة الواجهات ، لها أربعة عشر شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود والآخر للنزول ، وفي أعلاها ثلاث نفاحات ، اثنتان من الذهب ، والثالثة من الفضة . وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تحطف الأبصار بريقها^(١) .

ثم زاد فيه ولده الحكيم المستنصر زيادات كبيرة ، فابتنى المحراب الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة ، زخرفت بفسيفساء بديعة ، واستقدم الحكيم من قسطنطينية خبيراً بأعمال الفسيفساء ، وأرسل إليه قيصر منها قدراً كبيراً ، وأنشأ الحكيم أيضاً مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطى ، وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكيم في الجامع قسمه الأوسط ، الذى يلي جناحه القديم الذى أنشأه عبدالرحمن الداخل وهو يبلغ نحو ثلث الجامع^(٢) . وأخيراً جاء المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فزاد فيه من ناحيته الشرقية ، زيادة كبيرة ، فأقام بحذاء الجامع القديم ، من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة ، تكاد تعدل مساحته الأصلية ، جناحاً أو جامعاً جديداً ، روعى في إنشائه التماثل والمطابقة للصرح القديم (٣٧٧ هـ - ٩٨٧م) وبذلك تضاعف حجم الجامع تقريباً ، وبلغ عدد سواريه ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته مائتين وثمانين .

وهكذا لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون في توسيع جامع قرطبة وتجميله ، حتى غدا برقعته الشاسعة ، وسواريه الألف وأربعمائة ، وأبوابه البرونزية العديدة ، ومحاربه الفخمة ، وزخارفه البديعة ، من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامى ، إن لم يكن أعظمها جميعاً .

وقد كان جامع قرطبة ، فضلاً عن وظيفته الدينية الرئيسية كمسجد الإمارة ثم الخلافة الرسمى ، يتخذ مركزاً لبعض المهام الكبرى ، فقد كانت تؤخذ فيه بيعة الأمير أو الخليفة الجديد ، وكانت تعلن من فوق منبره عظام الحوادث ،

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب (بيروت) ص ٣٨ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

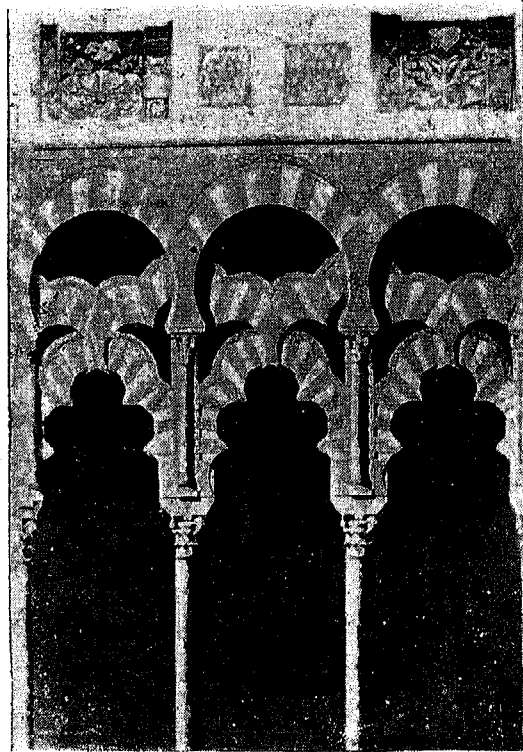
وتقرأ الأوامر والأحكام الخلافية الهامة ؛ وكان يعقد به مجلس قاضى القضاة .
وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كان جامع قرطبة ، مركزاً للجامعة قرطبة الشهيرة ،
التي ازدهرت أيام الخلافة ، وكانت تنظم بين أروقتة حلقات الدراسات الرفيعة
المختلفة ، التي جعلت من قرطبة ، خلال العصور الوسطى ، أعظم مركز للدراسات
العلمية الممتازة في الغرب .

ويشغل جامع قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً ، وعرضه
مائة وخمسة وثلاثين ، وبذا تبلغ مساحته ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً ، ويدخل في ذلك صحنه
المكشوف الواقع في شماله والذي يعرف اليوم بفناء النارج أو البرتقال "Patio de
los Naranjos" ؛ وهو فناء شاسع مستطيل يكاد يبلغ ثلث رقعته ، وهو أندلسى
الطراز والمظهر ، بمعاله وأوضاعه ونوافيره وأشجاره ، ويحيط به من الشمال
والغرب عدد من الأديار ، ذات أعمدة وعقود على الطراز القوطى ، ويدخل
إليه من الباب الرئيسى المحاور للمنارة ، وهو الباب المسمى باب الغفران "Puerta
del Perdón" ، وكان للجامع من قبل تسعة عشر باباً فخمة ، تؤدى كلها إلى
فنائه الشاسع . ويبلغ ارتفاع « باب الغفران » سبعة أمتار ، وعقده كحدوة الحواد ،
وقد زين بزخارف عربية جميلة . بيد أنه ليس هو باب المسجد القديم ، ولكنه
أنشئ بعد سقوط قرطبة سنة ١٣٧٧ م ، وروعى في إنشائه أن يكون تقليداً للطراز
العربى . وفي فناء البرتقال توجد عدة من النوافير ، وقد غرست في جنباته وفي
وسطه أشجار البرتقال ، وهو تقليد إسباني قديم متبع في سائر المساجد الجامعة ،
التي حولت إلى كنائس ، ومنها صحن جامع إشبيلية الذى يعرف أيضاً « بفناء
البرتقال » .

ويقع بناء الجامع في جنوبي الصحن بينه وبين النهر ، وتشرف أجمل واجهاته
وهى الشمالية على الفناء ، وهى ترجع إلى عصر عبد الرحمن الداخل وولده هشام .
وفي هذا الجناح يوجد أقدم أبواب الجامع ، وهو يقع في وسط الجدار الواقع في
الناحية الغربية ، ويطلق عليه الإسبان اسم باب « شنت إشتين » "San Esteban" .
أما الجناح الكبير الذى أنشأه المنصور فيقع إلى اليسار ، ومدخله الرئيسى باب
برونزى هائل رائع الزخرف ، ويعرف بباب النخيل "Puerta de las Palmas" وهو
مواجه لباب الغفران . وله ثمانية عشر باباً أخرى ، في جوانبه الأربعة ،



جامع قرطبة . صحن الجامع وقد ظهرت به أشجار النارج و برج الأجراس
الذي أقيم مكان المنارة القديمة



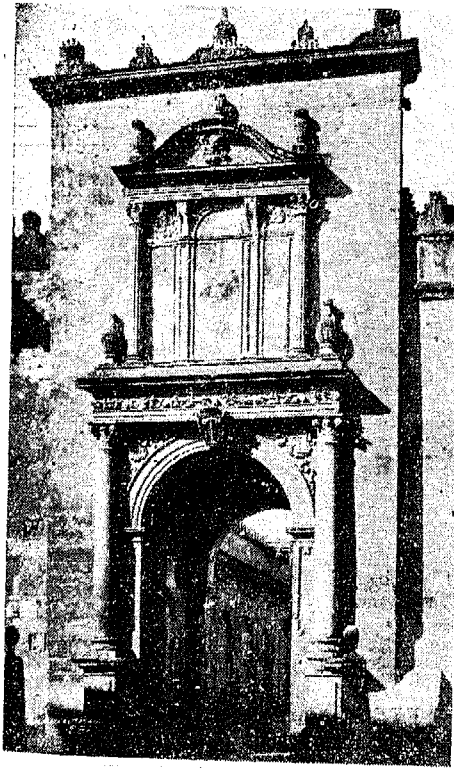
جامع قرطبة . عقود مدخل المحراب

سد معظمها اليوم . وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة ،
ويحار البصر في تأمل عقوده ، وأعمدته العديدة المتقاطعة ، التي لا تكاد تدرك العين
نهايتها . وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين ، وفي العرض تسعة عشر ، ويبلغ
ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً . ولأول وهلة ، ولمدى قصير فقط ، يشعر
المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي . ولكنه متى دقق البصر قليلاً ، أدرك في الحال
أن المسجد قد استحال إلى كنيسة ، بل إلى كنائس لانهائية لها . والواقع أن الجامع
يبدو من الخارج ، في مجموعه ، كأنه كنيسة أكثر منه جامعاً . وقد عدلت أسقفه
على الطراز الكنسي ، وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى ،
وهي التي تظل الهيكل الرئيسي الذي أنشئ في وسطه ، وحلت محل القباب سقوف
مضلعة ، تزينها من الداخل نقوش نصرانية ، وأنشئت على طول جوانب الجامع
الأربعة من الداخل ، هياكل لانهائية لها ، ونصبت فوقها الصلبان ، وتمثال
القديسين وصورهم ، وجعل من كل عقد أو اثنين هيكل قائم بذاته . ولم يترك
من جوانبه سوى مكان المحرابين . وأحد المحرابين قديم مخرب ، ويقع على مقربة
من الزاوية اليمنى للجامع ، والمرجح أنه المحراب الأول قبل توسعة الجامع . والمخرب
الثاني قريب منه ، ويقع في نحو الثلث من الناحية الجنوبية . وهو فخم مزين بالنقوش
والآيات القرآنية ، وفي داخله مخدع صغير ، وسقفه عقد رخامي مزين بالزخارف
المذهبة ، وهو معلق يفتح للزائرين بتذكرة خاصة .

ومتى سرحت البصر في هذه التفاصيل مدى لحظة ، أدركت أنك تجوس
خلال أثر إسلامي شوهدت معالمه الإسلامية بطريقة منظمة ، ولكن ساذجة فجأة .
وأشد ما يؤذى النظر خلال هذا الجلال المشوه ، ما يسود وسط الجامع وجوانبه
من الظلام . فالضوء قليل ينفذ إلى بضعة أركان ونواح متفرقة . والسبب في ذلك
هو أن معظم القباب القديمة قد أزيلت وبنيت مكانها أسقف مستوية ، وبنى ما بين
كثير من الأعمدة ، ويكاد ينعدم الضوء حول الهيكل الكبير القائم في وسط الجامع .
وقد بنى هذا الهيكل بشكل منضوب مفتعل ، تحت القبة الرئيسية وبين القباب
الأربع التي تحيط بها ، على شكل صليب "Crucero" ، وقد سد فيها ما بين
الأعمدة ، وزينت الجدران من الداخل ، وكذلك سقوف هذه القباب بزخارف
نصرانية ، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة ، ورسمت صور القديسين

بين الزخارف . ونصب في كل من الناحيتين اليمنى واليسرى هيكل ، علقت فوقه صور كبيرة للقديسين . وصفت كراسي المرتلين عند الهيكل الأيمن ، كما وضعت هنالك عدة أناجيل تاريخية . وبنى في كل من الناحيتين الأخرين في أعلى الوسط مخدع فخم ، والظاهر أنهما مخدعان ملكيان ، كانا أيام ازدهار الملوكية ، يخصصان لجلوس الملك وأسرته عند إقامة القداس .

وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم ، إلى أوائل القرن السادس عشر . ذلك أنه لما سقطت المدينة في أيدي النصارى ، ودخلها فاتحها سان فرناندو ملك قشتالة ، أقيم في المسجد الجامع قداس شكر ، ثم أنشئ به



باب القديسة كاتالينا أحد أبواب الجامع

هيكل مؤقت ، واستمر الجامع بحالته الأصلية حيناً . واقتصر الملوك الإسبان على إجراء تغييرات جزئية في أوضاع الجامع ، وإنشاء المصليات والهيكل الصغيرة . وفي عصر الملك ألفونسو العالم ، في أواخر القرن الثالث عشر ، أزيلت المقصورة الخليفة ، وأقيم مكانها المصلى الكبير "Capilla Mayor" ، وكان يستخدم في ذلك صناع من المدجنين ، الذين يعرفون الطراز والزخارف العربية ، وذلك حرصاً على شكل المسجد وطرازه ؛ ولكن الفن الأندلسي كان يومئذ قد فقد كثيراً من قوته وروعته ، ومن ثم فإن أعمال المدجنين في

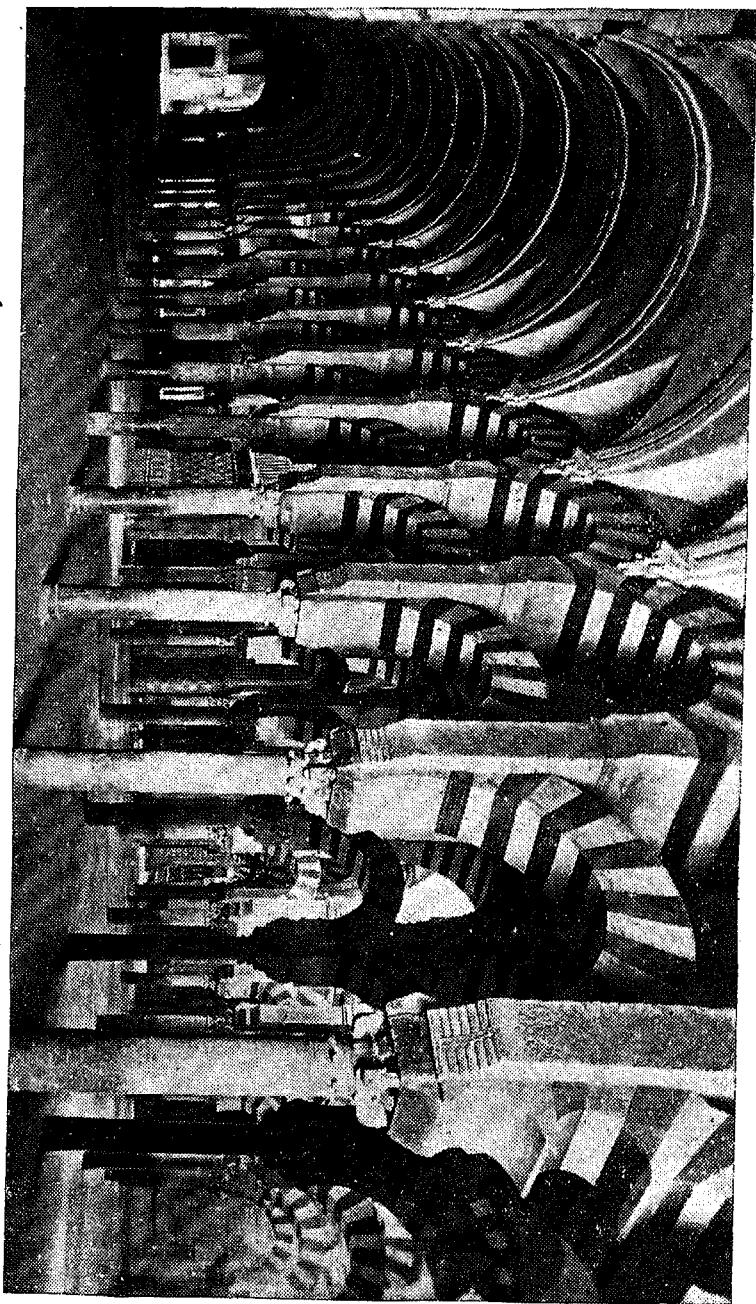
المسجد ، لم تكن تضارع الأوضاع والزخارف الأندلسية الأصلية ، في براعة التنسيق وجمال الابتكار ، وجاءت هذه التغييرات في معظمها أقرب إلى الفن القوطي منها إلى الفن الإسلامي .

وقد كانت إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع على هذا النحو ، مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من إسبان وغيرهم . وقد وصفه بعضهم بأنه « أشنع عمل همجي » (١) ارتكب لتشويهه . وكان ذلك أيام الإمبراطور شارلكان . ففي سنة ١٥٢١ ، استأذن أسقف قرطبة دون ألونسو مانريكى الإمبراطور ، في إقامة هيكل رئيسى ، يسبغ على الجامع صفته النصرانية بصورة حاسمة ، فأذن الإمبراطور ، وأقيم الهيكل الفوطى الكبير الذى يتوسط الجامع "Crucero" ، واقتضى بناء قبته العالية ، أن يزال السقف الأندلسى . وكانت إقامة هذا الهيكل الضخم . وما أحدثه في الجامع من تشويه مؤلم ، أثراً من آثار التعصب الكنسى العميق الذى طبع السياسة الإسبانية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . والذى قضى على كثير من الآثار الأندلسية الفخمة . ومما هو جدير بالذكر أن الإمبراطور حينما رأى هذا الصرح الفضول الضخم داخل الجامع بعد ذلك ، أبدى سخطه . وندم لما صرح به ، واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو في وسط هذا النراخ الرائع ، الذى تبدو فيه ملامح الفن الإسلامى ، وصرح بأن عمل النصرارى يبدو بالنسبة له ضئيلاً باهتاً ، ويروى أنه قال للمشرفين على الجامع : « لقد بنيت هنا ما كان يمكن بناؤه في أى مكان آخر ، وقد قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً في العالم » . والغريب في ذلك أن الإمبراطور شارلكان نفسه ، هو الذى أمر بإزالة جزء كبير من قصر الحمراء في غرناطة ، ليبنى عليه قصره الرومانى ، إلى جانب قصر الملوك المسلمين ، وهو الذى أمر بإزالة مسجد الحمراء ليبنى مكانه كنيسة سانتاماريا . وقد تم بناء هذا الهيكل الكبير في أواخر القرن السادس عشر . ويقول العلامة الأثرى الإشبانى كونتريراس : متولى إصلاح قصر الحمراء ، « إن إقامة هذا المصلى الحديد ، في قلب القديم ، قد زاد في انحطاط الفن » وإنه في رأيه « هو الذى أسبغ على الجامع ملامحه المظلمة الموحشة » (٢) .

وقد استمر الصناعات المدجّنون ، واليهود والنصارى الذين تتلمذوا عليهم ، في القيام بأعمال الترميم والزخارف في المسجد الجامع عصوراً . وأولئك المدجّنون هم الذين خلقوا هذا المزيج من الفن الإسلامى النصرانى ، وهو الفن المدجّتى ،

(١) A.F. Calvert & W.M. Gallichan : Cordova, a city of the Moors, p. 76.

(٢) R. Contreras : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y Córdoba. (Madrid 1878) p. 66.



جامع قرطبة. الجناح الأيسر المسمى « جامع المنصور » ، وهو الذي أنشأه المنصور بن أبي عامر سنة ٢٧٧ هـ - ٢٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائما على حاله حتى اليوم .

وهو الذى غلب على كثير من الصروح الأثرية الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر ، وحتى سقوط غرناطة كان المدجنون هم الذين يقومون فى قرطبة وغيرها ، من المدن الأندلسية القديمة ، بالإصلاحات والزخارف الأثرية الأندلسية .

وفى سنة ١٥٩٣ ، أزيلت منارة الجامع القديمة ، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالى ، على نمط يشبه المنارة ، وقد جاء أعلى منها ، وارتفاعه الحالى ثلاثون متراً . وفى داخله سلم حجري سميك . وقد ظهرت عليه آثار البلى والقدم . وفى جنباته غرف ومخادع تسكنها بعض الأسر الفقيرة . وقد أقيم فوقه تمثال للقديس رافائيل حامي المدينة .

وقد حمل العلماء الأثريون جميعاً ، وفى مقدمتهم العلماء الإسبان على هذا التشويه ، لأثر من أجل الآثار الإسلامية ، ووصفه العلامة كونتريراس بأنه « تدنيس للفن »^(١) . بيد أن هذا السخط وهذا التأسي لمسخ مسجد قرطبة الجامع ، يبدو بنوع خاص فى هذه الكلمة البليغة المؤثرة التى يستهل بها المستشرق والعلامة الأثرى الإسباني أمادوردى لوس ريوس ، كلامه عن تاريخ المسجد الجامع ، وهى فى الواقع أبلغ رثاء لهذا الأثر الإسلامى العظيم :

« إنه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التى تقوم اليوم ، فى وسط هذه العمدة التى لا تحصى ، ولا ذخائر الفن التى أعدهه عليها أكابر الفنانين الذين أقاموها فى القرن السادس عشر ، ولا تلك السلسلة التى لانهاية لها من المصليات التى ترجع إلى كل عصر ، والتى حشرت بجدران المسجد وشوحتها ، ولا الصور التى تغطى عقودها فى الجزء المخصص للمحراب ، ولا أولئك الملائكة الثقال الذين كأنهم يؤخرون طيرانهم لكى ينيروا العبادات المقدسة ، ولا الكلمات الإنجيلية التى تدوى من كرسى الروح القدس ، فى هذه العقود ذات البناء المحدث ، يمكن أن تبدد أو تمحو ذرة من جلال هذه الأشباح المتجولة ، التى تبحث عبثاً فى زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس ، الذى غمست صحفه ، حسبما تقول الرواية المتوارثة ، بدم عثمان الزكى شهيد الإيمان . إن ثمة عالماً من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الأسى خلال هذه التشويهات : تلك الأعمال التى أملاها إيمان أجدادنا المغرق المخلص معاً . فدفعتهم الرغبة ، فى أن يحموا إلى الأبد ، من

البقعة التي خصصت لكتاب عيسى ، روح محمد ، وأشباح أوليائه الذين يغشونها ، والذين سوف يغشونها دائماً مابقيت في الوجود . ذلك أنه بالرغم من كل التشويهاات التي عملت ، وكل التغييرات التي أحدثت بها ، فإنه قد ختم عليها ، وفقاً لقانون محتوم ، بجاتم الفن الذي أوحى بها ، وروح الأمة التي وضعت خطتها وأقامتها» (١) .

وقد زار قرطبة في أواخر القرن السابع عشر (سنة ١١٠٢ هـ - ١٦٩١ م) الوزير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغساني وزير مولاي اسماعيل سلطان المغرب وسفيره إلى كارلوس الثاني ملك اسبانيا ، ووصف لنا مسجدها الجامع فيما يأتي : «وهو مسجد كبير جداً في غاية الإتقان وحسن البناء ، وبداخله ألف وثلاث مائة وستون سارية ، كلها من الرخام الأبيض ، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر ، وله من الأبواب الآن أربعة عشر باباً ، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها . ومحرابه الإسلامي باق على حاله لم يتغير ، ولم يحدث فيه شيء ، إلا أنهم جعلوا عليه شبكاً من نحاس ، وطرحوا أمامه صليباً فلم يدخل عليه أحد إلا قبل ذلك الصليب ، ولم يزد بداخله ولا بحائطه ، شيء قليل ولا كثير . ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصبة ماء في وسطه ، ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارج مائة وسبعة عشرة شجرة ؛ ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد ، وهو منار كبير مبني بالحجارة ، إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية . وما زال سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء ، إلا ما تدعو الضرورة إليه من إصلاح السقف ، الذي يتداعى إلى السقوط وشبه ذلك . وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلاً لمحرابه قبة كبيرة مربعة ، مشبكة بشبائيك من نحاس أصفر ، جعلوا داخل هذه القبة صليباً من صلبانهم ، وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها .

وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول والنقش بالكتابة العربية ؛ وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتاً» (٢) .

وزار قرطبة من بعده في سنة (١١٧٩ هـ - ١٧٦٥ م) ، الغزال الفاسي

D. Rodrigo Amador de los Rios : Inscripciones de Córdoba p. 8. (١)

(٢) رحلة الوزير محمد بن عبد الوهاب المسماة «رحلة الوزير في افتكالك الأسير» المنشورة بعناية

معهد فرانكو بتطوان ، ص ١٨ و ١٩ .

سفير سلطان المغرب أبي عبد الله المنصور بالله ، إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث . وهو يصف لنا عاصمة الخلافة القديمة ، وموقعها في الوادي قرب جبال «سير مرين» ويقول لنا إن أهل قرطبة ، معظمهم من أهل الحرف ، وأن المدينة في غاية النظافة ، ومعظم سورها أيام المسلمين باق على حاله . وفي ظاهرها الحدائق والغراس . ثم يصف جامعها الأعظم «الذي تجاوز في الارتفاع كل مبانيها واستدارتها بالسور الإسلامي» «وهو من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلو» ثم يقول : «ومذ عبرنا هذا المسجد ، لم تفر لنا عبرة ، مما شاهدنا من عظمته ، وتذكرنا ما كان عليه عهد الإسلام ، وما قرئ فيه من العلوم ، وتليت فيه من الآيات ، وأقيمت به من الصلوات . وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد وسورابه تسلم علينا ، وتهش إلينا ، من شدة ما وجدنا من الأسف ، حتى صرنا نحاطب الحمادات ، ونعائق كل سارية ، ونقبل سوارى المسجد وجداره . ثم يصف المحراب وفخامته ، وما نقش عليه من آيات ، وكونه يحمل اسم منشئه ، وهو الإمام المستنصر بالله ، وتاريخ إنشائه . ويقول لنا إن الإسبان قد بنوا في وسطه قبة ضخمة ، وأنشأوا تحمها هيكلًا نصرانيًا (١) .

وفي جامع قرطبة عدة نقوش وكتابات ، تدل على تواريخ إصلاحه والزيادات فيه ، أقدمها نقش فوق الحافة العليا من عقد بابه الغربي ، وهو يؤرخ تاريخ التجديد الذي قام به الأمير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٤١ هـ . بيد أن أهم نقوش المسجد الجامع ، هما اثنتان ، أولهما يؤرخ ما قام به عبد الرحمن الناصر من إقامة واجهته ، وقد نقش في لوحة رخامية ثبتت بالحانب الأيمن من باب النخيل ، بخط كوفي جاء فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه وإحكام إنقائه ، تعظيمًا لشعائر الله ، ومحافظة على حرمة بيوته ، التي أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر ، مع بقا شرف الأثر وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة ، على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بلدر ، عمل سعيد بن أيوب . »

(١) من رحلة الغزال المسماة «نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد» بقلم أحمد بن المهدي الغزال الفاسي المنشورة بعناية معهد فرانكو بطوان ، ص ٣٧ .

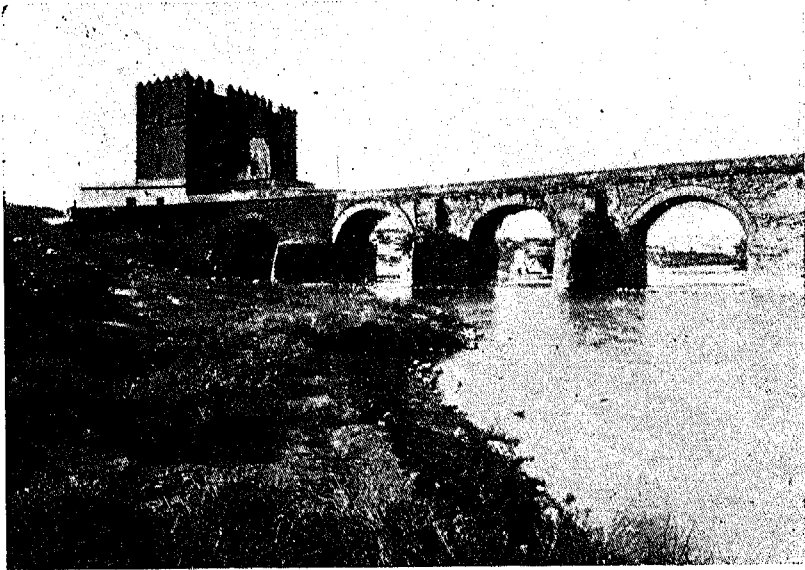
والثاني ما نقش بالكوفية داخل المحراب في أسفل القبلة ، وهو يؤرخ ، ما قام به الحكم المستنصر في إنشاء المحراب ، وكسوته بالرخام وهذا نصه :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ، وقوموا لله قانتين . أمر الإمام المستنصر بالله ، الحكم ، أمير المؤمنين أصلحه الله ، بعد عون الله فيما شيده من هذا المحراب ، بكسوته بالرخام ، رغبة في جزيل الثواب ، وكريم المآب ؛ فتم ذلك على يد موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضى الله عنه ، بنظر محمد تميميخ ، وأحمد بن نصر ، ونخالد بن هاشم أصحاب شرطته ، ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب ، عبيده ، في شهر ذى الحجة من سنة أربعة وخمسين وثلث مائة . ومن يسلم وجهة إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقا ، وإلى الله عاقبة الأمور .
وتوجد في المحراب ثمة نقوش أخرى تتضمن بعض الآيات القرآنية : وهي حمية مذهبة .

هذا ومن المعروف أن جامع قرطبة ، كان موقعه قريباً من القصر . وكان القصر يقع في جنوبه الغربي على ضفة النهر (الوادى الكبير) قرب القنطرة القديمة ، وكان يصل بين القصر والجامع « الساباط » أو الممر المستوف الذى تقدم ذكره ، والذى كان مخصصاً لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة ، بعيداً عن أعين الكافة . ويبدو من الروايات والتحقيقات المختلفة ، أن مواقع القصر كانت تشمل على المكان الذى يقوم فيه اليوم القصر الأسقفى "Palacio Episcopal" ، والمعهد المقابل له ، وبناء السجن الإقليمى وما يليه من الحدائق ، التى تعرف اليوم بحدائق القصر "Huerta del Alcázar" ، وهى تقع مكان حدائق القصر الأموى القديم ، بين النهر ، وبين الحى الذى يسمى اليوم « حى القصر القديم » "Barrio del Alcázar vizjo" وقد كان هذا القصر مقام الأمراء منذ قيام الدولة الأموية ، حتى أوائل عهد الناصر ، وكان يضم مدافنهم أيضاً . ولم يبق اليوم شئ من آثار القصر الأموى القديم ، ولا القصر الإسباني الذى أقيم إلى جانبه ، في عصر الملك ألفونسو الحادى عشر ، والذى استعمل فيما بعد محكمة وسجناً لديوان التحقيق .

وتقع القنطرة الأندلسية القديمة تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية ، وهى قنطرة رومانية الأصل ، جددتها المسلمون أيام السموح بن مالك أمير الأندلس ، وجددت بعد ذلك غير مرة . وهى قائمة على ستة عشر عقداً ، وفي نهايتها الجنوبية



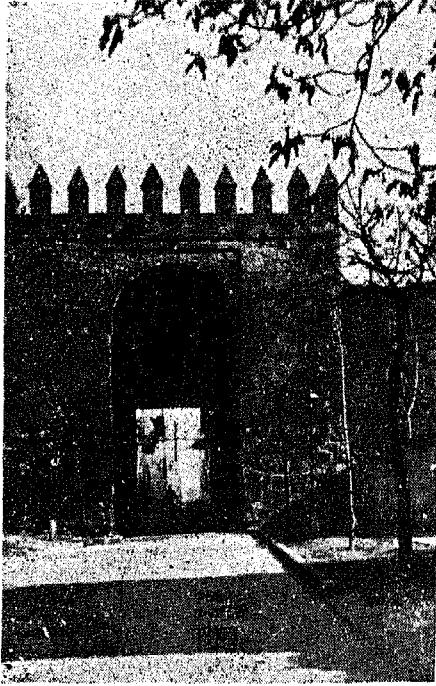
جامع قرطبة . الناحية الجنوبية المقابلة للقصر الأسقي



قرطبة . القنطرة العربية على نهر الوادي الكبير

تمثال مرتفع للقديس رافائيل حامي المدينة . وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة « حى الروح القدس » الذى سبقت الإشارة إليه ، وما زالت هذه القنطرة تحتفظ بكثير من معالمها الإندلسية .

وإلى مقربة من الجامع يقع المتحف الأركيولوجى فى أحد الأزقة الصخرية ، وقد جمعت فيه طائفة كبيرة من اللوحات ، والأحواض الرخامية والزخارف العربية ،



قرطبة : باب المدور وهو بابها الأندلسى الوحيد الباقى

وكثير من القطع الخشبية الممهورة بالآيات القرآنية ، ومعظمها مأخوذ من الجامع ، ومجموعة من الأواني الخزفية الأندلسية ، ومنها قطع بديعة الصنع والزخرف ، وآنية جميلة للزينة وغيرها . وكذلك توجد به طائفة من مخلفات حفائر الزهراء ، ومنها وعل صغير مصنوع من النحاس الأسمر ، وله فى متحف الزهراء نموذج من الحص الأبيض .

وجامع قرطبة هو - بعد قصر الحمراء - أعظم الآثار

الأندلسية الباقية .

وهو فى الوقت نفسه أضخم أماكن العبادة النصرانية ، بعد كنيسة القديس بطرس فى رومة ؛ ولم يبق اليوم غيره فى عاصمة الخلافة القديمة من الآثار الأندلسية الذاهبة ، سوى منارة صغيرة قديمة ترجع إلى أوائل القرن العاشر الميلادى ، وقد جردت من نقوشها الحديثة لتعود إلى طرازها الأندلسى . وقد استحال اليوم إلى برج أجراس لكنيسة « القديس يوحنا أبى الفوارس » « San Juan de los Caballeros » ويقول العلامة جومث مورينو ، إن هذه المنارة هى من منشآت عبد الرحمن الثانى ، (عبد الرحمن بن الحكم) ، وإن طرازها هو نفس طراز برج كنيسة

سانتياجو (شنت ياغب) في قرطبة ، وكنيسة سان سلفادور في إشبيلية^(١)
ولم يبق اليوم من أسوار قرطبة الأندلسية القديمة ، سوى أطلال قليلة دراسة
ليست لها أية أهمية أثرية .

بيد أنه يوجد من أبواب قرطبة القديمة موقع باب واحد ، هو الباب الذي
يسمى باب المدور "Puerta de Almódovar" ، وهو يقع في جنوب غربي المدينة
على مقربة من الجامع ، وهو عبارة عن باب معقود في إطار كبير مربع يبلغ ارتفاعه
نحو ثمانية أمتار ، وعرضه عشرة ، وفي أعلاه شرفة كبيرة عريضة يبلغ ارتفاعها
مثل ارتفاعه ، وقد علتها مشارف نصرانية ، وقد أقيم هذا الباب على أنقاض باب
« بطليوس » القديم ، ويرجع بناؤه الأصلي إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي .
ومما يذكر أن قرطبة ، كانت أيام المسلمين مشهورة ببراعة صائغها وما ينتجونه
من تحف فنية بديعة ، وهي ما زالت إلى اليوم تحتفظ ببقية من هذا التراث حيث
تصنع بها التحف والآنية الفضية المزخرفة .

٢ - أطال الزهراء

Medina Azzahra

تحتل سيرة مدينة الزهراء ، وذكريات فخامتها الذاهبة ، مقاما ملحوظاً في تاريخ الأندلس المعمارى والفنى . وتقترن عظمتها وروعة صروحها ، بعظمة عصر منشئها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) . وقد بدأ الناصر بإنشاء هذه الضاحية الملوكية الفخمة في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) بعد أن ضاقت قرطبة عاصمة الخلافة ، بما يتطلبه ملكه العظيم من استكمال الفخامة الملوكية ، ووجود القصور والأبهاء والرياض الشاسعة . وأنشئت الزهراء في بقعة تقع على مقربة من غربى قرطبة شمال نهر الوادى الكبير ، واستمر العدل فى إكمال صروحها العظيمة ، ومرافقها الفخمة ، بقية عهد الناصر ، ومعظم عهد ولده الحكم المستنصر ، أعنى زهاء أربعين عاماً . ولم يدخر الناصر جهداً ولا نفقة ، فى تشييد حاضرتة الجديدة ، وتجميلها وزخرفتها ، وأنشأ فيها قصر الخلافة العظيم ، وقصره الخاص المسمى بالمؤنس ، وزودها بنفيس الرياض والتحف والذخائر النادرة ، وأسبغ عليها أروع ما تمخض عنه العصر ، من ضروب الرونق والبهاء .

يبعد أن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية . فقد لبثت منزل الخلافة الأندلسية زهاء أربعين عاماً فقط ، منسند نزل بها الناصر سنة ٣٢٥ هـ إلى نهاية عهد ولده الحكم المستنصر فى سنة ٣٦٦ هـ . ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة الخلافة ، ومنزل الملك ، ولكن لأن تحولاً خطيراً وقع فى سلطان بنى أمية . فقد نهض متغلب جديد ، هو الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) ، وحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله ولد الحكم ، واستأثر تباعاً بكل ساطة فى الدولة . ثم بدا له أن ينقل مركز الحكم إلى قاعدة جديدة تكون منزل ساطانه ، فأنشأ لنفسه ضاحية ملوكية جديدة تقع على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير ، وذلك فى سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وسماها « الزاهرة » . ونقل إليها خزائن الأموال والسلاح ودواوين الحكم ، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية .

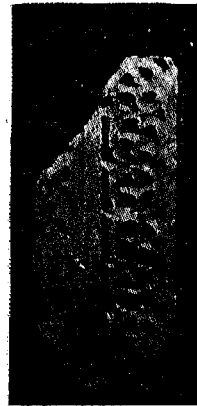
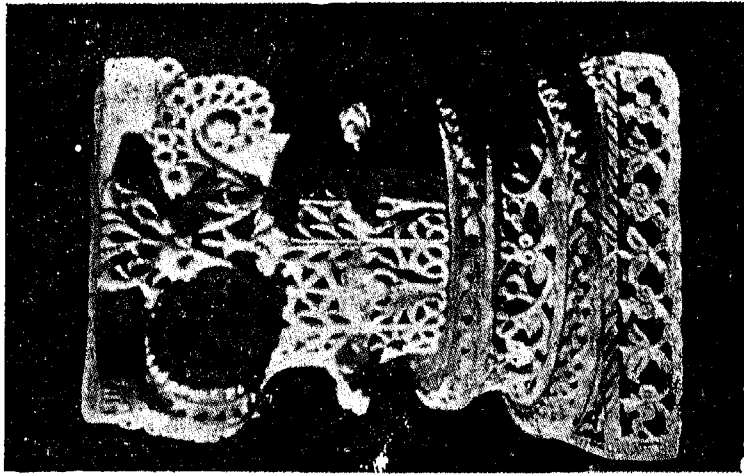
ثم عفا عليها الزمن بعد ذلك تبعاً ، حتى وقعت ثورات البربر ، عقب انهيار الدولة العامرية ، في أواخر القرن الرابع الهجري ، فاقتحمت الزهراء ، وقوضت صروحها الفخمة ، ونهبت ذخائرها وتحفها ، وغمرها الخراب والنسيان ، ولم يمض بعيد ، حتى غاض اسمها نفسه ، من صحف التاريخ الأندلسي ، فلا نكاد نظفر لها بذكر منذ أيام الطوائف .

ومنذ نحو قرن فقط عادت سيرة الزهراء ، وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول في تاريخ اسبانيا المسلمة ، المعمارى والفنى . واهتم العلماء الإسبان بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يليق به ذلك الكشف من أضواء هامة ، على أحوال الخلافة الأندلسية ، ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية ، للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة ، التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان ، أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها وأبوابها الملوكية .

وقد أتيج لنا أن نرور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، وكانت آخرها في يناير سنة ١٩٦٠ . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة ، على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد مياين ، وتحتل منحاراً صخرياً وعرأ ، يقع أسفل الأكمة ، التى يحتلها دير « سان خير نمو » الشهير . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » « Córdoba la Vieja »

وتشتمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ ، منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب ، و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها ، وما يزال على ذوى الشأن أن يبذلوا جهوداً فادحة لإكمال مهمتهم ، فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها ، التى ما زال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية ، ومناعتها وفخامة صروحها .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى



زخارف رقوس وقواعد أعمدة من المرمر الأبيض ، بما وجد في حفائر الزمره

إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليلي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ثلاثة أمهات كبيرة عالية ذات أعمدة ضخمة ، وأروقة جانبية ، وقد كانت حسبما يظن ، أمهات رسمية لاستقبال السفراء والشخصيات الملوكية ، وما زالت جدرانها تحمل بعض الزخارف الأصلية بألوانها الزاهية .

وقد تم الكشف عن المنطقة الأولى منذ سنة ١٩٢٥ ، وهي تمتد فيما بين البهو الأكبر أو « مجلس الغربية » ومجموعة المساكن الخليفية ، أعنى قصر الخلافة ومقام الخلفاء ، وهي التي وفق إلى كشفها الأستاذ بلاثكيت بوسكو منذ سنة ١٩١٢ . وكشفت الحفريات التالية عن الحدار الشمالي ، والفناءين التوأمن المتصلين بالمنحدر . والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ثم البهو الكبير ذي الشرفة ، وعن مساكن الحرس ، والطريق المؤدى إلى البهو الغربي والمتصل بشرقيه .

وترجع منطقة الحدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشأته في العصر الأول من بناء الزهراء . وقد أصابحت على امتداد سبعين متراً . وتمتد القسم الأول منها فيما بين باب الطريق المعبد ، وزاوية القصر الخلافي . وهذا الجزء من الحدار أمتن بناءً وأحكم صنعةً ، من قسمه الذي بنى فيما بعد ، في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمنين ، فيقع أولهما على قيد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليلي . ويشتمل كل منهما على بهو كامل . وهنالك ما يدل على أن كلاهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المتماثلة ، المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربي رقعة تمتد من الشمال إلى الجنوب قدرها ٢٤,٢٠ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ٢٠ متراً ، وهي مساحة تبلغ نحو خمسمائة متر ، وفيه بقايا أبنية تبدو أكثر أهمية من تلك التي كان يشملها الفناء الشرقي . والفناء الشرقي مثل قرينه ، ولكنه أقل منه نظاماً . ويحتوي على أربع غرف متماثلة تقريباً ، تطل أبوابها جميعاً على الفناء ، وبه من الزاوية الشمالية غرفتان منحدرتان . ولم يستطع المكتشفون أن يحددوا موقع المدخل بالنسبة لهذين الفناءين الكبيرين ، ولم يظهر فيهما مكان لباب صغير أو كبير . والظاهر أنهما يكونان معاً موقع مسكن لأحد الكبراء ، وربما كان الفناء الشرقي موقع مسكن « للحریم » ،

أو بعبارة أخرى جناح القصر الذى تسكنه النساء والأولاد ، ففيه غرف أنيقة بعضها مبلط بالرخام ، وأمكنة للفراش ومطابخ ومرافق .
وأما الفناء الغربى ، فالظاهر أنه مكان الجناح الخاص ، الذى كان السيد يستقبل فيه الزوار ، ويصرف الأمور ويضع تحفه ومكتبته . ويرى بعض المكتشفين أن هذا المكان ، ربما كان مسكناً للحاجب أورئيس الوزارة .

وهناك روايتان ، تتعلق احدهما بأخذ البيعة للحكم المستنصر فى سنة ٣٥٠ هـ ، وتتعلق الثانية بزيارة أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع للحكم فى شهر صفر سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) . وفى تفاصيل هاتين الروايتين ، وفى أوصافهما ، ما يلقى ضوءاً على أوضاع المدينة الخليفية ، وما يدل على أن المعالم التى وردت فيها ، إنما تحدد المكان نفسه وتؤكد ، وقد كان الباب الرئيسى للمدينة الزهراء الذى جاز منه أردونيو هو « باب القبة » ، ثم يليه عند المدخل « باب السدة » .

وقد استقبله الحكم فى « المجلس المؤنس » . وجاز بعد ذلك إلى الروشنين الباقين ، وانحنى أمام العرش الخليفى المجاور للبهو الغربى ، أو « مجلس الغربية » الذى سبقت الإشارة إليه . وفى مكان يقع شمال هذا البهو ، استقبله الحاجب جعفر المصحفى ، الذى نكبه المنصور فيما بعد . وقد اكتشفت اليوم هذه المعالم كلها .

وفى شرقى القصر الخليفى فناء صغير ، هو الذى اكتشفه الأستاذ بلاثكيث بوسكو منذ سنة ١٩١٤ . وعلى قيد نحو ستة عشر متراً أسفل هذا الفناء المتواضع ، يقع بهو ضخم مربع تقريباً يشغل مساحة قدرها ٤٦٠ متراً ، وقد بلط بقطع كبيرة من الرخام ، ويحيط به رواق عرضه متران ونصف ، تحف به أعمدة ضخمة قوية مربعة ، سلك ضلعها نحو متر تقريباً . ويمتد من زاويته الشمالية الشرقية ، نفق عرضه زهاء مترين يتجه نحو الجنوب الشرقى ، وله بابان متعاقبان بينهما نحو مترين ، وعلى مقربة من بابه يسدو سلم ضخم ، يصعد نحو المدينة الخليفية ، وقد اكتشف منه خمس درجات فقط . وهى مبنية بالحجارة الضخمة ، التى بنيت منها مدينة الزهراء كلها . وربما كان هذا السلم ، هو سلم قصر الخلفاء ذاته . والظاهر أن هذا الفناء ومتعلقاته كان مثوى لبعض الدواوين العامة ، كديوان الخزانة أو نحوها ، وهو متفق فى ذلك مع الأوصاف العامة للمدينة الخليفية ، حيث يوصف الجزء الأوسط منها ، بأنه مكان يضم فى أعلاه

المساكن الخليفية ، ثم تليها الدواوين في الجزء الأوسط ، ثم تقع الحدائق في الحيز الأدنى .

وأحدث ما كشفت عنه حفريات الزهراء ، هي المجموعة الثالثة التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل ، وقد تم هذا الاكتشاف في سنة ١٩٤٤ ، وكشف عن بهو عظيم ، ذي أفنية ثلاثة ، تقوم على عقود من الأعمدة ، وقد تحطمت عناصره ، وشوهت بشدة ، ولكن وجدت سائر مواده وزخارفه تحت الأنقاض .

وقد عكف العلماء الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة هذا البهو وتنسيقه مما وجد من الأنقاض والأعمدة والعقود والزخارف المكتشفة ، وهو يتكون من أربعة أروقة أو أبهاء متلاصقة ، تبلغ واجهتها معاً نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاثة أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق ذو عقود في الجانبين ، وتبلغ عقوده خمسة تقوم على سبعة أعمدة ، اثنان يستند كل منهما إلى عقد الحائط ، وخمسة حرة . وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس ، وقواعد رخامية مزخرفة . ومن الرواق الثالث يفتح باب على بهو داخلي ، قد أقيم على الطراز المفروض ، وزين جانباها بالزخارف الرخامية ، وقسم إلى قسمين . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو سبعة أمتار ، وقد صيغت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت رؤوسها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت ، والتي توجد منها بين الأنقاض مئات القطع ، وهذه الرؤوس كلها من طراز خلافي جميل من النسق الكلاسيكي . ووجد في إحدى هذه القواعد نقش كوفي جميل يشيد بذكر عبد الرحمن الناصر ، ومؤرخ في سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) .

وعملت في كل من الرواقين الأول والثالث ، كوتان ، كل منهما في طرف ، والأربعة متقابلة متماثلة . ويجرى البناء في تركيب مداخل جديدة قد زين بعضها بقطع الآجر الحمراء التي وجدت ، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار . يقول الأستاذ كستينخون أحد أعضاء اللجنة الأثرية المكتشفة : « إن هذا البهو الذي يمتاز بتناسبه الجميل ، وعقوده القوية ، وزخارفه الجميلة ، لا بد أنه كان من تحف مدينة الزهراء الهندسية ، وقد رأت اللجنة نظراً لأنه لم يكن له اسم معين ، أن تسميه بهو « عبد الرحمن الثالث » (الناصر) ، لما وجد في رؤوس أعمدته من



مدينة الزهراء : بعض العقود والزخارف التي وجدت بين أنقاض المجلس المؤنس بالقصر
الخليفي ، وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان « هو عبد الرحمن الناصر »
أو « هو السفراء » .

إشادة بذكر هذا الخليفة ، وكذلك على عقد مدخله الأوسط من ذكر له يرجع إلى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م) « (١) .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال ، تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهومستطيل ، وهي لا تفتقر كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً ، وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر . وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في أرض الغرفة هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً ، وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء ، هي أحجار قوية كبيرة ، بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً ، وعرضه أربعون .

وقد عثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعة الضخمة المنوعة ، من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية ، والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية المنوعة ، ومئات من القطع والأواني الخزفية ، والبللورية ، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل المدينة ، وعرضت فيه بعض القطع ، والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأواني الخزفية المصححة . وأقيم إلى جانب المتحف بهوان كبيران يغص كلاهما بالقطع الزخرفية ، والبللورية المتكسرة ، التي يعكف الاخصائيون على فحصها وتصحيح ما يمكن تصحيحه منها .

وكان من أنفس ما عثر به المكتشفون بين أطلال الزهراء ، تمثال وعمل من البرونز الأسمر الدقيق الزخرف ، وهو يحفظ اليوم نحسباً أسلفنا بالمتحف الأركيولوجي بمدينة قرطبة ، إلى جانب عدة قطع رخامية بديعة ، وجدت أيضاً بين أطلال الزهراء . ويوجد نموذج جصي من هذا العمل محفوظ بمتحف الزهراء الذي سبقت الإشارة إليه .

(١) R. Castejón : Nuevas Excavaciones en Medinat Al-Zahra, El-Salon
de Abd Al-Rahman III (Al-Andalus, Vol X (1945) Fasc. I.



مدينة الزهراء : جانب آخر من الأطلال .



مدينة الزهراء : بعض الأطلال التي أسفرت عنها الحفريات



وعل الزهراء البرونزي المحفوظ بمتحف قرطبة

وقد تفقدنا أطلال الزهراء مراراً ، وتجولنا بينها ساعات طويلة ، تحت شمس قرطبة المحرقة . وإنه ليبدو لنا أن هذه المجموعة من الأفنية والأبهاء والعقود ، والأماكن والأنفاق ، إذا كانت تدلى بما كانت عليه المدينة الخليفة من ضخامة ومنعة ، سواء بموقعها فوق المنحدر الجبلي الوعر ، أم بضخامة حجارتها الصخرية الصلدة ، ومثانة أطلالها المكتشفة ، فإنها ما زالت بعيدة عن أن تدلى بما كانت عليه مدينة الزهراء الملوكية من آيات الجلال والروعة التي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة . على أن الحفائر المستقبلية ، وهي ما زالت رهن منطقة شاسعة ، قد تكشف فيما بعد ، عن كثير من ضروب الفخامة والجلال ، التي تنقص اليوم أطلالها الماثلة^(١) .

(١) رجعنا في هذا البحث إلى مشاهداتنا الخاصة ، وإلى تقارير الحفائر الرسمية التي أجريت تحت رعاية الحكومة الإسبانية :

- 1- Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)
- 2- Excavaciones del pian nacional en Medina Azahra (Córdoba) campana de 1943 ; por R. Castejón y Martinez de Arizala (Madrid 1945).

٣ - إشبيلية

Sevilla

كانت إشبيلية أيام الدولة الإسلامية ، أعظم مدن الأندلس وأجملها ، وكانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها . وقد سطعت أيام بنى عباد ، إذ كانت دار الملك ، وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى ، ولكنها لقيت مصرعها كقاعدة إسلامية أيام الموحدين أيضاً ، وسقطت في أيدي القشتاليين في ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م) ، أعنى بعد سقوط قرطبة باثني عشر عاماً ، وغدت من ذلك الحين حتى أوائل القرن السادس عشر ، دار الملك في قشتالة .

وما تزال إشبيلية حتى اليوم أجمل مدن الأندلس ، وأوفرها سحرًا ، بل هي في الواقع من أجمل المدن الإسبانية ، وقد أسبغت عليها عناية الدول والعصور المتعاقبة ، طابعاً من الروعة والحلال ، يمثل في صروحها ومعاهدها الفخمة ، وآثارها التاريخية الكثيرة .

وقد سميت إشبيلية اشتقاقاً من اسمها اللاتيني « إشبالي » أو هسبالي *Hispalis* وهي تسمى أيضاً في الأدب الأندلسي « حمص » ، وذلك لأنه قد نزلها عند الفتح جند حمص الشام^(١) وأطلقوا عليها هذا الاسم ، لما لمسوه من شبه بين المدينتين في الموقع والخطط والتربة ، وإليها يشير أبو الطيب ، صالح بن شريف الرندي في مراثيته حين يقول :

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فيأض وملاّن

وتعد إشبيلية اليوم بين المدن الإسبانية الكبيرة ، ويبلغ سكانها نحو ربع مليون نسمة ، وهي تأتي بعد بلنسية من حيث فخامتها وعدد سكانها . ويشقها نهر الوادي الكبير من جانبها الغربي ، وبها ميادين جميلة وشوارع فسيحة عامرة ، ولاسيما في أحيائها الجديدة ، الواقعة بين الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) والنهر . وأجمل ميادينها التاريخية ، ميدان سان فرناندو المسمى اليوم « الميدان الجديد » "Plaza Nueva" . وتزدان إشبيلية بكثير من المنزهات الجميلة ، وحدائق البرتقال

(١) راجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة «إشبيلية» ، وكذلك الروض المعطار ص ٢٠ و ٢١ .

اليانعة ، ولاسيما على ضفاف الوادى الكبير . وبها مصانع كثيرة للسجاد والزيوت والإسمنت والزجاج والخزف ، وهى تحتفظ بالأخص بمصنع من أعظم مصانع الخزف ، والأدوات الخزفية المزخرفة فى اسبانيا . ويقع هذا المصنع العظيم على ضفة النهر فى ضاحيتها المسماة « لاكارتونا » ، ويشغل به أكثر من ألف عامل ، وتصدر منتجاته الأنيقة ذات الألوان الزاهية إلى سائر أنحاء العالم . وقد زرنا هذا المصنع الشهير ، وأعجبنا بما ينتجه من الأواني والتحف الخزفية المدهشة من كل ضرب ولون . وتصدر إشبيلية الزيوت والنبيد والفواكه والمعادن ، وبها حركة تجارية عظيمة .

وإشبيلية أيضاً مركز حركة ثقافية عريقة ، وبها جامعة قديمة ترجع إلى قرنين ، تحتوى على كليات للآداب والحقوق والعلوم وكلية مستقلة للطب ، وتدرس العربية قليلا بكلية الآداب .

وبها دار محفوظات الهند "Archivo general de Indias" ، وهى تضم مجموعات قيمة من الوثائق المتعلقة باكتشاف أمريكا ، وتاريخ المستعمرات الإسبانية الأمريكية وإدارتها ، ويقصدها الباحثون من سائر البلاد ولاسيما أمريكا ، التى يعنى علماءها بدراسة هذه المجموعات بنوع خاص .

وليس فى إشبيلية من الآثار الإسلامية سوى القليل ، وحتى هذا القليل يكاد يختفى تحت أثوابه النصرانية المحددة ، بيد أنه يمتاز فى الوقت نفسه بروعته وأهميته الأثرية البالغة .

ويكتفى أن تحتفظ إشبيلية بدرتبيها الإسلاميتين الفريديتين ، وهما منارة مسجدها الأعظم السالف ، و« القصر » ذو الطابع الإسلامى الفريد .

ولنبداً الحديث عن المسجد الأعظم ومنارته الباقية ، والواقع أنه لم تبق من جامع إشبيلية اليوم وحدة قائمة ببنائها ، كما هو الشأن فى جامع قرطبة ، الذى تركت عقودة ومحاريبه ، ونصبت فى داخله الكنائس والهياكل الحديدية . ولكنه أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية العظمى ، التى تعتبر بضخامتها وفخامتها ، ثانى كنيسة فى العالم بعد كنيسة القديس بطرس فى رومة ، ولم يبق اليوم قائماً منه سوى صحننه القديم ومنارته .

وقد قام بإنشاء هذا المسجد عاهل المغرب والأندلس الخليفة ، أبو يعقوب يوسف

الموحدي ، ولد الخليفة الأكبر عبد المؤمن بن علي ، وذلك في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (مايو سنة ١١٧٢ م) ، أثناء إقامته بمدينة إشبيلية ، وكانت يومئذ قاعدة حكم الموحدين بالأندلس . وكان مسجد إشبيلية الجامع المسمى بجامع ابن عدبس وهو المنسوب للقاضي عمر بن عدبس ، والمشيد في سنة ٢١٤ هـ . أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده . نظراً لنمو المدينة وتكاثر سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها . وقد ترك لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين المعاصر ، وشاهد العيان . وصفاً مسهباً لإنشاء هذا الجامع ، يقول فيه ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب قد « حاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسس من الماء بالآجر والخيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطية تحت الأرض أطول مما فوق الأرض . وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام . وإحضار الآلات من الخشب المحلوب من سواحل العُدوة . مما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله . فأعلى بنيته . وصقل صفحته بالإتقان لتشيده وتوثقه . وأنفذ أمره العالی ببنيانه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمسة المورخة . لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف ، وجاء في أسمى المنظر الشريف . أعجز في بنيانه من تقدمه ، وتغنى في ميزابه وخبره ورخمه مقدمه ، قارب به جامع قرطبة في السعة . وليس في الأندلس جامع على نده وسعته وعدد بلاطاته » (١) .

وذكر لنا ابن صاحب الصلاة اسم الناظر على بناء المسجد وعرفائه . وهو العريف أحمد بن باسة ، والناظر على النفقة . وهو أبو داود بلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال . ومن الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ثم يقول : ان سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع . فنكبت عنه ، وحرفت إلى جهة الحوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبلة التي على محرابه وبنجارتها أعظم عناية . وأقاموا عن يسار

(١) السفر الثاني من كتاب « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين » لعبد الملك بن صاحب الصلاة

(مخطوط أكسفورد) ، لوحة ١٦٧ أ

الحراب ، ساباطا في الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصنّاع في عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفي إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصنديل المجزّع بالعاج ، وأبنوسه يتألاً بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال في عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ومحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه في أكثر الأيام ، ومعه أشياخ مملكته ، ويشير للمشرفين عليه بالحد في البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التتقيف . واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً . وسافر الخليفة أبو يعقوب إثر إتمامه إلى حضرته مراکش في شعبان سنة ٥٧١ هـ . وافتتح الجامع المذكور للصلاة بصفة رسمية على يد والي إشبيلية السيد أبي اسحق إبراهيم ابن الخليفة أبي يعقوب ، وأقيمت به خطبة الجمعة لأول مرة في يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م) ، وأزيلت من جامع ابن عبدس من ذلك اليوم (١) .

ولما عاد الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في أوائل سنة ٥٨٠ هـ ، معزماً غزو الأراضي النصرانية في جيوشه الحرارة التي عبرت معه ، أمر عند وصوله إلى إشبيلية عامه أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يشتغل أثناء غيبته في الغزو . بإنشاء سور حصين لقصبة إشبيلية ، وبناء صومعة (منارة) للجامع تكون متصلة بالسور وبالجامع . ثم خرج الخليفة في جيوشه ، وغزا أراضي البرتغال الشمالية ، وحاصر مدينة شترين ، ووقعت بينه وبين النصارى تحت أسوارها معركة عنيفة ، هزم فيها الموحدون وقتل أبو يعقوب ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ (يولييه ١١٨٤ م) .

فلما بويع ولده أبو يوسف يعقوب بإشبيلية بالخلافة ، أمر بالكف عن بناء سور القصبة ، ولكنه أمر بالاستمرار في إنفاذ أمر أبيه ببناء صومعة الجامع ، وكان العمل في بنائها قد بدأ بالفعل قبل ذلك ببضعة أسابيع ، ووضع العريف أحمد بن باسة أساسها لصق الجامع ، وكان قد وافق بئراً معينة ، فردمت وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس . وقام بالنظر على نفقتها العامل محمد بن سعيد . ثم بدأ العريف بنائها بالحجر المسمى « بالطجون العبادي » ، المنقول من سور قصر

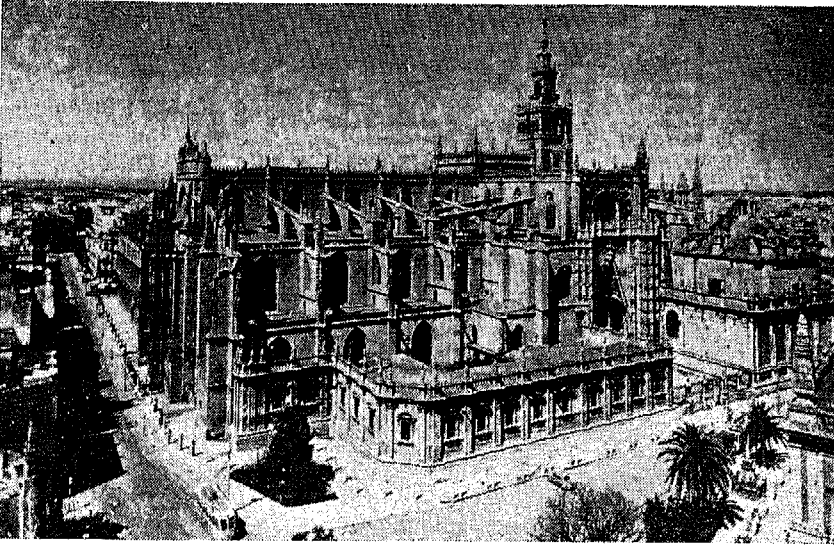
(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٦٨ ب و ١٦٩ ا

ابن عباد . ولم تمض بضعة أشهر حتى عزل ابن سعيد عن العمل ، وتعطل البناء ، إلى أن وصل أبو بكر بن زهر حافظ البناء من حضرة أمير المؤمنين بمراكش في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، وقد أمر بإعادة بناء الصومعة ، وبناء ما اختل من الجامع ، فاستؤنف العمل فيها ، حسبما نذكر بعد (١) .

ولما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٨ م ، حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة . وفي سنة ١٤٠٢ بدئ بإنشاء كنيسة إشبيلية العظمى (الكاتدرائية) فوق موقع المسجد الجامع القديم ، واستمر العمل في بنائها أكثر من قرن ونصف ، حتى غدت برقعها الشاسعة ، وعقودها المنيفة ، وزخارفها البديعة ، ثاني كنائس العالم من حيث الضخامة والروعة . وهي تقع في جنوب المدينة ، وبها تحت القبة العظمى ، قبر كريستوف كولمبوس مكتشف العالم الحديد . وليس هنا مقام التحدث عن أوصاف هذه الكنيسة الباذخة ، التي يحار البصر في تأملها ، وإنما الذي يهمننا هو التحدث عما بقي حولها من آثار المسجد الجامع الذي بنيت مكانه ؛ فقد بقي من مسجد إشبيلية أولا صحنه ، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم . وهو يقع شمالي الكنيسة ويبلغ نحو ربع مساحتها ، وفي وسطه نافورة أندلسية ، وقد وضعت فيه آنية التعميد الحجرية ، وغرست فيه أشجار البرتقال ، ويعرف اليوم « ببناء البرتقال أو فناء النارج » "Patio de los Naranjos" ، وما تزال عقود الصحن قائمة من ناحية الشمال والغرب ، ولكنها مسخت وبنى فيما بينها . كذلك ما تزال ساريات الصحن القديمة قائمة ، في هذين الجانبين . وقد بقي باب الجامع الرئيسي ، الواقع في شمالي الصحن ، كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية ، وقد نقشت على كل من قبضتيه الضخمتين ما يأتي : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد » ، ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة . ومن الغريب أن هذا الباب الأندلسي الشاهق ، أضحى بالرغم من نقوشه الإسلامية ، والآيات المرقومة عليه ، يعرف بالإسبانية « باب الغفران » "Puerta del Perdón" ، وهو يفضى إلى هيكل أقيم تحت عقده الداخلي ، ونصب في جانبه تمثال للعذراء ، ينحني أمامه طلاب التوبة والغفران .

ويصف الغزال الفاسي في رحلته كنيسة إشبيلية العظمى بإفاضة ، ويسميا

(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٧٠ ا و ب .



إشبيلية . الكنيسة العظمى (الكندراثية) ، وإلى ورائها « الخبير الدا » (برج الأجراس)



كنيسة إشبيلية العظمى . باب الغفران من الداخل وقد ظهر من ورائه صحن الكنيسة

« الجامع الأعظم الذي كان للمسلمين » ويعطف على صحن الجامع بقوله : « وبصحن الجامع خمس وعشرون شجرة من النارج ، وخصتان ، وضريح واحد به بيوت عدة يسكنها الفرايلية » (١) .

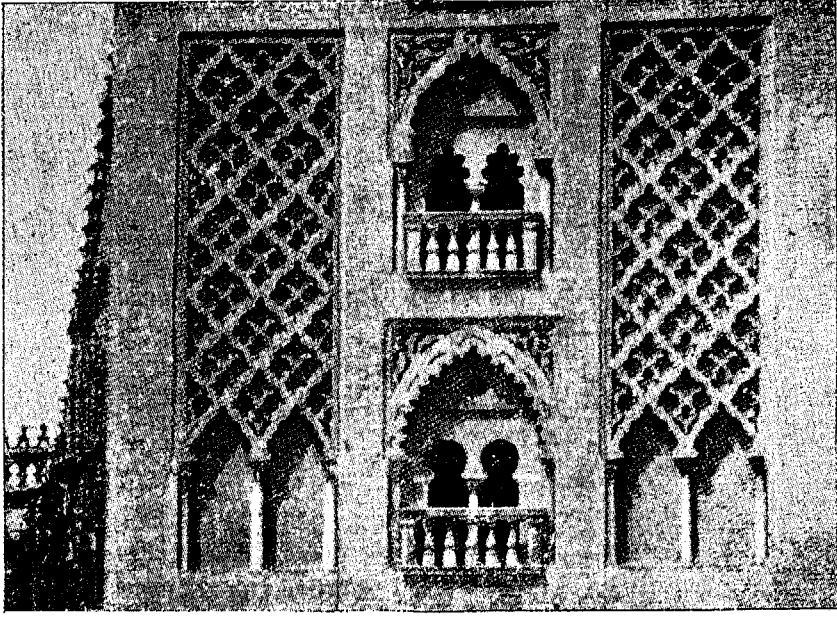
وبلى صحن الجامع جنوباً صرح « الكاتدرائية » الضخم ، ويقع بابها الرئيسي المباشر في الجهة الشرقية ، وهو باب عريض ضخم ، ويبدو أنه باب الجامع الكبير . ولها ستة أبواب أخرى شرقية وشمالية . وكلها ملبسة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية . وهي بلا ريب من أبواب جامع إشبيلية القديم . هذا ، وأما عن جامع إشبيلية القديم وهو جامع ابن عبدبس الذي سبق ذكره ، فقد أقيمت فوق موقعه كنيسة سلفادور وهي من كنائس إشبيلية القديمة ، وتحفظ في متحف إشبيلية الأركيولوجي لوحة لإنشاء هذا الجامع حسبما نذكر بعد .

لاخير الدا La Giralda

وهي منارة أو صومعة مسجد إشبيلية الجامع المتقدم ذكره ، وهي بروعتها وجمالها تبدو لؤلؤة إشبيلية الأثرية ، وتقع إلى جوار زاوية الكاتدرائية العظمى الشمالية الغربية ، وفي جنوب غربي الصحن . وقد سبق أن ذكرنا كيف بدئ بإنشاء المنارة المذكورة في أواخر عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ثم استؤنف بناؤها في عهد ولده الخليفة أبي يوسف يعقوب ، وهو الملقب بالمنصور ، وقد ذكر لنا ابن صاحب الصلاة أنها بنيت بغير أدراج ، يصعد إليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة ، وأنه لما صدر أمر الخليفة ببنائها ، وبناء ما اختل من الجامع ، وذلك في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، شرع في بنائها بالآجر الذي يؤخذ من بناء حجر سور ابن عباد المتقدم الذكر ، وعنى بالبناء أشد عناية ، ودام العمل في ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها أحياناً متقطعة ، فإذا غادر الخليفة إشبيلية إلى الحضرة ، تعطل البناء ، ثم يستؤنف متى حضر . وكان الخليفة المنصور يلازم الجلوس بنفسه على البنائين في المدد التي كان يعاود فيها البناء ، واستمر ذلك إلى أن كانت موقعة الأرك الشهيرة (٢) التي أحرز فيها الموحدون بقيادة المنصور نصرهم الباهر على القشتاليين ، وذلك في سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٥ م) ، فحينما عاد المنصور إلى

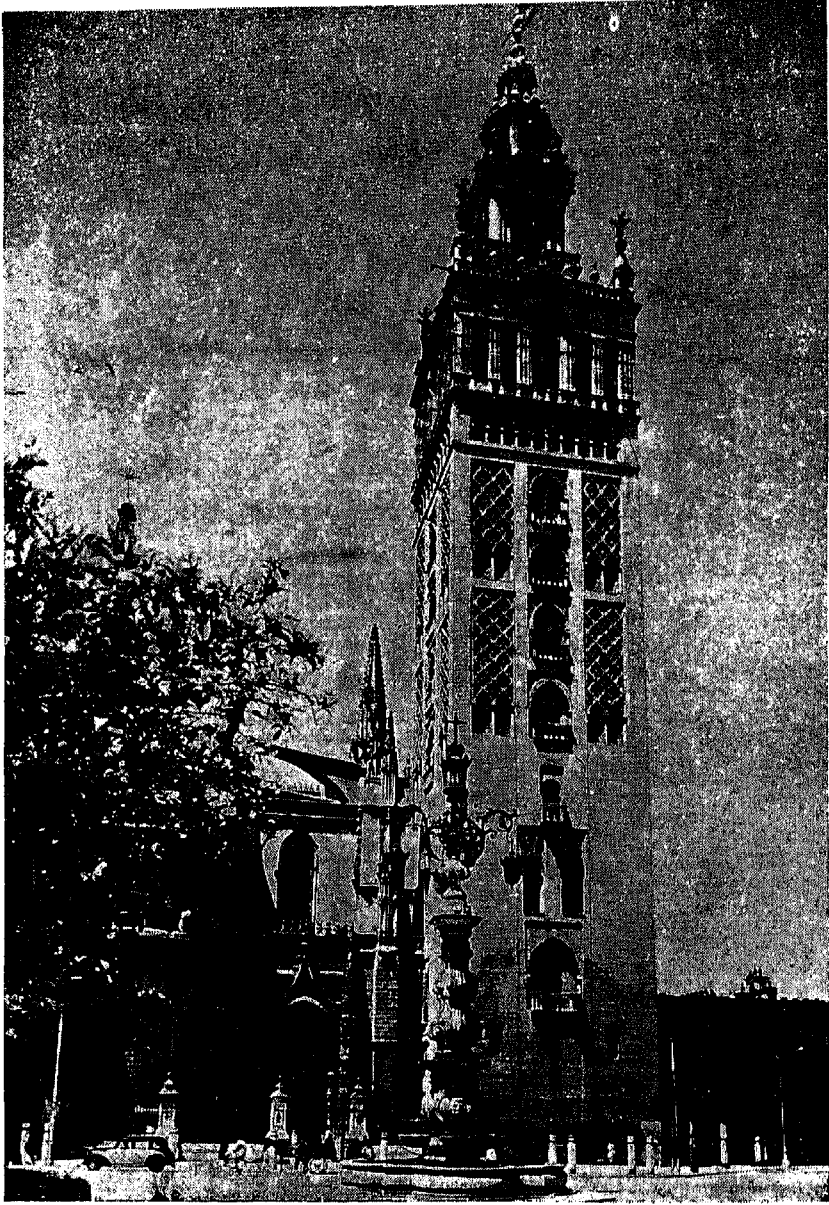
(١) رحلة الغزال ص ٣١ . والفرايلية جمع « فرايلي » Fraile أعنى القس .

(٢) وتعرف في الإسبانية بموقعة Alarcos .



إشبيلية . تفاصيل من الزخارف الخارجية لمئارة المنصور (لآخر الدا) .

إشبيلية مكللا بغار النصر ، وكان بناء المئارة قد تم ولم تبق سوى أعمال التجميل ، أمر بتزويدها بتفافيحها الذهبية المشهورة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفافيح ورفعها إلى أعلى المئارة في حفل كان من شهوده ، قال : « فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله له أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة ، العظيمة الرفعة ، الكبيرة الحرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الإسم والجسم ، رفعت في منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون في إعلاها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة في عمود عظيم من الحديد ، مرسى أصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ربعاً من حديد ، موثقاً هناك ، في تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدّات الأمطار ، ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كبارا



إشبيلية . لآخير الدا LaGiralda أو منارة جامع المنصور .

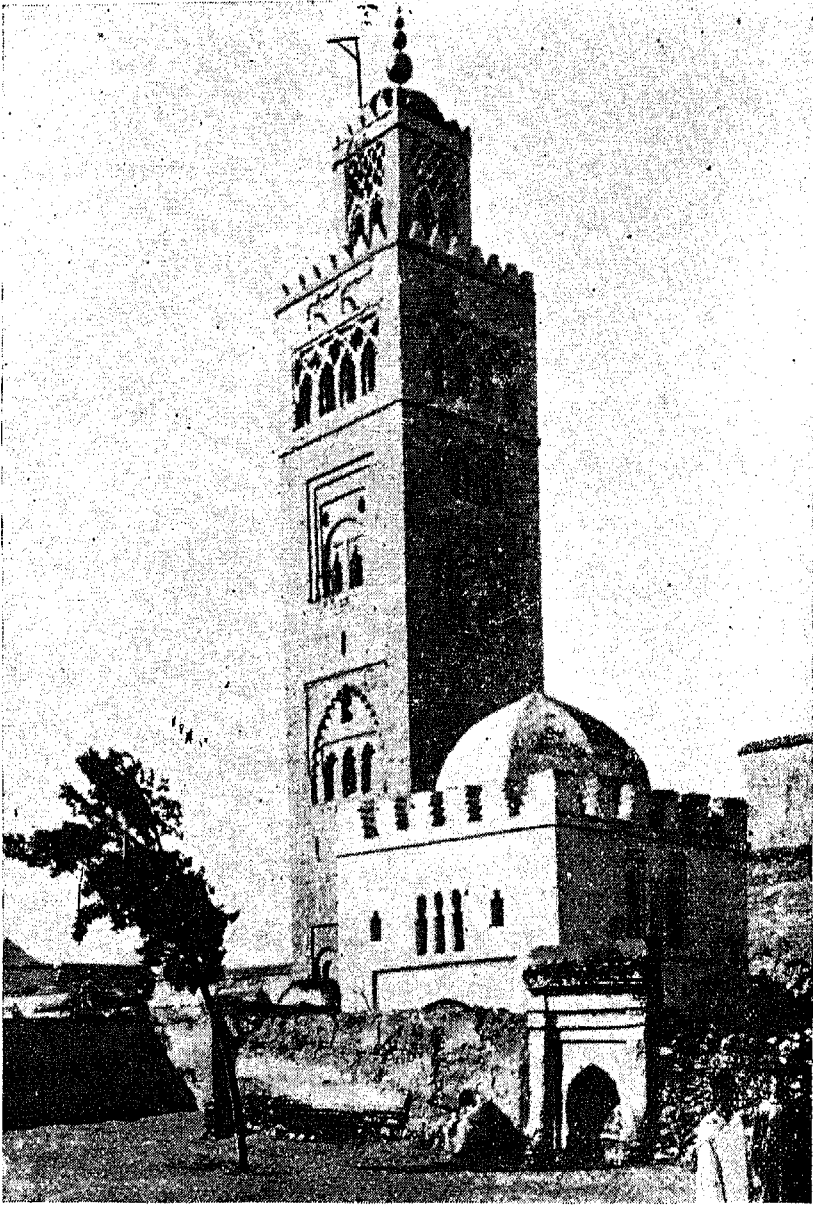
يعقوبية عملها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شفاق الكتان لثلاثين دنس من الأيدي والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتكبير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت في العمود ، وحصلت فيه ، وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيهم ، وأشياخ الموحدين ، والقاضي ، وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر ، بموافقة التاسع عشر من مارس العجمي عام أربعة وتسعين وخمسمائة ، ثم كشفت عن أغشيتها ، فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز ، وبشعاع رونقها ^(١).

ونزيد نحن على ما تقدم أن منارة جامع إشبيلية : كانت قرينة لمئرتين شقيقتين فيما وراء البحر ، هما منارة جامع الكتبية (أو الكتبيين) بمراكش ، وهي التي مازالت تزدان بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم ، ومنارة حسّان (تور حسان) القائمة على مقربة من شاطئ المحيط بمدينة الرباط ، وكلتاهما على نفس الطراز والنمط ، في الداخل والخارج . وقد أمر بإنشاء المئرتين أيضاً الخليفة يعقوب المنصور . وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها في عهد الخليفة عبد المؤمن ، ولكنها لم تكمل إلا في عهد حفيده المنصور ، وعلى أي حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ ، بعد تمام منارة إشبيلية بقليل ^(٢) ، وأقيمت منارة حسان في نفس الوقت ، ولكن بناءها لم يكمل ، ووقف دون القمة العليا . وفي وسعنا بتأمل منارة الكتبية أن نتصور منظر منارة إشبيلية قبل تحويلها إلى برج للكنيسة .

وما زالت منارة إشبيلية ، بالرغم من تحويلها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة ، وهي مربعة الشكل ، بالغة الارتفاع ، وقد اشتهرت عصوراً بجمال هندستها ، وروعة زخارفها ، التي بقي الكثير منها حتى اليوم ، واشتهرت بالأخص بتفانيحها الذهبية ، وكانت الوسطى منها بالغة الضخامة . ومما يذكر أن الذي قام بصنع هذه التفانيح ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم

(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٧١ ا و ب .

(٢) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبعة تورنبرج) ص ١٥١ .



مراكش . منارة جامع الكتبية الشهيرة ، وهي قرينة لآخر الدا .

أبو الليث الصقلي ، وأن قيمة ما أنفق على تذهيب التفافيح ، بلغت من النقد مائة ألف دينار^(١) .

ويبلغ ارتفاع منارة المنصور أو « لاخير الدا » La Giralda كما يسميها الإسبان ستة وتسعين متراً ، ويصعد إليها من الداخل ، بواسطة ممرات منحدره صاعدة مرصوفة بالآجر ، تبلغ أربعة وثلاثين ، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من الخادع الحانية ، لها نوافذ ومشرفيات عربية ، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة . وتعلو هذه الطبقات الأربع ، طبقة خامسة ، ذات أروقة ، ومشرفيات عالية . والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين . ثم تأتي بعد ذلك الطبقة الأخيرة ، وهي اليوم برج أجراس الكنيسة . ذلك أنه قد وقع في الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم ، وكانت تفافيحها الذهبية الأربعة قد سقطت في سنة ١٣٥٥ م ، على أثر زلزال مروع هز أركانها بشدة ، وغاصت في الأرض وأتلفت قشرتها الذهبية الزاهية . وفي سنة ١٤٠٠ حولت قبتها العليا إلى برج متواضع للأجراس ، ولما تم بناء كنيسة إشبيلية العظمى في سنة ١٥٥٨ م ، بدئ العمل في تحويل قمة المنارة إلى برج عظيم للأجراس فأبقى هيكلها الرئيسي بطبقاته الخمس على أصله ، ثم بنى الإسبان فوقه برج الأجراس ، الحالى من طابقين على طراز عصر الإحياء ، واستغرق بناؤه عشرة أعوام ، ونصبوا فوق البرج تمثالاً برونزياً للإيمان "Santa Fe" إرتفاعه نحو خمسة أمتار . وله شارة تدور عند هبوب الريح (يدور بالإسبانية Girar) ، ومن ثم فقد أطلق الإسبان على المنارة اسمها الذى تعرف به وهو « لاخير الدا » "La Giralda" أى « الدوارة » .

ويشير الغزال إلى « لاخير الدا » بقوله : « وصومعتها (أى صومعة الكنيسة) خارجة عن المسجد بقليل ، تشاكل في التشييد صومعة الكتبية فى العلو والضخامة ، والصعود لها من غير مدارج ، إلا أن هذه زادوا فى فتحها علواً فادحاً ، على ما اقتضاه نظرهم محل النواقيس »^(٢) .

وهكذا أصبحت منارة المنصور ، برج الأجراس "Campánula" لكنيسة إشبيلية العظمى ، بعد أن كانت منارة مسجدها الجامع .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) رحلة الغزال ص ٣١ .

يقول العلامة الأثرى الإسباني كونتريراس : « إن « لآخر الدا » تبدو صرحاً كاملاً من الطراز العربي ، وفيها تبدو مظاهر الفن الزخرفي الحقيقي . ومن الأسف أن هذا البرج الجميل ، قد توج بجسم غريب عنه جداً ، لا يسمح لنا أن نتصور وضعها القديم ، وتفاحتها الذهبية ، وألوانها الزرقاء الزاهية »^(١) . وقد كان لطراز « لآخر الدا » ، وجماله وافتنانه ، أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنسي ، المتعلق بالأبراج الكنسية ، فرى في إشبيلية . وفي كثير من مدن الأندلس الأخرى ، كثيراً من الأبراج الكنسية ، قد أقيم على طراز شبيه بطراز لآخر الدا ، وزخارفها وتقاسيمها الأندلسية .

وقد أتيت لنا أن نصعد إلى أعلى برج « لآخر الدا » . وأن نأتي على إشبيلية الحسنة ، نظرة من هذا الارتفاع الشاهق . وهي تبدو رائعة مستديرة الشكل . مكتظة بالشوارع ، والدروب الضيقة ، ومعظم منازلها بيضاء ، وهو اللون المفضل في الأندلس ، ويبدو الفناء الأندلسي في كثير منها ، وفيه نخلة أو نخيل ، وتظللها من الناحية الجنوبية ، المقابلة للنهر ، بعض التلال ، وتبدو حدائق القصر ، وحدائق أخرى من وراء « الكاتدرائية » رقاعاً خضراء يانعة .

وتنصب « لآخر الدا » ، في قلب إشبيلية . بقامتها الرشيقة الشاهقة . بالغة الروعة والحلال ، كأنها ملكة تزهو وتتسامى . وهي تشرف على إشبيلية كلها من نواحيها الأربع ، وتشرف على نهر الوادي الكبير القريب منها . وعلى واديه اليناع كله ، وتستطيع أن تراها وأنت بالقطار من مسافات بعيدة . ومن آثار إشبيلية التي يبدو فيها الطابع الأندلسي قوياً واضحاً . كنيسة « سان ماركوس » ، وقد صنع برج نواقيسها ، على طراز منارة الجامع ، وهو يعتبر أجمل « منار » في إشبيلية بعد « الحير الدا » .

قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla

ولابد لنا أن نشير أولاً ، إلى أن كلمة « القصر » "Alcázar" ، أصبحت في إسبانيا ، علماً يطلق على الصروح أو القصور الملوكية الإسلامية ، أو أطلالها

Rafael Contreras : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de (١)
Granada Sevilla y Córdoba. p. 129

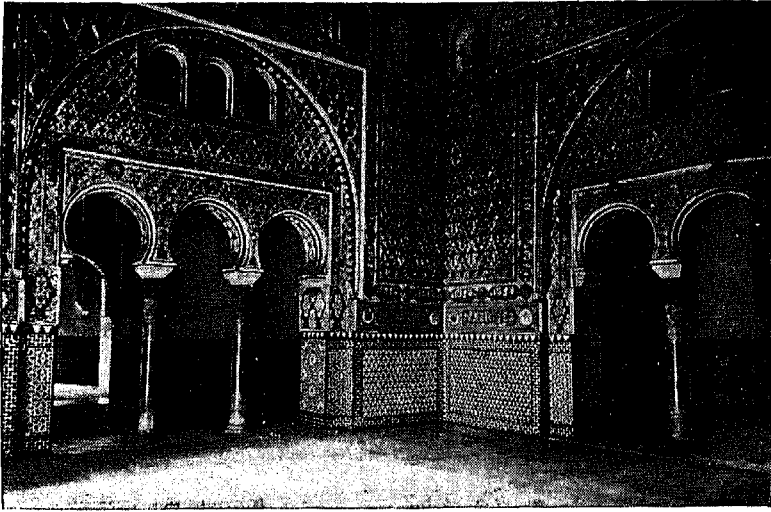
الباقية ، في قواعد الأندلس الذاهبة ، عدا غرناطة التي اختصت قصورها الملكية باسم « الحمراء » . وبالرغم من أن قصر إشبيلية معظمه من إنشاء الملوك الإسبان ، فإنه يسمى كذلك ، لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامي سابق ، وأقيم على الطراز الأندلسي .

ويقع قصر إشبيلية ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفي جنوبها الشرقي . والظاهر أن واجهة مدخله من بقايا قلعة أندلسية قديمة ، ينم عن ذلك طرازها ومشارفها العربية . وتقوم بعد الفناء الذي يلي المدخل ، ثلاثة عقود قديمة ، يبدو أيضاً أنها من عقود الصرح الأندلسي القديم ، ثم يلي هذه العقود ساحة شاسعة ، تقوم عقودها الحائنية ، على أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض ، ويبدو طرازها الأندلسي واضحاً .

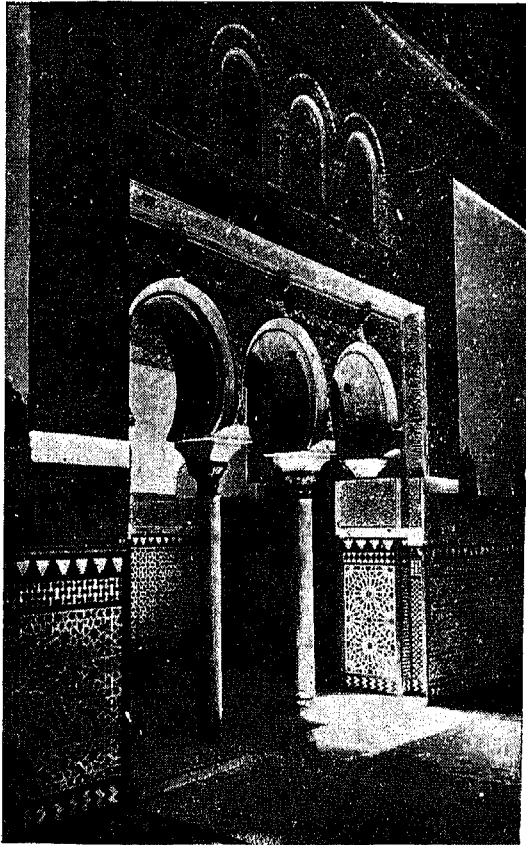
وهنا يبدو لك الصرح الأندلسي بأبائه وعقوده ومشرفياته وزخارفه العربية ، في ذروة روعته وجماله . « والقصر » طابقان عظيمان . والطابق الأول ، هو الذي يبدو في معظمه أندلسي الأصل ، وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة ، من إنشاء ملوك إسبانيا . والطابق الأعلى كله من صنع إسباني ، أجرى تقليداً للنمط الأندلسي .

ويحتوي الطابق الأول على عدة أفنية وأبهاء ، لكل منها اسمه الخاص . وهي : قاعة العدل ، وفناء الصيد ، وفناء العذارى ، وهو كارلوس الخامس ، وهو السفراء ، وجناح فيليب الثاني ، وفناء العرائس ، وجناح الملوك الأندلسيين ، وجناح الملوك الكاثوليك (١) . وأهم وأبدع هذه الأبهاء « هو السفراء » ، وهو هو شاسع فخم تطله قبة عالية جداً معقودة على عمود ومقرنصات عربية بدیعة الزخرف . وجدرانها مكسوة بالقيشاني الفخم ، تتخلله نقوش عربية مقلدة في الغالب ، وفي دائرة الجدران الوسطى ، نقشت عبارة عربية مكررة في الدائرة كلها ، وهي « الغبطة المتصلة » ، وإلى جانبها رسوم أسود صغيرة . وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي الأصيل قوياً ، وفي أفنياتها وأبائها عدة أبواب كبيرة وصغيرة ، أندلسية الأصل بها نقوش عربية .

(١) وهي بالأسبانية: P. de las Doncellas, P. de la Monteria, Patio de la Justicia, P. de los Monecas, P. de Felipe II, Salon de Embajadores, P. de Carlos V, Dormitorio de los Reyes Mojos, D. de los Reyes Católicos.



قصر إشبيلية .
بهو السفراء



إشبيلية . عقود
من جناح الملوك
الأندلسيين .

ويتخلل زخارف القصر المدجنية ، كثير من العبارات والتحيات والأدعية الإسلامية ، وبعض الآيات القرآنية ، وهي مقلدة منقولة عن نظائرها في بعض الصروح الأندلسية المعاصرة .

في أبواب « قاعة السفراء » ، نقشت عبارة « الملك لله » يمينا ويساراً ، على مصاريع الأبواب . وفي الجزء الأعلى من هذه الأبواب ، توجد الكتابة المهمة الآتية ، وقد نقشت في لوحة زرقاء :

« أمر مولانا المعظم المرفع ضمن بضر ، ملك قشتالة وليون ، أدام الله سعده ، وهنيء أيامه ، بعمل هذه الأبواب الحديدية ، لهذه القبة السعيدة ، بما أجاب من العزة والرفعة ، من حشد السرور والسعود » .

وفي هذه اللوحة بالذات توجد عبارة « ولا غالب إلا الله » (وهي شعار بني نصر ملوك غرناطة) منقوشة ثمانى مرات يمينا وشمالا ، بالأزرق والأبيض ، بخط كوفي جميل .

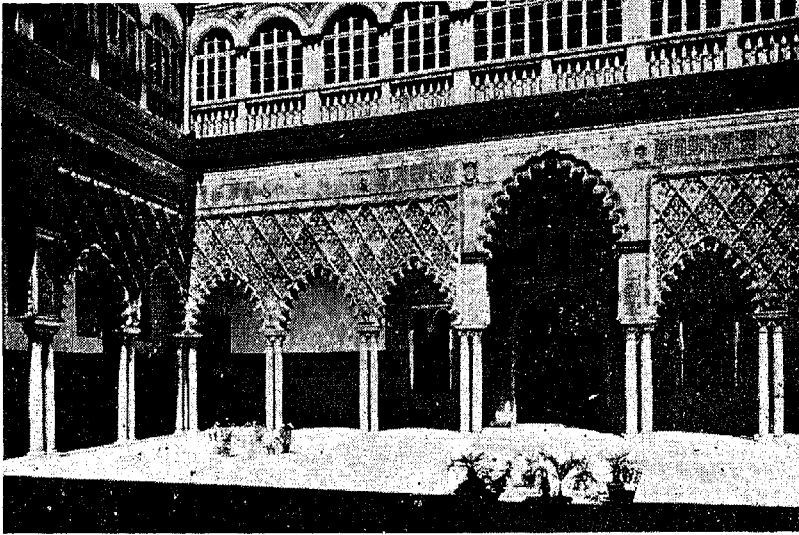
وفي قاعة السفراء ذاتها توجد العبارة الآتية منقوشة بالكوفية : « عز لمولانا ضمن بدر ، أيده الله ونصره » وضمن بضر أو بدر هو ملك قشتالة بيدور الأول . وفي الجزء الأعلى من المصراع الأيسر للباب ، توجد عبارة مشوشة مختلطة الألفاظ ، تشير إلى أن الذى اضطلع بالعمل هم « المعلمون الطليطلون وذلك عام ألف وأربع مائة وأربع » .

ويرى المستشرق أمادوردى لوس ريوس ، أن في هذه العبارة ما يدل على أن هذا القصر ، لم يقيم بإنشائه الفنانون الغرناطيون كما يظن البعض ، بل قام بإنشائه أساتذة وصناع من المدجنين من أهل طليطلة (١) .

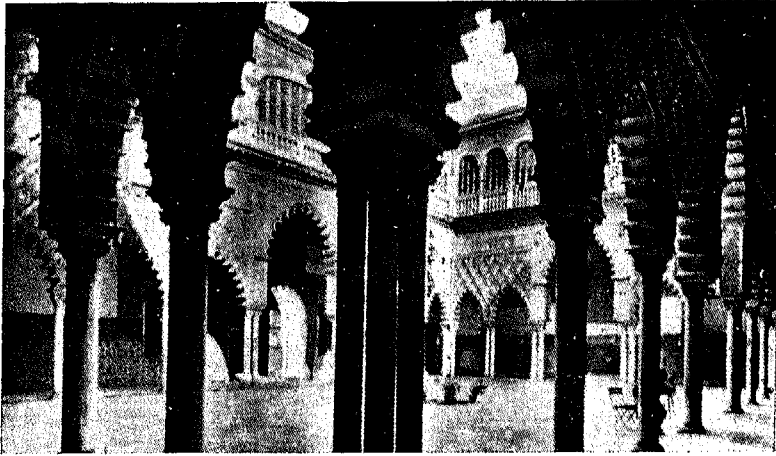
ونقش على الحزام الخارجى « لفناء العذارى » ما يأتى « الحمد لله على نعمه على نعمه على نعمه » .

ونقش في البهو الأيمن المسمى « جناح الملوك الأندلسيين » في القبلة ، هذه الأبيات الشعرية :

يأيها المجلس الحديد يأتيك الطالع السعيد
لازالت الزهر خير مثنوى حتى أعاد وهو عييد



قصر إشبيلية . مدخل فناء العذارى



قصر إشبيلية . فناء العذارى

ومن ينل المحب عيناً ومات غيظاً... (١) .
وفي أفاريز هذا البهو في مواضع مختلفة « المنة لله . العظمة لله . السعد والتوفيق
نعم الرفاق » ، ثم « عز لمولانا السلطان ضمن بطر... » .
وفي البهو الخارجى لهذا الجناح فى قوسه الأعلى ، نقشت هذه العبارة مكررة
« يا ثقى يا أملى ، أنت الرجاء ، أنت المولى ، إختم بخير العمل » .
ونقشت على جدران الطبقة السفلى من القصر بصفة عامة ، هذه العبارة مكررة
بكثرة : « النعمة الشاملة » ، وكذلك نقش فى الحزام الخشبي الأوسط هذه العبارات
مكررة : « اليمن والسلامة . العزة والكرامة . السعد الدائم » .
ونقش فى الساحة الكبرى "Patio Principal" عند المدخل « الحمد لله
على نعمه » ، ثم العبارات الآتية مكررة « عز لمولانا . الملك لله . اليمن والإقبال .
ولا غالب إلا الله » .

ومما يلفت النظر بوجه خاص ، أنه نقشت فى زاوية من فناء العرائس آية
الكرسى « بسم الله وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة
ولانوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده ... » . ومن
المعروف أن الصناع المدجنين كانوا يتقلون كثيراً من الآيات محرفة ، بطريق
التقليد الوضعى فقط ، حتى أنهم كانوا يثبتون بعض هذه الآيات ، فى زخارف
الأديار ذاتها ، دون أن يشعروا أنها من القرآن ، وقد شاهدنا مثلاً من ذلك ، فى
مصلى الدين الملكى ببرغش ، حسبما نذكر بعد عند كلامنا عن هذا المدير .
وأما الطبقة العليا من القصر فهى كلها من إنشاء الملوك الإسبان ، وقد أنشئت
تقليداً للطراز الأندلسى ، وهى تحتوى على الأماكن الآتية : مصلى الملوك
الكاثوليك . بهو الملوك . جناح الملك بيدرو . وبه عدة غرف وأبهاء ذات مشرفيات
عربية بديعة ، وقد فرشت جميعاً بالأثاث والرياش الفخم ، وزينت جدرانها بطائفة
من الصور لكابر الفنانين . والبناء كله من طراز أندلسى محاكى الطابق الأول ،
وقد غطيت جدرانها كلها بالقيشاني الملون ، ونقشت به أيضاً نقوش عربية مقلدة .
وتختلف الرواية فى أصل « القصر » الأندلسى . ويرى البعض أنه يقوم
فى بعض أجزائه على أنقاض قصر المعتمد بن عباد ، وقد كان موقعه قريباً من

(١) كلمة غير مقروءة .

النهر في مثل البقعة التي يقوم عليها «القصر». وقد رأينا فيما تقدم عند الكلام على بناء صومعة جامع إشبيلية (لاخيرالدا) أنها بنيت من أنقاض سور قصر ابن عباد، ومعنى ذلك ان بقايا قصر ابن عباد، كانت قائمة حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، ومن ثم فإنه يبدو من المحقق أن معظم الأجزاء السفلى لقصر إشبيلية، قد بنيت في هذه الفترة بالذات أعنى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، أيام الخليفة أبي يعقوب يوسف وولده الخليفة المنصور الظافر في معركة «الأرك» الشهيرة. وتضع الرواية الأندلسية تاريخ إنشاء هذا القصر في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٣م) وقد بدأ بإنشائه الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأنشأ في الوقت نفسه قنطرة من السفن على نهر الوادي الكبير، وأصلح أسوار المدينة، وما زالت تقوم إلى اليوم في إشبيلية بقية من الأسوار الموحدية. وابتنى المسجد الجامع في نفس هذا التاريخ حسبا تقدم. وليس من المستبعد أن يكون هذا القصر الذي أنشأه الخليفة الموحدى، قد أقيم على بقايا قصر أندلسى سابق، ربما كانت بقايا قصر المعتمد بن عباد. ويذكر لنا الغزال سفير سلطان المغرب إلى ملك اسبانيا أنه حينما زار إشبيلية سنة ١٧٦٦، انزل «بقصر إشبيلية»، وهو يقول «إن هذه الدار (أى القصر) تقع داخل قصبة أحد ملوك الإسلام، وقيل انها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله»، «ولإنها من الديار التي لم يكن مثلها بالبلاد الإصنيولية بالكلية، إلا ما كان بقرنطة على ما قيل»، ثم يصف القصر وحدثه بحماسة وإعجاب (١). وكان يحيط بالقصر أيام الموحدين، أسوار وأبراج منيعة، بقى منها إلى اليوم برج وحيد على النهر، هو البرج المثلث المسمى «برج الذهب» «Torre de Oro» الواقع جنوب غربى القصر، على ضفة نهر الوادي الكبير، على مقربة من قنطرة سان تلمو، وهو برج ذو ثلاث طبقات ويبلغ إرتفاعه نحو خمسة عشر متراً. وقد أنشئ هذا البرج في سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) بإشارة السيد أبى العلاء حاكم إشبيلية الموحدى يومئذ، وكان يربطه بالقصر سور، ويعتبر مركز دفاع أممى لباب القصر (٢).

ولما افتتح المثلث فرديناند الثالث الملقب بسان فرناندو مدينة إشبيلية في سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) أبقى «القصر» كما هو. ثم قام الملك بيدور الأول

(١) رحلة الغزال ص ٢٦.

(٢) راجع روض القرطاس (طبعة تورنبرج) ص ١٦١. ومجلة Al-Andalus

(بطرس) بتغييرات وإضافات كبيرة فيه ، ما بين سنتي ١٣٥٣ و ١٣٦٥ ، وأصلح أبهائه الملك خوان الثاني ، وابتنى فيه الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيسابيلا ، مصليات وقاعات جديدة . ثم جاء الإمبراطور شارلكان غير كثيراً من معلمه . وأحدثت فيه بعد ذلك تغييرات أخرى أيام فيليب الثالث وفيليب الخامس . ثم بذلت بعد ذلك مجهودات كثيرة لإعادته وإعادة نقوشه كما كان ، قبل أن يتناوله الملوك الإسبان بالتغيير والمسح . ومع أن هذه التغييرات المتوالية ، قد أفقدته كثيراً من معالمه الإسلامية ، إلا أنه مازال بشكله الحالي يعتبر نموذجاً بديعاً للفن الأندلسي والفن المدجني أي الأندلسي النصراني .

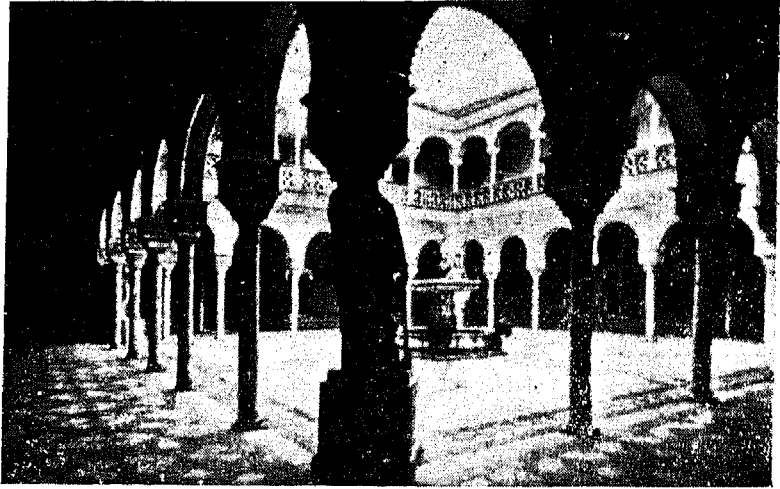
يقول العلامة الأثري كونتريراس : « إن « القصر » لا يكتسب الطابع الغرناطي ، الذي أسبغ في هذا الوقت بالذات على « بهو السباع » ببناؤه وزخارفه الرائعة » . ثم يقول « وفي قصر يعقوب تغيض هيبة جيل من أجيال البطولة ، وفيه تمثل حياة الملوك النصراني الذين عاشوا فيه ، وأمدوا تاريخنا الحميد بألاف الصفحات ؛ إن الموحدين الذين طبعوا هذا الصرح بأنتى ذكرياتهم الإفريقية ، قد تركوا في جدرانها الآثار الخيالية التي اشتقوها من خرائب الشعوب المغلوبة » (١) .

ويالحق بالقصر حدائقه العظيمة الياقة ، وهي منسقة على الطراز الأندلسي وبها كثير من أشجار البرتقال ، والنخيل العربي ، وتتخللها رواشن ساحرة كثيرة . والظاهر أنها قد أقيمت مكان حدائق القصر القديمة .

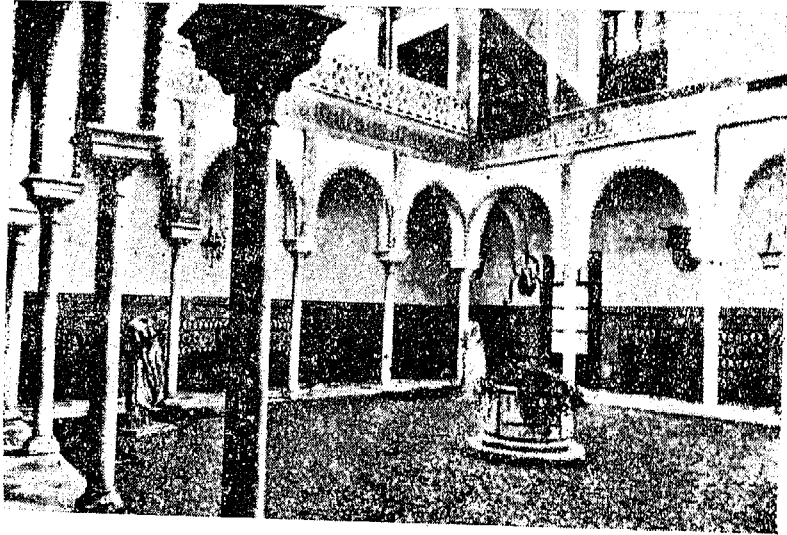
دار پلاتوس

ليست هذه الدار أثراً أندلسياً ، ولكنها قطعة من الفن الأندلسي الإسلامي الخالص ، وهي كما يستفاد من لوحة في فناءها من لإنشاء سادتها الأوائل أسرة « مدينا سالي » . وقد أنشئت في سنة ١٥٣٣ ، وتوالت في ملكيتها دوقات « مدينا سالي » وألبا . وقد ذكر في لوحة أخرى أن البناء قوطي الطراز ، وأن فناءه مصنوع على طراز أفنية قرطبة وغرناطة العربية . وفناؤه أجمل ما فيه ، وهو مربع ذو عقود عربية ، ستة في الطول وخمسة في العرض ، وفي وسطه نافورة مرمرية بديعة ، وقد كسيت جدرانها بالقيشاني الحميل المختلف النقوش والألوان ، وقد نقشت عليها

(١) R. Contreras : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y Córdoba, p. 102, 103 & 109.



إشبيلية . فناء دار بلاتوس وعقوده العربية



إشبيلية . فناء دار علي الطراز الأندلسي

العبرة الآتية « الملك الدائم لله . العز القائم لله » . ووراء الفناء بهو في داخله مصلى صغير ، وسقفه مصنوع من الخشب المقرنص ، وبه زخارف بيضاء مدجنية فوقها شريط به نقوش عربية لاتقرأ ، وسقف البهو الداخلى الأصغر أيضاً من الخشب المقرنص ، وبه زخارف عربية .

وفي الدور الأعلى أروقة ذات عقود تطل على الفناء ، ويؤدى إليها سلم عربى جميل ، وفوقه قبة عربية بها زخارف مذهبة ، وتحته مربع من النقوش المدجنية . وقد سمي هذا البناء بدار بلاتوس "Casa de Pilatos" حسبما جاء فى لوحة إنشائه ، تشبهاً بالقصر المائل الذى كان فى بيت المقدس للحاكم الرومانى بلاتوس . وهو يقع فى وسط مدينة إشبيلية وتفضى إليه دروب ضيقة .

بعض النقوش العربية الأخرى

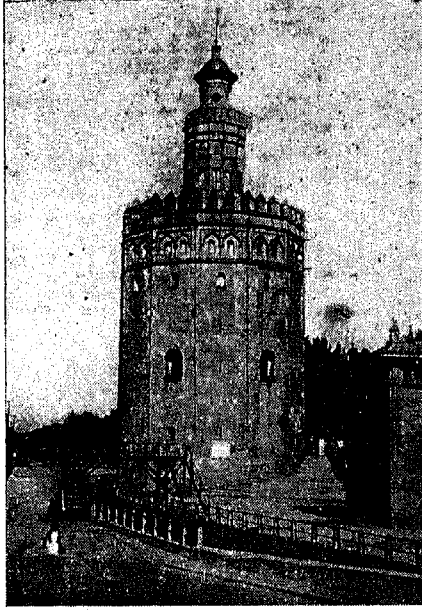
وفى متحف إشبيلية الأثرى (الأركيولوجى) توجد عدة لوحات وقطع رخامية عليها نقوش عربية ، منها لوحة رخامية طولها نحو ثلاثة أمتار وعرضها أقل من نصف متر ، وقد كتب عليها بالكوفية البدائية تاريخ إنشاء جامع ابن عبدبس ، وهو كما قدمنا جامع إشبيلية القديم ، وذلك على النحو الآتى :

« يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المبين الأمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عبدبس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون » .

وقد أشار ابن صاحب الصلاة ، عند حديثه عن انتقال الخطبة إلى جامع إشبيلية الموحدى ، إلى هذه اللوحة ، وقد كانت مثبتة فى الفناء الخلفى للجامع ، المقابل للمحراب ، وذكر لنا أنه كان مكتوباً عليها بخط قديم هذا النص بذاته (١) . ومنها لوحة جصية مأخوذة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة «سلفادور» وهى التى أقيمت فوق موقع مسجد ابن عبدبس المتقدم الذكر ، عليها كتابة كوفية فيها بعد البسملة بأن أعلى المنار «قد أمر ببنائه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عباد ، وذلك عقب تهدمه بسبب الزلزال ، فى مستهل ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة » ، كما توجد قطعة رخامية صغيرة عليها « أبو القاسم محمد » .

(١) كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » لوحة ١٦٩ ب .

ويذكر العلامة المستشرق أمادور دي لوس ريوس ، أنه توجد في متحف إشبيلية الإقليمي لوحة رخامية ، كانت محفوظة في الأصل بكنيسة « سان خوان دي لابلما » عليها بالخط الكوفي ما يأتي :



إشبيلية . برج الذهب

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبي الحسين عبد الله بن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده وأمره وإعزازها ، بإقامة هذه الصومعة بمسجدها ، صانه الله ، طلباً للجزيل الأجر والثواب . فتمت بعون الله على يدي الوزير الكاتب الأمير أبي القاسم بن حمجاج وفقه الله ، وذلك في شعبن من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة» (١) . ولكني لم أوفق إلى زيارة المتحف الإقليمي هذا ، ولم أجده مذكوراً بين معالم إشبيلية اليوم .

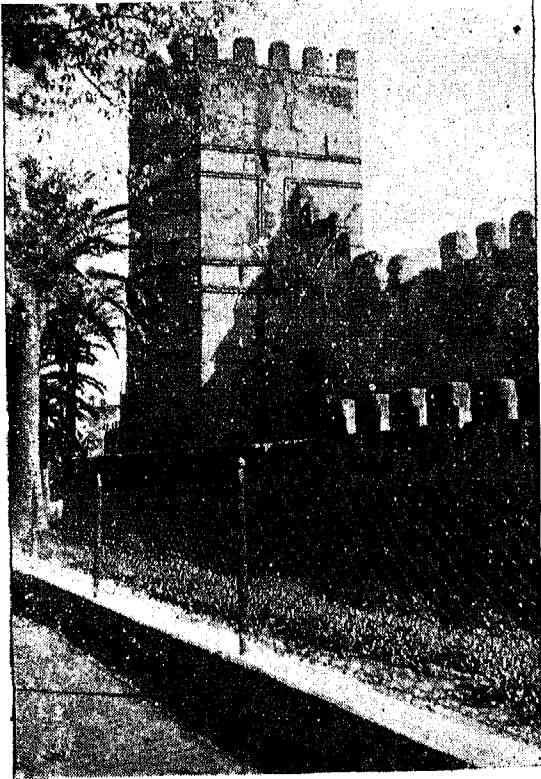
الأسوار الموحدية

ولم يبق من أسوار إشبيلية القديمة الرومانية العربية داخل المدينة سوى أبراج القصر ، وبرج الذهب "Torre de Oro" ، الواقع على ضفة الوادي الكبير ، وقد تقدم ذكره ؛ بيد أنه ما زالت توجد خارج المدينة بقية كبيرة من الأسوار القديمة ، يبلغ طولها نحو أربع مائة متر ، وارتفاعها نحو ثمانية أمتار ، وتمتد من الباب المسمى « باب ماكارينا » حتى قبالة دير « الكابوسين » ، ومنها جزء كبير يرجع إلى عصر الموحدين ، ويحترقها عقدان قديمان إلى جانب « باب ماكارينا » ؛ وبها ستة أبراج

(١) Amador de los Ríos : Incripciones Arabes de Sevilla, p. 107. Lévy Provençal : Incriptions Arabes d'Espagne, p. 40.

موحدية من أصل مائة وستة وستين برجاً كانت موزعة على الأسوار كلها ، ومنها أربعة مازالت تحتفظ بكامل بنائها ، وتمتد هذه الأسوار بجذاء « شارع الكابوسين » الفسيح ، وهو من أعظم شوارع إشبيلية الخارجية . ومازالت تعرف حتى اليوم « بالأسوار الموحدية » Las Murallas Almohades

* * *



وإشبيلية ، إذا استثنينا غرناطة ، أشده المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسي . وربما كان ذلك لطول إقامة المسلمين بها ، فقد حكموها أكثر من خمسة قرون ، ومن ثم فإن خططها وأبنيتها تأثرت بالطابع الإسلامي إلى حد كبير . ومازالت ثمة بها أحياء برمتها على نسقها الأندلسي القديم ، من حيث الدروب الضيقة ، والمنازل ذات الأبواب المزدوجة والأفنية الأندلسية . وهذا الطراز من المنازل يحتوي على فناء مستدير ، في وسطه نافورة ، ويحيط به سياج من البلور أو تزين جوانبه

إشبيلية . جانب من الأسوار الموحدية وأحد أبراجها

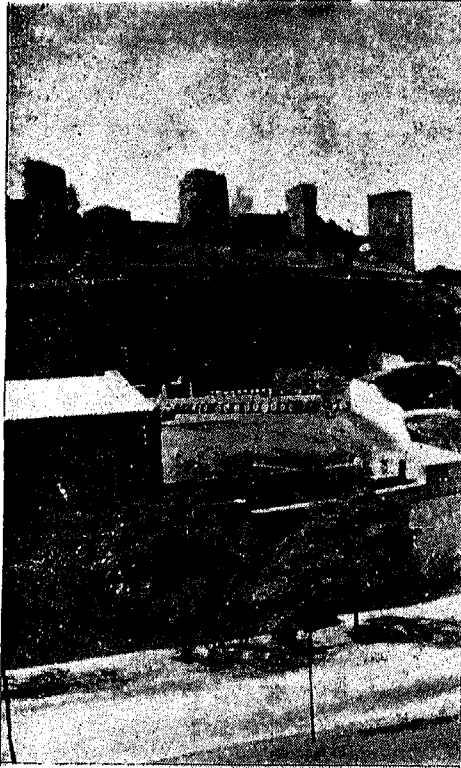
بالخرف الملون ، ويتصل الباب الخارجي برواق رخامي . وفي الدور الأول تقام أروقة ذات عمد مطلة على الفناء ، وهذا الفناء هو مجلس الإشبيليين المفضل في الصيف ، حيث يجتمعون حول النافورة الرطبة . ويبدو الطابع الأندلسي على أشده في حي « سانتا كروث » Santa Cruz أي الصليب المقدس ، أحد أحيائها الشعبية القديمة . وهو أقرب أحياء إشبيلية شهياً بحي البيسازين الشهير في غرناطة . بل إن الطابع الأندلسي يبدو قوياً في أحياء إشبيلية وصروحها الحديثة .

ففي كثير من المنازل والفنادق الكبيرة ترى الأفنية الأندلسية البديعة ، وفي وسطها النوافير والحضرة ، وقد أطلت عليها المشرفيات والشبايك العربية ، وترى الحدران ، وقد زينت بالحزف الملون ذي الزخارف الأندلسية البديعة .

ويغلب الروح الأندلسي المرح على إشبيلية ، وهي في ذلك على تقيض من غرناطة التي يسودها الجمود والتحفظ ؛ وفي إشبيلية تعرض أجمل مناظر الرقص الأندلسي ، وتتل الأغاني الأندلسية المرحية ، وتعرض أجمل الأزياء والشيلان الأندلسية ، وأبداع منتجات الخزف الأندلسي الملون ، وعلى العموم فإن إشبيلية تثير بكل ربوعها وصورها ، ومعالمها وآثارها ، ودروبها ومغانها ، في النفس كثيراً من ذكريات المدينة الأندلسية المذهبة .

قلعة جابر

ويوجد في بلدة « قلعة جابر » الصغيرة "Alcála de Guadaira" ، التي



أطلال قلعة جابر

تقع على مسافة قريبة من جنوب شرقي إشبيلية ، أثر أندلسي هام ، هو عبارة عن قلعة جابر . وقد كانت من حصون إشبيلية الأمامية الشرقية ، واشتهرت بحصانتها وأهميتها الدفاعية منذ عهد الطوائف وقد وسعت وجددت أيام الموحدين في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وسقطت في أيدي القشتاليين عند حصارهم لإشبيلية في سنة ١٢٤٧ م . وقام النصارى خلال القرن الخامس عشر بعمل تعديلات ، وإضافات كثيرة فيها ، ولكن بقيت

أجزاء كثيرة من بنائها الأصلي . وتقع قلعة جابر فوق ربوة عالية وتشرف على المدينة الصغيرة من الجنوب ، وتشغل أطلالها منطقة واسعة ، وتتكون من فناءين كبيرين يشرف على كل منهما أبراج تبلغ نحو العشرة في الفناءين . ومدخل كل منهما عقد عربي . وتمتد مساحة القلعة بعد ذلك إلى مسافة كبيرة ، وتقوم من حولها بقية كبيرة من أسوارها القديمة . وهي ليست عالية . وقد أنشأ الإسبان في تلك الساحة بعض أبنية حديثة ومنتزهات . ومنها كنيسة القديسة آجيلا *Sta Aguilá* وهي حامية المدينة . ويوجد في نهاية الساحة الخارجية عقدان قويان وبقية أخرى من الأسوار . وتبلغ واجهة القلعة الرئيسية المطلة على المدينة نحو مائتي متر ، وبرجها الرئيسي ضخم مربع الشكل .

وقد كانت قلعة جابر أيام الموحدين من أهم النقاط الدفاعية الشرقية حول إشبيلية ، وكان الموحدون قد أقاموا حول إشبيلية - وهي قاعدة حكمهم في الأندلس - سلسلة من الحصون القوية كانت قلعة جابر من أضخمها وأمنعها . فلما سقطت قلعة جابر في يد النصارى ، غدت بلورها مركزاً للدفاع عن إشبيلية ، عاصمة قشتالة الجديدة ، ضد هجمات المسلمين .

٤ - قرمونة

Carmona

ويتبع الكلام عن إشبيلية ، الكلام عن مدينتين ، تقعان على مقربة منها ، ولو أنهما ليستا من الناحية الاصطلاحية ، من القواعد الأندلسية الكبرى ، هما قرمونة وإستجة .

تقع مدينة قرمونة على مقربة من جنوبي نهر الوادى الكبير ، فى شمال شرقى إشبيلية ، على قيد اثنتى وثلاثين كيلومتراً منها ، فى بسط من الأرض ، وافر الخضرة والحصب ، كباقى تلك الرقعة الكبيرة البانعة التى يحتضنها الوادى الكبير فى حنيته نحو الشرق ، والتى تغمرها غابات الزيتون ، وحقول القمح الخضرة ، وتعتبر بجمالها من أجمل رفاع الأندلس وأخصبها .

وقد كانت قرمونة أيام الدولة الأندلسية من أهم وأمنع مدن ولاية إشبيلية . وتنوه الرواية الإسلامية بعراقة قرمونة وحصانها ، وتنوه بالأخص ببابها الشهيرين الباقيين إلى اليوم ، وهما باب إشبيلية ، وباب قرطبة^(١) . وقد قامت بها أيام الطوائف مملكة بنى برزال البربرية ، ثم افتتحها بنو عباد ، وضمت إلى مملكة إشبيلية ، واستمرت تلعب دورها فى تلك المنطقة من الأندلس الوسطى ، حتى استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة فى سنة ١٢٤٧ م ، قبيل استيلائه على إشبيلية بأشهر قلائل .

وقرمونة مدينة كبيرة ، يبلغ سكانها نحو أربعين ألفاً ، وقد بنيت أحيائها الوسطى فى بطن الوادى ، وأحيائها الحانبية من الناحيتين الشرقية والغربية على ربوتين صاعدتين ، على هيئة ضلعى المثلث . والقسم القديم من المدينة ، وهو الذى يحتل مكان المدينة الأندلسية ، يبدو أنه هو المحصور ما بين باب إشبيلية جنوباً ، وباب قرطبة شمالاً ، وباب إشبيلية هو بداية الربوة الصاعدة حتى باب قرطبة ، وتقع فى داخلها ووسطها الكنيسة العظمى . أما المدينة الحديثة ، فتمتد غرباً من باب إشبيلية حتى المقابر الرومانية التى تقع عند مدخل المدينة . وتحترق

(١) راجع الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٥٨ .



قرمونة . مدخل المدينة وقد ظهر فيه باب إشبيلية وجزء من أسوار القصبة .



قرمونة . باب إشبيلية
وهو بابها الغربي

المدينة الداخلية شوارع طويلة ضيقة ، وبها السوق الكبير ، وهي تبدو على العموم ذات طابع أندلسي واضح .

الآثار الأندلسية

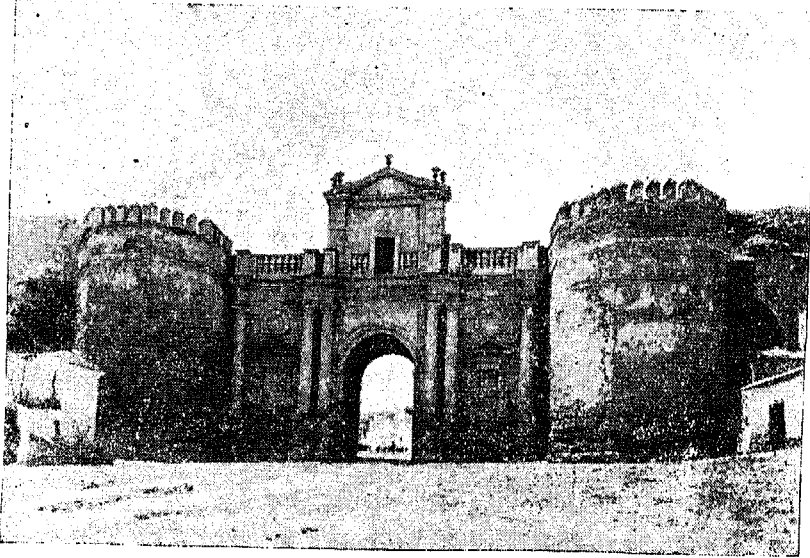
باب إشبيلية : وهو من أعظم وأروع الأبواب الأندلسية الباقية ، وهو عبارة عن عقد ضخيم يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، واتساعه من أسفل نحو خمسة ، ومن أعلى نحو أربعة ، ويعلوه من الأمام عقد أكبر مستدير ، وفوق الباب بقية شرفة كبيرة عالية ، تبلغ واجهتها نحو خمسة عشر متراً ، ويبلغ ارتفاع الباب والشرفة معاً نحو العشرين متراً ، ويبلغ عمق الباب أو عمره نحو عشرة أمتار ، وينتهي من الناحية الأخرى بعقد مماثل لعقد المدخل ، وبينهما من الداخل عقد متوسط ، ثم يأتي بعد الباب وعقوده الثلاثة ، وهي المغطاة ، بنحو عشرة أمتار من العراء ، عقد آخر عمقه نحو ستة أمتار ، وإلى يمينه قطعة هائلة من السور الأندلسي يبلغ طولها نحو خمسة وعشرين متراً ، وارتفاعها نحو ثلاثين ، وتتوج العقود والشرفة من أعلى ، السواري العربية المعروفة ، ويبدو الأثر كله في حالة رائعة من القوة والمناعة ، ويتوسط بموقعه قسمى قرمونة ، القديم منهما والحديث . وقد سمي باب إشبيلية لأنه يتجه نحو الجنوب الغربي إلى طريق إشبيلية .

باب قرطبة : وهو عقد ضخيم مزدوج عمقه نحو ثمانية أمتار ، وعرضه نحو سبعة أمتار وارتفاعه نحو عشرة ، وإلى كل من يمينه ويساره عضادة عرضها نحو ثمانية أمتار وارتفاعها نحو اثني عشر متراً ، وبها ثلاثة أعمدة . ومن الواضح أنها إضافة متأخرة . ويوجد أيضاً إلى كل من يمين هاتين العضادتين ويسارهما ، قاعدة برج ضخمة مسدسة الشكل ، قد بنيت بالأحجار الكبيرة الصلدة ، وهما تحتفظان بأصلهما العربي ، وأما الباب فقد أدخلت عليه تغييرات ، ولكن بقيت في أسفله الأحجار الصلدة التي يبدو أنها قديمة ، وقد بنيت فوق أعلى الباب مقصورة نصرانية . وقد أقيم في الناحية الأخرى من الباب عن كل من يمينه ويساره ، عمودان يرتفعان عن الأرض نحو مترين ، وظاهر من موقع الباب ، وكونه يطل على الوادي والحقول المجاورة ، ويجاور الربوة الصخرية ، أنه كان نهاية المدينة من الشمال ، وقد سمي باب قرطبة لأنه يتجه نحو الشمال الشرقي إلى طريق قرطبة ،

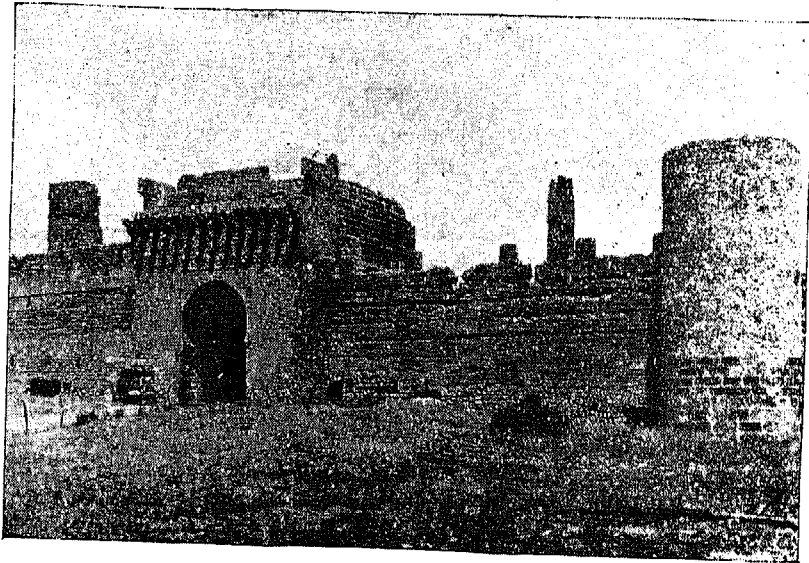
ومن المقرر من الواجهة التاريخية أن باب قرطبة يرجع في القديم إلى أصل روماني ، ثم جدد أيام المسلمين ، واتخذ طابعه الأندلسي ، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وتجديدات قام بها ملوك قشتالة .

قصر مرشانة : ويطلق هذا الاسم على تطل ضخم تبلغ واجهته نحو مائة متر ويقع على ربوة عالية تطل على الوادي ، وتبدو منه المدينة بيضاوية الشكل ، وفي وسطها الكنيسة العظمى ، ومدخل هذا التطل باب ضخم ذو ثلاث عقود متواصلة وعليه شرفة عالية ، قد تآكلت حافتها ، وإلى يمينه برج مثلث ، ومن ورائه ساحة صغيرة ، يتلوها عقد آخر ، وتبدو الأطلال داخل الصرح الضخم متناثرة في كل ناحية ، ويبلغ عرضه من الداخل نحو ثمانين متراً ، ومن الأطلال بقايا أبراج وأسوار ، وبقايا غرف ، كلها في حالة مطبقة من الخراب ، والمعروف أن هذا الصرح الضخم ، هو القلعة التي أنشأها الملك بطرس القاسي (بيدرو) ملك قشتالة (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) ، وكان بداخلها قصر أنشأه أيضاً ، ولكن يبدو من ناحية أخرى ، أن هذه القلعة قد أنشئت مكان القصبة الأندلسية القديمة وفوق أنقاضها ، وربما كان بين الأطلال الحالية كثير من أنقاض القصبة وأسوارها .

الكنيسة العظمى : وهي تسمى كنيسة سانتا ماريا ، وهي كنيسة صغيرة قديمة ، ولكن جميلة ذات عقود قوطية عالية ، ولها نوافذ من الزجاج الملون ، وقد بنيت فوق مكان المسجد الجامع القديم ، وقد بقي منه إلى اليوم صحنه الذي جعل صحناً للكنيسة ، وبه ستة من عقود الجامع ، وتبلغ مساحة هذا الصحن عشرين متراً في عشرة ، وظاهر كذلك من باب الكنيسة المعقود ، وتوسطه للعقود العربية التي بالصحن ، أنه كان أيضاً مدخل الجامع الرئيسي .



قرونة . باب قرطبة وهو بابها الشرقى .



قرونة . أطلال « القصر » القديم وباب مرشانة

٥ - إستجة

E c i j a

كانت إستجة أيام سيادة الرومان في شبه الجزيرة ، من المستعمرات الرومانية الملحوظة ، وسماها العرب « إستجة » من اسمها الروماني القديم Astigis .

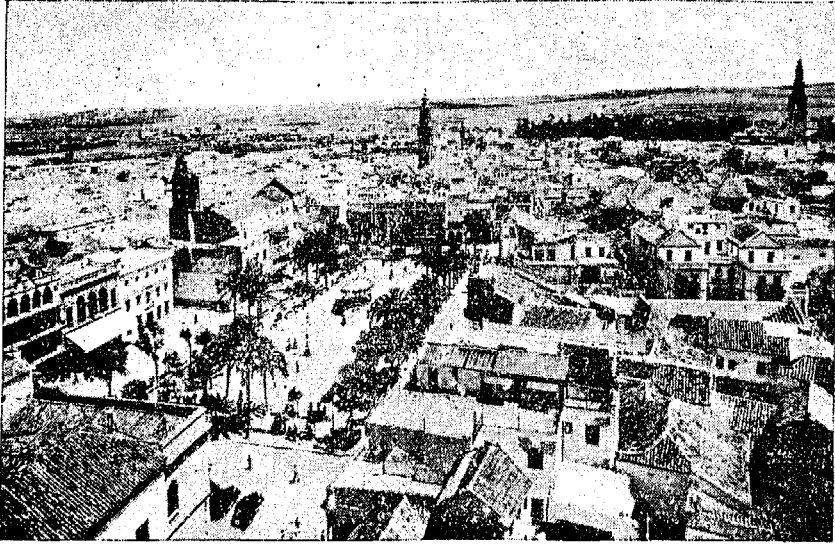
وهي مدينة كبيرة ، تقع على الضفة اليسرى لنهر شتيل ، فرع الوادي الكبير ، في بسيط أخضر خصب من الأرض ، ويبلغ سكانها نحو ثلاثين ألفاً ، وهي من أعمال مقاطعة إشبيلية ، وتبعد عنها نحو ثمانين كيلو متراً ، وتبعد عن قرطبة نحو ستين . وفي الطريق إليها من قرطبة تكثر البساتن الخضراء تتخللها غابات الزيتون وحقول القمح ، وقد تعترضها المرتفعات أو المنخفضات هنا وهناك ، ولكن الخضرة تغمرها دائماً ، وتظللها الجبال من الشمال على مدى البصر .

وكانت لإستجة في عهدها الإسلامي ، أسوار مزدوجة منيعة ، تحترقها عادة أبواب كبيرة ، وكانت كما هي اليوم ، تحتل الرقعة الواقعة على ضفاف النهر (١) .

ولإستجة اليوم مدينة جميلة مشرقة ، تحترقها شوارع طويلة واسعة ، وتبدو في ثوب من الإنافة والنظافة يميزها عن المدن الإسبانية المماثلة . وأشد ما يميز إستجة ، هو طابعها الأندلسي العميق ، فهي بخطتها وتقاسيمها ، تبدو مدينة أندلسية حقاً ، ومنازلها جميعاً بيضاء ، لا ترتفع إلى أكثر من طابق أو طابقين ، ويوجد الفناء الأندلسي في كثير منها بنافورته وأشجاره ، ويغطي جدرانها الزليخ الأندلسي الملون ، وهذا ما حدا بالعلامة الأثرى الأستاذ توريس بالباس أن يصفها بحق بأنها « أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسي » .

ويقع الميدان الكبير في وسط المدينة ، ويتفرع منه عدد كبير من الشوارع العريضة والضيقة . وتقع الكنيسة الكبرى على مقربة منه في درب ضيق يفضى إليه ، وتسمى كنيسة « الصليب المقدس » Santa Cruz ، ويسمى برجها المستقل القائم إلى يسارها مطلاً على الشارع بنفس الاسم . والكنيسة صغيرة ، وهي

(١) الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٤ و ١٥ .



إربدجة .
منظر
جزئي
للمدينة



إربدجة . الكنيسة العظمى
وبرج « سانتا كروث » .



إربدجة . عقد عربي في فناء الكنيسة
يظن أنه من بقايا الجامع

حديثة البناء ، ولكن تقوم إلى جانبها أطلال الكنيسة القديمة وعقودها العالية .
ويبدو من هذه الأطلال ، ومن وجود عقد عربي في صدر الفناء المجاور لها ، أن
الكنيسة وأطلالها القديمة كلها ، تحتل موقع المسجد الجامع القديم . وقد أقيمت
الكنيسة القديمة ، فوق أنقاض الجامع ، في سنة ١٥١٢ م .

ويقع العقد العربي المشار إليه في صدر الفناء الواقع إلى يسار الكنيسة ، بينها
وبين البرج ، وهو عقد واسع ومنخفض يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار ، وسعته
كذلك ، وقد بقيت نقوشه وزخارفه العربية في الزوايا .

وبالرغم من أنه لا توجد في إستجة آثار وأطلال أندلسية ذات شأن ، فإنه
توجد لوحتان أندلسيتان ، قد ثبتتا في أسفل برج الكنيسة في واجهته المطلة على
الشارع ، ويبدو من شكل البرج وطرازه ، أنه ربما كان منار الجامع القديم ، وقد
بقي نصفه الأسفل محتفظاً ببنائه القديم ، وحول نصفه الأعلى إلى برج للأجراس .
ويقع هذا البرج ، وهو يحمل نفس اسم الكنيسة - سانتا كروث - في الناحية
اليسرى لفناء الكنيسة الخارجى ، ويطل على الشارع الضيق ، ويبلغ ارتفاعه نحو
ثلاثين متراً من الأرض ، وفي وسط واجهته الخارجية كوة مستديرة ، والبرج
مربع الشكل ، يبلغ ضلعه نحو ستة أمتار .

اللوحتان العريبتان

وقد ثبتت في أسفل واجهة البرج المطلة على الشارع لوحتان عريبتان على
ارتفاع نحو أربعة أمتار من الأرض ، وبينهما لوحة لاتينية تباعد بينهما بنحو متر
ونصف . الأولى مستطيلة الشكل يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ سنتيمتراً ، وعرضها ٥٠ ،
والثانية مربعة الشكل ، يبلغ ضلعها نحو ٥٥ سنتيمتراً .

وقد نقش في اللوحة الأولى بالخط الكوفي ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر أمير المؤمنين أعزه الله ، عبد الرحمن بن محمد ،
ببنيان هذه السقاية ، رجاء ثواب الله الجزيل [وأجره العظيم] فتم ذلك بعون الله
على يدي موليه وعامله ، أمية بن محمد بن شهيد ، في شهر المحرم سنة ثمانى عشر
وثلاث مائة » .

ونقش في اللوحة الثانية ، وهى من الرخام ، أحد عشر سطراً من الكتابة
الكوفية ، هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمرت ببناء هذه السقاية أعزها الله الوالدة أم أمير المؤمنين المؤيد بالله هشام بن الحكم ، أطال الله بقاه ، رجا منها ثواب الله الخزيل وأجره العظيم ، فتمت بعون الله وتأييده على يد صنيعتها صاحب الشرطة وقاضي أهل كورة إستجة وقرمونة وأعمالها ، أحمد بن عبد الله بن موسى ، وذلك في شهر ربيع الثانى سنة ست وستين وثلاثمائة » .

ومعنى ذلك أن اللوحة الأولى ترجع إلى أوائل عهد الناصر لدين الله ، وأن اللوحة الثانية ترجع إلى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر . وأم أمير المؤمنين المشار إليها فى هذا النص ، هى صبح البشكنسية جارية الحكم ، وأم ولده هشام المؤيد .

* * *

ويوجد فى إستجة عدا كنيسة « سانتا كروث » عدة كنائس أخرى يقع معظمها على مقربة من الميدان الكبير ، ومنها كنيسة سانتا ماريا ، وكنيسة سان فرنسيسكو ، ويوجد بها أيضاً عدد من الأديار القديمة .

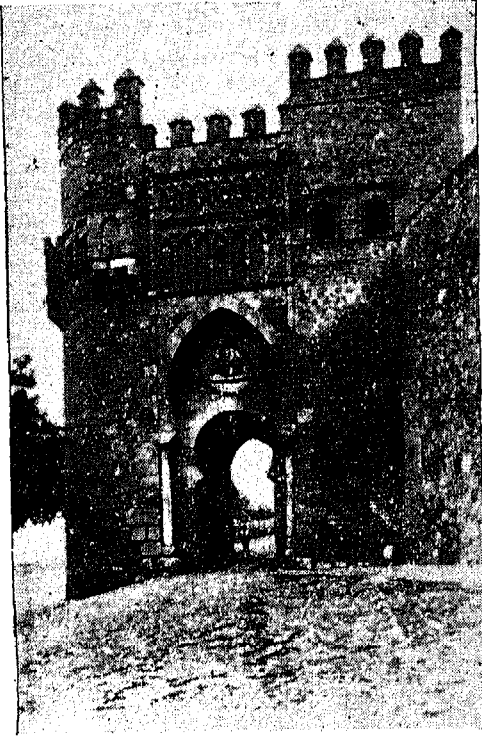
وقد حاولنا أن نتقصى آثار القنطرة الأندلسية التى أنشأها الحاجب المنصور على نهر شتيل قبالة إستجة ، أى قبالة طرفها الشمالى ، فوجدناها قد جددت تجديداً كاملاً ، ولم نجد فى عقودها الحالية ، ما يحمل على الظن ، بأن منها ما هو قديم يرجع إلى العهد الإسلامى .

وقد سقطت إستجة فى أيدي القشتاليين فى سنة ١٢٣٧ م ، فى عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة .

٦ - طليطلة

Toledo

كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية ، ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية . وقد لبثت أيام الدولة الإسلامية ، موثلاً لثورات المولدين والبربر . وكان المولدون أو المسلمون الإسبان ، هم عنصر سكانها الغالب ، ومن ثم فإن ولائهم للحكومة الإسلامية لم يكن قوياً . وقد عانت حكومة قرطبة



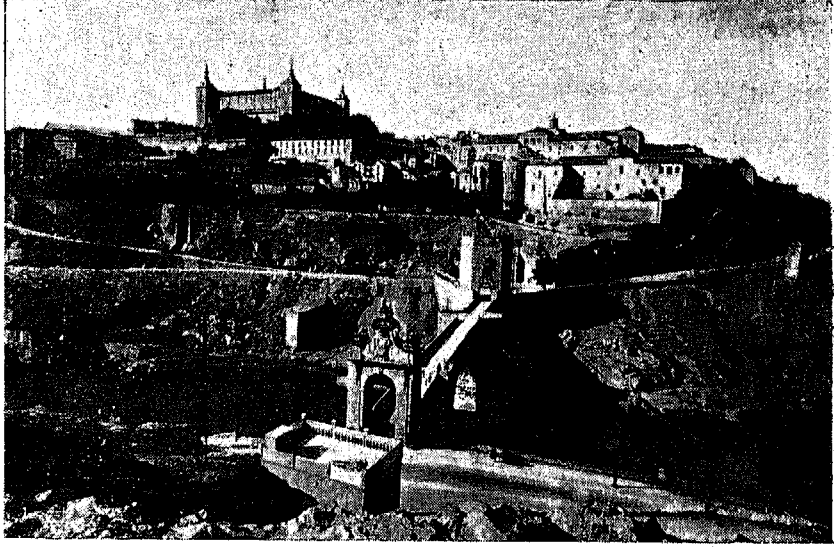
طليطلة . باب الشمس

في إخضاعها وحكمها متاعب وصعاباً حمة . وفوق ذلك فقد كانت طليطلة بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية ، الممتدة حتى ضفاف التاجه ، الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب ، وأسوارها الضخمة ، وقلاعها الحصينة ، من أمنع مدن العصور الوسطى ، وهي ما تزال إلى اليوم متى تأملت موقعها الجبلي الوعر ، وبقايا أسوارها وحصونها القديمة ، ودروبها الصخرية التفرقة ، تذكرنا بحصانتها القديمة .

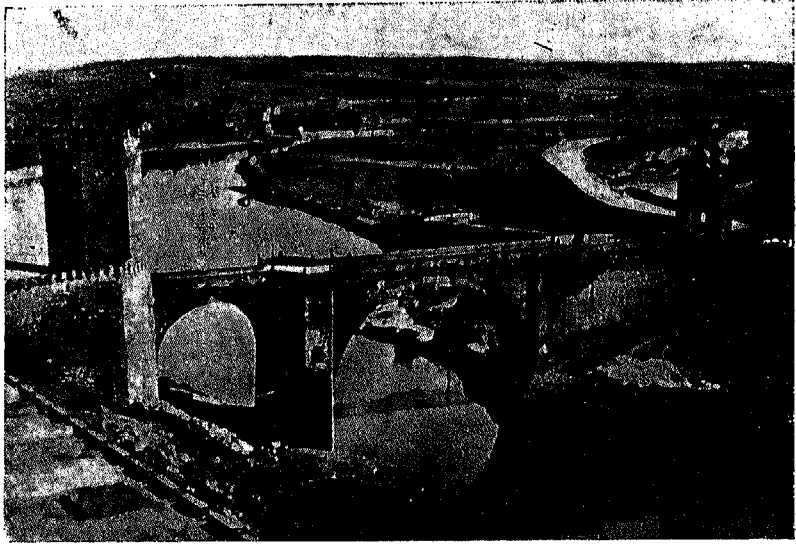
وهي تقع في منعطف نهر

التاجه على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً من مدريد ، وتربطها بالعاصمة الإسبانية مواصلات حديدية منظمة ، وكذلك طريق سيارات حسن ، ويفد إليها السياح بكثرة من سائر البلاد .

وقد كانت طليطلة أول قاعدة أندلسية هامة سقطت في أيدي النصارى ، وكان



طليلة . منظر جزئي لواجهة المدينة بين موقعها على نهر التاجه



طليلة . القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » Alcátrá القائمة فوق نهر التاجه

سقوطها في شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان هذا السقوط نذيراً خطيراً بتصدع صروح الدولة الإسلامية . وكان المسلمون حينها فتحوا طليطلة ، قد استبقوا كثيراً من خططها ومعالمها وصروحها القوطية والرومانية القديمة ، وجعلوا مسجدها الجامع مكان الكنيسة القوطية التي تقع في وسطها . ولكنها نمت وازدهرت في ظلهم ، واشتهرت بصناعاتها الصليبية والحديدية ، وأسلحتها الفاخرة . وبلغ سكانها أيام المسلمين نحو مائتي ألف نسمة . فلما سقطت في أيدي النصارى هجرها معظم سكانها المسلمين ، وتضاءل سكانها ونشاطها الصناعي في ظل الحكم الإسباني ، بالرغم من أنها كانت في وقت من الأوقات عاصمة اسبانيا النصرانية ، وكانت مقرراً لبلاط فرديناند وإيسابيل ، وأحياناً لبلاط الإمبراطور شارلوكان . واستمر تدهورها حتى عفت معظم صناعاتها القديمة ، وأصبح سكانها اليوم لا يعدون ثلاثين ألف نسمة .

وطليطلة اليوم مدينة متواضعة ، وهي ما زالت تحتفظ بخططها القديمة ، بدروبها الضيقة المنحدرة ومنازلها الصخرية العتيقة ، وما زالت بها بقية من أسوارها وأبراجها وأبوابها القديمة ، ومنها الباب المسمى «باب بساجرا» "Puerta de Visagra" أو باب ألفونسو السادس ، وأصله من الأبواب الأندلسية القديمة ، وكان يسمى «باب شرقي» ، وقد جدد في منتصف القرن السادس عشر . وتقع القنطرة العربية القديمة على التاجه أمام شمال شرقي المدينة ، وما زالت تسمى إلى اليوم "Puente de Alcátra" «قنطرة القنطرة» ، وقد أنشئت في سنة ٩٩٧م أيام المنصور بن أبي عامر مكان القنطرة الرومانية القديمة ، ثم جردها ألفونسو السادس فاتح طليطلة بعد أن كادت تهدم ، وهي تقوم على عقدين ضخمين عميقين ، وعليها باب قديم في أعلاه برج ، وعلى الرتبة المقابلة لها من الشمال ، يقوم الصرح المسمى «بالقصر» ، وفي نهايتها باب آخر أحدث صنعاً .

وما زالت طليطلة تحمل إلى اليوم طابع العصور الوسطى ، وتبدو حصانها القديمة في كل بقعة من بقاعها ، وكل حي من أحيائها . والمدينة القديمة ، المدينة القوطية الأندلسية ، ما زالت قائمة بدروبها الضيقة المتشابكة ، ومنازلها القديمة الصلدة ، وشوارعها المنحدرة ، وحتى كنيسها العظمى (الكاتدرائية) تقع في وسط شبكة من الدروب الضيقة . والمدينة كلها تنحدر بصخرتها المنبوعة نحو نهر التاجه

الواقع في جنوبها ، وتوجد في الضفة الأخرى من التاجه مما يلي قنطرة القنطرة ، عدة شوارع ومبان حديثة ، وهذه تعتبر المدينة الجديدة . وما زال نهر التاجه والمنحدر والأسوار والأبواب المشرفة عليه ، تعين لنا معالم المدينة القديمة . ولا توجد في طليطلة ميادين كبيرة ، وميدانها الرئيسي «الميدان الكبير» «Plaza Mayor» قريب من التاجه ، ومنه تتفرع عدة دروب ضيقة يفضى إحداها إلى الكنيسة العظمى .

الكنيسة العظمى

وتقع كنيسة طليطلة العظمى (الكاتدرائية) في وسط المدينة تقريباً ، وهي تحتل مكان المسجد الجامع القديم ، وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة ، فحوّلها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة الجامع . ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين ، كان من عهود التسليم التي قطعها ملك قشتالة على نفسه أن يبقى للمسلمين جامعهم إلى الأبد ، يؤدون فيه شعائرهم أحراراً . بيد أنه لم يمض على ذلك سوى شهرين ، حتى قام أسقف طليطلة الحديد بتحويل الجامع إلى كنيسة بالقوة القاهرة ، ونصبت فيه الهياكل ، ولم يغن احتجاج المسلمين ولا هياجهم شيئاً . وفي شهر ديسمبر سنة ١٠٨٥ م دشنت الكنيسة الجديدة في حفل ملوكي ضخم ، واستمر بناء الجامع بعد تحويله إلى كنيسة قائماً زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو الثالث في سنة ١٢٢٧ م ، وأمر بأن تبنى مكانه الكاتدرائية الحالية ، وهي من أعظم وأغنى الكنائس الإسبانية . وقد كانت طليطلة وما زالت مقر الرياسة الدينية العليا للكنيسة الإسبانية .

وقد بدأ بناء هذه الكنيسة في عصر فرناندو الثالث ، ولكن بناءها استمر دهرأ ولم يتم إلا في سنة ١٤٩٢ ، في نفس الوقت الذي سقطت في غرناطة آخر القواعد الأندلسية . وتوجد في نهاية صحنها ، لوحة كتب عليها بالإسبانية ما يأتي : « في سنة ١٤٩٢ فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها ، على يد الملكين فرديناند وإسبيللا . وفي نفس هذا العام في نهاية شهر يوليه ، أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطيطة . وفي السنة التالية - سنة ١٤٩٣ - كان إتمام هذه الكنيسة » . ويوجد تحت القبة الكبرى ، في شريط الحظيرة التي تحيط بهو الهيكل الكبير ، نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وافتتاحها ، ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون ، كما تبدو مناظر الحمراء وقلاعها . وتبدو صور



طليطلة . الكنيسة العظمى

الملك فرديناند والملكة إيسابيلا كل على جواده ، وتسمى هذه النقوش « افتتاح
غرناطة في عصر الملكين الكاثوليكين » « Conquista de Granada en tiempo
de los Reyes Católicos » ، وتعتبر من أقيم ما يزدان به صحن الكنيسة .
وفي ناحية أخرى من الكنيسة ، توجد قاعة كبيرة لها مدخل زين بنقوش
وزخارف مدجنية . وكذلك سقفها زين بنقوش مدجنية مذهبة . وقد رسمت على
جدرانها الأربع ، صور جميع الأساقفة ، الذين تولوا كرسى طليطلة ، منذ إنشائه
حتى العصر الحالي .

وتحتفظ كنيسة طليطلة بطائفة كبيرة من الآنية الذهبية ، والصلبان والتيجان الملوكية والأسقفية التاريخية الثمينة ، تحفظ في غرفة خاصة في نهايتها .
وإلى جانب هذه الذخائر ، التي تشتهر بها كنيسة طليطلة ، يوجد معرض الصور والثيراب الأسقفية في أمهاء « المقدس » . ويحتوى معرض الصور ، على مجموعة كبيرة من الصور الدينية ، بريش أكابر الفنانين الإسبان وغيرهم ، ومنها مجموعة رائعة من صنع دومنيكو إل جريكو (اليوناني) الذي عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر وتوفى بها . وتضم قاعة الثياب المقدسة ، مجموعة كبيرة من الأثواب الأسقفية المذهبة ، التي كانت لمتخلف الأساقفة الذين تولوا كرسى هذه الكنيسة .

علما السلطان أبي الحسن المريني

على أن أهم ما يثير طلعة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة ، هو علما السلطان أبي الحسن المريني ، اللذان غنمهما الإسبان ، في موقعة سالادو Salado أو موقعة طريف ، وهي الموقعة التي نشبت بين الإسبان ، وبين الجيوش الأندلسية والمغربية المتحدة ، بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج والسلطان أبي الحسن المريني الذي عبر إلى اسبانيا لنجدة المسلمين ، وذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وسقط معسكر السلطان أبي الحسن في يد النصارى ، وكان من أسلابه هذان العلمان ، اللذان مازالت تحتفظ بهما حتى اليوم إسبانيا النصرانية ، عنواناً لظفرها في ذلك اليوم المشهود .
وقد علق هذان العلمان الإسلاميان ، على جدران قاعة الثياب المقدسة . وأولها عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الخوانب ، طولها ٣,٧٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً ، ذات لون أصفر ، وقد نقشت في شريطها الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة : « النصر والتكين والفتح المين ، لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين » .
ونقش في باطنها ، في عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة ، العبارات الآتية بأحرف سوداء : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » « الحمد لله على نعمته » « الملك الدائم » « العز القائم » « اليمن الدائم » « العز القائم » .
وفي ذيلها أنها صنعت للسلطان في المدينة البيضاء في شهر جمادى الآخر عام أربعين وسبعمائة .

وثانيهما عبارة عن سجادة أصغر حجماً ، يبلغ طولها ٢,٨٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً ، وقد عُلقت إلى جانب الأولى ، ذات لون أزرق ، ونقوشها من النواحي الأربعة بيضاء ، وفيها عدة أهلة ونجوم . وقد نقش في شريطها الأفقي الأعلى ما يأتي : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وفي الشريط العمودي الأيمن ما يأتي : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله » .

وفي الشريط الأفقي الأدنى تكملة الآية : « بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

« وما النصر إلا من عند الله » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « نصر من الله وفتح قريب » « وما توفيقي إلا بالله » .

وفي الشريط العمودي الأيسر : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

ونقشت في الأهلة وعددها ستة عشر عبارة : « لا إله إلا الله » ، في ثمانية منها ، و« محمد رسول الله » في الثمانية الأخرى ، وعدد النجوم عشرون .

وفي ذيل هذا العلم ، أنه صنع لأمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، في قصبه فاس ، في شهر المحرم سنة اثني عشر وسبعائة ، والسلطان المذكور هو أبو يوسف المنصور الحد الثاني للسلطان أبي الحسن (١) .

وقد زار الوزير ابن عبد الوهاب سنيير ملك المغرب ، طليطلة سنة ١٦٩١ م ؛ وهو يقدم لنا في رحلته التي سبقت الإشارة إليها ، هذا الوصف الشائق لطليطلة وكنيستها العظمى ، وهو يسميها في وصفه بالمسجد ، ويبدو في هذا الوصف عميق تأثره ، بروعة منظرها ودخائرها :

« وأسوار هذه المدينة وحيطانها وأزقتها ، باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين ، وأثرها أثر الحضارة ، إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جداً ، ودورها باقية

(١) رجعتنا في إيراد هذه الأوصاف والنقوش ، إلى مشاهداتنا ودراستنا الخاصة داخل كاتدرائية طليطلة . وراجع أيضاً في ذلك ما كتبه المستشرق أمادور دي لوس ريوس في رسالته :

Trofeos militares de la Reconquista ; Estudio acerca Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos) y la Catedral de Toledo (Madrid 1898).

على حالها من البناء الإسلامي وتفصيله ، والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية ، ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير مبني كله من



طليطلة . شارع داخل المدينة

الحجارة الصلبة ، القرية الشبه بالرخام ، وسقفه مقبوه من الحجارة ، وهو في غاية ارتفاع السمك ، وعلوه في الجو ، وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة ، والنقوش . وقد أحدث النصارى في هذا المسجد من جوانبه ، زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان ، التي يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التي يقرأونها في الصلوات ، شيء كثير . وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة

المصلوب ، وهو من ذهب يقابلونها في صلواتهم . وأبواب هذا المسجد غاية في الإتقان والصناعة . وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوايدهم ، التي لا يمكنهم تركها . ومن الزيادات الحديثة في جوانب هذا المسجد ، بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال كثيرة ، فيها من الذخائر والأحجار الملونة ، مثل الياقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد ، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر ، والأحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوم بمال . ومع هذه الذخائر تاج كبير من الذهب ، ومعه سواران من ذهب ، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله (١) .

(١) رحلة الوزير في افتكك الأسير ، السالفة الذكر ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وكذلك تحدث الغزال الفاسي في رحلته عن كاتدرائية طليطلة ، وقد زارها في سنة ١٧٦٥ م ، وأفاض في وصف ضخامتها وروعها ، وما تحويه من الذخائر الخلية ، وهو يصفها بأنها « الجامع » ، ويقول إنه من أعظم المساجد ، وله طراز خاص غير مسجد قرطبة ، وبنائه وسواريه من الرخام ، وبوسط المسجد قبة عظيمة ، نصبت تحتها كنيسة وزينت جدرانها بأنواع الصور والرسوم ، وعلقت عليها الصلبان . وأركان الجامع خزان مملوءة بالذخائر الإسبانية النصرانية ، من تيجان وقلائد وخواتم وصلبان وغيرها من الذهب وغيره ، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة . وهذه الذخائر تفوق نظائرها في إشكوريال (يقصد قصر الإسكوريال) ، ثم يقول إنه مازالت بالمدينة مقبرة للمسلمين ، وعليها ساريان من الرخام فيها أسماء وتواريخ بعض أكابر المسلمين^(١) .

ووصف الكنيسة العظمى فيما تقدم « بالجامع » ، يرجع إلى كونها تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، ويقارنها الغزال في وصفه « بجامع قرطبة » ، ولكن الواقع أن جامع قرطبة ، بالرغم من تحويله إلى كنيسة بل كنائس ، مازال يحتفظ بشكائه وأوضاعه الإسلامية من عمد وبوائك وغيرها . أما كنيسة طليطلة فهي أثر نصراني محض .

الآثار الأندلسية

ولا توجد في طليطلة آثار أندلسية محضة ، سوى بقايا المسجد الصغير ، التي حولت إلى كنيسة تسمى اليوم "Cristo de la Luz" . ويقع هذا الأثر في داخل المدينة ، تفضى إليه دروب ضيقة منحدره ، ويبدو لأول وهلة أنه بقية مسجد إسلامي ، تتألف من ثلاث عقود في مثلها بأعمدتها وزخارفها العربية . والظاهر أن المسجد كان صغيراً ، وقد محيت نقوش القبة الإسلامية ورسمت مكانها صورة شخص أو قديس . ورسمت في حنايا النوافذ القديمة ، بعد أن سدت ، صور العذراء ، ولا يوجد بالمكان هيكل ، ولكن يوجد صليبان متقابلان ، وهو خال ، وإلى جواره حديقة مهملة ومساكن متواضعة .

وقد كان يطلق على هذا المسجد اسم مسجد «باب المردوم» . ويوجد في نقش

(١) رحلة الغزال السالفة الذكر ، ص ٦٧ و ٦٨ .

واجهته العبارة الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي ، من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعين وثلاث مائة ، (٩٩٩ م) . »

ويوجد أيضاً من الآثار الأندلسية عدد من البيع اليهودية ، ومعظمها مبنى على طراز عربي واضح ، وبعضها بنى على طراز المسجد ، بعقوده وأروقته وأعمدته ، وبها نقوش وزخارف



عربية . ويبدو هذا الطراز واضحاً ،

في الكنيسة المسماة اليوم سانتا ماريا دي

بلانكا Sta Maria

de Blanca وهي تقع

في نهاية طليطلة ، على

مقربة من منزل المصور

(إل جريكو) . وقد

كانت بيعة يهودية ، ثم

حولت في سنة ١٤٠٥

إلى كنيسة ، وأسس إلى

جانها دير للراهبات .

وقد أصلحت في أواخر

القرن الثامن عشر ، ثم

جعلت أثراً قومياً . وهي

طليطلة . بقايا المسجد المسمى « كريستو دي لوث »

مبنية على نسق المسجد بعقوده وبوائكه ، وبها سبعة عقود في الطول وأربعة في العرض ، وبها أربعة وعشرون عموداً سداسية الشكل ، وفي مدخلها بعض نقوش عربية .

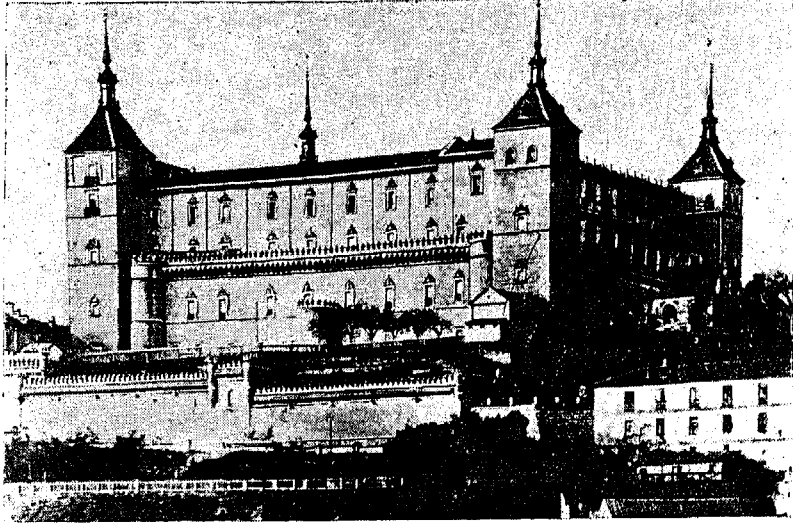
وكذلك كنيسة سان سلفادور "San Salvador" ، كانت في الأصل مسجداً ، ثم حول إلى كنيسة في سنة ١١٥٩ م ، بعد الفتح بنحو سبعين عاماً ، واستولى عليه النصارى من المدجنين .

القصر وصروح أخرى

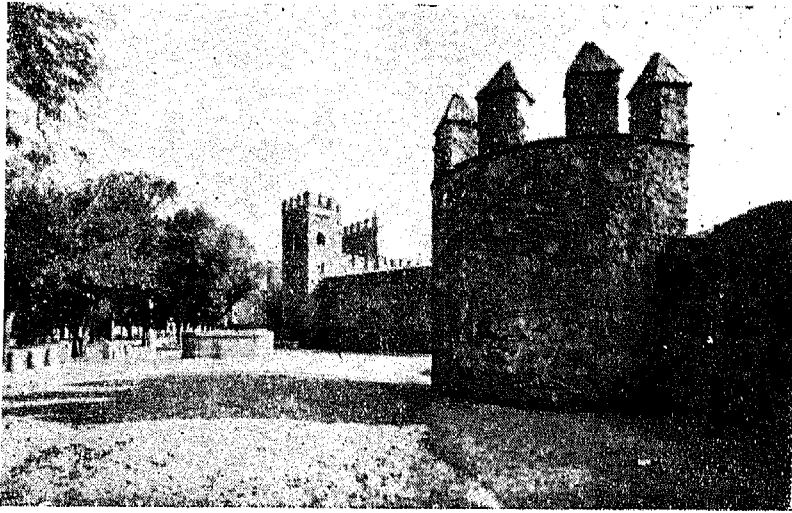
ومن أهم صروح طليطلة القديمة ، التي تتصل بالعصر الإسلامي ، «القصر» "Alcázar" ، وهو بناء قديم ضخم ، شيد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه ، أمام قنطرة «القنطرة» ، وكان أيام الرومان حصناً ، فجدده الملوك القوط ، ثم جدد أيام المسلمين ، وأنشأ به الحكم بن هشام أمير الأندلس في سنة ٧٩٧ م قلعة منيعة ، لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها ، وكانت تستعمل حصناً ومقرراً للحاكم . وهذه القلعة أو القصبية ، هي التي حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم «بالقصر» . وهو صرح عبوس منيع البناء والمواقع ، له فناء مربع معقود ، وأربعة أبراج كبيرة ، يقوم كل منها في ركن من أركانه الأربعة .

ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى ، استعمله الإسبان كقلعة لحصانته ، ثم حوله الملوك الإسبان ، في القرن الثالث عشر ، إلى قصر للإقامة فيه ، وأصلحه وزينه الملكان فرديناند وإيسابيلا ، ثم الأمير اطور شارل كان ، وأسبغت عليه الفخامة الملوكية ، وعاش فيه ملوك وملكات ، واستقبل فيه عدد من مشاهير السفراء ، وكان يتخذ مقرراً للبلاط من آن لآخر . ثم استعمل بعد ذلك سجناً لديوان التحقيق . ولعب في الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دوراً هاماً ، حيث اعتصم به الملكيون أنصار الجنرال فرانكو ، واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين . وتوجد في ظاهر طليطلة ، بقية من أسوارها الأندلسية القديمة ، وقد غير كثير من معالمها في العصور التالية .

ومن آثار طليطلة القديمة أيضاً ، البناء المسمى «حمام كابا» "Baño de la Cava" وهو يقع غربى طليطلة على مقربة من النهر ، وهو عبارة عن قلعة ومنزل معاً ، وتنسب إليه أسطورة ، تقول إنه كان مسكناً لفلورندا الحسناء ابنة الكونت يوليان ، الذى عاون العرب على فتح اسبانيا ، انتقاماً لاعتداء رديك ملك القوط على ابنته . وتشتهر طليطلة بنوع خاص ، بمنزل الفنان الكبير دومنيكو إل جريكو "D. el Greco" أى اليونانى ، وهو مصور عبقرى من أصل يونانى ، عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر ، وتوفى بها (سنة ١٦١٤) ، وقد غدا المنزل الذى كان يقيم فيه اليوم متحفاً قومياً ، يزخر بصوره وآثاره . وهو يقع في نهاية



طليطلة . القصر Alcázar قبل تخريبه أثناء الحرب الأهلية



طليطلة . بقايا الأسوار الأندلسية

طليطلة في شمالها ، على مقربة من نهر التاجه ، ويحج إليه زوار المدينة باستمرار .
وتوجد في طليطلة مصانع رسمية للسلاح والذخيرة . وقد حافظت طليطلة
على شهرتها القديمة ، في صنع الأسلحة والآلات القاطعة ، وكذلك صنع الأقمشة
الحريرية . وكانت صناعة الأسلحة الطليطلية ، من أزهر الصناعات أيام
المسلمين ، وقد شاهدنا من منتجاتها السيوف ، والمدى الفاخرة ، التي زينت
مقابضها بالعاج والأحجار الثمينة ، كما شاهدنا تحفاً كثيرة دقيقة الصنع يفتخر
الطليطليون بها .

ومما يجدر ذكره أن طليطلة تشتهر بصنع الحلوى الأندلسية القديمة المسماة
« ماثابان » "Mazapan" ، وهي تكثر في الأعياد والمولد الدينية ، وترسل إلى
سائر مدن اسبانيا .

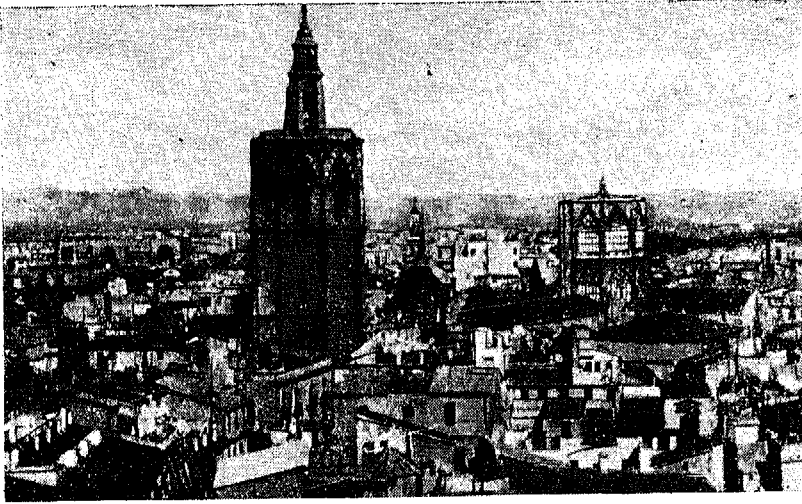
٧ - بلنسية

Valencia

بلنسية هي اليوم ثالثة المدن الإسبانية بعد مدريد وبرشلونة . وهي مدينة ضخمة ، تخترقها ميادين فسيحة وشوارع مديدة، وتقع في منطقة زراعية وصناعية هامة ، على مقربة من الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط ، على بعد ٤٩٠ كيلومتراً من مدريد ، ويبلغ سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٢٧ ، ٣١٢ ألف نفس ، ولكنهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثمائة وخمسين ألفاً .
ومن مخصيلها الزراعية ، الأرز والذرة والقطن والبقول والفواكه والأزهار .
ومن بين منتجاتها الصناعية الأسمدة ، وزيت الزيتون ، والكوكو ، والخروع ، والمشروبات الروحية ، والآلات الموسيقية ، والحزير والصوف ، وبها حركة تجارية كبيرة .

وقد سقطت بلنسية في أيدي الإسبان في سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) ، وبالرغم من أنها كانت أيام الدولة الإسلامية ، من أعظم القواعد الأندلسية ، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي حتى منتصف القرن الثالث عشر ، ولبثت من بعد ذلك عصرراً آخر ، منزل جماعات كثيرة من المدجنين ، وبالرغم من أنها من بعد سقوط الأندلس النهائي (سنة ١٤٩٢ م) ، قد لبثت نحو قرن من أعظم مراكز الموريسكيين أو العرب المنتصرين - بالرغم من ذلك كله فإنك لا تلمح بها اليوم أية مسحة أندلسية أو موريسكية واضحة ، بل ترى نفسك في قلب مدينة أوربية عصرية محضه ، ذات ميادين وشوارع عظيمة وأبنية شاهقة محدثة . وأعظم ميادينها « ميدان الزعيم » "Plaza del Caudillo" القريب من محطة الحديدية ، وأعظم شوارعها شارع خوسيه أنطونيو "Avenida de José Antonio" ، وشارع فرديناند الكاثوليكي "Calle de Colón" ، وشارع كولب "Gran Vía de Fernando el Católico" ، وشارع البارون دي كارثير "Av. de Baron de Carcer" وغيرها ، وكلها شوارع مديدة فسيحة تزخر بالتاجر ، والمقاهي والفنادق والمباني الشاهقة . ومما يلفت النظر أن من بين شوارعها شارع يسمى شارع الرصافة ، وحى يعرف بحى الرصافة "Calle de Ruzafa" ، ويذكرنا هذا الاسم الأندلسى برصافة قرطبة

الشهيرة ، وقد كان في بلنسية أيام المسلمين حتى يسمى بهذا الاسم (١). ولسنا ندرى إن كان حتى الرصافة هذا ، الذى يوجد في بلنسية الحديثة ، قد خلف مكان سميّه القديم في المدينة الأندلسية . وعلى أى حال فقد سمعنا من البلنسيين أنه من أقدم خطط بلنسية . وهو شارع تجارى هام ، يمتد من « مسرح الثيران » على مقربة من المحطة ، طويلا إلى داخل المدينة ، وينتهى بحى متوسط الظاهر هو حتى الرصافة ، ويتقاطع في نحو منتصفه مع شارع « خوسيه أنطونيو » . وهو من أهم شوارع بلنسية ، ويقوم في وسطه ممر تظله أشجار النخيل الجميلة ، كما توجد عدة شوارع وميادين أخرى في بلنسية تزيئها أشجار النخيل .



بلنسية . الكنيسة العظمى وبرجها المسمى « الجلبى »

ويشق نهر توريا "Turia" المدينة من الشمال ، وتقع في الناحية الأخرى الحدائق الملكية ، وهي حدائق غناء حسنة التنسيق .

على أننا نستطيع بالرغم من هذا الطابع الأوربي العميق ، الذى يطبع مظاهر بلنسية وخططها ، أن نلمح مسحة أندلسية أو موريسكية باهتة في بعض دروبها القديمة الضيقة ، وفي طراز بعض مساكنها العتيقة . أما عن الآثار الأندلسية الباقية ، فإنه لا يوجد في بلنسية أى أثر أندلسى أو موريسكى ذو شأن ، اللهم إلا بقايا

(١) راجع الروض المطار ص ٥٢ .

حمامات عربية ، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) ، في شارع صغير يسمى شارع حمامات الأميرال "Calle de los Baños del Amirante" ، وهي تقع داخل منزل قديم ، وتحتوى على أربع قباب قديمة من قباب الحمامات العربية ، ذات كوات نجمية الشكل ، وقد أنشئت إلى جانبها بعض الحمامات الحديثة ، وهي معروفة بأنها الأثر الإسلامى الوحيد فى بلنسية .

ومن الصروح الأثرية البارزة فى بلنسية كنيسة العظمى ، وكان مكانها قبل الفتح الإسلامى كنيسة قوطية قديمة فحولها العرب إلى مسجد جامع . ولما افتتح السيد الكمبيادور (الكنييطور) المدينة فى سنة ١٠٩٤ م حول المسجد إلى كنيسة ، ثم ردت الكنيسة مسجداً ، بعد أن عادت المدينة إلى سلطان المسلمين فى سنة ١١٠٢ م . ولما افتتح خايمى الأول ملك أراجون بلنسية من أيدي المسلمين فى سنة ١٢٣٨م ، قلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة ، سميت باسم «ماريا العالية القداسة» "Santissima Maria" وبدىء بإنشاء الكاتدرائية فى أواخر القرن الثالث عشر ، وتم بناؤها فى سنة ١٣٧٦ ، وهي على الطراز القوطى ، وليست كبيرة الحجم ، وقد جددت فى معظم أجزائها ، ما عدا قسم صغير منها يبدو أنه أقدمها . أما برجها الشهير الذى يسمى « الجلبتى » "El Miguelete" فقد أنشئ فى نهاية القرن الرابع عشر منفصلاً عنها ، وهو شاهق يبلغ ارتفاعه خمسين متراً ، ويشرف على المدينة من سائر نواحيها . ومن أقدم كنائس بلنسية ، كنيسة القديس أندريس "San Andrés" ، وقد كانت قائمة أيام المسلمين .

وأهم آثار بلنسية الأخرى ، القلعة المسماة « برج الجلبين » "Torre de Serranos" وهي تقع تجاه النهر فى الميدان المسمى بهذا الاسم ، وهي قلعة حصينة أنشئت فى نهاية القرن الرابع عشر ، والبرج المسمى « برج الكوارتو » "T. del Quarto" وهو يقع فى غربى المدينة ، وقد أنشئ فى سنة ١٤٤٤ ، وكان يستعمل فيما بعد سجنًا للنساء ، ودار البورصة المسماة « لونها » "La Lonja" ، وهي بناء جميل على الطراز القوطى ، يستعمل مركزاً للتعامل بالحملة فى المحاصيل ، وإلى جانبه قاعة فسيحة قديمة هي دار المحكمة التجارية .

ويقع على الضفة الأخرى من النهر متحف الفنون الجميلة ، ويحتوى على مجموعة كبيرة من الصور الدينية وغيرها ، من صنع أكابر المصورين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

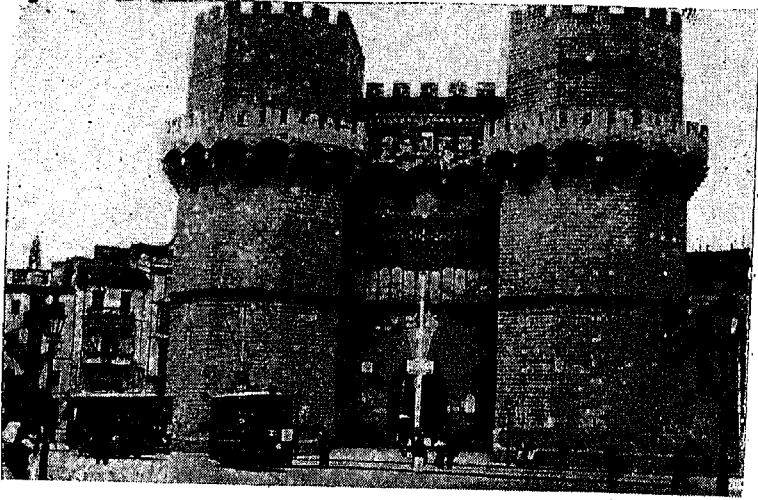
وتتمتاز بلنسية بأنها مركز من مراكز الثقافة الإسبانية ، ففيها جامعة قديمة ترجع إلى خمسة قرون ، وتضم كليات للآداب والحقوق والطب ، ويلحق بها مكتبة عظيمة تسمى « المكتبة الجامعية والبلدية » وبها أكثر من مائة ألف مجلد ، هذا عدا مكاتب فرعية أخرى ، مثل مكتبة البلدية ومكتبة الحقوق والمكتبة الشعبية وغيرها . وبها داران للمحفوظات والوثائق التاريخية ، هما « محفوظات مملكة بلنسية "Archivo del Reino de Valencia" ، وهي تضم كثيراً من مجموعات الوثائق الخاصة بأحوال الموريسكيين (العرب المنتصرين) ، وديوان التحقيق ، وقد اطلعنا فيها على الأوامر الملكية الصادرة من فيليب الثاني في سنة ١٥٥٣ ، بتحريم حمل السلاح على الموريسكيين . وقد كانت بلنسية ، بعد سقوط الأندلس النهائي من أعظم مراكز الموريسكيين . وهناك أيضاً دار المحفوظات البلدية ، وهي تحتوي على كثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ بلنسية .

وقد زرت ميناء بلنسية ، التي تصل إليها من طريق شاسع يقع على ضفة النهر الأخرى ، وتقوم على ضفتيه الأشجار الباسقة ، ويسمى « متنزه بلنسية » "Paseo de Valencia" ، وهي ميناء صغير ترسو في خليجها الهادئ ، سفن الصيد الكبيرة وسفن الشحن ، وبعض سفن قليلة للركاب من ذوات الأحجام المتوسطة ، ولا ترسو به السفن الكبيرة ، والحركة فيه قليلة هادئة .

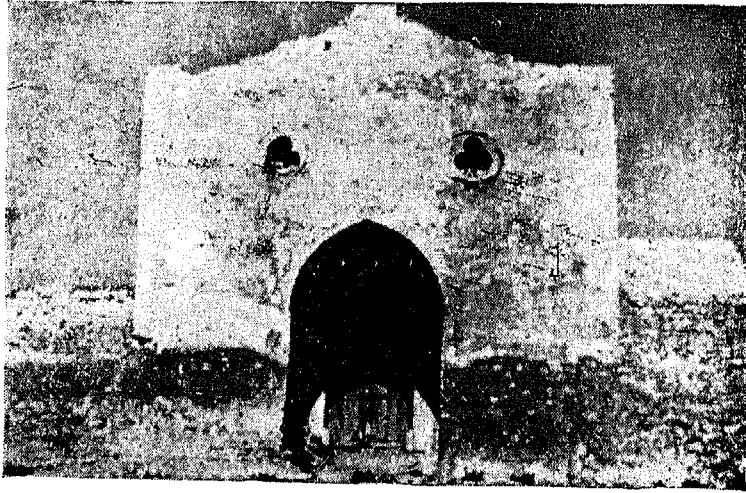
وعلى مقربة من الميناء في شمال المدينة ، تقع القلعة التي بناها الإمبراطور شارل كان للدفاع عن المدينة ضد غارات أمير البحر التركي خير الدين بارباروس ، وذي التي كان يقوم بها بمعاونة الموريسكيين ووحدهم ، لكي يسهل لهم سبل الهجرة والفرار من اضطهاد ديوان التحقيق الإسباني ومحاكماته المروعة .

وقد كانت بلنسية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، في بداية عهد المرابطين ، مسرحاً لمغامرات الفارس الإسباني الأشهر السيد الكنييطور "El Cid Campeador" ، وقد استولى عليها في يونيه سنة ١٠٩٤م وحكمها حيناً ، بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أنه ليس بالمدينة أى أثر أو تمثال للسيد ، أو أية آثار أخرى تتعلق بهذا العهد ، مع ما عرف عن الإسبان من المبالغة في تخليد ذكرى أبطالهم ، ولا سيما أولئك الذين أبلاوا في محاربة المسلمين .

وما زالت بلنسية تحتفظ بشهرتها القديمة في صنع الأواني الخزفية ، وبها مثل



بلنسية . قلعة « الجليلين »



مرينطر (بلنسية) . باب معقود من أطلال حصن « المنارة »

إشبيلية في ضاحيتها المسماة مانيسس "Manises" مصنع من أعظم مصانع الخزف الإسبانية :

ساجنتو

هذا وقد زرت ضاحية ساجنتو "Sagunto" الواقعة في شمال بلنسية ، على قيد خمسة وعشرين كيلومتر منها ، وهي مدينة قديمة ، وبها فوق منحدر التل بقية مسرح روماني قديم ، ومتحف صغير للأواني الخزفية ، وعلى مقربة من المسرح الروماني فوق الربوة ، توجد بقايا قلعة ومساكن أندلسية ، وما زال بها ثمة باب كبير ذو عقد عربي ، وفوقه مشارف وكوات عربية .

وتفسير ذلك واضح ، وهو أن ضاحية ساجنتو هذه ، ليست إلا مدينة مُربط صغرى الأندلسية القديمة "Murviedro" ، وقد كانت أيام الطوائف ، مركز إمارة صغيرة مستقلة .

وتوجد حول بلنسية ، على مسافات بعيدة ، مروج يانعة ، وقد أقيمت بها حدائق البرتقال ، ومزارع القطن الخصب . وهو ينمو هنالك متأخراً نحو شهرين أو ثلاثة عنه في مصر نظراً لرطوبة الجو .

ويلى بلنسية عدة من الضواحي القريبة ، التي ترتبط بتاريخها الإسلامي ، وتحمل أسماء ترجع إلى أصل عربي ، مثل الكدية "Alcudia" ، وألداية أو الضيعة "Aldaya" ، وبني فرى "Beniferri" ، وبني قاسم "Benicasim" ، وبوئال "Puzal" وغيرها .

وترتبط بلنسية بمدريد بمواصلات حديدية منظمة ، وترتبط كذلك برشلونة ، وثور الأندلس مثل لقنت ، وقرطاجنة ، وألمرية ، ومالقة ، بمواصلات برية وبحرية حسنة .

٨ - مرسية

Murcia

مرسية هي اليوم من مدن اسبانيا الكبرى ، في مرتبة إشبيلية ، وقرطبة ، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وتقع في بسيط أخضر في وادي شقورة ، ويشقها نهر شقورة "Segura" من الوسط ، وهي على نقيض بلنسية مدينة عتيقة الطراز في شوارعها وميادينها وطرز مساكنها ، وليست لها تلك المسحة الأوربية ، التي تبدو واضحة في خطط بلنسية ومعالمها ، ومعظم مبانيها منخفضة ذات طبقتين أو ثلاث . وبالرغم من أن بها بضعة شوارع كبيرة عريضة ، فإن شوارعها التجارية الداخلية ضيقة ، ولاسيما شارعها الرئيسيين وهما "Calle de la Piateria" و "C. de la Traperia" ، حيث يغص كلاهما بالمناجر والمقاهي المتقابلة .

وأكبر ميادينها هو ميدان الدستور "Plaza de la Constitución" ، ويصل قسمها الكبيرين على ضفتي نهر شقورة قنطرة كبيرة حديثة ، وعلى الضفة الأخرى من النهر طواحين كثيرة تدار بقوة انحدار الماء . وتوجد قنطرة حجرية أخرى تصل المدينة بضاحية سان بنيتو التي يقوم بها مسرح الثيران (الكوريدا) .

ومرسية مدينة زراعية صناعية وتجارية معاً . ومن أهم منتجاتها الدقيق والخمور والفواكه ، وبها صناعات الصوف والكتان والقطن والبارود . وقد نما سكانها في العهد الأخير نمواً عظيماً ، وهم يبلغون اليوم نحو ربع مليون نسمة .

وقد سقطت مرسية في يد الإسبان في ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) . ومع ذلك فإنها مازالت تحتفظ بطابع مدن العصور الوسطى . ولا توجد اليوم في مرسية آثار أندلسية ذات شأن ، ولم يبق من أسوارها وأبوابها وصروحها القديمة شيء ، ولا توجد سوى بقايا بعض الحمامات العربية (١) ، وبعض أطلال قديمة مشوهة بدير سانتا كلارا . غير أن مسحة مرسية القديمة ومعالمها ، مازالت تنم عن طرازها الأندلسي ، ولاسيما أسواقها الرئيسية ، فهي بدروها الضيقة ، وحوانيتها المكتظة

(١) كانت هذه الحمامات توجد بالمنزل رقم ١٥ من شارع Calle de la Madre de Dios

وقد علمت أخيراً أنها هدمت .

المتقابلة ، تشبه القيسرية القديمة ، ثم إنه ما زالت تعقد على ضفة النهر أسواق عامة على الطريقة الشرقية ، تعرض بها الطيور والخضر والفواكه والمأكولات والملابس والمنتجات الريفية . وقد حضرنا هذه السوق ذات صباح ، ورأينا في مناظرها ، ملامح العهد الأندلسي القديم وروحه وتقاليده .



مرسية . شارع معقود الجوانب

وتقع كنيسة مرسية العظمى في وسطها ، في ميدان صغير على مقربة من النهر ، وقد بنيت على موقع المسجد الجامع ، الذي حوله النصرارى عند افتتاحهم للمدينة إلى كنيسة مؤقتة . ويرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الرابع عشر . وهي جميلة . وطرازها قوطي ، وبه مزيج من طراز عصر الأحياء .

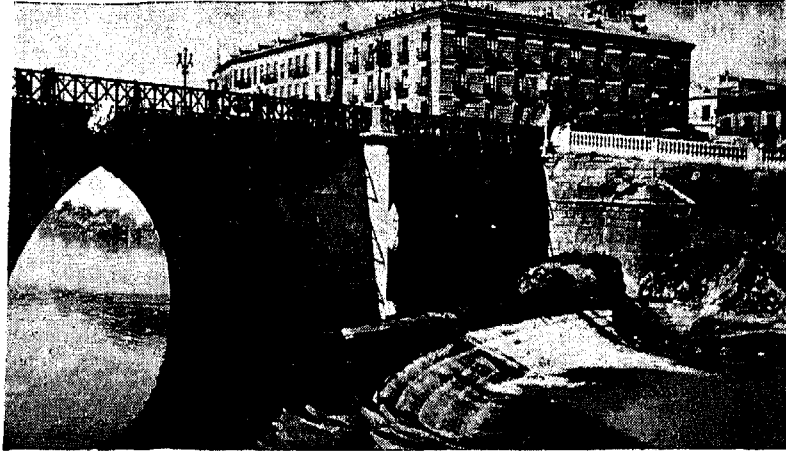
وتقع خارج مرسية : على قيد نحو فرسخ من شمالها الشرق ، أطلال حصن أندلسي قديم ، يطلق عليه اليوم اسم حصن « مونتى أجودو » Castillo de Monte Agodo وهي تقع فوق ربوة عالية

منعزلة ، مشرفة على الحقول . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الحصن كان أيام الطوائف ، من المراكز الدفاعية الأمامية لمرسية . وفيه حاصر الوزير ابن عمار ، حينما هاجم مرسية في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر ، وتغلب عليه .

ومرسية كبيرة الرقعة مترامية الأطراف . تحيط بها حدائق ورياض متصلة . وأكثرها حدائق البرتقال والزيتون والليمون ، وتحدها من الغرب والجنوب سلسلة من التلال العالية . ومما يلفت النظر في مرسية كثرة النخيل بها على نحو ما كان أيام المسلمين ، وكذلك مناظرها الريفية الساذجة ، التي تبدو جنبا إلى جنب مع ملامحها



مرسية . الكنيسة العظمى



مرسية . القنطرة الحجرية على نهر شقورة

الأوربية ، فقد ترى مثلاً في شوارعها قطعاً من الغنم ، وإلى جانبه تسير حسناء فوق دراجة ، أو تسوق سيارتها .

وفي مرسية طائفة خاصة من الجنائين ، لها عوائد وأغان خاصة ، ولها مواكب وحفلات مأثورة ؛ وفي مواسمها تفيض مرسية بالوافدين عليها من كل صوب . ومرسية مركز ثقافى أيضاً ، وبها جامعة صغيرة ، تضم كليات ثلاث للعلوم والحقوق والآداب .

الكتاب الثاني

الثغر الأعلى وشرق الأندلس

١ - سرقسطة

Zaragoza

كانت سرقسطة - وقد حُرف اسمها العربي عن اسمها الروماني Caesar Augusta - أيام الدولة الإسلامية . عاصمة النهر الأعلى . ثم غدت خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة . قاعدة للثوار والحوارج على حكومة قرطبة . ومنذ أوائل القرن الرابع . تغدو مركزاً لسلطان بني تميم في النهر الأعلى . وقد حكموها إلى ما بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف بقليل حتى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م) . ثم خلفهم في حكمها بنو هود ، وغدت سرقسطة في ظلهم قاعدة لإمارة أو مملكة قوية من ممالك الطوائف . واستمروا في رياستها زهاء ثمانين عاماً . من سنة ١٠٣٩ م ، حتى سقوطها في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة ١١١٨ م (٥١٢ هـ) . وكان لموقع سرقسطة في الشمال الشرقي ، بعيداً عن قلب المملكة الإسلامية ، وقربها من القواعد النصرانية . وسقوطها في يد النصارى في وقت مبكر ، تأثير واضح في اختفاء صفتها الإسلامية ومعالمها الأندلسية بسرعة . ومن ثم فإننا نجد سرقسطة منذ القرن الثاني عشر . مدينة إسبانية نصرانية . ونجدها اليوم مدينة أوربية حديثة ، قد خلعت عنها طابع العصور الوسطى . الذي ما يزال يبدو في مدن أندلسية أخرى . مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة .

وسرقسطة مدينة كبيرة . ذات شوارع وميادين فسيحة . ومبانيها عالية ضخمة . ويخترقها نهر إيبرو (إبرة) . عند نهايتها . على مقربة من الكنيسة العظمى . والنهر ليس عريضاً في تلك الجهة . وقد أقيمت عليه هنالك قنطرة رومانية ، عربية الطراز . ترجع إلى القرن الخامس عشر . تسمى قنطرة الحجر "Puente de la Piedra" . وعلى الضفة الأخرى من النهر ، أحياء متواضعة وأرض قفرة . ويبدو نهر إيبرو في تلك الجهة : تقريباً على نحو ما يبدو عليه نهر الوادي الكبير في قرطبة ، من حيث موقعه وراء الجامع .

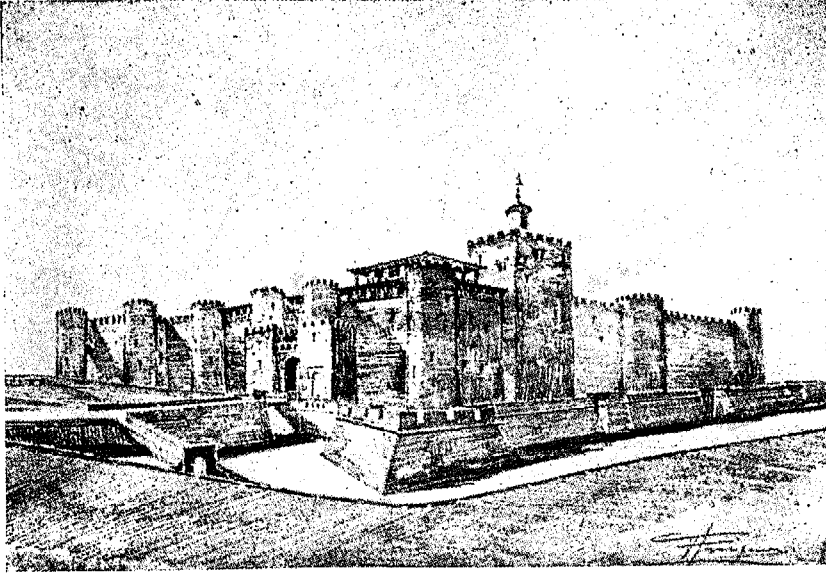
وسرقسطة مركز تجارى وصناعى هام ، تربطها مواصلات حديدية حسنة ، مع مدريد وبرشلونة وبلنسية . ومن منتجاتها الزجاج والصيني والآلات والمصنوعات الحديدية . ويبلغ سكانها اليوم مائتان وثمانون ألف نسمة .

وقد أشرنا إلى أن سرقسطة ، فقدت صفتها الإسلامية والأندلسية ، في عصر مبكر جداً . والواقع أن سرقسطة لا تحمل أية مسحة أندلسية . بيد أنه يوجد بها مع ذلك ، بعض الآثار الأندلسية التي تستحق الذكر والتعريف .

قصر الجعفرية

ولنبداً بالحديث عن الصرح المسمى بقصر الجعفرية "Palacio Aljafería" وهو يستعمل الآن ثكنة عسكرية ومخزناً للسلح ، ويقع هذا الصرح الضخم في شرقي سرقسطة ، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو . وهو يقوم فوق بقايا الصرح الأندلسي القديم ، وقد كان يضم القصر والقصبة . ويرجع بناؤه حسبما يجيء إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وإضافات كثيرة ، على يد الملوك النصارى ، حتى غداً يمثل فى أجزاءه المختلفة عصوراً مختلفة . ويتمثل العصر الإسلامى فى صرح الجعفرية . فى بعض الأماكن الداخلية التى ما زالت تعرب عن طرازها الشرقى ، وفى بقايا المسجد ، التى ما زالت قائمة فى داخله ، وهى عبارة عن قاعة صغيرة بها عقدان عربيان ، وشريط به نقوش كوفية ، وقد أحرق المكان من الداخل ، ولم يبق منه إلا زخارف العقود . والمقول إن الفرنسيين هم الذين أحرقوه أيام الغزو النابوليونى .

على أن الذى يهمننا من هذا الصرح . هو جناحه الأيسر . وهو القصر الملكى ، الذى أسس على بقايا القصر الأندلسى . وأدخلت فيه بعض أجزائه . ومن حسن الحظ ، ان الرواية الإسبانية قد حفظت لنا اسم القصر الأندلسى ، وهو "Aljafería" أو بعبارة أخرى قصر « الجعفرية » . إن هذا الاسم يذكرنا فى الحال بقصر بنى هود ملوك سرقسطة المسلمين ، وهو القصر الذى أنشأه أعظم ملوكهم : أحمد بن سليمان ابن هود الملقب بالمقتدر . وقد حكم المقتدر مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، من سنة ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ (١٠٤٦ - ١٠٨١ م) ، وكان من أعظم ملوك الطوائف ، واشتهر ببراعته فى العلوم الفلسفية والرياضية . وسمى قصر المقتدر بقصر « الجعفرية » ، نسبة إلى كنيته ، وهى « أبو جعفر » ، وكان من أعظم وأفخم القصور الملكية فى تلك العصور . وقد اشتهر فى تاريخ الفن الإسلامى باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه ، بهوه الرائع الذى زينته جدرانها بالنقوش

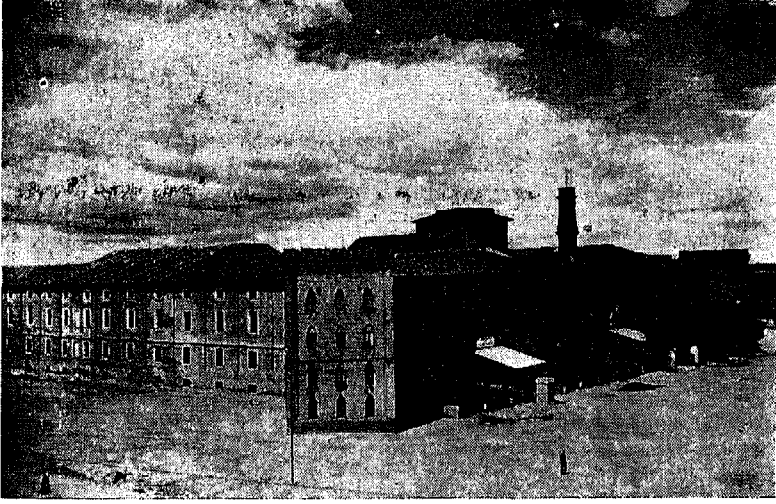


سرقسطة . واجهة قصر الجعفرية القديم حسبما يظن من خطط ورسوم قديمة

الذهبية البديعة ، والذي كان يسمى لذلك بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب ، وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكي خلافا لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان ، شوهت معالم هذا القصر البديع ، كما شوهت معالم معظم الصروح والقصور الأندلسية الأخرى . وقد تعاقب عليه ملوك أراجون ، أيام كانت سرقسطة عاصمة المملكة ، بالتغيير والتبديل . ثم جاء من بعدهم الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيسابيلا . ثم فيليب الثاني ، وقد أحدث أولئك جميعاً ، تغييرات وإضافات في هذا القصر الأندلسي ، حتى غدا مزيجاً من طرازات مختلفة . من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . وفي القصر كثير من آثار الملكين الكاثوليكين ، وفيه بالأخص عدة من شعارهما الملكي ، تبدو فيه رموز اسبانيا المتحدة . وفيه أيضاً لوحة تذكارية بمولد إيسابيلا ملكة البرتغال في سنة ١٢٧٢ م . وقد كانت هذه الأبهاء والقاعات الملكية تؤلف المسكن الملكي ، يدل على ذلك فخامته وسقوفه المذهبة . وكان ملوك أراجون وملكاتهما ، يتوجون في هذا الصرح الملكي ، في حفلات باذخة .



سرقسطة . منظر عام لقصر الجعفرية كما هو الآن



سرقسطة . كنيسة العمود ، والميدان المطلة عليه

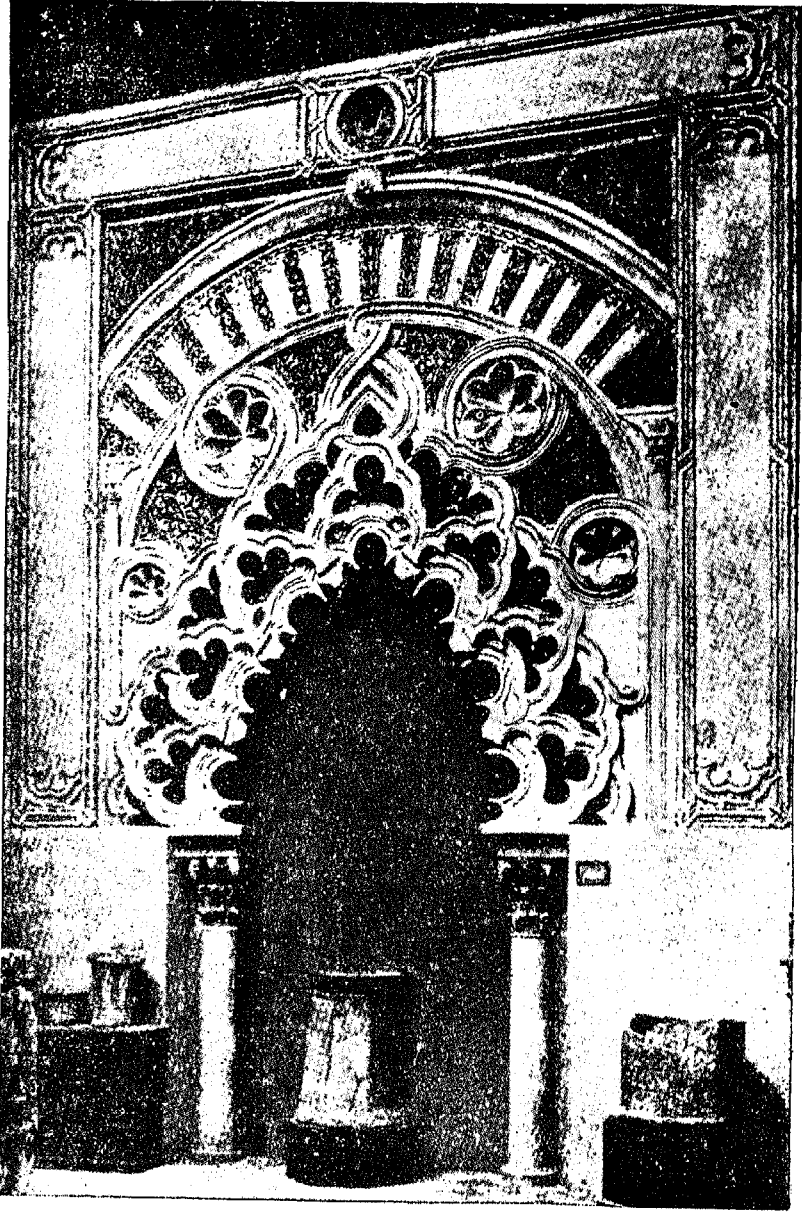
وفي سنة ١٤٨٥ ، اتخذ ديوان التحقيق الأرجوني مركزه في هذا الصرح .
ويوجد في الجانب الأيمن من القصر ، برج منيع ذو سلم عريض وغرف جانبية
من الحجر الصلد . وكانت هذه المخادع الصخرية تستعمل سجناً للمتهمين ، كما أن
حفلات « الأوتو دا فيه » "Auto-da-fe" كانت تقام في الفناء الخارجي ، ومنه
يخرج المحكوم عليهم إلى الميدان ، حيث ينفذ فيهم حكم الإعدام حرقاً .
ثم استعمل منذ أواخر القرن الثامن عشر ثكنة عسكرية ، وهدمت أسواره
القديمة ، وأزيل مصلى بيدرو الرابع ، وقضى بصفة نهائية على محاسنه وبدائعه
العربية . يقول الأستاذ مورينو : « وهو عمل بربرية من أشد ما وقع في تاريخنا
خزياً » (١) . وقد نقلت من مخططاته إلى متحف مدريد ، قطع من العقود والزخارف
البديعة ، وروءوس الأعمدة التي كانت بالبهو الذهبي (٢) .
ويستعمل قصر الجعفرية الآن أيضاً مخزناً للسلاح ، وقد رأينا فيه كميات
وافرة من البنادق والمدافع .

آثار أخرى

ومن الآثار الأندلسية القليلة في سرقسطة ، العقد العربي الكبير المسمى « عقد
العميد » "Arco del Déan" ، وهو يقع في حي الكنائس ، على مقربة من الكنيسة
الشهيرة المسماة « لاسيو » في درب عتيق ، وهو عبارة عن أربعة عقود ضخمة
متوالية يفصل كل منها عن الآخر نحو خمسة أمتار ، وبذلك يبلغ طول المعر كله
١٥ متراً ، وارتفاعه نحو سبعة أمتار ، وقد شيد فوقه مبنى عتيق . وإلى جواره
أيضاً مبنى آخر مماثل ، عليه مسحة طراز عربي . ولا يوجد في سرقسطة أي أثر
آخر يحمل الطابع العربي الخالص سوى هذا العقد .

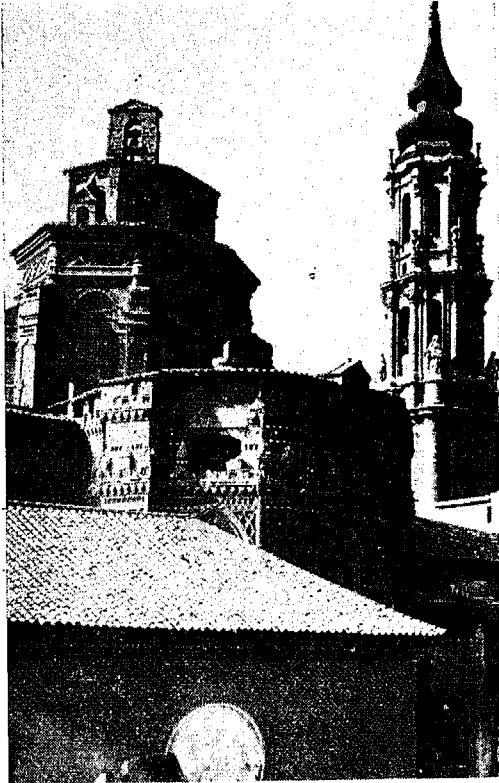
(١) الأستاذ جومث مورينو في كتابه السالف الذكر : (El Arte Arabe Espanol) وهذه
عبارة الإسبانية التي يندد فيها بما أصاب هذا الأثر الإسلامي القديم : "Acto de barbarie de lo más
senalados en desdoro de nuestra historia" (ص ٢٢١) .

(٢) هنا ، وقد نشر الأستاذ ف . إنيجيث ألمش F. Iniguez Almech رسالة عنوانها :
Así fué la Aljaferia (Zaragoza, 1952) « هكذا كان قصر الجعفرية » جمع فيها عدة
تخطيطات ورسوم تاريخية مما عمل لمواقع قصر الجعفرية وأجنحته في عصور متعاقبة ، كما ضمنه عدة
صور لبعض عقود وزخارفه الموجودة بمتحف مدريد ، وعدة رسوم متخيلة لهو الذهبي ومحرابه
وواجهته . وقد نقلنا هنا بعضها .



سرقسطة . عقد زخرفى من عقود قصر الجعفرية القديم محفوظ بمتحف مدريد الوطنى

أما كنيسة « لاسيو » « La Seo » هذه ، التي يقع وراءها العقد العربي ، فهي أقدم كنائس سرقسطة ، ومعنى اسمها « الكنيسة العظمى » . وقد أقيمت فوق موقع المسجد الجامع القديم . وكان في هذا الموقع كنيسة رومانية قديمة وقت الفتح ، فحولها المسلمون إلى مسجد ، وفي عهد بني هود وسع المسجد ، وحول إلى مسجد جامع عرف « بالجامع الأبيض » . فلما دخل النصارى سرقسطة ، حولوا مسجدًا



سرقسطة . الكنيسة العظمى (لاسيو)

الجامع في الحال إلى كنيسة ، وسلمها ألفونسو المحارب فاتح سرقسطة ، إلى الرهبان البرناردين . ثم أنشأها المصلي والهيكل (سنة ١١١٨ م) . ومع أن كنيسة « لاسيو » : ليست هي كنيسة سرقسطة العظمى (الكتدرائية) ، فإنها تحتل المكانة الأولى بين كنائس سرقسطة .

وتقع الكتدرائية على مقربة من « لاسيو » . في صدر الميدان الكبير . وتسمى « كنيسة العمود » « Sta Maria del Pilar » وهي حديثة نوعاً إذ يرجع بناؤها الحالي إلى أواخر القرن السابع عشر ، وهي شاسعة

منيرة . ويقال إنه كان يقوم في مكانها كنيسة بهذا الاسم ، حينما افتتح المسلمون سرقسطة . ويقول المستشرق كوديرا في بحث وضعه في هذا الموضوع ، إن موسى بن نصير حينما دخل سرقسطة في سنة ٧١٣ م ، أمر بتجريد هذه الكنيسة من أبنيتها وتخفيها (١) .

(١) Fr. Codera : Despojo de la Sta Capilla de Nuestra Sra del Pilar de Zaragoza por Muza en el año 713 . (V. La Lectura Católica 1879) .

وهذه الكتدرائية الفخمة ، تطل واجهتها الخلفية على نهر إيبرو ، ويقع إلى جانبها الأثر المسمى « لونجا » "La Lonja" ، أعنى قاعة المعاملات التجارية .
وإلى جوار الكتدرائية من الناحية اليسرى ، يقوم البرج الأثرى المسمى "La Zuda"



سرقسطة . عقد « العميد »

(لاثودا) ، وهو عبارة عن برج وحيد للأجراس ، بني على الطراز المدجني ، ويشبه المنارة في مجموعته ، وهو يرجع إلى عصر قديم جداً .

وإلى جانب هذا البرج ، توجد بقية صغيرة من أسوار عتيقة ، يقال إنها بقية من الأسوار الرومانية أو العربية القديمة .

وقبل أن نرى حينما كنت في سرقسطة ، إنه يوجد قبو في منزل خاص ، يقع في شارع سرقسطة الكبير ، المسمى شارع كوسو "Coso" ، توجد به بقايا حمامات عربية ، ولكنني لم أستطع مشاهدة هذا الأثر .

وقد رأيت في متحف سرقسطة ، قسماً صغيراً للآثار الإسلامية ، يحتوي على عدة عقود وزخارف ولوحات زخرفية ، أخذت من قصر الجعفرية ، ولكنني لم أعر فيها على كتابات عربية . ويوجد بهذا القسم أيضاً مصحف صغير قديم ، أو هو جزء من مصحف ، وخاتم ، ومفتاح حديدي ضخم ، يبدو أنه كان مفتاحاً لباب أحد الحصون أو المنازل الكبيرة ، وجرة عربية كبيرة بلا زخارف ولا كتابات : كما أنه توجد صفحة وحيدة من الورق ، كتبت عليها ستة عشر سطراً ، هي عبارة عن آيات قرآنية .

ضوء على تاريخ المدجنين

بيد أنه توجد في كتدراية سرقسطة ، مجموعة من وثائق عربية ، تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم في مملكة أراجون ، منذ القرن العاشر الميلادي إلى القرن الخامس عشر . وهي عبارة عن ستة عشر وثيقة ، كلها عقود بيع وشراء ووديعة وغيرها . عقدت بين أفراد من المدجنين ، وبين المدجنين والنصارى : وبها وثائق محررة بتواريخ متأخرة في سنتي ١٤٨٤ و ١٤٩٦ م . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين في مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، وحتى بعد سقوط غرناطة في يد الإسبان ، محتفظون بدينهم الإسلامي ، وأنه كانت ماتزال ثمة بعض مساجد قائمة ، في بعض أنحاء ولاية سرقسطة . وقد استعرضنا محتويات بعض هذه الوثائق . في كتابنا « نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المتصرين » (١) .

(١) راجع الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٤٩ و ٥٠ .

٢ - تطيلة

Tudela

وتقع مدينة تطيلة شمال غربى سرقسطة ، على قيد سبعين كيلومتراً منها ، على الضفة اليسرى لنهر إيبرو ، وفي منتصف الطريق بينها وبين بنبلونة . وهى مدينة متوسطة الحجم ، تمتد فوق بسيط أخضر ، ومن ورائها التلال . وهى مستطيلة الرقعة تحترقها شارع طويل ضخم تتفرع منه شوارع جانبية ضيقة ، ويقع النهر إلى يمينها ، وهو واسع تغطى ضفته الحدائق الغناء . وقد سقطت تطيلة فى يد النصارى ، قبيل سقوط سرقسطة بعام أو اثنين ، فى سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ) .

وليس فى تطيلة آثار أندلسية ظاهرة ، ولكن الأبحاث الأثرية الأخيرة ، أثبتت أن كتدرائية تطيلة ، قد أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، وهو الذى أقامه موسى بن موسى بن قسى فى القرن التاسع الميلادى ، وكان يضارع فى الفخامة مسجد سرقسطة ، الذى كان يسمى « المسجد الأبيض » . وتبين أيضاً من الأبحاث الأثرية فى مكان « المقدس » هذه الكنيسة ، أنه لما جددت الكنيسة فى أواخر القرن الثانى عشر ، استعملت فى تجميله عقود من سقف جامع تطيلة ؛ كما أنه توجد بها نافذة ذات قوسين توأمين ؛ وبها من أعمدة المسجد ، عمود كامل ، وعدة رؤوس أعمدة ، كبيرة وصغيرة .

* * *

وعلى مقربة من مدينة تطيلة ، تقع بلدة « روطه » « Rued » ، وقد كانت أيضاً من قواعد مملكة سرقسطة الإسلامية . وهى تقع فى أسفل الجبل فوق بقعة صخرية حصينة على ضفة نهر خالون أحد أفرع الإيبرو الجنوبية . وبها كنيسة حسنة . وتفصلها عن تطيلة منطقة وعرة قفرة . وقد أشتهر حصن روطه بمناعته أيام المسلمين فى حروب « الثغر الأعلى » ، وكان فى عهد بنى هود ، ملاذاً وملجأً للأمراء بنى هود يهرعون إليه وقت الخطر الدايم ، من ثورة داخلية أو هزيمة حربية أو غيرها . وكانت روطه بعد سقوط سرقسطة ، منزل عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة ، ثم ولده سيف الدولة المستنصر بالله ، وهو آخر سليل حكمها من بنى هود ، وقد تنازل عنها لألفونسو ريمونديس ملك قشتالة فى سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩ م) .

٣ - لاردة

Lérida

كانت لاردة أيام العصر الإسلامي ، من قواعد ولاية « الثغر الأعلى » التي كانت عاصمته مدينة سرقسطة . ونظراً لوقوع « الثغر الأعلى » ، بعيداً عن الحاضرة الأندلسية (قرطبة) ، فقد كان ولايته وأمرائه في كفاح دائم مع النصارى المحيطين به من الشمال والشرق والغرب .

ولما انهارت الخلافة الأندلسية ، وقامت دول الطوائف ، قامت مملكة بنى هود في سرقسطة وما حولها من القواعد ، مثل وشقة ولاردة وتبليدة وإفراغة وطرطوشة وطرطونة . ولكن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، لم تثبت طويلاً أمام هجمات النصارى المستمرة ، فأخذت قواعدا تسقط في أيديهم تباعاً . وسقطت لاردة في يد كونت برشلونة رامون برنجار الرابع ، في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وعبر إليها المسلم ابن هلال البحر ، ملتجئاً إلى أمير ميورقة .

وتقع لاردة غربي ثغر برشلونة ، على قيد نحو مائة وخمسين كيلومتراً منها ، وتفصل بينهما منطقة تغلب عليها الوعورة ، وتكثر فيها الجبال العالية . ومع ذلك فإن هذه الهضبة تغطيها الخضرة والأشجار المختلفة ، وتتمثلها البساتين من آن لآخر ، خاصة بالزروع والكروم .

وفي ظاهر لاردة ، تكثر البساتين الخضراء ، وغابات الزيتون والكروم والبقول اليانعة ، وتظللها الجبال من ورائها في الأفق البعيد .

ولاردة مدينة كبيرة مستطيلة الرقعة ، تمتد على الضفة اليمنى لنهر « سجرى » أحد أفرع نهر إيبرو ، ويشرف عليه شارعها الرئيسي ، وهو شارع « الكوديليو » بأشجاره الظليلة ، ويحترقها من الوسط « الشارع الكبير » . "Calle Mayor" ، وهو شارعها التجاري الذي يغص بالمتاجر والمقاهي ، ومنه تتفرع الشوارع الجانبية إلى الداخل ، صاعدة من الجانب الآخر نحو الربوة الصخرية ، التي تقع عليها أطلال القصب الأندلسية والكتدرائية القديمة .

وهذه القصب هي كل ما تحتويه لاردة من الآثار الأندلسية ، وتسمى بالحصن "El Castillo" . وهي عبارة عن مجموعة من الأطلال الخربة ، تقوم فوق بقية أسوار

قوية عالية ، يبدو أنها كانت أسوار القصبة الخارجية ، المتصلة بأسوار المدينة ، ولا يوجد منها في السطح الأعلى سوى عقدين كبيرين ، بدت عليهما مظاهر العفاء ؛ ويوجد إلى جانب هذه الأطلال الباقية من قصبة لاردة ، ثكنة عسكرية يبدو أنها تحتل الساحة السفلى التي كانت للقصبة الأندلسية .



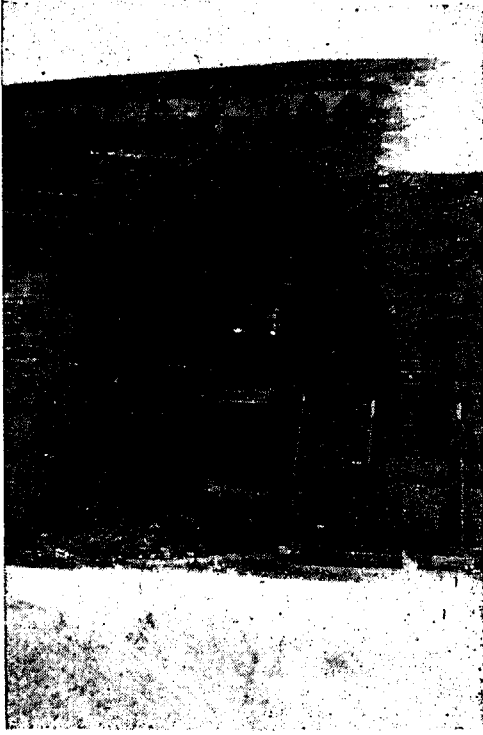
لاردة . أطلال القصبة الأندلسية

وتقوم فوق نفس الربوة ، تجاه أطلال القصبة ، أطلال الكنيسة العظمى القديمة ، المقول بأنها تقوم فوق موقع مسجد قديم . وهي قوطية بيزنطية ، وقد شيدت في أوائل القرن الثالث عشر . ومما يلفت النظر أن عقودها وجدرانها ، تحمل كثيراً من الزخارف المدجنية الشبيهة بالعربية ، مما يدل على أن أثر الفن الإسلامي ، كان ما يزال قوياً في هذه المنطقة ، في القرن الثالث عشر .

وإذا صح أن كتدرائية لاردة القديمة ، تقوم فوق أنقاض مسجد القصبة القديم ، فإنه يبدو أن هذه القصبة ، كانت تضم في نفس الوقت الحصن والقصر ، وأنها كانت مقر الأمير أو الحاكم المسلم .

ويوجد في لاردة بضعة كنائس قديمة أخرى ، تقع بالأخص في المنحدر النازل من الربوة ، إلى داخل المدينة مثل كنيسة "La Zuda" ، التي يظن أنها شيدت فوق أنقاض مسجد قديم ، وكنيسة "La Anunciata" ، وبها زخارف مدجنية . كما يوجد بها المارستان القديم ، وهو بناء يرجع إلى القرن الخامس عشر . ولم نشاهد على نهر سجرى أثراً لقلعة عربية قديمة . والظاهر أن القنطرة العربية

قد اندثرت منذ بعيد . وتقوم مكانها اليوم على النهر قنطرة حديثة جداً .
وتقدم لاردة إلى جانب أحيائها القديمة . ذات الشوارع العتيقة المزدهمة ، التي



لاردة . أحد عقود القصبية الأندلسية

تتجه من الشارع الكبير نحو
الربوة : طائفة من الأحياء
الحديثة التي تشقها شوارع
جميلة منسقة .

وتحيط بالمدينة بسائط فسيحة
من الحقول الياضعة والحدائق
الغناء . وقد علمت من محادثاتي
مع بعض العارفين . أن نظام
الري الذي يسود ولاية لاردة
كلها . مازال يقوم على نفس
النظم والمنشآت التي وضعها
المسلمون .

وقد رأينا بعض طوائف
العجم في لاردة . وكذلك
رأينا العجم على مقربة من بلدة
«إسبولا» «Espula» القريبة .

يقيمون في حى سور صخرى في شعب الجبال .
ويبلغ سكان لاردة أكثر من أربعين ألف نسمة .

٤ - طرّ كونة

Tarragona

تقع مدينة طرّ كونة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، جنوب غربي برشلونة ، وتبعد عنها نحو مائة كيلومتر . وتبدو المنطقة الواقعة بين برشلونة وطر كونة ، مما يلي شاطئ البحر ، من أجمل المناطق الإسبانية ، تغلب عليها الخضرة ، وتكثر بها الحدائق اليانعة ، وكثير من نواحيها يقصده الناس للاصطياف والتنزه ، وتوجد التلال والآكام على جانبيها ، ولكنها تبدو أيضاً في معظمها خضراء ، تغطيها أشجار الزيتون ، وتكثر بها حدائق الكروم الأرضية ، ويبدو شاطئ البحر على مقربة من طر كونة ، بسيطاً أخضر تغطيه الأشجار ، ومحاصيل الذرة والقطن والخروع وأشجار الزيتون .

أما المنطقة التي تقع بين لاردة وطر كونة ، فهي بالعكس منطقة وعرة نوعاً ، تكثر فيها التلال والربى الصخرية . بيد أن البساتين تتخللها في نفس الوقت ، تغطيها الكروم والزروع وغابات الزيتون . فإذا اقتربت من طر كونة ، بدت هذه الغابات الزيتونية في كثرة تلفت النظر ، ثم تعقبها قبيل المدينة غابات النخيل الجميلة .

وطر كونة مدينة كبيرة ذات شوارع طويلة فسيحة ، ويشقها شارعها الأعظم المسمى «رملة القائد الأعظم» «Rambla del Generalísimo» ، الذي تظله الأشجار اليانعة . وهي تقع على منحدر صخري يمتد حتى البحر ، وتشرف عليه إشرافاً بديعاً ، ومن أسفل الربوة ، تقع على خليج مستدير ذي لسان يمتد داخل البحر ، ومن ورائه خليج آخر تحف به الجبال . ومن الناحية الأخرى تشرف المدينة على واد أخضر ، تحده بعد ذلك سلسلة من الجبال العالية .

وتبدو طر كونة في ثوب مدينة أوربية متوسطة ، وتمزج كمعظم المدن الإسبانية بين القديم والحديث ، وتضم إلى جانب أحيائها الحديثة ، وشوارعها الفسيحة ، طائفة من الأحياء الصخرية الضيقة ، ذات المباني العتيقة الطراز ، ومن بينها حي صغير يسكنه الغجر . ويبدو النخيل في بعض منازل المدينة على النحو الأندلسي ، كما يبدو في بعض أطرافها ومنحدراتها .

وقد سقطت طركونة في أيدي النصارى في وقت مبكر ، وانتزعها من المسلمين برنجار الثالث كونت برشلونة ، في سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٩ م) .

وكان لطركونة أيام الرومان شأن ، وكان يقصدها بعض الإمبراطرة للاصطياف بضواحيها الجميلة ، ومازال هذا الطابع الروماني يغلب عليها من الناحية الأثرية ، فكل ما تضمنه حتى اليوم من الآثار القديمة ، يرجع إلى العصر الروماني . وفي مقدمة هذه الآثار الأسوار الرومانية ، وهي أسوار ضخمة عالية يبلغ طولها نحو كيلومتر ، وهي تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وقد شيدت من أحجار ضخمة ، وليس بها أبراج ، وهي تبدو رائعة المنظر .

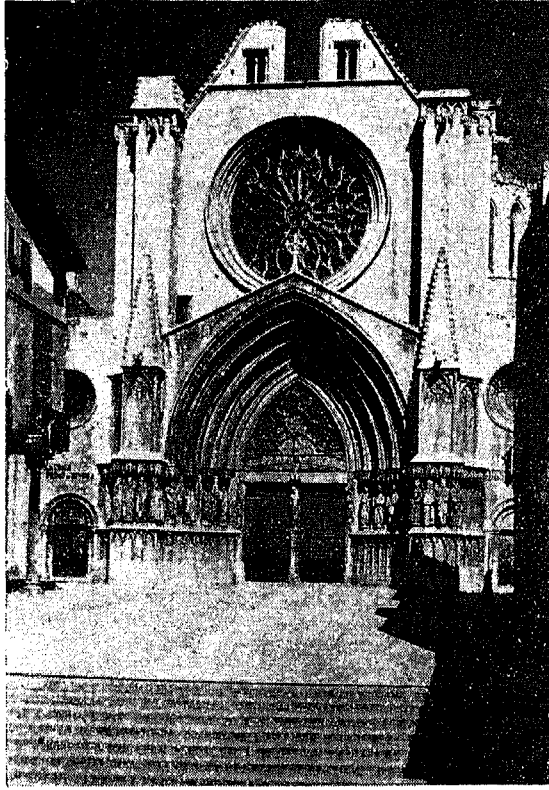
ويغص متحف المدينة بالقطع الأثرية الرومانية ، وقد ذكر لى مديره أنه لاتوجد في طركونة ، أية لوحات أو نقوش عربية من أى نوع ، وأن كل ما فيها من الآثار يرجع إلى العصر الروماني .

وكنيسة طركونة العظمى (الكندراية) ، هي صرح عظيم فخم ذات واجهة رائعة ، وقد بنيت على الطراز الروماني القوطي ، وبدئ بإنشائها في أواخر القرن الثاني عشر ؛ ومن المرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد طركونة الجامع ، يدل على ذلك قدمها ، وموقعها في وسط المدينة القديمة . ويوجد في أحد أروقة الكنيسة الداخلية على مقربة من المدخل ، الأثر الأندلسي الوحيد الذي يوجد في طركونة ، وهو عبارة عن محراب رخامي صغير يبلغ طوله نحو متر وربع وعرضه نحو ثمانين سنتيمترا ، وقد ثبت في مكان عال من جدار الدير ، وفي إفريز عقده من الجانبين ومن أعلى كتابة كوفية ، هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بعمله على يدى جعفر فتاه وموليه ستة تسع وأربعين وثلاث مائة » .

ومن المرجح أن هذه اللوحة ، تتعلق بأعمال أو إصلاحات أجريت في جامع طركونة ، الذى أقيمت فوق موقعه الكنيسة ، وذلك بأمر الخليفة عبدالرحمن الناصر . كذلك يوجد في متحف الكنيسة العظمى ، إنجيل عربي لاتيني مطبوع في القرن السابع عشر .

ويبلغ سكان طركونة أربعة وثلاثين ألفاً .



طركونة . واجهة الكنيسة العظمى



طركونة . الأسوار الرومانية

٥ - طرطوشة

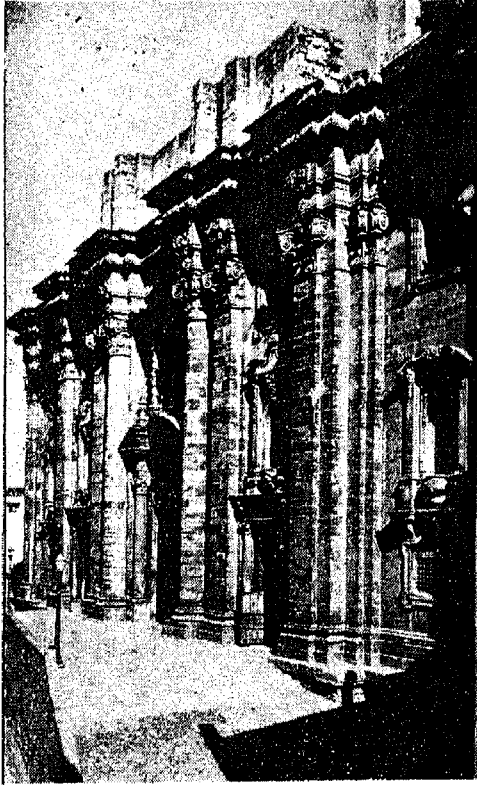
Tortosa

تبعد مدينة طرطوشة نحو خمسين كيلومترًا من طرطوشة ، وتقع على نهر إيبرو (إبرة) الذي يشق ولاية أراجون كلها ، على مقربة من مصبه في البحر الأبيض المتوسط .

وهي تشغل رقعة كبيرة شبه مستديرة ، وتحف بها الجبال عن كئيب ، وتضم من السكان سبعة وأربعين ألفاً . ويشقها النهر نحو نصفين ، النصف الأيمن أو الشرقي ، ويشمل الأحياء الراقية والمصالح والمتاجر الهامة ، والنصف الأيسر أو الغربي ، ويشمل الأحياء المتوسطة والمتواضعة ، كما يشمل عدداً من المزارع النضرة . والتربة هنا وافرة الخصب ، وتنمو بها الذرة والكروم والحدائق النضرة ، وتوجد حقول الأرز على النهر بكثرة ، وكذا تبدو غابات النخيل كثيفة ساحرة . وتبدو طرطوشة من الناحية العمرانية مدينة أوربية حديثة ، لا يبدو فيها ما يذكرنا بماضيها الإسلامي ، بيد أنه يلاحظ أن في أطرافها المحاورة لأطلال القاعة ، توجد شوارع قديمة ضيقة صخرية صاعدة ، ولا سيما من ناحية الكنيسة العظمى . ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية كانت تشغل بالأخص هذه المنطقة على يمين النهر ، خصوصاً متى ذكرنا أن الكنيسة العظمى تشغل مكان الجامع القديم . وقد كان يقوم عادة في وسط المدينة .

وقد سقطت طرطوشة في أيدي النصارى ، قبيل سقوط لاردة بقليل في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) . وكانت في أواخر عهدها الإسلامي مشوى للمجاهدين والمغامرين ، من رواد الحملات البحرية ، التي تنحدر في شواطئ الأهم النصرانية المحاورة . فدعا البابا إلى تأليف حملة صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الإسبان والبيزنيين والجنوئين وفرسان المعبد ، بقيادة الكونت رامون برنجار الرابع أمير برشلونة ، واضطر المسلمون إلى تسليم المدينة صلحاً في آخر سنة ١١٤٨ م ، مشترطين الاحتفاظ بمساجدهم وأماكنهم . ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم ، أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً ، ثم اضطروا إلى تسليمها لحكامهم الجدد .

وليست في طرطوشة آثار أندلسية ذات شأن ، ولكن أطلال قلعتها التي تسمى "Zuda" (السودا) تمت بلا ريب بصلابة إلى العهد الإسلامي ، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال من أسوار وبقايا أبراج ، تشغل مساحة كبيرة ، فوق ربوة عالية ، تقع في وسط المدينة ، وتشرف من الخلف على النهر . ويرجع الأثريون أصل هذه القلعة إلى العصر الروماني . ولكن المرجح أنها جددت واستعملت خلال العصر الإسلامي ، وكانت تؤدي وظيفة القصبنة الأندلسية من



طرطوشة . واجهة الكنيسة العظمى

الناحية الدفاعية ، وموقعها يعاون في تقصى خطط المدينة الأندلسية .

وتقع الكنيسة العظمى (الكثدرائية) في وسط المدينة ، على مقربة من القلعة ، وهي كنيسة قديمة تمتاز بواجهتها وزخارفها الداخلية ، ويتقدمها دير يلفت النظر بصحنه ، المبنى على الطراز القوطي العربي . والمعروف من تاريخ هذه الكنيسة ، التي ترجع إلى القرن الثالث عشر ، أنها أنشئت فوق موقع جامع طرطوشة ، الذي بنى في أوائل القرن العاشر الميلادي ، وأن كثيراً من أنقاض الجامع استعملت في بنائها .

ومما يلفت النظر في شأن

هذه الكنيسة ، أنه قد ثبتت في جدارها الخلفي من الخارج ، لوحة حجرية إسلامية مربعة تقريباً ، ضلعها نحو خمسين سنتيمتراً ، وقد نقشت عليها عشرة سطور من الكتابة العربية التي محيت نوعاً وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب ،

عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أيده الله فتم بناؤها على يد قائده وعبداه عبد الرحمن ابن محمد ، بعون الله ونصره ، في سنة ثلث وثلثين وثلث مائة وكتب عبد الله ابن كليب . . . » .

وقد رأيت من هذه اللوحة صورة من الحصن في متحف طركونة ، وأخرى مماثلة في متحف طرطوشة ، وعلمت من مدير متحف طرطوشة الدكتور بايرى ، أنه لا توجد في طرطوشة ، أية لوحات أو نقوش عربية أخرى ، أو وثائق عربية من أى نوع .

* * *

وقد اشتهرت طرطوشة في عهدها الإسلامى بنشاطها العلمى والثقافى ، وإليها ينتسب أبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب « سراج الملوك » المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . وهو من كتب السياسة الملكية المشهورة .

وهى مازالت تحتفظ اليوم بسمعتها الثقافية القديمة ، وفيها يقوم مرصد طرطوشة الشهير .

ويقع هذا المرصد على الضفة الأخرى من النهر ، فى طرف المدينة الغربى ، على ربوة عالية بجوار الدير ، ويشرف عليه الآباء اليسوعيون . وبه قسم للطبيعة وآخر للكيمياء ، وثالث للأرصاد الجوية ، وقد جهز كل قسم منها بأحدث الآلات العلمية الدقيقة ، وأنشئت به مكتبة علمية عظيمة .

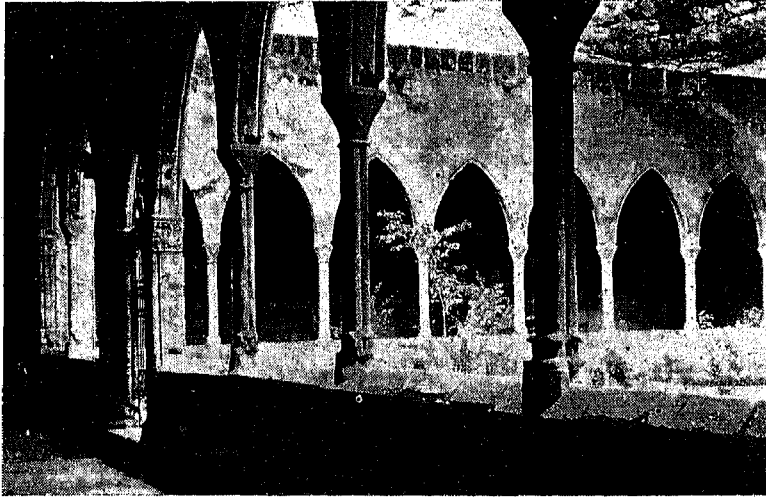
وقد استقبلنى فيه الأب الشاب أوريول كردوس ، وطاف بى مختلف أقسامه ، وأطلعنى على عمل الآلات المختلفة .

ويتبع هذا المرصد من الناحية الإدارية « المجلس الأعلى للعلوم » فى مدريد ، ويعد الطلاب لنيل الدكتوراه فى العلوم . ولكن ليس به طلاب منتظمون ، وإنما يعمل فيه الآباء والعلماء فقط . وهو على صلة بسائر مراصد العالم ، ومنها مرصدنا المصرى بحلوان ، وبه أحدث الأجهزة لرصد الزلازل ، وحركات الشمس ، وكثافة الأمطار ، والحرارة ، والأرصاد الجوية ، وغيرها .

وإنما عنيت بذكر هذه الكلمة عن مرصد طرطوشة ، للتدليل على نواحي النشاط العلمى والثقافى الممتاز ، الذى يقوم به الآباء فى مختلف الميادين .



طرطوشة . أطلال القسبة الأندلسية



طرطوشة . فناء الدير المجاور للكنائس ذات العقود العربية

٦ - ميورقة

Mallorca

حرصت على أن أعبر البحر إلى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن أقضى فيها أياماً ، أتقصى آثار العصر الإسلامي في تلك الجزيرة الكبيرة الساحرة .

وكان عبوري إلى ميورقة بطريق الجو ، وقد أتاحت لنا الطائرة ، وهي تجوب الجزيرة على ارتفاع منخفض نوعاً ، أن نشهد سطح الجزيرة عن قرب ، وأن نتعرف بمجمل خواصها الطبيعية .

إن جزيرة ميورقة تغلب على سطحها الصفة الصخرية ، وخصوصاً من أطرافها ؛ فهذه الأطراف هي هضاب تغلب فيها الجبال والربى ، وفي المناطق الوسطى توجد وديان منبسطة ومنحدرات خضراء . ويحتوى محيط الجزيرة على خلجان عديدة ، منها ما يصلح مرافئء بديعة لإيواء السفن . وتغطي الأشجار الباسقة وغابات الزيتون ، معظم البسائط والمنحدرات بالجزيرة ، يحوطها على مدار الشاطئ سياج صخري أصفر ، وجبال ذات آكام متوسطة الارتفاع .

وإلى جانب جزيرة ميورقة ، توجد جزيرة ميورقة "Menorca" ، وهي تقع في شمالها الشرقي ، ويابسة "Ibiza" وتقع في جنوبها الغربي ، وعدة أخرى من الجزائر الصغيرة .

ويبلغ سكان الجزائر الشرقية كلها نحو ثلاثمائة وثمانين ألف نسمة . وهذه الجزائر بالرغم من غلبة الهضاب على طبيعتها ، غنية بالزجاج الحصبة ، وفيها خلا مدينة ميورقة ، فإن معظم سكانها يحترفون الزراعة . ويجود بها القمح والكتان والفواكه ، ولاسيما التين والبرتقال ، ومن أعظم صادراتها زيت الزيتون ، حيث تغطي غابات الزيتون مساحات واسعة منها .

وعاصمة الجزائر كلها هي مدينة ميورقة ، أو مدينة بالماس دي ميورقة كما تسمى بالإسبانية . وهي تقع في غرب ميورقة ، على خليج يتخذ صورة القوس ، وفي منتصفه لسان يحمى الميناء ، وفي جانبه الأيمن تمتد المدينة في لسان طبيعي ، وفي شمال

القوس ، وفي طرفه تنساب أحياء المدينة الكبيرة . وتبدو الجبال عن بعد تظلال
البساتط الخضراء . التي تلي المدينة من الشرق والشمال . ويحيط هذا السور الجبلي
بموقع المدينة من طرفي القوس .

ومدينة ميورقة مدينة ضخمة . يبلغ سكانها مائة وخمسين ألفاً . معظمهم من
القطلان . ويؤلف القطلان أغلبية بين سكان الجزائر الشرقية . وهم أيضاً أغلبية
في مدينة برشلونة العظيمة وأحوازها . ويلاحظ أن القطلان جنس أرقى مدينة
وثقافة . وأكثر حيوية وإنتاجاً من الإسبان . ولهم لغة وآداب خاصة . والمدينة
قسمان . فأما قسمها الذي يشغل طرفي القوس فيقع في بقاع مستوية . وتشقه
شوارع وميادين ضخمة . ويبدو عليه طابع الحدة والحداثة .



ميورقة . منظر عام للمدينة والميناء

وأما قسمها الآخر ، وهو الذي يشغل الوسط ، ويمتد من البحر شمالاً ،
فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعداً حتى يستوى في نهاية المدينة ،
وتحترقه شوارع عديدة ضيقة ، يبدو عليها طابع العصور الوسطى . ولاغرو ففي
هذا القسم توجد معظم معالم ميورقة الأثرية ، وتوجد به أيضاً معظم الأحياء
التجارية ، وتتمركز معظم حركة الأعمال .

وكانت الجزائر الشرقية قبل العصر المسيحي ، في يد المستعمرين القرطاجنيين ،

ثم الرومان ، وعرفها العرب في عصر مبكر قبل افتتاح الأندلس ، وغزاها عبد الله بن موسى بن نصير سنة ٧٠٨ م . بيد أن المسلمين لم يبسطوا سيادتهم على تلك الجزائر قبل منتصف القرن التاسع الميلادي ، حينما بعث عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، حملة بحرية إلى ميورقة في سنة ٨٤٧ م أخضعها ، وفرضت عليها الجزية . وفي سنة ٩٠٣ م كان الفتح الحقيقي للجزائر على يد زعيم مجاهد يدعى عصام الخولاني ، قاد في عصر الأمير عبد الله ، حملة من المجاهدين ، وافتتح ميورقة . واستعمرها المسلمون وحكموها من ذلك الحين على يد الولاة المتعاقبين . وفي سنة ١٠١٤ م افتتحها مجاهد العامري أمير دانية ، وضمها إلى مملكته المستقلة ، واستمر في حكمها حتى وفاته في سنة ١٠٤٤ م . وسميت مدينة ميورقة في عصره مدينة مجاهد ، وحكمها ولده علي من بعده حيناً ، ولما سقطت مملكة دانية في يد بني هود أمراء سرقسطة في سنة ١٠٧٦ م ، استردت الجزائر استقلالها في ظل ولايتها من المسلمين ، واستمرت إمارة مستقلة ، تصارع حملات النصارى المتعاقبة عليها من الجنويين والبيزيين والقطلان ، حتى سقطت نهائياً في أيدي النصارى بقيادة ملكهم خيامي الأول ملك أراجون الملقب بالفاتح ، وذلك في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ) .

وكانت الجزائر الشرقية أيام المسلمين ، ولا سيما كبراهها ميورقة عامرة بالسكان ، غنية زاخرة ، تتمتع بقسط كبير من الرخاء والتمدن . وكانت لها علائق تجارية عظيمة مع ثغور المغرب .

* * *

ولنعد الآن إلى مدينة ميورقة عاصمة الجزائر ، ومستودع الآثار والذكريات الأندلسية ، فنقول إنها ما زالت تحتفظ بكثير من معالم العصر الإسلامي وآثاره ، وإن كانت هذه المعالم والآثار ، تكاد تختفي اليوم تحت أثواب التجدد أو أثر الإهمال والعفاء .

وما زالت ثمة بعض المعالم الأثرية ، تحدد لنا مواقع المدينة الأندلسية . وقد كان هذا الموقع يمتد من البحر شرق الميناء شمالاً حتى نهاية المدينة الحالية ، وشرقاً حتى ميدان الفتح "Plaza de la Conquista" ، وميدان إسبانيا "P. de España" وشارع برعمو دي رفيرا ؛ وغرباً حتى شارع الجمهورية الفضية : وتشغل هذه

الرقعة بالضبط وسط مدينة ميورقة الحالية ، وهو الجزء الواقع فوق الرقعة المرتفعة ، التي تطل من جنوبها على البحر ، عند الكنيسة العظمى وبقيّة الأسوار الأندلسية . وقد كان للمدينة الأندلسية في العصور الوسطى ، ستة أبواب وردت أسماءها جميعاً ، في وثيقة تقسيم ميورقة العربية اللاتينية التي نتحدث عنها فيما بعد ، وهي « باب البلد » في الشرق ، و « باب الكحل » و « باب البلياط » و « باب السراجب » في الشمال ، و « باب برتين » في الغرب ، و « باب الحديد » في الجنوب الغربي مما يلي البحر . وكان يمتد شارع المدينة الأندلسية من وسطها الشارع الكبير ، وهو الذي يحتل مكانه اليوم « شارع الفاتح » ، ثم « الميدان الكبير » "P. Mayor" ، ثم شارع سان ميغيل حتى « باب البلياط » في الشمال .

المعالم الأثرية

وتقوم كنيسة ميورقة العظمى فوق موقع المسجد الجامع ، على مقربة من البحر ، تجاه « القصر » الذي نتحدث عنه بعد ، وتسمى الكاتدرائية أو "La Seo" ، وقد أسست عقب افتتاح النصارى لميورقة ، في أواسط القرن الثالث عشر : والمعروف أن مصلاها المسمى « بالمصلى الملكي » "Capilla Real" ، وهو أقدم أجزائها ، يقوم فوق جزء المسجد الذي كان به المحراب . وهي كنيسة عظيمة مبنية على الطراز القوطي ، وقد استغرق إنشاؤها بضعة قرون ، ويسمى بابها الذي يطل على ناحية البحر « باب المنظرة » "Puerta del Mirador" ، وهو عقد قوطي شاهق .

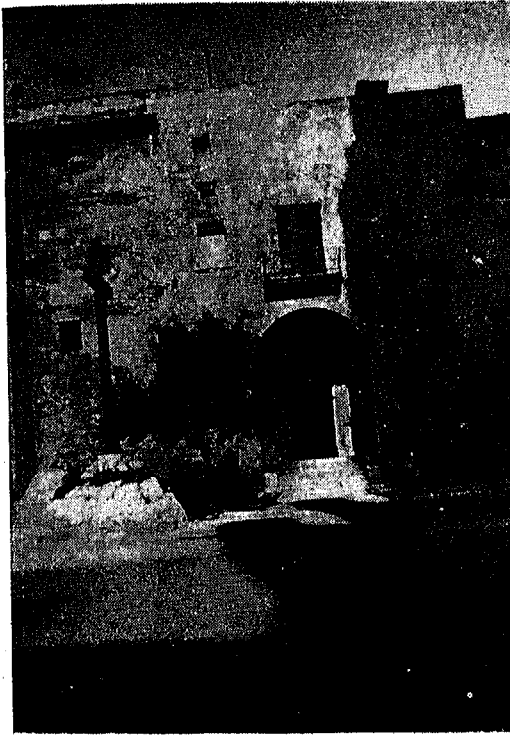
وتوجد في ميورقة خلاف الكنيسة العظمى ، عدة كنائس أثرية أخرى ، في مقدمتها كنيسة القديس ميغيل "San Miguel" ، الواقعة في الشارع المسمى بهذا الاسم ، على مقربة من « الميدان الكبير » . والمعروف من تاريخها أنها كانت مسجداً ، وحول إلى كنيسة عند دخول النصارى الفاتحين المدينة .

كما يوجد دير سان فرنيسسكو ، وقد أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر ، وله صحن ذو عقود على الطراز الأندلسي .

قصر المدينة : "Almudaina" وهو صرح قديم ضخم ، يقوم قبالة الكنيسة العظمى من ناحية الغرب ، وهو اليوم مقر القيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة . وتدلّى واجهته العتيقة ، وبنائوه الوعر الحصين ، بأنه كان حصناً وقصراً .

والمعروف من تاريخه أنه كان قصرًا للولاة والأمراء المسلمين ، شيد فوق أنقاض صرح روماني قديم ، واستمر مقراً لهم حتى سقطت ميورقة في يد النصارى ، وعندئذ غدا صرح « المدّينة » مقاماً للملوك النصارى ، وعدل بناؤه وغير مراراً ، حتى صار إلى وضعه الحاضر .

وفي داخل قصر المدينة فناء كبير مربع ، ذو عقود عربية من الناحيتين ، وفي وسطه النخيل على الطراز الأندلسي . ولم يبق في هذا الصرح العتيق من عهده الأندلسي

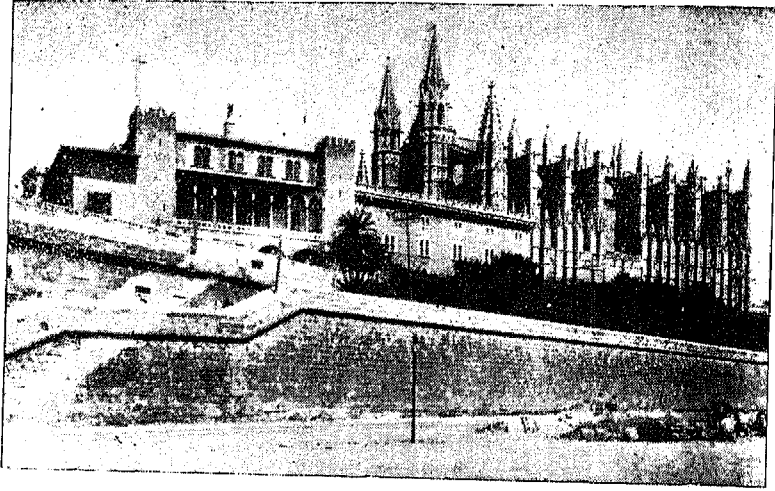


ميورقة . واجهة قصر المدينة

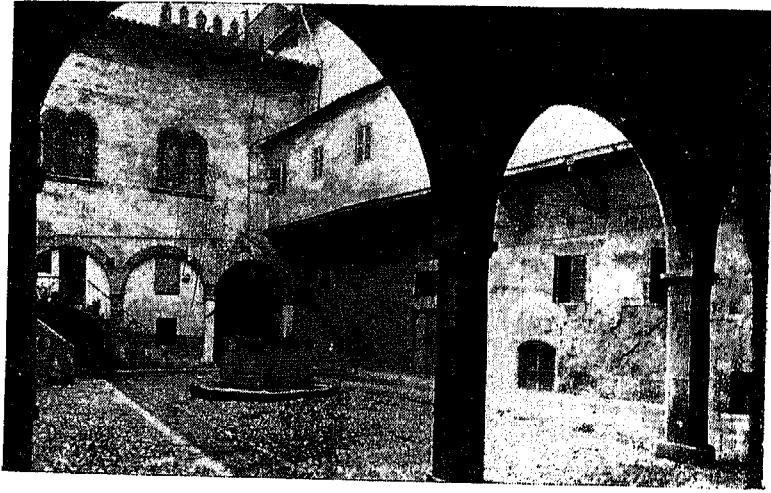
سوى القليل ، من ذلك في فناءه الداخلي الذي يسمى « فناء الملكة » نافذتان لها عقود عربية ، وحوض نافورة عربي الطراز ، وهيكل عقد عربي يقوم في أعلى الحدار في أحد ممراته . وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفية من أعمدته القديمة ملقاة في الحديقة المجاورة .

ويقوم القصر على نفس الرتبة المرتفعة التي تقوم عليها الكتدرائية ، ويحيط به من الناحية اليمنى سور حصين مبني بالحجارة الضخمة ، منحدر إلى أسفل ، وفي نهايته برج قد يرجع إلى العصر الأندلسي .

وعلى ذكر الأسوار نقول إنه لم يبق من أسوار المدينة الإسلامية ، سوى الجزء الذي يقع جنوب الكتدرائية على البحر ، ويحمي ساحتها المطلة عليه والمسماة « بالمنظرة » ، وبقية أخرى في الناحية الشرقية ، في الشارع المسمى « باب البحر » على مقربة من موقع « باب البحر » القديم . وفي هذه الجهة توجد أيضاً قلعة عربية صغيرة ، تقع في ميدان المعبد « P. de Temple » القريب ، كان يحتلها « فرسان المعبد » عقب الفتح النصراني .



ميورقة . الكنيسة العظمى وقصر المدينة ، وقد ظهرت بقية الأسوار العربية مشرفة على البحر



ميورقة . فناء الملكة داخل قصر المدينة

عقد المدينة : ولم يبق من عقود الأبواب الأندلسية القديمة سوى عقد «باب المُدَيِّنة» وهو يقع في وسط شارع المدينة "C. Almudaina". ويعتبر هذا الشارع الصخري العتيق من أقدم شوارع ميورقة ، وهو بقية ظاهرة من المدينة الأندلسية حيث يبدو طرازه الأندلسي ، في شكله وفي منازل من الحائنين ، وفي أبوابها ذات العقود العربية .

وأما عقد المدينة فهو عقد حجري ، يبلغ سمكه من الداخل مترين ، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، واتساعه أربعة ، وهو اتساع الشارع ، وتعلوه غرفة حجرية ذات كوة صغيرة . وفي هذا

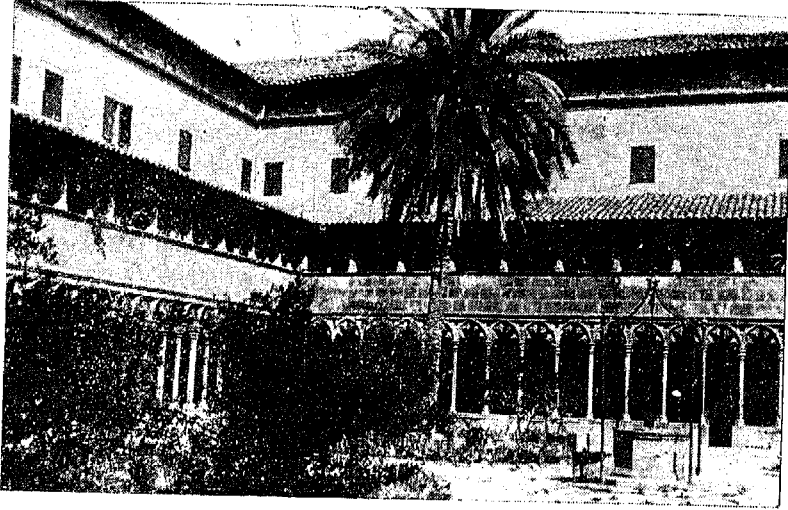


ميورقة . عقد باب المدينة

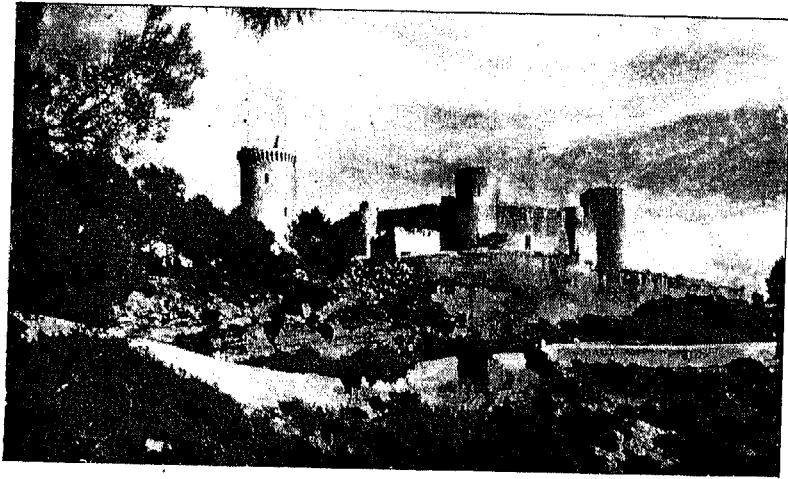
الشارع تقع عدة منازل قديمة ، ترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبها أفنية وشرفات ونوافذ يغلب عليها الطابع الأندلسي . ويوجد في هذا الشارع أيضاً متحف صغير ، هو متحف الجمعية الأثرية المسماة « لوليانا » ، وقد شاهدنا فيه رأس محراب عربي له عمودان رقيقان من الرخام ، وبضعة شواهد أوقطع من شواهد قبور إسلامية ، على بعضها نقوش كوفية باسم المتوفى أو عام وفاته .

ويفضى شارع المدينة

إلى شبكة من الدروب العتيقة الضيقة ، مثل شارع موري "Murey" ، وشارع سرا "Serra" ، وشارع « النقاء » ، "Pureza" ، وهي كلها من طراز شارع المدينة ، وكلها تدلى بأنها كانت من أحياء المدينة الأندلسية القديمة .



ميورقة . فناء دير سان فرانسيسكو ذو العقود العربية



ميورقة . حصن بلشير (المنظر الجميل)

الحمامات العربية : وفي إحدى هذه الشوارع وهو شارع سراً ، تقع الحمامات العربية ، وهي بقية خربة مشوهة من حمامات أندلسية ، يبدو عليها أثر الاحتراق ، وهي عبارة عن مربع في كل ضلع من أضلاعه ، ثلاثة عقود. ويحتوي جميعاً على اثني عشر عقداً رفيعة ، وتعلوه قبة صغيرة قد جردت من نقوشها ، ولم نر بها أية نقوش أو كتابات ، لأن النار قد أتت على قشرتها الخارجية . وفي وسط الفناء فجوة كبيرة قديمة .

وتقع هذه الحمامات داخل حديقة منزل خاص ، هو منزل السيد بيدرو موريل "Don Pedro Morel" ، والمقول أنها ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي أو الخامس الهجري ،

في المتحف الأسقي : ويحتفظ المتحف الأسقي "Museo Diocesano" ، بلوحة حجرية من العصر الإسلامي حجمها نحو ٥٠ × ٣٠ سنتيمتراً ، وهي عبارة عن شاهد قبر لمن يدعى سليمان بن منصور ، وعليه كتابة كوفية ساذجة جداً ، وقد كادت تمحى وهذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الناس إن وعد الله حق . هاذا قبر سليمان بن منصور رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه ، إنه توفي اليوم الأحد لست وعشرين يوماً خلون من ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وثلث مائة .»

وتوجد في الطابق الأعلى لهذا المتحف قطعتان كبيرتان من الخشب ، طول كل منهما نحو خمسة أمتار وعرضها متر ، وقد زينتا بنقوش مدجنية ، على شكل نجوم مضلعة ، بارزة في إحدهما ، ومحفورة في الأخرى .

كما توجد قطعة خشبية أخرى ذات زخارف مدجنية ، وأطباق خزفية جميلة مذهبة من عصر الوريسكيين ، وأباريق خزفية أندلسية .

وعلمت أنه توجد ببلدة ماناكور لوحة حجرية أخرى ، قد نقش عليها « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

الأثر المسمى باللونجا "Lonja" : وهو عبارة عن قاعة قوطية كبيرة ، على شكل صحن الكنيسة ، تقع في شارع « ساجريرا » "Paseo Sagrera" الضخم الممتد على طول البحر ، والذي يتوسطه صفان من النخيل المثمر ، وهو يرى بكثرة في شوارع ميورقة وميادينها .

وقد كانت اللونخا في العصور الوسطى ، كشيلاهما في كثير من المدن الإسبانية ، تستعمل للتعامل والبيع والشراء ، وهى اليوم تستعمل متحفاً للصور . وقد رأينا من بينها صورة بريشة سوريانو موريليو ، يصور فيها أبا عبدالله آخر ملوك الأندلس وهو سائر في ركبه مع أمه وزوجته وابنته ، على مقربة من غرناطة ، فى الموضع الذى يسمى إلى اليوم « زفرة العربى الأخرى » ، وهو يبكى وأمه تنحى عليه باللائمة « لأنه يبكى كالنساء ملكاً لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال » .

ويوجد فى ضاحية ميورقة ، الحصن المسمى حصن « المنظر الجميل » "Belver" وهو يقع على ربوة تطل على المدينة . وله فناء ذو عقود ، ويتكون من طابقين بيضاويين ويطلان على الفناء ، وله برج عال . وهو من إنشاء الملوك النصارى ، أنشأه الملك خايمي الأول فى بداية القرن الرابع عشر .

وثيقة عربية

بتقسيم أراضي ميورقة

وتحتفظ دار المحفوظات البلدية بمدينة ميورقة ، بوثيقة عربية وحيدة ترجع إلى عصر الفتح النصرانى ، وهى عبارة عن عقد أو اتفاق لتقسيم الأراضى بمدينة ميورقة بين زعماء النصارى الفاتحين ، يتكون من تسع ورقات مستطيلة (حجمها نحو ٣٠ × ١٥ سنتى) ، وأمام كل صفحة مقابلها باللغة اللاتينية واللغة القطلونية ، ويكون المجموع كراسة كبيرة مستطيلة . وتعرف هذه الوثيقة فى تاريخ ميورقة ، بكتاب أو عقد تقسيم ميورقة "Repartimento de Mallorca"

وتعنى الوثيقة أولاً ببيان الأقسام المختلفة وأصحابها على النحو الآتى :

- ١ - القسم الخاص بالأقماط وشركائهم فيه .
- ٢ - ويقسم هذا القسم إلى أربعة أقسام يعطى كل قسم منها إلى الآتى :
 - (أ) ققط ننوا جزين (ب) يشب برشلونة وشركاؤه (ج) القمط أنبر ياش
 - (د) جليام ماجوره وشركاؤه . ثم تعود الوثيقة فتين هذه الأجزاء تباعاً بالتفصيل (ورقة ١ و ٢) .

وتتحدث الوثيقة بعد ذلك عن تقسيم « جميع الأراضى التى بخارج المدينة » إلى قسمين : الأول « وهو النصف الواحد الذى صار إلى الرى رغون وشركايه » .

ثم تسمى الأعيان الداخلة في هذا القسم ، وتقسمه بعد ذلك إلى أربعة أقسام .
وتعدد الأعيان والمزارع الداخلة في ذلك .

ثم تقول « وقسم رابع منها وهو الربع الواحد الذي صار لجليام ماجوره » .
ثم « القسم الرابع الواحد الذي صار إلى القمط أنبرياش » .
تقول « ويقسم جميع ما بمدينة ميورقة ، على ثمانية أقسام تحت صورها »
« قسم وهو النصف الواحد ... وهو الذي صار إلى الري رغون وشركايه ، من
ضعد المليون إلى مسجد عبد الملك إلى جنة المصامدة ... » .

وقسم « وهو النصف الواحد أيضاً ، ويحوزه من صور المدينة من برج الحمام
على الطريق من باب المدى إلى المسعى ، وحفير الصور إلى برج الحمام ، بمقربة
مخزن الضياع ، إلى الوادي إلى باب البلياط بطول الصور إلى باب المدى .
« وقسم ثانی منها وهو الربع الواحد الذي صار للبشب برجلونة وشركايه
فيه ، ويحوزه من مسجد الزنقة إلى دار الحاج داود إلى قنطرة باب الغدر إلى
الصور إلى باب الحديد » .

« وقسم ثالث منها وهو الربع الواحد ، وصار لجليام ماجورة منقاده وفرسانه
شنجيشه وأصحابهم ، ويحوز من حايط رياض أبو يحيى الملاصق باب البلياط بطول
شارع الكدية إلى مسجد بريقة ، إلى دار الحاج داود إلى باب الغدر من ناحية الحوف » .
ويرد خلال تحديد البقاع والأماكن المقسمة ، كثير من أسماء الخطط والأعيان
والضياع الميورقية في العهد الإسلامي ، مثل رحى الشجر . رحى الدب . رحى
السفاح . رحى اللوزة . رحى ابن مدرك . جنان الصباغ . جنان الطرطوشي . رحل
الصفار . رحل ابن الأصفر . رحل ابن قطيعة . رحل بشير . رحل الفخار . الخ
ومن أسماء الأبواب : باب الكحل . باب البلد . باب البلياط . باب المدى .
وجاء في صفحة ١٢ من الوثيقة في الثلث الأول منها ما يأتي :

« لما وقع الاتفاق على أن تقسم جميع أراضي جزيرة ميورقة بخارج باب البلد
على نصفين سويين ، وينقسم كل نصف على أربعة أقسام ، وقع الاتفاق على أن
يبقى من نخوز الأحواز للمدينة من الواد اليابس إلى رحل المعبرة بقطين إلى الرابطة
بمرين إلى حد رحل القرازة ... » .

وتحدد الوثيقة بعد ذلك الأقسام « التي صارت للقمط ننوا ، والتي صارت

للشعب برجلونة وأصحابه ، وللقمط أنبرياش وشركاياه ، ولغليام ماجوره منقاديه وشركاياه .
وليس لهذه الوثيقة تاريخ . ولكن يستفاد من موضوعها أنها ترجع إلى ما بعد فتح النصارى لميوزقة بقليل ، وقد وقع هذا الفتح بين سنتي ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م .
ولسنا نعرف من جهة أخرى سبباً لكتابة هذه الوثيقة بالعربية ، وهي تختص بتقسيم الأملاك المفتوحة بين النصارى ، مقابل نصها اللاتيني والقطلائي ، إلا أن يكون ذلك لتعيين الأعيان والحدود بأسمائها العربية الصحيحة ، التي لم تكن قد غيرت أو حرفت بعد ، ولتعريف الأنصبة الممنوحة بدقة تنفي الاضطراب واللبس .
وعلى أي حال فإن محتويات النص العربي لهذه الوثيقة ، تلقي أعظم ضوء على خطط مدينة ميوزقة الإسلامية ، وعلى حدودها ومعالمها .

وما زالت توجد إلى اليوم بجزيرة ميوزقة ، عدة بلاد وقرى تحتفظ بأسمائها الإسلامية ، مثل بنى سالم أو بنى عبد السلام "Benisalem" والكدية "Alcudia" ، وبنى علي أو بنى العالى Beniali وغيرها ، كما أنه توجد أسماء ميوزقية ترجع إلى أصول عربية واضحة ، مثل Bennasar وهو ابن نصر ، و Beniatzar ولعله بنى الزار أو بنى الزرع ، وغير ذلك .

ومما يجدر ذكره أنه يوجد بين سكان ميوزقة بعض الغجر ، وهم يعيشون في بعض الشوارع القريبة من الكندراثة والقريبة من « اللونخا » . وقد علمت أنه توجد منهم أقليات تعيش في أنحاء الجزيرة ، ولكني لم أقف على حقيقة عددهم .

مدينة سـولـيـير

وقد زرنا مدينة سولير Solier ، وهي مدينة صغيرة تقع شمالي ميوزقة على مقربة من البحر ، وتبعد عنها نحو ساعة بالقطار . وهذه المنطقة التي تفصل بين البلدين ، تختلف بين البساتن والتلال ، وتنمو بها غابات الزيتون بكثرة . وتقع سولير نفسها في منطقة جبلية في واد عميق تحيط به الجبال ، وهي مدينة حديثة أنيقة المظهر ، ولكن تحترقها من الجانبين شوارع ضيقة ، وتبدو بها أشجار النخيل والكروم وليس بها من الآثار ما يزار ، ولم تلمح فيها ما يذكرنا بالطابع الأندلسي سوى دروبها الضيقة الملتوية . والظاهر أن هذه البساتن الخضراء الجميلة الواقعة بين ميوزقة وسولير ، وهي التي تكون المثلث الشمالى الغربى من الجزيرة ، كانت مهبطاً طيباً للمستعمرين المسلمين .

٧ - قسطلونة

Castellon

تقع مدينة قَسْطُلُونَة ، في منتصف المسافة بين طرطوشة وبلنسية ، وهي إلى بلنسية أقرب ، وهذه الرقعة الساحلية التي تمتد بين طرطوشة وقسطلونة ، تختلف في البداية من الحضرة اليانعة ومناطق الكروم وغابات الزيتون ، إلى منطقة ، تتخللها التلال ، ويغلب عليها القفر ؛ ثم تضيق الرقعة قبيل قسطلونة فيما بين البحر والجبال ، وتغلب عليها الحضرة .

وقسطلونة من مدن الأندلس الشرقية ، التي يرتبط تاريخها معظم الوقت بتاريخ بلنسية ، وهي اليوم تبدو في ثوب مدينة أوربية حديثة ، وتشغل السهل بعد أن كانت أيام المسلمين تشغل الربوة التي تقع شمال مكانها الحالي ، ومن ثم كان اسمها الحديث وهو « قسطلونة السهل » Castellon de la Plana

وهي مدينة متوسطة الحجم ، مثلثة الرقعة ، تقع على مقربة من مصب نهر مخارس Mijares ، وتخترقها شوارع طويلة منسقة وميادين فسيحة ، ويرى النخيل في شوارعها وميادينها ، ويبلغ سكانها خمسة وثلاثون ألفاً .

ولا توجد في قسطلونة أية معالم أثرية أندلسية أو غيرها ، وحتى كنيستها القديمة الرئيسية أحرقت أيام الحرب الأهلية ؛ وكل ما هنالك أنه توجد بقايا القنطرة العربية فوق نهر مخارس ، على بضعة كيلومترات من المدينة ، وهي قنطرة صخرية تحمل إليها الماء من مصب النهر ، وقد أكد لي السنيور كاديننا أمين المتحف والمكتبة البلدية ، أنه لا توجد في قسطلونة أو أحوازها ، أية أطلال أو نقوش أندلسية أو موريسكية ، وأن المنطقة كلها فقيرة جداً في هذه الناحية . أما المتحف فإنه يضم بقايا آنية خزفية ، وبضعة أطباق وألوان أندلسية مصححة ، عثر عليها في حفائر قسطلونة ، ومنها ما يرجع إلى عصر الخلافة ، ويرجع باقيها إلى عصور متأخرة ، ولاسيما العصر الموريسكي ، وقد أطلعنا السنيور كاديننا على هذه البقايا الخزفية ، فوجدناها خالية من كل كتابة عربية ، وليست لها أهمية أثرية تذكر .

وقد سقطت قسطلونة في يد النصارى في أوائل القرن الثالث عشر قبل
سقوط بلنسية بقليل .

* * *

وعلى مقربة من قسطلونة ، في طريق بلنسية ، تقع بُرّيانة Burriana ،
وهي بلدة أندلسية عريقة . وهي اليوم بلدة صغيرة حديثة المظهر والتخطيط ،
وليس بها آثار تذكر . ويرى بها النخيل . وتمتد من بعدها في الطريق إلى بلنسية ،
حدائق البرتقال الياضعة إلى مسافات بعيدة .

٨ - شاطبة

Játiva

كانت شاطبة من القواعد الأندلسية العريقة ، وكانت أيام المسلمين مدينة عامرة زاهرة ، وقد بكأها أبو الطيب الرندى فى مرثيته الشهيرة :
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
أما اليوم فإن شاطبة بلدة صغيرة متواضعة ، يغلب عليها طابع القدم ، ولا يتجاوز سكانها خمسة عشر ألفاً .

وتقع شاطبة على قيد نحو خمسين كيلومتراً جنوب غربى بلنسية ، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، ويمتد فيما بين البلدين بسيط جميل خصب يغص بالحقول اليانعة ، وتنمو فيه محاصيل الذرة والأرز والبقول ، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال . وتحده الجبال هذا البسيط الأخضر من الجانبين ، ولكن على بعد شاسع . وهذه البقعة النظرة هى من أخصب ما شهدت من البساتن الإسبانية . وقد لفت نظرى أسماء عدة من البلاد ، التى تقع فى طريق شاطبة وعلى مقربة منها ، وهى أسماء عربية واضحة مثل « الجزيرة » Alcira « والخميسى » Algemisi و « بنى فايز » Benifays « وبنى مسلم » Benimuslem و « البريق » Alberi ue وغيرها . وعلى مقربة من شاطبة تبدو أشجار النخيل فى سائر القرى ، عالية مبعثرة هنا وهناك ، وتبدو فى ظاهرها حقول الأرز بكثرة تلفت النظر ، كما تبدو حدائق البرتقال الحميلة ، وتمتد هذه المنطقة حتى مشارف المدينة . بيد أنه تنوسطها بقعة مجدبة ، تتخللها الجبال والمستنقعات . ويقع هذا البسيط الأخضر على ضفة نهر « البيضاء » Albaida ، الذى يجرى على مقربة من المدينة ، وهو أحد أفرع نهر شُفر .

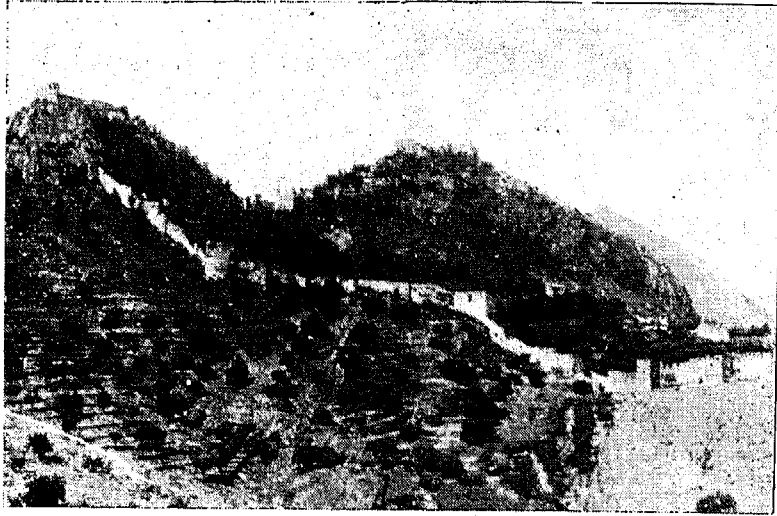
وشاطبة من أقدم المدن الإسبانية ، ويرجعها التاريخ إلى عصر الفينيقيين ، وقد كانت فى العهد الرومانى مدينة عامرة مزدهرة . واحتفظت بأهميتها ورنخاتها أيام القوط . وزادت فى ظل العهد الإسلامى أهمية وازدهاراً ، واشتهرت بمزارعها وحدائقها اليانعة ، ولبثت من أهم قواعد الأندلس الشرقية ، تلى بلنسية ومرسية

في الأهمية حتى افتتحها النصارى ، بعد أن حاصروها مراراً متوالية ، على يد ملكهم خايمي الأول في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) .
وتبدو شاطبة اليوم في ثوب مدينة أثرية ، لما تحتويه من أديرة وقصور قديمة . وهي تقع في حى الربوة العالية ، التي تقع عليها أطلال حصنها الشهير ، تحيط به سلسلة من التلال العالية . وهي متوسطة الحجم مستطيلة الرقعة يخرقها شارع عريض ضليل ، ومعظم شوارعها قصيرة تظلها أشجار التوت العتيقة ، وبها عدة ميادين أثرية يزدان بعضها بالنوافير والتماثيل ، وشوارعها الصاعدة المتجهة إلى الربوة ضيقة ملتوية تنم عن أصلها القديم ، ومنازلها منخفضة لا تزيد عن طابقين أو ثلاثة ، وهي تتخذ على العموم طابعاً خاصاً ، يغلب عليه القدم واللون الأثري ، وهي من ناحية طابعها الخاص وطرزها الأثري الخضرم ، تبدو على شاكلة قرينتها مرسية .

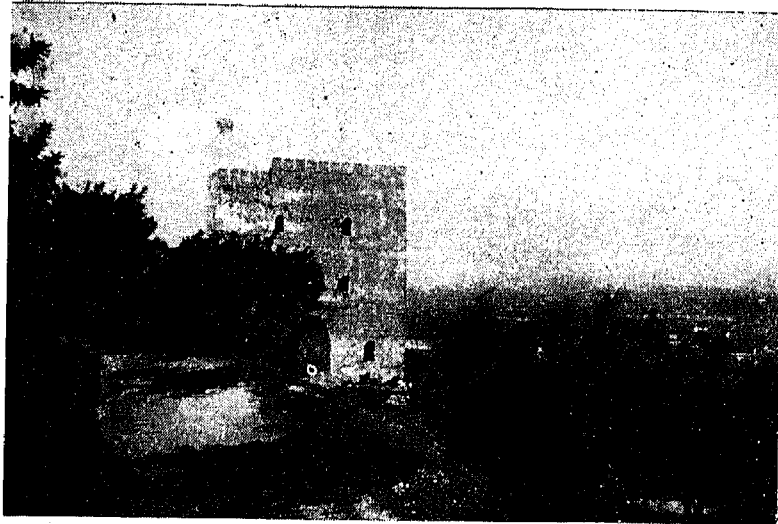
الحصن والأسوار

وأهم معالم شاطبة الأثرية ، هو الحصن الكبير الذى يشغل منطقة شاسعة ، فوق حافة الربوة الصخرية الوعرة ، التي تشرف على المدينة من ناحية الغرب ، والتي تعرف بجبل برنيسا Bernisa . وهي عالية جداً ترتفع عن البسيط الذى تقع عليه المدينة ، زهاء ألف وثمانمائة متر ، ويصعد إليها بواسطة طريق معبد تخرقه السيارة . وقد صعدت إليها برفقة الأستاذ العلامة الدكتور كارلوس سارتاو وكاريرس عضو أكاديمية التاريخ ، وهو أمين متحف شاطبة ومؤرخها ، وقد كتب عن حصنها مؤلفاً تاريخياً وأثرياً قيمياً .

ومن التجاوز أن يقال الحصن ، إذ يوجد في الواقع حصنان ، ومجموعة كبيرة مختلفة من الأطلال والأسوار . ويعرف أحد الحصنين بالحصن القديم Castillo Viejo ، والآخر بالحصن الجديد Castillo Nuevo . وتحيط بهذه المجموعة الأثرية أسوار واحدة . ويقع الحصن القديم ، وهو أصغر الحصنين في الطرف الأيسر للربوة ، فوق أكمة منعزلة يصعب الوصول إليها ، وهو يرجع فيما يبدو إلى العصر الرومانى أو إلى عصر القوط . وتقع أطلال الحصن الكبير في الناحية اليمنى ، وهي تحتوى على مجموعة متنوعة من الأبواب والساحات والسلام . وفي هذه المجموعة ،

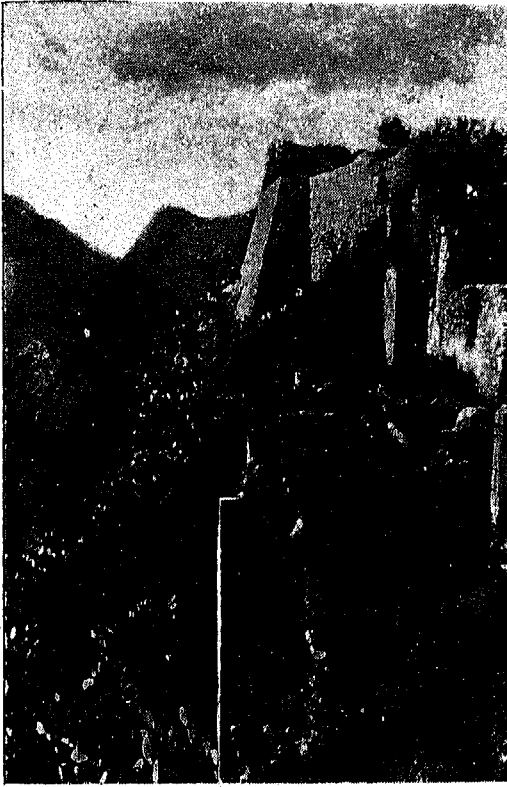


شاطبة . الجبل الذي يقع الحصن في أعلاه



شاطبة . أحد أبراج الحصن

نلمح بعض مظاهر العمارة العربية . والمرجح من الناحية التاريخية في شأن الحصن أو الحصنين ، أنهما يرجعان إلى العصر القديم ، وأنه قد توالى عليهما خلال مختلف العصور المتعاقبة ، من الرومان والقوط والعرب ثم الإسبان ، إضافات وتغييرات كثيرة . بيد أنه يغلب عليهما الطابع القوطي الأندلسي . وموقع الحصن الكبير على الربوة العالية المشرفة على المدينة ، شبيه بموقع القصبات الأندلسية التي سوف يأتي ذكرها ، في مالقة وألمرية وغيرهما ، من وعورة الموقع ومنعته ، وتحكمه في



شاطبة . أطلال الحصن

المدينة من الناحية الدفاعية .
وإذا فقد كان هذا الحصن أيام
المسلمين ، هو قصبة شاطبة .
ومما يؤيد صحة هذا الفرض ،
أنه ما زال يوجد في أسفل
الربوة باب معقود أندلسي
الطرارز .

ويوجد فوق مرتفع بارز
بين أطلال الحصن الكبير ،
مصلى تاريخي أقامته إحدى
ممالك إسبانيا ، في القرن
الخامس عشر .

كما أنه يوجد به سجن
ملكى قديم ، وهو مما أنشأه
فيه الملوك الإسبان ، وهو
عبارة عن غرفة داخلية مظلمة
شديدة المنعة . وقد سجن في

هذا المطبق ، عدة من الأمراء والأكابر الإسبان ، خلال القرنين الرابع عشر
والخامس عشر ، وأحيطت سيرهم ومخيمهم بطائفة من القصب المشجى .

وأما أسوار شاطبة فقد بقي منها جزء كبير ، مما يحيط بالحصن من الورا ،
وهي مزيج مما شيده الرومان والقوط والعرب ، ثم الإسبان بعد استرداد المدينة

الكنيسة العظمى : من المحقق أن كنيسة شاطبة العظمى المسماة "La Seo"، تقوم فوق موقع المسجد الجامع ، وهي تقع في وسط المدينة من ناحيتها الجنوبية ، في ميدان كبير. وكان الإسبان حينما استولوا على المدينة في سنة ١٢٤٩ م ، قد حولوا المسجد كمعادتهم إلى كنيسة ، ثم هدم المسجد ، وأنشئت مكانه كنيسة عظيمة فخمة في القرن الرابع عشر ، تمتاز بزخارفها الرائعة من طراز عصر الإحياء. وفي خلال الحرب الإسبانية الأهلية ، أحرقت الكنيسة وأصابها تلف كبير ، ثم أصلحت ووجدت في الأعوام الأخيرة .

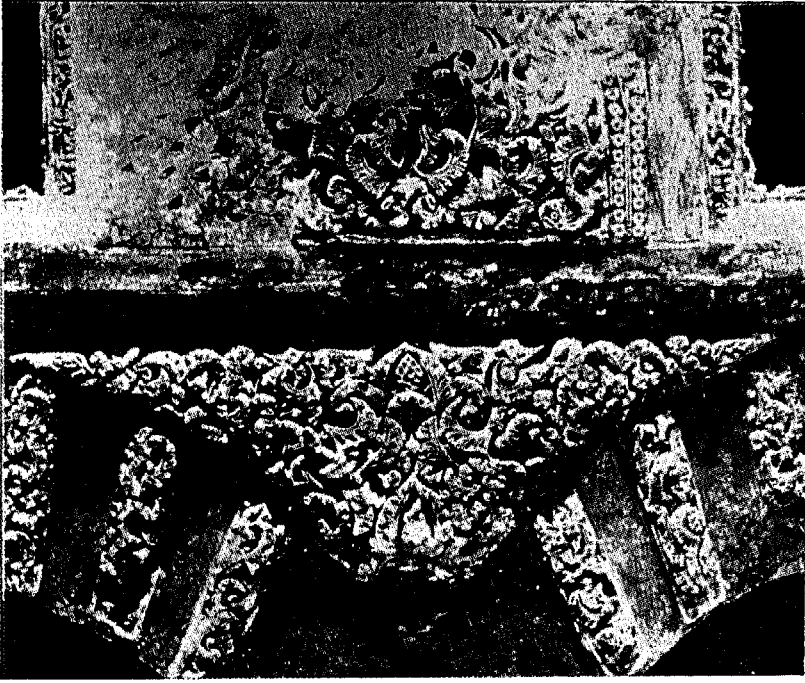
وفي ميدان الكنيسة تمثال للبابا كالكستوس الثالث ، الذي تولى عرش البابوية من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ م ، وهو إسباني من أبناء شاطبة . ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا ، هو أيضاً من أبناء شاطبة ، وهو ابن أخى البابا كالكستوس ، وكلاهما من أسرة « بورخا » "Borja" الشهيرة ، التي حرف اسمها فيما بعد إلى « بورجيا » "Borgia" ، ثم إن بلدة جانديا الصغيرة التي تقع على البحر شرقي شاطبة ، هي التي اتخذها اسكندر السادس فيما بعد لقباً لإمارة ابنه الكبير حيث سماه « دوق جانديا » .

ويبدو مؤرخو شاطبة من أبنائها ، اعزازاً في تواريخهم ، بأن بلدهم قدمت إلى الكرسي الرسولي اثنين من البوابات وسبعة كرادلة من أبنائها . ويوجد في شاطبة بضع كنائس أخرى ، وعدد من الأديرة والقصور التاريخية ، التي ترجع كلها إلى العصر النصراني .

في متحف شاطبة : وفي شاطبة متحف يضم طائفة نفيسة من الذخائر الأثرية ، إيبيرية ورومانية وأندلسية ، من تماثيل وأحواض وأحجار ونقوش ولوحات وآنية خزفية . وقد رأيت فيه التحف الأندلسية الآتية :

أولاً - عقد مزدوج من الرخام وفوقه كوتان . وفي أفاريزه نقوش مدجنية من أحرف عربية ، تؤلف كلمات لامية لها . وقد انتهت بعد فحصه إلى أنه ليس من آثار شاطبة الإسلامية ، وأنه من صنع عصر متأخر ونقوشه مدجنية بارعة . ويؤيد ذلك ما ذكره لي الأستاذ سارتاوو ، من أنه أخذ من قصر أحد الدوقات الإسبان .

ثانياً - يوجد أيضاً عقد عربي لحمام مكون من ثلاثة عقود وعمودين . وهو فيما يرجح من صنع أندلسي إسلامي بيد أنه لا يحمل أية كتابة .



متحف شاطبة . زخارف عقد الحمام العربي

ثالثاً - والأثر الذي يلفت النظر حقاً ، هو حوض من الرخام على جوانبه نقوش وصور شبه رومانية ، تتكون من أشخاص وطيور ووحوش . وقد أكد لي الأستاذ سارتاوو أنه من صنع عربي أندلسي ، وأنه بنقوشه الفذة يعتبر قطعة نادرة من الذخائر العربية المصورة في اسبانيا . وقد وجد في مدينة الحامة . هذا ويوصف هذا الحوض في دليل المتحف أيضاً ، بأنه من الآثار العربية . بيد أني لم أقتنع بهذا الرأي . ويوجد أيضاً في متحف شاطبة ، عدة قطع رخامية من رؤوس أعمدة وغيرها مزينة بالزخارف العربية ، وهي من أصل إسلامي لاشك فيه .

* * *

وفي وسعنا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية من موقع الكنيسة العظمى ، وهي تتوسط نصف المدينة الغربي ، ومن طبيعة أحيائها القديمة الواقعة في سفح الربوة التي يقع عليها الحصن . وأما امتداد المدينة الحديث فإنه يبدو في شطرها الشمالي ، الذي يخترقه الطريق العريض الظليل "Alameda" ، وينتهي بمحطة السكة الحديدية .

٩ - دانية

Denia

لم تكن دانية من القواعد الأندلسية المشهورة ، التي يتردد ذكرها كثيراً في تاريخ الأندلس ، ولم يسطع إسمها إلا في فترة قصيرة ، في أواسط القرن الخامس الهجرى ، حينما غدت أيام الطوائف عاصمة لمملكة مستقلة .

وتقع دانية في ركن منعزل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، قبالة جزيرة يابسة إحدى الجزائر الشرقية ، وفي منتصف المسافة بين بلنسية ولقنت . ويربطها بلقنت خط حديدي خاص ، يخرق رقعة ضيقة يحدها البحر من ناحية ، وتمدها الجبال من الناحية الأخرى ، وتختلف من البسائط إلى التلال ، ومن الخضرة إلى القفر . وعلى مقربة من دانية يبدو البسيط الأخضر ، محصوراً بين الجبال من الناحيتين تغطيه غابات الزيتون ، فإذا أشرفت على دانية ، اتسعت جوانب البسيط الأخضر ، ورأيت إلى جانب أشجار الزيتون ، حقول الأرز وحدائق البرتقال والكروم ، ويمتد السهل وراء الجبال إلى مرمى البصر .

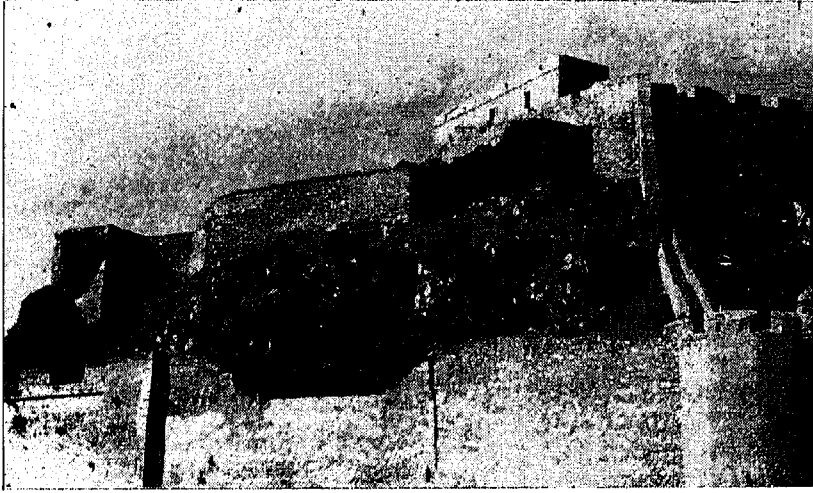
وتقع في هذه الرقعة بلاد قليلة متباعدة معظمها من القرى البحرية ، وليس بينها بلاد كبيرة سوى ضاحية سان خوان ، وهي مصيف ذو شاطئ بديع ، وبلدة « ألتيا » . بيد أن الذى يلفت النظر حقاً ، هو أنه يوجد في هذه المنطقة عدد من القرى ، التي ترجع أسماؤها إلى أصول عربية ، مثل بنى مرفيل ، وبنى لوبه ، وبنى دورم ، وبنى الشدوى ، وبنى جاسر ، وبنى عيسى ، وبنى دليج ، وبنى أريج (١) . وعروبة هذه الأسماء ظاهرة بالرغم من تحريف بعضها .

ودانية بلدة قديمة ، وكانت تعرف أيام الرومان باسم "Dianium" ، وهى اليوم مدينة بحرية صغيرة لا يجاوز سكانها ستة عشر ألفاً ، ولا يكاد منظرها المتواضع ، يذكرنا بأنها لعبت في العصر الإسلامى دوراً ذا شأن ، وكانت أيام الطوائف عاصمة

(١) هى بالإسبانية على التوالى : Benisadevi , Benidorm , Beniltoba , Benimarfill

Beniarbeig , Benidoleig , Benisa , Benigosar.

لمملكة عظيمة ، تضم الجزائر الشرقية « جزائر البليار » ، فيما بين سنتي ٤٠٥-٤٣٦هـ (١٠١٤-١٠٤٤ م) ، تحت رئاسة مجاهد العامري ، ثم ولده علي الملقب بإقبال الدولة الذي حكم من بعده حتى سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٦ م) . وكانت دانية إبان تلك الفترة ، وحتى انتهاء الدولة المجاهدية في سنة ١٠٧٦ م ، من أعظم قواعد الأندلس الشرقية . وكانت مركزاً هاماً لتجمع الأساطيل الأندلسية الغازية ، التي كانت تجوب مياه البحر الأبيض حتى شواطئ فرنسا ، وجزيرتي كورسيكا وسردينيا . وقد سقطت دانية في يد الإسبان في سنة ١٢٥٣ م ، وفقدت من ذلك الحين أهميتها ورنخاءها تبعاً ، حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم .



دانية . منظر ناحية من القسبة

وهي اليوم بلدة صغيرة عتيقة الطراز ، ذات شوارع عريضة تظلها أشجار التوت ، ولكنها ساذجة غير مرصوفة ، ويحدها البحر من ناحية مع جزء من الحبل ، ويحدها المرج الأخضر والحبل أيضاً من الناحية الأخرى ، ويبدو الطابع الأندلسي في دروب دانية ومسكنها ذات الطبقتين أو الثلاث ، وذات السقوف المستوية والشرفات العربية ؛ ولا يرى النخيل كثيراً في داخلها ، ولكن يرى في خارجها . والمدينة تشرف على مرج جميل أخضر في شكل نصف دائرة طرفها إلى البحر ، ووسطها تحت الصخرة ، وطرفها الآخر يحاذي المرج الأخضر ، وهو مرج وافر الخصب والحضرة ، وبه حدائق البرتقال والكروم وغابات الزيتون .

وأما من الناحية الأثرية فإنه يوجد في دانية الحصن أو القصبية فيما يبدو ،
وهي تقع كالعادة فوق الربوة الصخرية ، التي تشرف على المدينة من الوسط ،
ويحدها البحر من ورأها ، وهي اليوم مجموعة من الخرائب المتفرقة ، ومدخلها
عقد عربي ، يليه قبيل الفناء الأعلى عقد آخر قصير متدرج في الارتفاع ، وتطل
من شرق على المرج الذي يحاذي المدينة ، وفي نهايتها تطل يقال إنه يرجع إلى العصر
اليوناني ، يليه تطل آخر يسمى « القصر » "Palacio" وهو خرب ، وليست به
إمارات تدل على أصله العربي . ويبدو هيكل الأبراج المنيع في هذه المجموعة
من الخرائب ، كما يوجد جزء من الأسوار القديمة المتصلة بها .

وينوه صاحب الروض المعطار بمناعة أسوار دانية ، ومناعة قصبها^(١) .
وأغاب الظن أن هذه المجموعة من الأطلال ، تعين موقع القصبية الأندلسية
القديمة ، وموقع القصر الملاصق لها .

بيد أنه لا يوجد في دانية كنائس قديمة ، يمكن أن تعين إحداها موقع المسجد
القديم . وأقدم كنائس المدينة ترجع إلى قرنين أو ثلاثة . أما الكاتدرائية القديمة ،
التي كانت بها ، أيام أن كانت دانية مركز أسقفية ، فقد دثرت ، ويقال إن موقعها
كان بجوار الحصن .

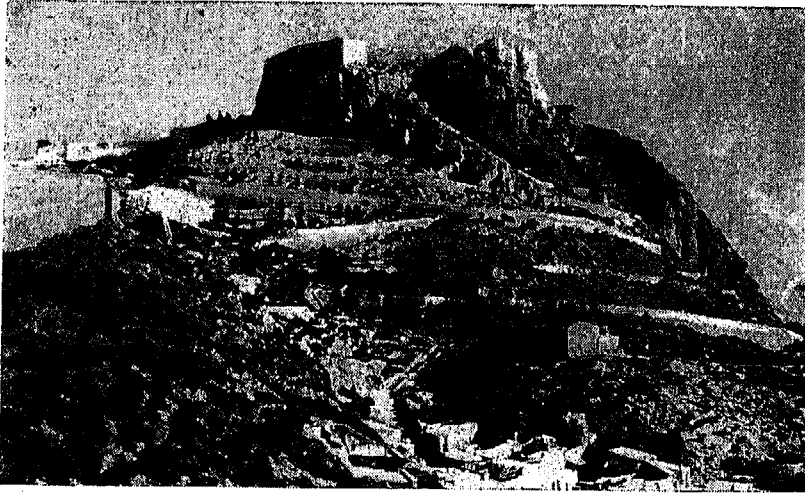
وليس في دانية أية آثار أخرى ، وليس بها متحف .
ولدانية ميناء كبير ، ولكنه قليل العمق ، ولا تأوى إليه سوى سفن الصيد ،
والسفن التجارية الصغيرة ، التي تردد بين دانية والجزائر الشرقية ، وبينها وبين
الثغور المغربية .

(١) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٧٦ .

١٠ - لقنت

Alicante

إن هذه البسائط المتباينة الطبيعة ، التي تمتد من بلنسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى لقنت ، تعتبر من أجمل بقاع اسبانيا الشرقية .
وهي تختلف بين بسائط خضراء وافرة الحصب ، تغطيها حقول الأرز وحدائق البرتقال المتوالية ، وغابات النخيل ، وتظلها الجبال عن بعد ، ثم تعقبها هضبات تمتزج فيها البسائط بالتلال وبالقفز أحياناً ، وتبدو فيها غابات الزيتون والكروم الضئيلة . وتستمر هذه الطبيعة المتواضعة حتى تصل إلى لقنت .



لقنت . أطلال القصبة المسماة حصن القديسة بربارة

ولقنت هي مدينة جميلة مشرقة ، تقع على خليج مستطيل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، في هي تل ضخم يظلها من الشمال ، ويطلق عليه اسم يبدو عربي الأصل هو "Benacontil" (بنى قنديل ؟) ، وهي من أهم ثغور اسبانيا الشرقية ، لما تتمتع به من مرفئ بحري بديع . وقد شهدنا لها حين زيارتنا لها للمرة الثانية في صيف سنة ١٩٥٤ ، عدة من سفن الأسطول الأمريكي زاسية في مرفئها ؛

وهي مترامية الرقعة ، بيضاوية الشكل ، عليها مسحة حديقة محضة ، وتشققها شوارع كبيرة فسيحة وميادين فخمة ، ويزدان كثير من شوارعها وميادينها ، بصنوف من أشجار النخيل؛ وأهم وأجمل شوارعها هو بلا ريب شارعها البحرى الكبير ، الذى يمتد من أولها إلى آخرها على طول الميناء ، ويسمى « شارع النخيل » "Calle de las Palmas" ، وهو يزدان فعلا بصف طويل مزدوج من النخيل القصير ، وتقع فيه أهم المصالح والمتاجر والفنادق والمقاهى . وفى المساء يغدو هذا الشارع الجميل متنزه القوم ، وتبدو فيه أنوار الكهرباء معقودة بين النخيل ، فى أوضاع ساحرة .

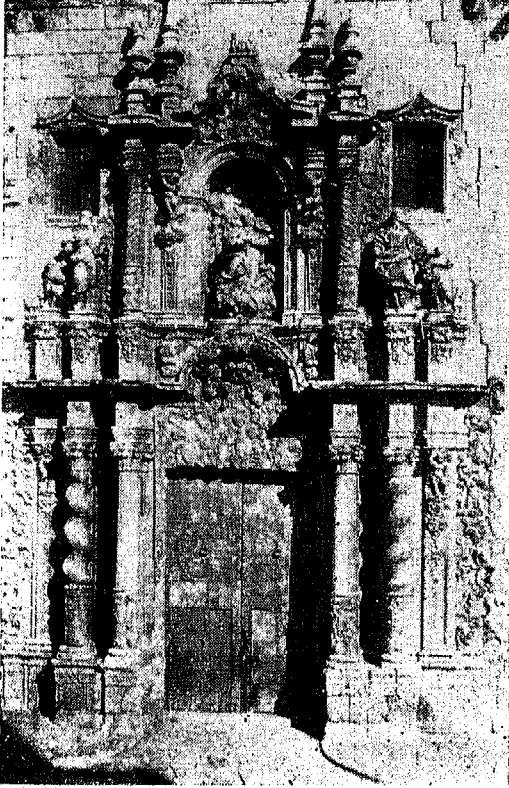
ويبلغ سكان لقنت نحو مائة ألف وخمسة آلاف نسمة .

وتتمتع لقنت بحركة صناعية وتجارية طيبة ، وتصدر المصنوعات القطنية والصوفية . وهى إلى جانب ذلك تعتبر من أجمل المشاتى الإسبانية ، ويقصدها كثير من عشاق الدفء من سائر الأنحاء ، إذ لا تنقص درجة الحرارة فيها فى يناير عن ثمانية عشر أو عشرين . بيد أنها فى الصيف يلفحها حر لا يطاق .

وأما من الناحية التاريخية ، فإن لقنت ترجع إلى العصر القديم ، وقد كشفت بعض حفرياتها الأثرية الأخيرة ، عن آثار تدل على أنها ترجع إلى العصر الإيبيرى . وكانت أيام الرومان تسمى مدينة « لوكنتم » "Lucentum" . ولما فتحها المسلمون أطلقوا عليها اسم « لقنت » ، وهو الذى حرفه الإسبان إلى "Alicante" . واستمرت تحت حكم المسلمين ، حتى استردها النصارى فى عهد خايمى الفاتح فى سنة ٥٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، بعد سقوط بلنسية بعشرة أعوام .

ولا توجد فى لقنت آثار أندلسية واضحة . ولكن توجد بعض أطلال القصبه الأندلسية القديمة ، بين أطلال حصنها الذى يسمى حصن القديسة بربارة "Santa Bárbara" . وتقع أطلال هذا الحصن على الربوة الصخرية التى تشرف على المدينة من الشمال والمسماة (بنى قنديل) ، على ارتفاع نحو ثلاثمائة متر فوق سطح البحر ؛ وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفنية والأبراج المتصلة والمتدرجة ؛ ويرجع الأثريون لإنشاءه إلى العصر اليونانى ، إلى نحو سبعة قرون قبل الميلاد ؛ وقد جدده المسلمون واتخذوه « قصبه » للمدينة . وكانت قصبه لقنت فيما يبدو من أمنع القصبات الأندلسية ، وإليها يشير صاحب الروض المعطار فى كلامه عن

لقنت بقوله : « ولها قصبة منيعة جداً في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب » (١) .
والمعروف أن البرجين الرئيسيين في أطلال الحصن ، هما من بقايا القصبة الأندلسية .
وليس في لقنت آثار أخرى أندلسية أو غيرها ، سوى حصن سان فرناندو
وهو حديث الإنشاء . وليست بها كتدرائية لأنها ليست مركزاً لأسقفية . وأقدم



لقنت ، واجهة كنيسة سانتا ماريا

لقنت ، واجهة كنيسة سانتا ماريا
تمتد نحو كيلو متر على مقربة من الشاطئ ، ثم تليها غابات الزيتون وحدائق التين
والرمان إلى مدى طويل .

كنائسها هي كنيسة سانتا ماريا
"Santa [Maria]" المقول بأنها
تقوم فوق موقع المسجد القديم ،
وهي تقع على مرتفع من الأرض ،
وقد بنيت في القرن الرابع عشر
على الطراز القوطي ، ولها واجهة
جميلة ، وهي صغيرة ولكن
فخمة .

وتحيط بهذه الكنيسة شبكة
من الشوارع الضيقة الصاعدة
نحو الصخرة ذات الحصن .
والظاهر أن هذه المنطقة ، وهي
الجزء القديم من المدينة ، تقوم على
أنقاض المدينة الأندلسية القديمة .
ويوجد خارج لقنت على

البحر ، غابات نخيل كثيرة ،
تمتد نحو كيلو متر على مقربة من الشاطئ ، ثم تليها غابات الزيتون وحدائق التين
والرمان إلى مدى طويل .

مدينة ألس

Elche

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن لقنت ، أن ننسى ضاحتها الجميلة « ألس » ،
وهي أيضاً مدينة أندلسية عريقة .

وتقع ألس في جنوب غربي لقنت ، على قيد عشرين كيلومتراً منها . وإنك
لترى قبيل ألس وعلى طولها ، أروع منظر يمكن تصوره ، من غابات النخيل
المتجمعة ، فإن هذه الغابات الرشيقة الباسقة ، تمتد أميالاً في رقاع كثيفة منسقة
من النخيل العالى المثمر ، الذى يقدر عدده بنحو مائة ألف نخلة ، والذى يعتبر
ثمره أهم موارد مدينة ألس .

ووجود هذا النخيل في ألس ظاهرة قديمة ، يشير إليها ياقوت عند ذكر
المدينة ، ويقول لنا « وفيها نخيل جيد لا يفلح في غيرها من بلاد الأندلس » (١) .
وألس مثل لقنت مدينة قديمة ، ترجع إلى العصر الرومانى ، وكانت أيام
المسلمين مركزاً من مراكز العلم في شرقي الأندلس ، وإليها ينتمى بعض أكابر
العلماء .

ويوجد في ألس أثر أندلسى هام ، هو البرج المسمى « برج قلهرة » ، وهو
يقوم فوق باب ألس القديم .

ويوجد كذلك الصرح المسمى « بالقصر » "El Alcázar" ، وقد كان قلعة من
قلاع سور ألس القديم ، فحواله الملوك الإسبانية إلى مقام ملكى حصين . والظاهر
أنه يرجع قبل تغييره وتجديده على يد الإسبان إلى أصل أندلسى ، حسبما قد يدل
عليه اسمه العربى المستعار .

(١) معجم البلدان تحت كلمة ألس .

١١ - أوريوالة

Orihuela

تقع مدينة أوريوالة بين أالش ومرسية ، على قيد عشرين كيلومترآ من شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، فى بسيط أخضر يانع تغطيه الحقول والحدائق الغناء ؛ وتبدو فيه أشجار النخيل العالية ، وتحمىها الجبال من الأمام والحلف ، وهى مستطيلة الرقعة يخرقها نهر شقورة من الوسط ، وتجمع فى طرازها بين مظاهر القديم والحديث . فأحيائها الأمامية ما بين المحطة والنهر ، حديثة الطابع ذات شوارع واسعة ظليلة ، وأحيائها التى تلى النهر ضيقة قديمة الطراز ، وشارعها الكبير الممتد من المحطة إلى وسط المدينة ، تظله الأشجار الباسقة من الجانبين ، وفى وسطه كورنيش جميل مرصوف ، أقيمت على جانبيه أشجار الزينة والمقاصير الجميلة .

ويبلغ سكان أوريوالة زهاء خمسة وثلاثين ألفاً .

ولأوريوالة فى تاريخ الأندلس قصة خاصة ، فقد كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية ، ولما حاصرها المسلمون عقب الفتح بعامين ، دافعت عن نفسها ببسالة ، واستطاع أميرها تيودمير أن يعقد مع عبد العزيز بن موسى أول ولاة الأندلس صلحاً ، يحتفظ فيه باستقلال مدن مملكته السبعة ، وفى مقدمتها أوريوالة ، نظير دفع جزية معينة .

وكانت أوريوالة بعد انهيار الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف تتبع على الأغلب إمارة مرسية . وظلت كذلك حتى سقطت فى أيدي النصارى على أثر انهيار الأندلس الشرقية ، وسقوط بلنسية ومرسية ، وذلك فى سنة ١٢٦٢م ، (٦٦١ هـ) .

وتقوم أطلال القصبية الأندلسية القديمة ، فوق قمة صخرة عالية وعرة تشرف على طرف المدينة الحلقى ، وقد صعدنا الصخرة إلى أقرب نقطة ممكنة من القصبية ، وهى عبارة عن أطلال ، يبدو منها جزء من الواجهة وقواعد لبعض الأبراج ، ومن تحتها أسوار قديمة يغلب عليها البلى ، ولم يبق لهذه الأطلال الدارسة قيمة أثرية تذكر ،

اللهم إلا ما تدلى به من تحديد موقع القصبة القديمة . ويوجد فوق الربوة مقابل الحصن دير ومعهد ديني كبير ، ترى من شرفته المدينة من علٍ في منظر رائع .
وإلى هذه القصبة يشير صاحب الروض المعطار في حديثه عن أوريولة بقوله :
« ولها قصبة في نهاية من الامتناع على قنّة جبل » (١) .

وقد كانت قصبة أوريولة وأسوارها الإسلامية ، ما تزال قائمة حتى أواخر



أوريولة . أطلال القصبة الأندلسية فوق الجبل

لها مميزات فنية ذات شأن ، وبها معرض للصور يضم صورة لبلاتكث ، ويرجع إنشاؤها إلى القرن الرابع عشر .

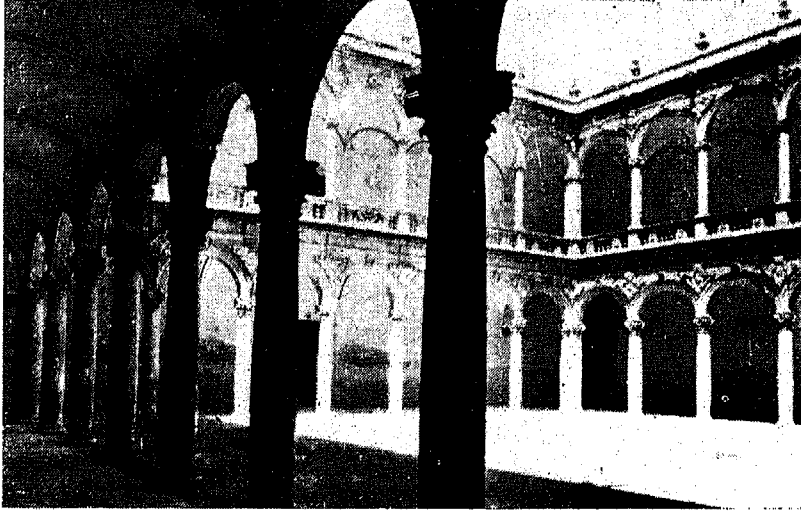
بيد أن أقدم كنائس أوريولة هي كنيسة سانتياجو ، وهي كنيسة صغيرة

(١) الروض المعطار ، ص ٣٤ .

(٢) رحلة الغزال ، ص ٧٢ .

خيمة قوطية الطراز ، وبها تماثيل وزخارف من طراز عصر الأحياء ، وهي تقوم أيضاً على موقع مسجد قديم . وقد كان هذا المسجد قائماً بجوار كنيسة قوطية صغيرة وبينهما جدار فاصل . فلما استولى النصارى على المدينة أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة بإزالة هذا الجدار ، وأدخل المسجد في حظيرة الكنيسة . وما زال أثر الفصل القديم يبدو في عدم تناسق عقود هذه الكنيسة التاريخية .

ويوجد أيضاً في أوريولة دير ومعهد سان دومنجو القديم . وهو معهد ديني وجامعة أدبية . ويمتاز بصرحه القديم الأثري ، وهو من الضخامة بحيث يسمونه « الإسكوريال الصغير » . ومما يلفت النظر صحنه ذو العقود الأندلسية .



أوريولة ، دير معهد سان دومنجو ذو العقود العربية

وما زالت المدينة الأندلسية القديمة ، ظاهرة الخطط والأوضاع في أحياء أوريولة ، الواقعة فيما بين النهر والربوة الصخرية ، فهناك تكثر الدروب الضيقة الصاعدة نحو الربوة ، بمنازلها المنخفضة العتيقة الطراز . وتنتج هذه الدروب القديمة كلها من ضفة شقورة إلى الداخل ، ويمتد النهر على طول هذه الأحياء ، ضيق المجرى تطل عليه نوافذ المنازل وشرافاتها ، على نحو ما تطل المنازل على الشوارع المائية في مدينة البندقية .

١٢ - قرطاجنة

Cartagena

قرطاجنة من أقدم ثغور اسبانيا الشرقية ، أنشأها هزدر وبال القائد القرطاجنى الشهير ، سنة ٢٤٣ قبل الميلاد ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى الحرب البونيقية الشهيرة بين القرطاجنيين والرومان ، وذلك لما تختص به من مناعة موقعها البرى والبحرى . وهى تقع جنوبى مرسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، فى نهاية منطقة يغلب عليها القفر ، وتقل فيها البسائط وتكثر التلال ، وليس فيها من الخضرة إلا غابات الزيتون القليلة .

وتتمتع قرطاجنة بموقع بحرى بديع فوق خليج مستطيل ، تحجبه الجبال من أمامه ، والمدينة من خلفه ، وهو مرفأً طبيعى للسفن . ولهذا فإن قرطاجنة هى المركز الرئيسى للأسطول الإسبانى ، يرسو بها قسم كبير منه ، وهى مركز بحرى ذو أهمية خاصة ، وتضم عدداً من الثكنات والمصانع البحرية الكبيرة ، ويعتبر مينائها أهم ميناء إسبانى بعد ميناء ثغر فيجو .

وقرطاجنة مدينة أوربية حديثة بكل معانى الكلمة ، وهى كبيرة الرقعة ذات شوارع طويلة شاسعة ، وميادين ضخمة ، وأجمل ميادينها هو ميدان الميناء ، وهو ميدان ضخم تتخلله المتزهات ذات النخيل القصير ، وترى منه المرفأً البحرى المدهش ، والسفن الحربية العديدة التى يأويها ، وهو يغدو فى المساء متنزه القوم ، ويغص بعشرات الألوف من المتزهين ، من مختلف الطبقات والأعمار . ويبلغ سكان قرطاجنة الآن نحو مائة وعشرين ألفاً ، وهى من حيث الضخامة والأهمية البحرية والتجارية ، تعد بعد بلنسية ثانية ثغور اسبانيا الشرقية "El Levante" وتقع على مقربة من قرطاجنة مناجم الحديد والرصاص والنحاس الشهيرة ، وهى من أعظم مواردها ، وفيها يعمل آلاف من أهلها .

وقد كانت قرطاجنة أيام العصر الإسلامى ، تمتاز أيضاً بأهميتها البحرية والتجارية ، وكانت ثغر مرسية وما والاها ، ومخرج التجارة الأندلسية فى هذا الركن من الأندلس ، وكانت أيضاً مركزاً من مراكز الجهاد والغزو البحرى ، تجهز

فيها الحملات البحرية المجاهدة ، المتجولة في مياه البحر الأبيض الغربية والوسطى ، وكانت تسمى « قرطاجنة الخلفاء » .

وسقطت قرطاجنة في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) في نفس الوقت الذي سقطت فيه مرسية ، وكان فاتحها فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس فرناندو ، ولكن المسلمين استعادوها وبقيت في أيديهم عسراً آخر ، ثم استردها النصارى نهائياً في سنة ١٢٧٦ م ، على يد خايمي الأول ملك أراجون .

* * *

على أن قرطاجنة مع أهميتها البحرية والعسكرية التاريخية ، تخلو من المعالم



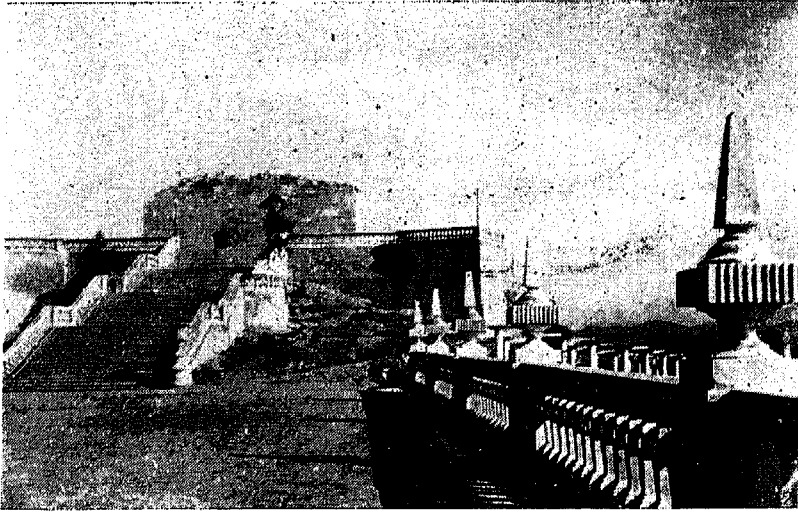
قرطاجنة . حصن الأندلسيين

الأثرية الأندلسية الهامة . ولم يلفت نظرنا فيها سوى الحصن المسمى « بحصن الأندلسيين » "Castillo de los Moros" أو معسكر سبيون ، وهو يقع على ربوة عالية في نهاية المدينة من الشمال ، وفي مواجهة الجبل الذي يحمي الميناء ، وهو عبارة عن محيط من الأسوار القوية في مجموعتين متصلتين مربعتين ، ومن حولها أنقاض أسوار قديمة . ويسكن في السفح الأسفل للربوة جماعة من العجر . ولم نقع لهذا الطلل الضخم على تاريخ محقق ، ولا يدلى بصلة للعهد الإسلامي وللمسلمين سوى اسمه ، وإن كان اسمه الآخر وهو

« معسكر سبيون » يدلى بصلته بالعصر الروماني ، وسبيون هو القائد الروماني الذي انتصر آخر الأمر على القرطاجنيين .



قرطاجنة . منظر الميناء تحميها الجبال



قرطاجنة . حصن « لاكسبسيون »

ويوجد بقرطاجنة حصن آخر يسمى « حصن كنسبسيون » « C. de la Concepción » ، وهو يقع على ربوة عالية في منتصف الطريق الضخم ، الذي يشقها من الميناء إلى الشمال .

أما كنيسة قرطاجنة العظمى أو الكتدرائية ، فالمعروف من تاريخها أنها ترجع إلى العصر المسيحي ، ومن الحقق أنها حولت إلى مسجد عند فتح العرب للمدينة ، ثم أعيدت كنيسة عند استرداد النصارى للمدينة .

وهذه الكتدرائية اليوم هي بناء خرب ، لأنها أحرقت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، وهي تقع فوق ربوة عالية في أحد الدروب القريبة من الميناء ، وهي صغيرة الحجم ولاتدلى أطلالها بأية مزايا فنية .

وقد زرنا متحف قرطاجنة الأثرى ، وهو يحتوى على مجموعة نفيسة من القطع الرومانية ، ولكننا لم نعثر فيه على أية قطع أو نقوش أندلسية .

وبالرغم من الطابع الأوربي الحديث الذى يغلب على مظاهر قرطاجنة ، فإنها تحتوى على بعض أحياء قديمة الطراز ، ذات دروب ضيقة صاعدة . ونعتقد أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تشغل بالأخص موقع الأحياء القريبة من البحر

الكتاب الثالث
مملكة غرناطة وما إليها

١ - غرناطة

Granada

كانت غرناطة "Granada" ، ومعناها بالإسبانية « الرمانة » وهي شعارها التاريخي ، الذي ما زال ماثلاً على باب قصبة الحمراء الرئيسي ، في شكل ثلاث رمانات صخرية كبيرة - كانت آخر القواعد الأندلسية الذاهبة ، التي توج سقوطها ظفر اسانيا النهائى ، باسترداد أرضها القديمة ، والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس . وقد سقطت بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكين ، فرديناند وإساييلا في الثانى من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ - ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، وهى نفس السنة التى اكتشف فيها كولومبوس العالم الجديد .

وقد مضى على سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية ، إلى اليوم أربعة قرون ونصف ، ولكنها ما زالت بالرغم من تحويلها إلى مدينة أوربية حديثة ، تحتفظ أكثر من أية قاعدة أندلسية أخرى ، ببقية حسنة من خططها ومعالمها وآثارها الأندلسية . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها كانت آخر القواعد الأندلسية الذاهبة ، والى كون السياسة الإسبانية ، رأت أن تبقى على بعض هذه الآثار الأندلسية ، لا من أجل قيمتها التاريخية والأثرية فقط ، ولكن بالأخص لكى تبقى على ممر العصور تذكيراً خالداً لظفرها .

ولغرناطة منزلة خاصة فى نفوس الإسبان وفى التاريخ الإشباني ، فهى إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التى توجت حروب الإسترداد الإسبانية "La Reconquista" تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها فى أيدي الإسبان ، فاتحة عصر اسبانيا الذهبى . ومن ثم فقد اتخذت غرناطة ، مثوى أبدياً لفتاحيها الملكيين الكاثوليكين ، ونالت حظوة من رعاية ملوك اسبانيا اللاحقين ، وفى مقدمتهم الإمبراطور شارلكان ، الذى أسس جامعها الشهيرة .

وقد زرت غرناطة ثمانى مرات متواليات . وتجولت كثيراً فى جنباتها وأحيائها وضواحيها ، ووقفت طويلاً أمام صروحها الأندلسية الباقية وأطلالها الدارسة ، وصروحها النصرانية ، التى حلت مكان صروحها الإسلامية الذاهبة . وتقصيت

معالمها الأندلسية القديمة ، من خلال خططها الحديثة ، ووقفت على كثير من طبائع أهلها وتقاليدهم ، مما عمت إلى تقاليد شعبها الأندلسي المغلوب بصلات وثيقة ، ورأيت بعد هذه الدراسة الشاملة ، أن أقدم إلى القارىء صورة واضحة من خططها ومعالمها ومظاهرها الحديثة ، وصوراً مما تبقى من معالمها وآثارها الأندلسية ، لكي يستطيع أولئك الذين يشجعهم تاريخ الأندلس ، وقصة سقوطها النهائى ، أن يستعرضوا أدوار هذه المأساة فى جوهر الحقيقى ، وفى المواطن التى اقترنت بسيرها .

* * *

غرناطة هى اليوم ولاية ومدينة . أما ولاية غرناطة الحديثة ، فتشمل مساحة قدرها خمسة آلاف ميل مربع ، وتحدها من الشمال ولايات قرطبة وجيان والبسيط ، والبحر من الجنوب ، ومن الشرق ولايتا ألمرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة . وتحترقها وتظللها جبال سيرانقاد (جبل الثلج) ، ويروىها نهر الوادى الكبير ، وفرعه نهر شنيل ، وكذلك نهر « ريو جراندى » الصغير . وجوها حار ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وترتبتها خصبة جداً ، ولاسيما فى الغرب والجنوب . وفى شرقها تمتد سهول واسعة معظمها جرداء . ويبلغ سكان الولاية كلها أكثر من ثمانمائة ألف نسمة . وتضم من المدن عدا غرناطة ، بسطة ، وأشكر ، ووادى آش ، وسنتافيه (شنتنى) ، ولوشة ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، والحامة ، وأجيير ، وأرحة ، والمنكب ، وشلوبانية ، ومتريل .

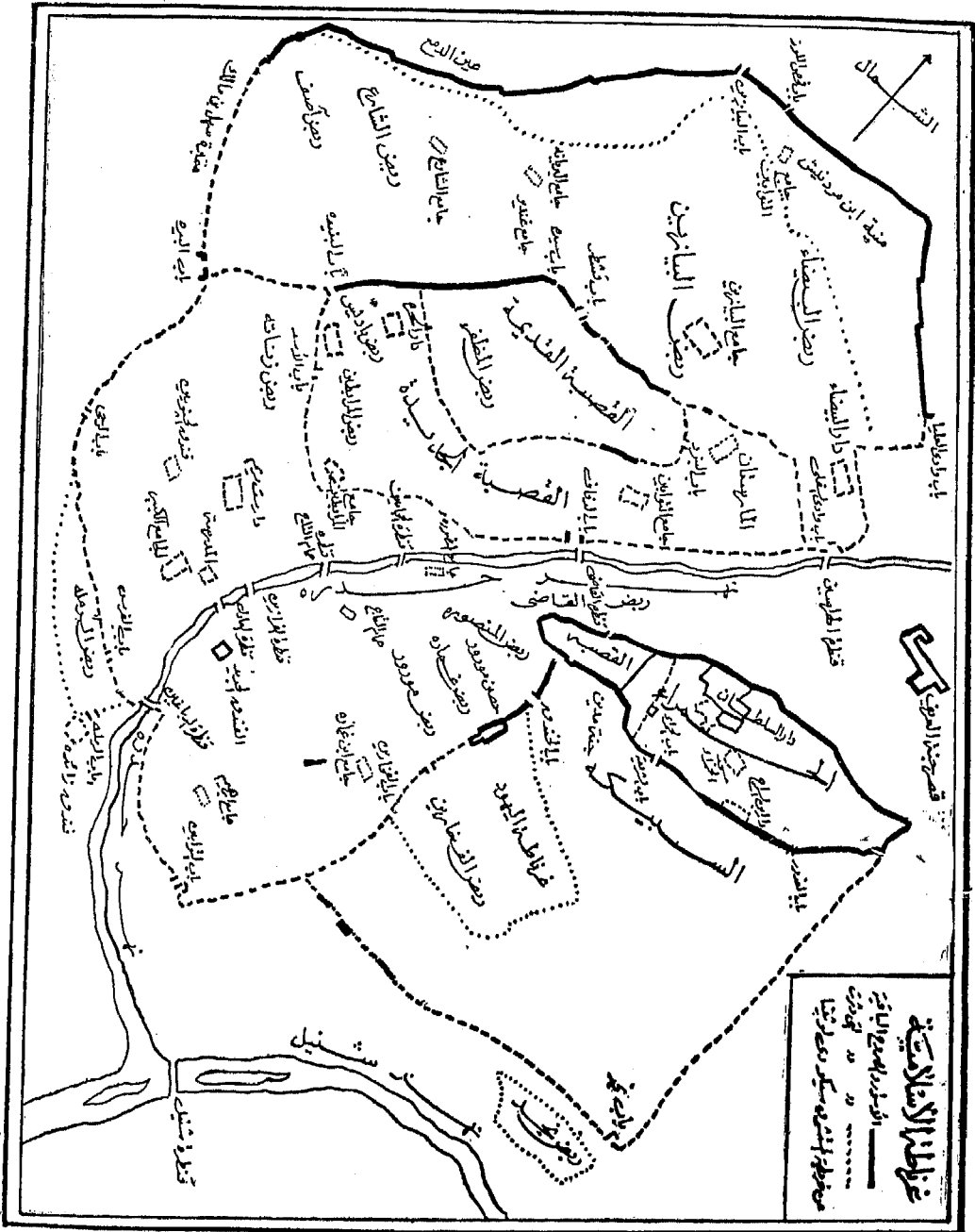
ومدينة غرناطة هى عاصمة الولاية . وهى تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال سيرانقاد ، وتظللها الآكام العالية من الشمال والجنوب . ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، وهو ينبع من جبال سيرانقاد ، ويحترق فرعه المسمى نهر حدره المدينة من الوسط . وإلى يمينه يقع حى البيازين ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبه الحمراء ، فى الناحية الأخرى . ثم يلتقى بشنيل فى جنوب المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيضان بالماء ، ولاسيما فى الصيف حين تدوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تزخر بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وأقفرت ضفافه ، وقلما يجرى فيه الماء . وأما فرعه حدره ، فيحترق المدينة من الشرق ، من سفح التل الذى تقع عليه الحمراء ، ويتصل بشنيل عند قنطرة شنيل فى جنوب المدينة ؛ وهويكاد

يخفى اليوم ، ولم يبق من مجراه داخل المدينة سوى جزء صغير ، تشرف عليه ربي الحمراء ، وعلى ضفافه بقايا قناطر وسواقي قديمة . وأما جزؤه الذى كان يحترق وسط المدينة ، فقد غطى اليوم ، بشارعها الرئيسى الأوسط ، المسمى شارع الملكين الكاثوليكين ، وامتداده من الميدان الكبير المسمى "Puerta Real" (الباب الملكى) حتى قنطرة شليل .

وتشمل غرناطة الحديثة ثلاثة أقسام إدارية كبيرة ، هى انتكروبيلا ، وغرناطة ، والبيازين . ويشمل الأول أحياءها الواقعة فى الجنوب الغربى والتي يحيط بها نهر حدره ، ويقع حى البيازين أو ربض البيازين فى شمالها الشرقى ، ويليه حى غرناطة فى الشمال الغربى .

وقد كانت غرناطة وما زالت إلى اليوم تجمع بين الزراعة والصناعة . وتزرع فى مرجها وبساتينها الخضراء ، الحبوب والكروم والخضر بوفرة . وبها مصنع كبير للبارود . ومن بين صناعاتها الصلب والحديد ، والزنك والزيوت ، والدانتلا الحميلة والخمور والسكر . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الصناعات يرجع إلى أصل موريسكى ، ويحتفظ بكثير من أصوله وطرقه القديمة . وقد كانت غرناطة الإسلامية ، وهى التى تقوم اليوم على نفس خططها غرناطة الحديثة ، تشتمل على عدد كبير من الأحياء . فتقع الحمراء دار الملك فى جنوبها الشرقى . ويلها بسيط السبيكة ، ثم الحى المعروف بغرناطة اليهود ، وهو المقول بأنه أصل غرناطة ، وربض الفخارين ، وربض قمارش ، وربض المنصور ، وهذه تؤلف نصفها الجنوبى . وأما نصفها الشمالى فكان يشغله ربض البيضاء ، وربض البيازين ، والقصبة القديمة ، وربض المرابطين ، وبضعة أرباض أخرى .

أما اليوم فقد اختفت معظم خطط غرناطة الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . ولم تبق من منشآتها ومعالمها القديمة سوى بقية يسيرة ، تجتمع بالأخص فى قسمها الشرقى حيث تربض الحمراء فوق هضبتها العالية . بيد أن السائح المتأمل ، يشعر حينما يسرح البصر فى جنباتها ، أنها تتشع بطابع خاص من التحفظ والنبيل ، وأن معالمها الأندلسية ، تكاد تطالعه من وراء خططها الحديثة ، هذا فضلا عما بقى من أحيائها الأندلسية القديمة ، التى ما زالت تحتفظ بدروبها الضيقة ، ومنازلها ومشرفياتها الأندلسية .



وتشمل غرناطة الحديثة عدة شوارع فسيحة، وميادين شاسعة، ويحترقها من قلبها شارعها التجاري الرئيسي المسمى شارع الملكين الكاثوليكين "Calle de los Reyes Católicos"، ويبدأ من الميدان الجديد "Plaza Nueva"، الذي يتفرع منه مرتفع بني غمارة "Cuesta de Gomerres" المفضى إلى هضبة الحمراء، وينتهي من الناحية الأخرى بميدان الباب الملكي "Puerta Real". ومن هذا الميدان يمتد جنوباً، طريقان شاسعاً متوازيان تفصلهما الحدائق، هما طريق شنيل "Carrera del Genil" وطريق حدره "Acera de Darro". وتقع على جانبي شارع الملكين الكاثوليكين أهم أحياء غرناطة، ومنها ميدان باب الرملة "Plaza Bibrambla" أشهر ميادين غرناطة القديمة، والقيصرية القديمة بدرونها الضيقة، ومتاجرها التي ما زالت تحمل الطابع الشرقي، والمدرسة الإسلامية القديمة. ويمتد من الميدان الجديد شارع غرناطة القديم على ضفة نهر حدره، إلى حي البيازين، ثم بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث يفضى إلى حي «العجر» ثم إلى دير ساكرومونتى.

ويخرج من منتصف شارع الملكين الكاثوليكين، شارع كولون الكبير "Gran Via Colón" أفخم وأحدث شوارع غرناطة الحديثة، ثم يتصل بشارع فخم آخر هو شارع سوتيلو "Avenida Sotelo"، الذي ينتهى إلى محطة السكة الحديدية. ويقع على جانبه ميدان مسرح الثيران "Plaza de Toros"، وعلى مقربة منه يقع ميدان باب البيرة "Puerta de Elvira"، وميدان النصر "Paseo del Triunfo".

وتشرف غرناطة من ناحية الجنوب الشرقي، على بسيط خصب، هو المرج الشهير أو الفحص "La Vega"، وقد كان أيام الدولة الإسلامية قطعة من الجنان، تغص بالزروع اليانعة والحدائق الغناء، وكان مرتع الزهرة الشائقة أيام الربيع وليالى الصيف. أما اليوم فقد زالت معالمه ومغانيه اليانعة، وإنك لتسرح البصر فيه، من مشارف قصر الحمراء العالية، فلا ترى من بساطه الخضراء سوى القليل، وقد حفت بها أو تخللتها الرقاع الجرداء.

وتشرف على غرناطة من الشمال الغربي جبال سيرا نقادا الشاخنة (وبالعربية جبل شساير أو جبل الثلج)، ويصلها بالمدينة ترام كهربائى، يقطع فى شعب الجبال نحو عشرين كيلومتراً. وهى شعب وعرة تظلها قم عالية. وبها . . . اقط مياه كبيرة تستخدم لتوليد الكهرباء. وفى سفح الجبال توجد مزارع خضراء؛ وتوجد فى

بطونها محلات وقرى صغيرة . وتغطي الأشجار الخضراء رقاعاً كثيرة ، من المنحدرات الصخرية . ولا تخلو أعماق الجبال رغم وعورتها ، من الزروع والكروم والأشجار البرية العالية . وفي أسفلها يسير مجرى شذيل نحو منابعه .

ويبلغ سكان مدينة غرناطة اليوم مائة وثلاثين ألف نسمة . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية أكبر رقعة ، وأوفر عمراناً وسكاناً ، وقد بلغ سكانها في ظل الدولة النصرانية أكثر من مائتي ألف نسمة ، منهم كثير من اليهود والقشتاليين والحنويين والبنادقة ، الذين يشتغلون بالتجارة والأعمال المالية . ولما ضعفت مملكة غرناطة ، وأخذت أطرافها تسقط في أيدي الإسبان ، وهرع المسلمون إلى العاصمة الإسلامية من كل صوب ، زاد سكان غرناطة ، حتى غدوا في أواخر عهدها الإسلامي زهاء نصف مليون ، وكان في مقدورها يومئذ ، أن تجهز وحدها للقتال من سكانها ، نحو مائة ألف مقاتل . ولما سقطت غرناطة في أيدي الإسبان ، وغادرها عشرات الألوف من أهلها المسلمين إلى المغرب ، كان عدد سكانها نحو مائتي ألف ، ثم تضاعف سكانها تبعاً بالهجرة والتشريد ، وأفنت سياسة التنصير والاضطهاد المستمر كثيراً منهم . ثم نفى سكانها الموريسكيون أو العرب المنتصرون بعد ذلك ، وأقفرت العاصمة الإسلامية القديمة تبعاً ، حتى هبط سكانها في القرن الثامن عشر إلى عشرين ألف نسمة . وفي أوائل القرن التاسع عشر بلغ سكانها نحو خمسين ألفاً ، ثم زادوا تبعاً حتى بلغوا في أوائل هذا القرن ثمانين ألفاً ، وبلغوا وفق إحصاء سنة ١٩٢٠ مائة ألف وثلاثة آلاف ، وهم يبلغون اليوم مائة وثلاثين ألفاً .

وتمتاز غرناطة بكثرة منشآتها العلمية والفنية والاجتماعية . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية ، أعظم مركز للعلم والعرفان في الغرب الإسلامي . وقد حرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت ، مركز العلوم في جنوبي إسبانيا . فأنشئت جامعة غرناطة في سنة ١٥٣١ في عصر الإمبراطور شارلكان ، وروعي في إنشائها ، أن تغدو مصدر التثقيف العقلي والديني ، للشعب الأندلسي المنتصر ، وأن يقضى على البقية الباقية ، من تراث الأندلس الفكري ، وأن تتوطد روح العصر الحديد في ظل السيادة النصرانية ، وبارك المشروع البابا كليمنت السابع ، وأصدر مرسوماً بإنشاء الجامعة الجديدة ، على أن تكون على غرار الجامعات النصرانية العريقة في بولونيا وباريس وشلمنقة . وبدأت جامعة غرناطة

بدراسة اللاهوت والفنون والطب والقانون ، وسيطر رجال الدين على إدارتها والتدريس فيها ، في عصورها الأولى . وأصبحت في عهد فيليب الثاني هزة عنيفة ، من جراء ثورة الموريسكيين ، وسادها الركود مدى حين . ولما عاد الهدوء إلى غرناطة ، عاد إليها الانتعاش ، وتوالت عليها هبات القادرين ، وتوطدت أحوالها ، واستطاعت منذ أوائل القرن التاسع عشر أن تنهض قدماً ، وأن تتحرر من نفوذ الكنيسة نوعاً ، وأن تحرز قسطاً من الاستقلال . وتضم الجامعة اليوم خمس كليات ، هي كليات « الفلسفة والآداب » و « العلوم » و « الحقوق » و « الطب » و « الصيدلة » . وتقوم في بناء الجامعة القديم الذي أسس أيام شارلكان كليتا الحقوق والعلوم ، وإدارة الجامعة ، وقسم النشر والمكتبة العامة ، وهي مكتبة قيمة تضم عدداً كبيراً من الكتب ، التي ظهرت حتى القرن الثامن عشر . وتقوم كلية الآداب في بناء جديد خاص بها ، وكذا كلية الطب . ولكل كلية مكتبة خاصة بها ، ويعنى قسم النشر بنشر البحوث والكتب والمجلة الجامعية ، وبالجامعة فرع للمجلس الأعلى للبحوث . ويلحق بكلية الآداب معهدان هامان ، هما « معهدتااريخ الملكين الكاثوليكين » "Seminario de Historia de los Reyes Católicos" ، وقد أنشئ في سنة ١٩٤٣ ، للناية بتدريس هذه الفترة الهامة من تاريخ اسبانيا ، ودراسة حياة هذين الملكين ، اللذين يعتبران مؤسسى عظمة اسبانيا ، وأحداث عصرهما ومؤثراته ، دراسة وافية . والثانى هو مدرسة الدراسات العربية بغرناطة "Escuela de Estudios Arabes de Granada" ، وتعنى بدراسة الحضارة الإسبانية الإسلامية ، واللغة والآداب العربية ، وكانت تعنى أيضاً بإعداد الموظفين الإسبان الذين يعملون بالمنطقة الخليفية من مراكش (١) . وهي تعمل بالتعاون مع مدرسة « ميغيل آسن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معاً « مجلة الأندلس » "Al-Andalus" ، وتقوم هذه المدرسة في بناء أندلسى قديم بحى البيازين يسمى "Casa del Chapiz" ، وعلى مقربة منه منزل آخر ، خصص لإقامة الطلبة المغاربة الذين يتلقون الدراسة بغرناطة . ويقع بناء الجامعة القديم في وسط غرناطة في الميدان المسمى باسمها ، وقد أنشئت إلى جوارها كنيسة جميلة الطراز ، على غرار الجامعات الإسبانية ، التي تقوم الكنيسة داخلها أو بجوارها . وفي وسط الميدان تمثال حديث الصنع للامبراطور شارلكان .

(١) هي منطقة الحماية الإسبانية سابقاً . وقد اعترفت اسبانيا باستقلال مراكش ووحدتها الإقليمية منذ ابريل ١٩٥٦ ، وأصبحت المنطقة الخليفية السابقة جزءاً لا يتجزأ من المغرب الموحد .

وتقوم في غرناطة إلى جانب جامعتها العريقة ، مدارس عديدة أولية وثانوية ، ومعاهد دينية . وبها أيضاً عدة متاحف هامة ، في مقدمتها متحف الحمراء ، والمتحف الأثري (الأركيولوجي) ، وهما يضمان لوحات وزخارف عربية كثيرة ، وذخائر وتحفاً أندلسية عديدة ، ومتحف البلدية ، والمتحف المسمى "Casa de los Tiros" وسوف نعود إلى ذكرها ، كما أنها تضم مستشفيات ودوراً خيرية عديدة .

معالمها وآثارها الأندلسية الباقية

إن الحمراء غرناطة هي بلاريب أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهي مازالت كما كانت منذ عصور ، تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية ، على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي ، فتسبغ عليها آيات من الروعة والحلال .

وإلى يمين الحمراء ، وعلى مقربة منها ، يقوم قصر جنة العريف بأروقته الأنيقة وبخائله المزهرة ، ونوافيره الفضية الساحرة .
ولن نتحدث هنا عن الحمراء ولا جنة العريف ، وقد تحدثنا عن كل منهما فيما بعد ، في فصل خاص .

وإنما نتحدث هنا بادئ ذي بدء ، عن معالم غرناطة القديمة ، التي مازالت رغم أحداث الزمن ، تسفر عن طابعها وملامحها الأندلسية الواضحة .

حي البيـازين

ولاريب أن حي البيازين "Albairín" ، وهو ما يزال إلى اليوم أكبر أحياء غرناطة ، هو أكثر أحيائها احتفاظاً بطابعه الأندلسي ، بل لا ثباليغ إذا قلنا إن هذا الحي ، ما زال محتفظاً بسائر خططه ودروبه الأندلسية الضيقة ، لم يطرأ عليها سوى تحول ضئيل .

ويقع حي البيازين في شمال شرقي غرناطة ، تجاه هضبة الحمراء ، ويفصله عنها نهر حدره ، ويمتد صاعداً على سفح التلال حتى أسوار المدينة القديمة ، وشوارعه ضيقة متقاطعة ، وما زال كثير من منازلها محتفظاً بطرازه الأندلسي ، وقد شاهدنا الكثير من هذه المنازل ، وهي تمتاز بأفنيئها الداخلية ، ونوافذها

العربية المطلة عليها . وشاهدنا بالأخص في بداية أحد الشوارع ، حماماً كبيراً على الطراز العربي ، ما يزال بأعمدته وحناياه وقبابه ذات الكوات النجمية ، في حالة جيدة . كما شاهدنا منزلاً أندلسياً ما زال يحتفظ بنوافده ونقوشه وزخارفه العربية كاملاً ، وقد نقشت على مشارفه وحافته ، عبارة (الحمد لله على نعمة الإسلام) : مكررة في سائر مواضعه ، وهو اليوم مركز لأحد أقسام البوليس .



غرناطة . باب فحص اللوز داخل حي البيازين

وفي حي البيازين ثلاثة من أبواب غرناطة الإسلامية ، مازالت قائمة بعقودها العربية . وهي باب البيازين "Puerta de Albaicín" ، ويقع في نهايته في داخل السور القديم ، وباب فحص اللوز أوفج اللوزة "Arco, Puerta de Fajalauza" ، وباب الزيادة "Puerta de las Pesas" ، وكلاهما ذو عقدين . ويقعان داخل الحى . ويقع الباب الأخير في ميدان أورحبة باب الزيادة .

وقد حول المسجدان الكبيران ، اللذان كانا بحى البيازين أيام المسلمين ، إلى كنيستين ، فبنت كنيسة سان سالقادور "San Salvador" على أنقاض المسجد الجامع ، ومازالت في مؤخرتها ثمة بقية من أسوار الجامع . وعدة من بوائكه ، وجزء من صحنه . وبنت كنيسة سان خوسى "San Jose" (سنة ١٥٢٥ م) على أنقاض مسجد المرابطين ، وقد كان من أقدم مساجد غرناطة (وكان موقعه

بحي القصبية الملاصقة لحي البيازين) ، وتقع الكنيسة في نفس الشارع المسمى باسمها وما زالت منارة المسجد القديم قائمة ، وقد حولت إلى برج لأجراس الكنيسة . وكذلك حول مسجد ثالث في البيازين هو مسجد التائبين ، إلى كنيسة سميت سان خوان دي لوس ريس "San Juan de los Reyes" ، وهي ما زالت تحتفظ بمنارة الجامع كما كانت ، و فقط أضيف إليها برج الأجراس . وهذه المنارة من عصر الموحدين ، مربعة الشكل ، على طراز منارة المنصور في إشبيلية (لآخر الدا) ويصعد إليها بمنحدر متدرج . وأسست كنيسة سان لوييس "San Luis" القديمة ،



غرناطة . بقية من عقود جامع البيازين

الواقعة على مقربة من باب فحص اللوز ، أيضاً على موقع مسجد قديم . ويمتد حي البيازين على الريوة القائم عليها ، شمالاً حتى الأسوار القديمة ، وفي نهايته مما يلي الأسوار ، توجد مسالك ودروب ضيقة على المنحدر ، يسكنها قوم من العجر ، يعيشون في أكواخ وكهوف بدائية ، تنبعث منها روائح متفردة . وهؤلاء العجر يؤلفون أقلية كبيرة في غرناطة ، ويشغلون ، فضلاً عن مؤخره البيازين ، معظم أجزاء الطريق الطويل ، الممتد

من غرناطة إلى دير ساكرومونتى ، ولكن مساكنهم في هذه البقعة أفضل ، وظروفهم المعيشية أرقى ، ويشغل الكثير منهم بالعزف والرقص ، ولهم براعة خاصة في تأدية الرقصة الأندلسية الشهيرة المعروفة بالثامبرا "La Zambra" ، وأصلها العربي « الزمر » .

وقد كان حي البيازين أيام غرناطة الإسلامية ، من أكبر وأهم أحيائها ، وكان منزل عدد كبير من الأسر الغنية ذات العصبية ، وفيه نشبت الثورة غير مرة ضد سلاطين غرناطة ، ومنه بدأ الزحف غير مرة على قصبه الحمراء دار الملك .

فلما استولى الإسبان على غرناطة ، غادرتها الأسر الشريفة وعلية القوم ، وأقفر
حتى البيازين من كثير من سكانه القدماء ، وسكنته الطبقات الدنيا . بيد أنه لبث
بعد التنصير ، أعظم الأحياء الموريسكية في غرناطة ، ولم يفقد تقاليده القديمة في
تحريك الجموع ، والتمرد على كل ظلم واستبداد . وفيه أضرمت الشرارة الأولى ،
في ثورة الموريسكيين الحارفة ، التي نشبت ضد الإسبان في سنة ١٥٦٧ ، أيام
فيليب الثاني ، وكان لها أعظم شأن في تطور السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين ،
والاتجاه إلى نفهم النهائي من إسبانيا .

واليوم يغدو حتى البيازين منزل الطبقات المتوسطة والمتواضعة ، ولكنه مع
ذلك مازال محتفظاً بسمعته التاريخية القديمة ، ومازال يعتبر من أحياء المدينة الهامة .

ميدان باب الرملة

ويسمى بالإسبانية "Bibrambla" وقد كان أعظم ميادين غرناطة الإسلامية ،
وكانت تعقد به الحفلات القومية العامة ، ولاسيما حفلات الفروسية . وهو يقع
على مقربة من الكتدرائية وراء شارع الملكين الكاثوليكين ، من ناحيته التي تتصل
بميدان الباب الملكي . وما يزال إلى اليوم من أكبر ميادين غرناطة ، وفي وسطه
نافورة كبيرة مزدوجة ، في أعلاها تمثال لأحد القديسين ، ومن حولها ساحة كبيرة
مغطاة بالرخام ، وعلى جانبيها المقاهي ومظلات بائعات الزهر وغيره . ويتفرع
منه عدة شوارع مازالت تحمل أسماء أندلسية ، مثل شارع "Zacatin" (السقاطين)
وشارع "Boabdil" (أبي عبدالله) ، وعلى مقربة منه شارع الفندق "Alhondiga" .

القيصرية

وفي مواجهة باب الرملة من الجهة الغربية ، تقع القيسرية "Alcaiceifa" الشهيرة ،
وقد كانت سوق غرناطة الممتاز . ومازالت إلى اليوم بدروبها الضيقة ، وحوانيتها
المتلاصقة ، التي تزخر بالبضائع الحريرية ، والتحف المعدنية الدقيقة ، وغيرهما من
مختلف السلع المختارة ، تحمل نفس طرازها الأندلسي القديم . وقد أحرقت القيسرية
الأندلسية القديمة ، التي كانت تقوم في نفس الموقع ، في سنة ١٨٤٣ ، ثم أعيد
تخطيطها وبنائها ، على نفس نظامها القديم تقريباً . وكانت للقيصرية القديمة عدة

أبواب كبيرة ، تحول دون مرور الخيل والعربات إليها ، ثم تغلق لحفظها في المساء ، ولم يبق من هذه الأبواب اليوم سوى بابين أو ثلاثة . وتتصل القيسرية بشارع كولون بدرب ضيق ، يمر بالكتدراثة الكبرى والمدرسة القديمة .

الكنيسة العظمى

وعلى مقربة من ميدان باب الرملة والقيصرية تقع الكتدراثة أو الكنيسة العظمى . وقد بنيت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، وفقاً لسياسة الأحرار الإسبان ، التي قضت بأن يحول المسجد الجامع في كل مدينة أندلسية مفتوحة ، إلى كنيسة جامعة أو كتدراثة . وهي كنيسة ضخمة رائعة ذات قبة عظيمة . وقد بنيت تخليداً لذكرى الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيسابيلا فاتحي غرناطة ، وكانا قد أنشأ في هذا الموقع مصلى ملكياً في سنة ١٥٠٥ ، وهو الذي مازال قائماً بجوارها . وبدىء ببناء الكتدراثة سنة ١٥٢٩ ، في عهد الإمبراطور شارل لكان . وافتتحت للعبادة سنة ١٥٦١ ، ولكن لم يتم بناؤها إلا في سنة ١٧٠٣ . وتحت قبتها مدفن فرديناند وإيسابيلا ، وهو عبارة عن ناووسين كبيرين من الرخام ، تحتهما قبو أودع فيه تابوتا الملكين الكاثوليكين ، الملكة على اليمين والملك على اليسار ، وإلى جوارهما من اليمين تابوت ابنتهما يوحنا ، وإلى اليسار تابوت لفيليب الحميل .

وفي مواجهة القبر هيكل عظيم به تماثيل صغيرة للرسول . وعلى جانبي الهيكل صور بارزة من صنع القرن السادس عشر ، ظهرت في إحداها صور نساء موريسكيات ، يرتدين أثواباً طويلة وقد وضعن الحجاب ، والقسم يباركهن بالماء المقدس . وظهرت في أخرى صور لموريسكيين يرتدون الملابس العربية ، وعلى رؤسهم شبه العمامة ، وتمثل هذان الصورتان مناظر التنصير بالحملة .

وتوجد صورتان أخريان ، إحداهما تمثل خروج أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس سائراً ومن ورائه فرسه ، ومعه مفاتيح الحمراء ، ليسلمها إلى قاهره الملك فرديناند . وظهر في الصورة الأخرى فرديناند وإيسابيلا ، ومن ورأيهما الفرسان النصراني .

وعند مدخل المدفن ، يوجد معرض تاريخي لمخلفات الملكين الكاثوليكين ، به صندوق زجاجي يحتوي على تاج إيسابيلا وصولجان الملك وسيفه ، وصندوق

صغير يحتوى على حلى الملكة وآثارها ، ومن ذلك الإنجيل الذى كانت تقرا فيه . وعرضت أثواب لفرديناند الكاثوليكي ، وأثواب أخرى لأكابر الأبحار فى هذا العصر ، كما عرضت الأعلام التى استعملت فى حرب غرناطة الأخيرة ، وهى حمراء مزركشة بخطوط عريضة مقصبة .

المدرسة والحان والمنازل الأندلسية

وما زال موقع مدرسة غرناطة القديمة ، قائماً فى درب الضيق المحاذى لشارع الملكين الكاثوليكين ، تجاه المدفن الملكى . ولكن بناءها القديم أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وأقامت البلدية مكانه بناءً جديداً . ولم يبق من البناء القديم ، سوى الجناح الذى يحتوى على المحراب . وقد نزلت لوحات ونقوش عربية كثيرة من المدرسة ، ونقلت إلى مختلف المتاحف . ويحتفظ متحف غرناطة الأركيولوجى بعدد من هذه اللوحات ، ومنها عدة قطع رخامية يتكون منها بعض ما جاء فى لوحة لإنشاء هذه المدرسة ، ويجرى نصها كما يلى :

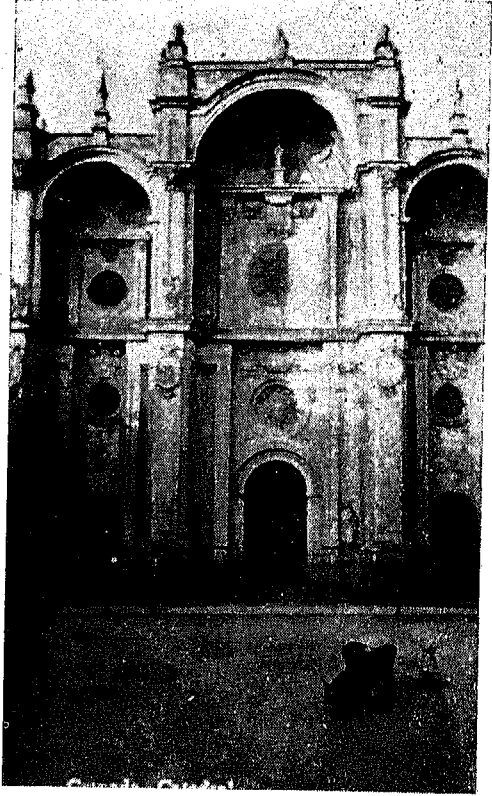
« أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً ، وأدامها فى علوم الدين على الأيام ، أمير المسلمين أظله الله بعونه ، العلى الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف ابن العلى الكريم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضى أمير المسلمين وناصر الدين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر كافي الله فى الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم [ذلك] فى شهر محرم عام خمسين وسبعائة » .

وقد كانت هذه المدرسة أو الجامعة ، من مفاخر غرناطة الإسلامية ، وقد أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، حسبما جاء فى النص المتقدم ، وكانت تسمى بالمدرسة النصرية ، أو الجامعة النصرية .

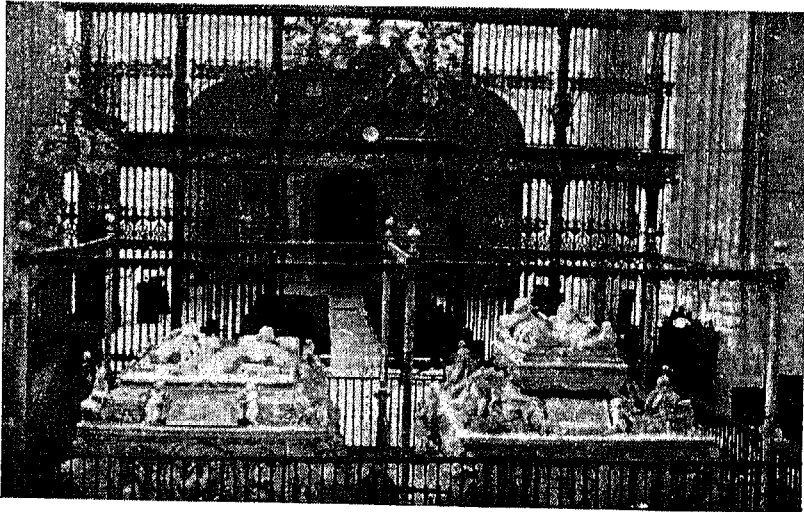
وأما الحان أو الفندق فيقع فى درب ضيق ، شرق شارع الملكين الكاثوليكين هو "C. Mariana Pineda" ، الواقع على مقربة من دار البريد الحالية . وهو عبارة عن بناء عربى قديم دى باب معقود ضخم ، قد نقش فى عقده بالكوفية سورة (قل هو الله أحد) ، ونقش على الجانبين عبارة « الملك الدائم العز القائم » مكررة . ونقش فى جانبي المدخلين « يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى ،



غرناطة . واجهة المصلى الملكى



غرناطة . واجهة الكنيسة العظمى



ضريح فرديناند وإيسابيلا داخل الكنيسة العظمى

فيا للنبي المرسل اختتم بخير عملي . ومن داخل هذا الباب دهليز ، يفضى إلى فناء واسع مربع الشكل ، ضلعه نحو ثلاثين متراً ، وبه قاعات عديدة . وفي أعلاه جناح آخر ، تتقدمه فوق عقد الباب قاعة ذات مشرفة عربية كبيرة .

وقد اختلف في أصل هذا البناء . والمرجح أنه أنشئ في أواخر عهد الدولة النصرية ، ليكون فندقاً أو خاناً ، يومه التجار الواردون ، وكان يسمى يومئذ الفندق الحديد "Alhóndiga Guedida" : ثم استعمل بعد ذلك مخزناً للقمح ، ومن ثم كان اسمه الذى يعرف به اليوم وهو دار الفحم "Casa del Carbón" وكان حتى العهد الحديث ملكاً لبعض الأفراد . ولكنى علمت أنه يلحق اليوم بإدارة قصر الحمراء .

وهناك أيضاً بناء أندلسى قديم يقع في شارع "Pavaneras" ، ويطلق عليه اسم "Casa de los Tiros" (دار الرماية) ، وهو صرح كبير في حالة جيدة من الحفظ ، ويبدو من سلمه العريض ، وأبوابه الشاسعة الجميلة ، أنه كان قصرأ لأحد الكبراء ، وهو يستعمل اليوم متحفاً ، تعرض به طائفة من الصور التاريخية ، ويتخذ مركزاً لمكتب السياحة الحكومى .

هذا وتوجد في غرناطة إلى اليوم في مختلف أحيائها غير حى البيازين ، منازل كثيرة تحتفظ بأصلها العربى أو الموريسكى أو ببقية منه . ومنها كثير ما يزال يحتفظ بفنائه الأندلسى ، ومشرفياته العربية ، وقد رأينا الكثير منها . ومازال الطراز الأندلسى والموريسكى ، يبدو في كثير من أحياء غرناطة المحدثه ، وبنوع أخص في أحيائها القديمة ، الواقعة في جنوبها الشرقى ، ما بين الحمراء وحدائق طريق شنيل .

الأبواب والأسوار

كان لغرناطة الإسلامية عشرون باباً ، لم يبق منها اليوم سوى القليل . وقد أشرنا إلى أبوابها الثلاثة ، التى مازالت قائمة في حى البيازين ، وهى باب البيازين وباب فحص اللوز وباب الزيادة . وتوجد ثمة بضعة أبواب أخرى مازال في حالة جيدة ، أهمها باب إلبيرة "Puerto de Elvira" الواقع في شمال غربى المدينة ، وهو يقع اليوم على مقربة من ساحة الثيران ، وقد بقى هيكله كاملاً على ارتفاع نحو اثني عشر متراً ، وإلى جانبه بقية من السور القديم ، وفي أعلاه مشارف عربية ، وليست عليه أية نقوش أو كتابة . ومنه يبدأ شارع إلبيرة ، الذى مازال يحمل اسمه العربى "C. de Elvira" .



غرناطة . باب إلبيرة

ويسير بجذاء شارع كولون الكبير حتى يصل إلى الميدان الجديد "P. Nueva". ثم باب البنييدة وهو يقع على مقربة من باب إلبيرة وفي شرقيه ، ثم باب سيده ، وهو شرقي باب البنييدة ، وكلها تقع على خط الأسوار الشمالية القديمة . وهذا عدا أبواب قصبة الحمراء ، وهي عدة ، وقد ذكرناها في موضعها .

وأما أسوار غرناطة الإسلامية ، فقد بقيت منها أجزاء كبيرة ، وبالأخص في الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلو متر ، وتنقطع قبل باب إلبيرة بقليل ؛ وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية ، وهي ترى على مد البصر من أعلى ربوة الحمراء . وقد طفنا بهذه الأسوار ، وهي متينة كثيفة ، وهي صفان داخلية وخارجية . وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة .

قصر شنيل

ومن الآثار الأندلسية الباقية بمدينة غرناطة ، بقية الصرح المسمى « قصر شنيل » "Alcázar Genil" ، وهو يقع خارج المدينة على الضفة اليسرى من نهر

شنيل ، فى بقعة خضراء منعزلة تسمى ضاحية « أرميليا » « Armilla » ، أوحداثق الملكة . وهو بناء أوبالحرى بقية بناء ذى باب عربى معقود ، على رأسه رقعة نقش عليها « ولا غالب إلا الله » ، ونقش فى عقد المدخل ما يأتى :

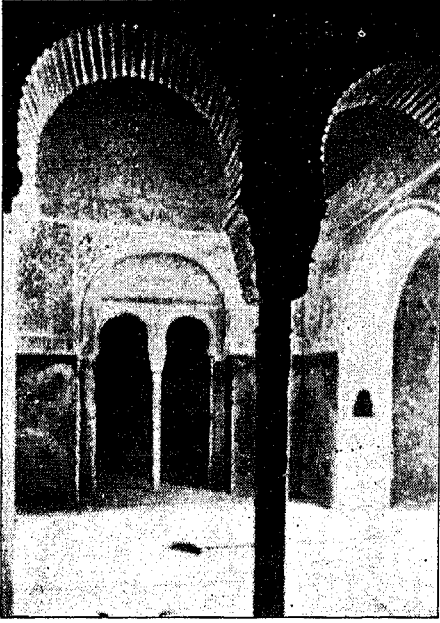
يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى

فيا للنبي . المرسلى اختم بخير عملى

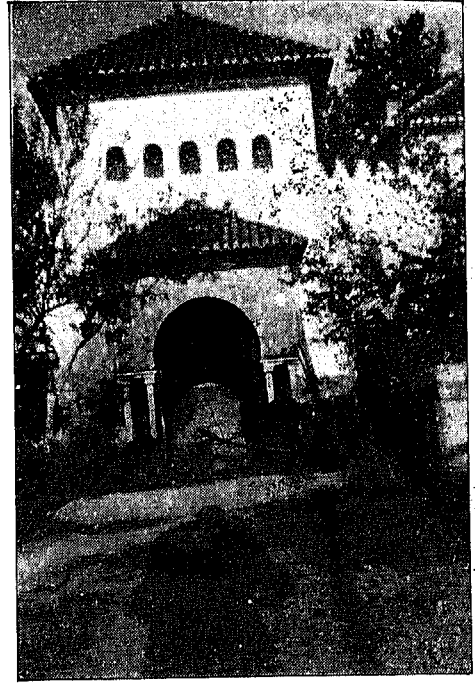
ويفضى هذا المدخل إلى بهو مربع ، به أربعة عقود جميلة ، فى كل جانب عقدان ، وله قبة عالية مزينة بالمقرنصات ، على مثل زخارف قبة بهو بنى سراج بقصر الحمراء ، ويبلغ ارتفاع القبة نحو اثنى عشر متراً . وقد نقشت على جوانب البهو العبارة الآتية فى رفاع عدة « عز لمولانا السلطان » مكررة حول المربع . ونقشت كذلك فى الحزام الأعلى . ونقش فى الحزام الذى يليه هذه العبارة مكررة « الحمد لله على نعمة الإسلام » ، كما نقشت هذه العبارة فى جوانب العقود الأربعة . ونقش فى الحزام الأخير حول المربع « ولا غالب إلا الله » مكررة كذلك . ونقش فى دوائر مختلفة هذه العبارات « من حسن كلامه وعز لإكرامه » « عز لمولانا السلطان » « الملك العادل المرابط » .

وتتسم واجهة هذا الأثر وبهوه ، بطابع مؤثر من الجمال والنبيل ، مما يدل على أنه كان صرحاً ملوكياً ذا شأن . والحقيقة أنه بقية من قصر شنيل الذى أنشأه الأمير الموحدى السيد إسحق بن الخليفة أبى يعقوب يوسف فى سنة ٥٦١٥ (١٢١٨م) خارج غرناطة ، على مقربة من نهر شنيل ، حسبما يروى لنا صاحب كتاب «الخلل الموشية» ، وحسبما جاء أيضاً فى كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب (١) ، وقد كان يسمى عندئذ « قصر السيد » . وقد غلب عليه هذا الاسم أيام مملكة غرناطة ، وكان يستعمله ملوك بنى نصر قصرأ للضيافة . وفيه أقام « الإنفانت » فيليب أخو الملك ألفونسو العاشر ، حينما ثار عليه ، والتجأ مع نفر من الفرسان النصارى ، إلى سلطان غرناطة ، محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه ، وذلك فى سنة ١٢٧٠ م . وأما قنطرة شنيل فتقع على نهر شنيل عند ملتقاه بفرعه حدره فى نهاية الشارع

(١) «الخلل الموشية فى الأخبار المراكشية» وهو لمؤلف مجهول (طبع تونس) ص ١٢٦ .
وراجع كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» (القاهرة ١٩٥٦) ص ١٢٥ و ٣٢٤ و ٥٦١ حيث يجرى ذكر هذا القصر .



عمود قصر شنييل

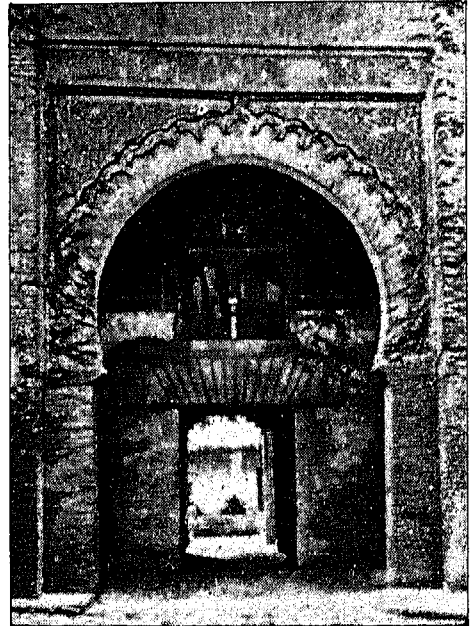


غرناطة . واجهة قصر شنييل



غرناطة . فناء منزل أندلسي قديم

١٢ - آثار



غرناطة . عمق مدخل الفندق أو فناء الفحم

الكبير المسمى طريق حدرة Acera de Darro ، وهى من أشهر القناطر الأندلسية ، وقد بنيت فوق خمسة عقود على مثل القناطر الرومانية ، وبقيت على أصلها الأندلسى ، حتى أضر بها الفيضان العرم فى أوائل القرن السابع عشر ، فجددها الإسبان ، ولكن على طرازها الأصيل . وما زالت إلى اليوم تحمل اسمها الأندلسى القديم « قنطرة شنيل » Puente de Genil .

متاحف الآثار والصور

وتوجد فى غرناطة عدة متاحف أثرية هامة ، فى مقدمتها متحف الحمراء ، وهو قائم فى عدة أمهات علوية ، واقعة عند مدخل قصر الحمراء ، فى مواجهة قصر شارلكان ، ويحتوى على طائفة كبيرة من القطع واللوحات الأثرية ، معظمها من مخلفات قصر الحمراء ، وبعضها من مخلفات قصر جنة العريف ، وقد شاهدنا من بينها الأشياء الآتية :

١ - لوحة رخامية كبيرة ، فى حجم باب متوسط ، نصفها الأعلى بيضاوى ، ونصفها الأسفل مستطيل ، وقد سجل فيها إنشاء المارستان (المستشفى) النصرى ، على يد السلطان الغنى بالله ، وهذا نصها :

« الحمد لله ، أمر ببناء هذا المارستان ، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين ، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين ، وخلصه حسنته ناطقة باللسان المبين ، وأجرى صدقته على مر الأعوام وتوالى السنين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، المولى الإمام ، السلطان الهمام ، الكبير الشهير ، الطاهر الظاهر ، أسعد قومه دولة ، وأمضاهم فى سبيل الله صولة ، صاحب الفتوح ، والصنع المنوح ، والصدر المشروح ، المؤيد بالملائكة والروح ، ناصر السنة ، كهف الملة ، أمير المسلمين الغنى بالله ، أبو عبد الله محمد ابن المولى الكبير الشهير ، السلطان الخليل ، الرفيع المجاهد العادل الخافل ، السعيد الشهيد المقدس ، أمير المسلمين أبى الحجاج ابن المولى السلطان الخليل الشهير الكبير ، المعظم المنصور ، هازم المشركين ، وقامع الكفرة المعتدين ، السعيد الشهيد أبى الوليد بن نصر الأنصارى الخزرجى ، أنجح الله فى مرضاته أعماله ، وبلغه من فضله العميم ، وثوابه الجسيم آماله ، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام ، واختص بها طراز فخر على عاتق حلقة

الجهاد ، وقصد وجه الله بابتغاء الأجر ، والله ذو الفضل العظيم ، وقدم نوراً يسعى بين يديه ومن خلفه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم ، من عام سبعة وستين وسبعمائة ، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه ، في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة ، والله لا يضيع أجر العاملين ، ولا يخيب سعى المحسنين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآله وأصحابه أجمعين .
والمعروف من تاريخ هذا المارستان ، أنه كان قائماً على الضفة اليمنى لنهر حدرة ، وقد هدم في القرن الماضي فقط ، وعملت له قبل هدمه رسوم وخطط ولوحات كاملة (١) .

٢- لوحتين كبيرتين من المرمر ، طول كل منها نحو مترين وعرضها ٦٠ سنتيمتراً ، وقد نقشت على حافاتها زخارف عربية بديعة ، وشعار بنى نصر « ولا غالب إلا الله » .

٣- صحن نافورة كبيرة ، وبه بقية من غطاء مرمرى أخضر ، يبلغ قطره نحو متر ونصف .

٤- خمس لوحات خشبية مستطيلة ، أصلها من مخلفات فناء الأسود ، وعليها زخارف عربية بديعة ، منها ثلاث في حجم ١,٣٠ × ٣,٥ مترآ ، واثنان في حجم ١,٦٠ × ٥,٠ مترآ ، وقد سقطت من حافة البهو الخشبية .

٥- لوحة خشبية من قصر جنة العريف ، وعليها نقوش وزخارف بديعة ، وعبارة « ولا غالب إلا الله » .

٦- لوحة خشبية من ذهب أخذت من قصر جنة العريف ، وتنسب لأسرة (بنيغش) Los Venegas ، الذين تنصروا عقب سقوط غرناطة ، وعليها خمس رمانات هي شعار غرناطة النصرانية ، وشعار بنيغش ، وقد نقشت فوقها هذه العبارة اللاتينية Cris Viucit ، ومعناها « المسيح هو الغالب » ، وقد أريد بها على ما يظهر ، أن تعارض شعار بنى نصر « ولا غالب إلا الله » . وفوقها بالللاتينية Servire Dio Regnares ، ومعناها « خدمة الله هي الكفاح » . وهي لوحة ذات مغزى عميق :

(١) راجع مقالا عن هذا المارستان وتاريخه في مجلة الأندلس: Al-Andalus (1943), p. 482

٧- جرة (زلعة) كبيرة زرقاء من الخزف الفاخر ، عليها نقوش رائعة وآيات قرآنية ، وتعتبر من أبداع نماذج هذه الصناعة الخزفية ، التي امتازت بها الأندلس المسلمة .

وطائفة كبيرة أخرى من اللوحات والزخارف ، ومن قطع الفسيفساء الملون (المزايك) ، ومعظمها من صنع موريسكى .

وأما المتحف الأثرى (الأركيولوجى) ، فيقع فى واجهة حى البيّازين ، على طريق ساكرومونتى ، فى منزل قديم هو منزل آل ثفرا Zafra الذين كان عميدهم فرناندو دى ثفرا سكرتيراً « للملكين الكاثوليكين » ، واشترك فى وضع معاهدة التسليم .

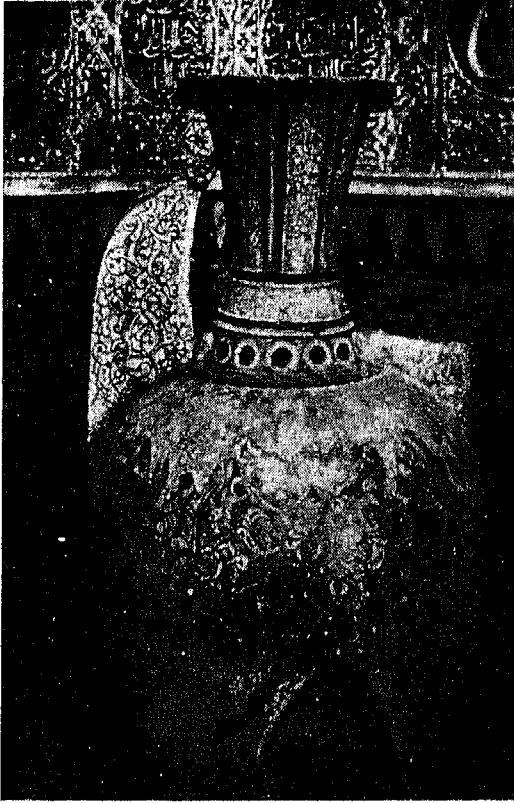
وهو يحتوى على طائفة كبيرة من اللوحات الخشبية والرخامية والأقواس ، وقطع عديدة من أبواب وشبابيك عربية ، ومنها عدة لوحات رخامية من مدرسة غرناطة من بينها بضع قطع من لوحة إنشائها على يد السلطان يوسف أبى الحجاج وفيها أن إنشائها قد تم فى الحرم سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، وبقايا آيات قرآنية . كما توجد قطع زخرفية عديدة تمثل نماذج الزخارف الإسلامية فى غرناطة ، وغيرها من مدن الأندلس ، فى عصرها الأخير (١) .

وإلى جانب هذين المتحفين الهامين ، يوجد متحف ثالث للصور ، هو القائم فى الدار المعروفة باسم Casa de los Tiros «دار الرماية» ، وهى دار أندلسية قديمة ، واقعة فى شارع Pavaneras ، وتحتوى على عدة أمهات عرضت بها طائفة من الصور ، من بينها عدد من الصور التاريخية ، التى كانت تحفظ من قبل بمتحف جنة العريف . وكان قصر جنة العريف ، على مثل قصر الحمراء ، يضم متحفاً فى الطابق الأعلى منه ، فى الجناح المعروف بجناح الملكة إيسابيلا . ويحتوى هذا المتحف على مجموعة تاريخية من الصور ، منها صورتان للملكين الكاثوليكين ، وصورتان لأبى عبد الله آخر ملوك الأندلس كلتاهما لمصور مجهول ، وإحدهما توجد بالمتحف منذ عهد بعيد ، ويشك فى أنها صورته ، ويقال إنها صورة للمتوكل ابن هود ، والأخرى أهديت إلى المتحف ، من أسرة «فرناندث جيرا» الغرناطية

(١) وقد نشر الأستاذ ليثى بروقتسال فى كتابه *Inscriptions Arabes d'Espagne* صور

كثير من اللوحات الموجودة فى هذين المتحفين .

وقد كانت تحتفظ بها من أجيال ، وسيف أبي عبد الله ، وصورة يحيى النياربطل
ألمرية ، وشجرة نسب للملك سرقسطة وغرناطة ، وصور آل بنيغش الذين عاشوا



حيناً في القصر . وكان قصر
جنة العريف ومحتوياته ،
ملكاً خاصاً لأسرة إسبانية
إيطالية هي أسرة Durazzo
Pellivinci في سنة ١٩٢١
اتفقت هذه الأسرة مع
السلطات المسئولة ، على
تسليم القصر إلى الحكومة
الإسبانية ، واحتفظت بمعظم
محتويات المتحف المذكور
من أثاث وصور ، ونقلتها إلى
إيطاليا ، وكان منها فيما يظهر
صورة أبي عبد الله . وعلى
أى حال فإنه لا يوجد اليوم
في متحف « دار الرماية »
بغرناطة ، من محتويات
جنة العريف السابقة ،

متحف الحمراء . زلعة خزفية رائعة الزخرف

سوى صورتي الملكين الكاثوليكين ، وصورة أبي عبد الله المهداة من أسرة
« فرناندث جيرآ » وهي صورة حجمها ٤٠ × ٢٧ سنتي متراً ، وفيها صورة
نصفية لأبي عبد الله ، ويبدو فيها وعلى رأسه تاج ، وفي عنقه سلسلة ، هي عنوان
أسره ، لأنها صورت أثناء أن كان في أسر الملكين الكاثوليكين بقرطبة بين سنتي
١٤٨٣-١٤٨٥م^(١) ، وصورة لسيد أسرة بنيغش الأندلسية المتنصرة Los Venegas
المسمى سيدي يحيى ، أو اللوق بيدرو دي جراناذا فنيجاس ، وهي كبيرة الحجم

(١) نشرنا صورتي أبي عبد الله . الأولى في فاتحة الكتاب . والثانية في مجموعة الحمراء بعد

وفيها يبدو بملابس عسكرية قشتالية مزركشة ، وتبدو على حياها مسحة المسلمين ، وقد أمسك سيفه بيده .

وأخيراً يوجد متحف للبلدية ، عرضت فيه بعض الصور ، ومنها صورة كبيرة حديثة للمصور Paradillo (سنة ١٨٨٢) ، عرض فيها منظر خيالي لتسليم غرناطة ، وفيه يبدو أبو عبد الله راكباً جواده ، ومن ورائه بعض جند معتمين ، وقد ارتدى عباءة سوداء ، وأمسك بيده مفتاح المدينة . وأمامه في الناحية الأخرى الملك فرديناند راكباً جواده ، وإلى جانبه الملكة إيسابيلا فوق جوادها ، تحف بهما طائفة من السادة والجنود النصاري .

وعناية السلطات في غرناطة بأمر المتاحف ، ترجع إلى نفس الفكرة التاريخية ، وهي الحرص على جمع سائر الآثار والتحف ، التي تتعلق بعصر الفتح والاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الأندلسية .

وصف الغزال لغرناطة

وقد ترك لنا الغزال الفاسي ، الذي زار إسبانيا في سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) سفيراً من قبل سلطان المغرب المنصور بالله أبي عبد الله ، إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث ، وتجول في قواعد الأندلس الذهبية ، ووصفاً لمدينة غرناطة وآثارها ، يقول فيه : إنها تقع على مقربة من واد منبسط فيه أجنة من الزيتون والكروم وجميع الفاكهة ، وبساتين عظيمة ، مما يدل على أن مرج غرناطة ، كان ما يزال حتى ذلك العصر محتفظاً بخصبه ونضرتة . ثم يقول ، إنه رآها تحالف سائر المدن الإسبانية التي زارها في بنيان دورها وشوارعها ، وأنها ما زالت على حالها التي كانت عليه في الإسلام ، وهي أقرب المدن شهاً بفاس ، في بنائها وجريان الأودية بجدرانها ، ثم القناطر المضروبة عليها ، وما اشتملت عليه الديار من الحصص والتزليج والدرابيز من اللوح المستديرة بمباحات الطبقة الثانية ، المشرفة على صحن الدار ، والبيوت والغرف والسقوف والأبواب ، كل ذلك مشاكل لمدينة فاس .

ثم يذكر لنا الغزال أنه توجد بغرناطة عدة مساجد صارت كنائس ، ولها قباب ، وفي صحنها أنشئت المصليات النصرانية ، ويفيض في وصف « الجامع » الذي به مقابر ماوكهم ، ووصف قبته العظمى ، وما بها من تصاوير وصلبان

(وهو يقصد بلا ريب الكتدرائية أو الكنيسة العظمى التي بها قبر فرديناند وإيسابيللا) . بيد أنه يقول لنا إنه رأى بالمدينة في نفس الوقت ، بعض المساجد التي بقيت على بنائها الإسلامي .

ويصف الغزال بعد ذلك وادى شليل ، وما يحتويه من الحدائق والمتنزهات والمقاعد الكبيرة ، وما يمتاز به من كونه متنزه أهل غرناطة ، ومسرح أسماهم في الليالي الصافية^(١) .

ويبدو من أوصاف الغزال ، أن غرناطة كانت ما تزال حتى أواخر القرن الثامن عشر ، تحتفظ بكثير من خططها ومظاهرها الأندلسية . والواقع أن معظم التغييرات والإصلاحات الحديثة ، التي طرأت على خططها ومعالمها ، قد وقعت منذ أوائل القرن التاسع عشر ، أي بعد العصر الذي يتحدث عنه الغزال بنحو نصف قرن .

قصر الحمراء

Alhambra

إن أول ما تضطرم به تخيلتك ، حينما تصل إلى مدينة غرناطة ، هو أن ترى درة الآثار الأندلسية الفريدة - قصر الحمراء ، وهو الذى حرف الإسبان اسمه ، فأصبح يعرف فى العالم الغربى باسم Alhambra .

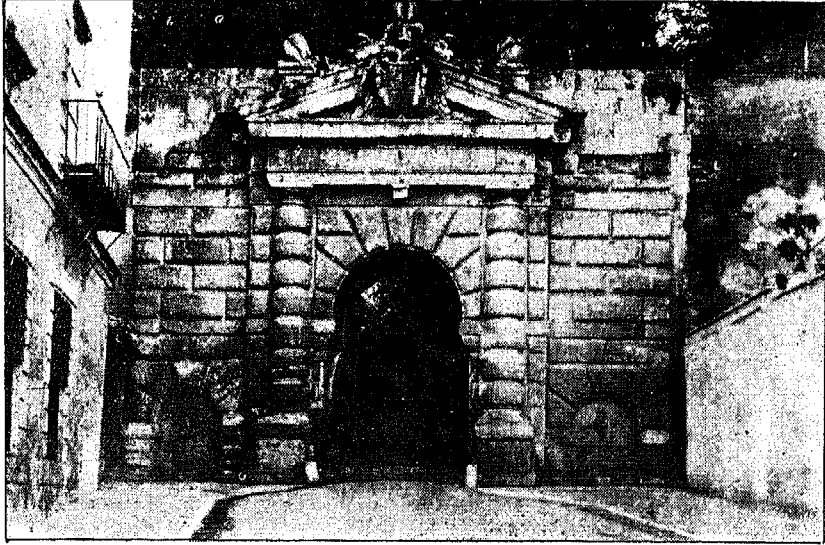
وقصر الحمراء لا يرى من داخل المدينة لأول وهلة ، ولكنك تستطيع متى جزت إلى الميدان الجديد Plaza Nueva ، وسرت فى طريق نهر « حدره » Carrera de Darro ، أن ترى إلى يمينك أبراج الحمراء مشرفة من هضبتها العالية ، على مجرى النهر القديم الذى غطى معظمه الآن .

ومن الميدان الحديد ، يسير المرء فى طريق صاعدة تسمى «مرتفع بنى غمارة » Puerta de C. de Gomerres ، حتى باب القصبة الأول المسمى « باب الرمان » Granadas ، ومنه تدخل هضبة الحمراء .

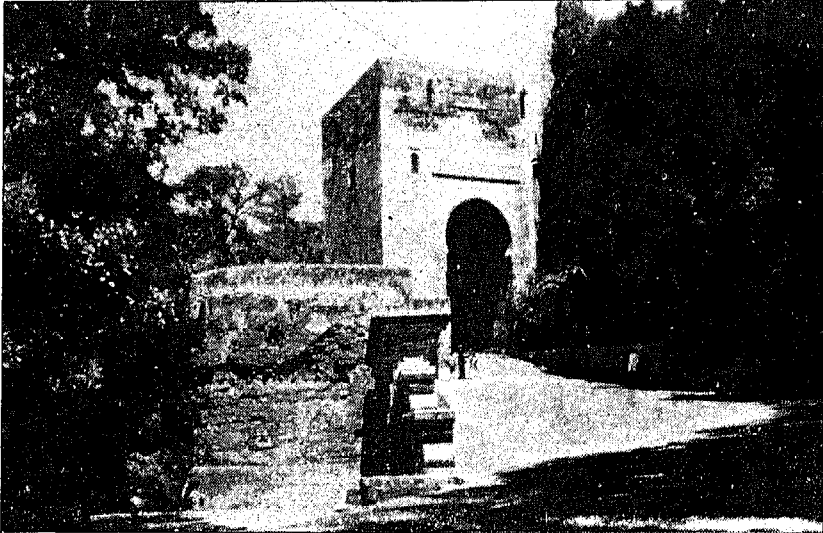
وباب الرمان ليس من أبواب الحمراء الأندلسية ، ولكن بنى فى عهد الإمبراطور شارلكان على طراز عصر الأحياء . وهو عبارة عن عقد حجري ضخيم ، يقوم طرفاه على عمودين كبيرين ، وقد نصبت فى أعلاه ثلاث رمانات على هيئة مثلث . وكان يسمى فى البداية « باب بنى غمارة » ، ولكن سمي فيما بعد باسمه الحالى وهو « باب الرمان » ، وهو شعار غرناطة المشتق من اسمها .

وتبدو من وراء باب الرمان غابة رائعة ، تسحرك بأشجارها الباسقة ، وخرير الماء المتدفق فى جوانبها ، وشدو البلايل التى تملأ أغصانها . وتتفسح أمامك ثلاثة طرق عريضة ، يفضى أولها وهو الأيمن إلى « الأبراج الحمراء » ، والأوسط إلى قصر « جنة العريف » ، والثالث وهو الأيسر يفضى إلى « باب الشريعة » أول أبواب الحمراء .

والطريق المفضى إلى باب الشريعة ، طريق صاعد مجهد ، صفت على جانبيه المقاعد الحجرية ، وقد أنشئ فى ناحيته اليسرى قبيل الباب بقليل ، حوض



غرناطة . باب الرمان مدخل الحمراء الرئيسي



الحمراء . ميدان باب الشريعة عند نهاية الطريق الصاعد

مستطيل مزخرف نقشت فوقه صور لبعض الأساطير اليونانية ، وهو يرجع إلى عصر الإمبراطور شارلكان .

ويجب أن نذكر أولاً ، أن هذه الغاية الفخمة ، وطرقها العريضة الرائعة هي من عمل الإسبان ، ولم تكن موجودة أيام المسلمين ، بل كانت هذه الرقعة الشاسعة التي تشغلها الآن ، أرضاً براحاً في أسفل الحمراء ، كانت تسمى في ذلك العصر « بالسبيكة » ، وهو اسم يتردد كثيراً في أخبار مملكة غرناطة ، ولاسيما في عصرها الأخير .

وفي منتصف هذا الطريق الصاعد ، يوجد ميدان صغير يطل عليه « باب الشريعة » ، وهو أشهر أبواب الحمراء ، وهو اليوم مدخلها الرئيسي . وقد كان هذا الباب كما يدل عليه اسمه مجازاً لدوى المظالم ، وفي الساحة التي تليه يجلس السلطان أو نائبه للفصل في المظالم في يوم معين ، جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين .

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً ، وقد صنع عقده المزخرف على مثل حلوة الجواد ، ونقش على قوسه سطران ، كتب فيهما بخط أندلسي متشابك ، اسم منشئه وتاريخ إنشائه على النحو الآتي :

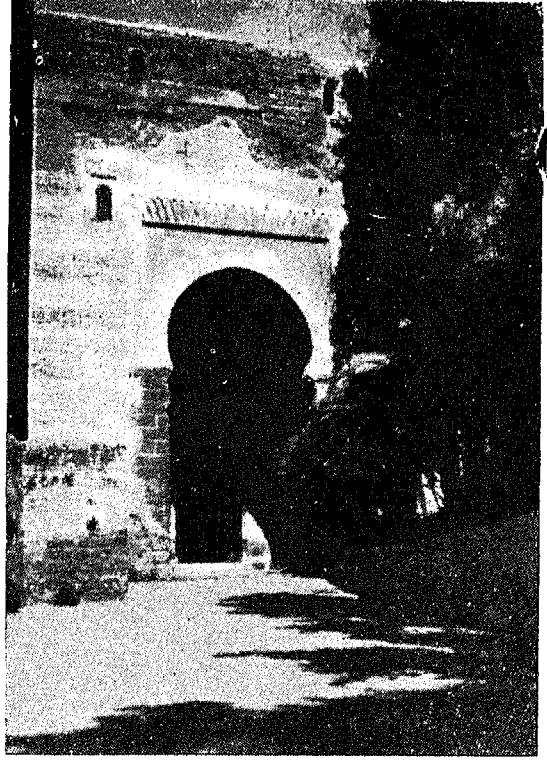
« أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة ، أسجد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام ، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية ، فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعائة ، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية » .

ويوافق هذا التاريخ « ٧٤٩ هـ » سنة ١٣٤٨ م . والسلطان يوسف أبو الحجاج المشار إليه ، هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة ، وقد حكم من سنة ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م ، وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء .

ووراء باب الشريعة مجاز معقود ، به في الناحية اليمنى محراب وضع فيه تمثال للعذراء ، وفي نهايته مصلى أقيم به هيكل . وقد صنعت به لوحة رخامية أشير فيها إلى حصار غرناطة ، وتسليمها للملكين الكاثوليكين في ٢ يناير سنة ١٤٩٢ .



الحمراء . باب الشراب



الحمراء . باب الشريعة



الحمراء . برج الحراسة أعظم أبراج القنصبة

ويلى ذلك درب صغير يتجه غرباً ، وقد أقيمت على جانبه الأيمن بضعة حوانيت لبيع الصور والتحف الغرناطية . ثم يتجه شمالاً ، وفي نهايته من الناحية اليسرى ، يوجد باب معقود أطلق عليه اسم « باب النبيذ » أو باب « الشراب » Puerta del Vino ، وكان أيام المسلمين يسمى باب غرناطة أو باب الحمراء ، ولسنا نعرف سبب تسميته بهذا الاسم .

وفي شمال هذا الدرب الصاعد ، يطالعك ميدان شاسع أطلق عليه الإسبان اسم « ميدان الأجياب » Plaza de los Aljibes . ومنه ترى لأول مرة أهم مجموعة من الصروح والأماكن الأثرية التي تضمها قسبة الحمراء .

فإلى يمينك ترى القصر الذى أنشأه الإمبراطور شارل لكان ، فى جنوب قصر الحمراء ، وإلى يسارك ترى الساحة التى يطلق عليها اسم « القسبة » أو الحصن ، وفى نهايتها البرج الضخم الذى يسمى « برج الحراسة » Torre de la Vela ، وهو من أعظم أبراج الحمراء ، وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله . وهذا البرج هو الذى اختاره الإسبان عند دخولهم لرفع الصليب ، وما يزال هذا الصليب الذى وضع فى أعلاه يوم دخول الإسبان غرناطة قائماً فى مكانه ، وهو صليب خشبى كبير وضع فى الزاوية الشمالية الغربية .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان « القصر العربى » Palacio Arabe .

* * *

أجل هذا هو قصر الحمراء .
هذا هو قبلة الرواد من سائر أنحاء الأرض ، وهذا هو خاتمة المظاف لرواد اسبانيا ورواد الأندلس .

أجل هنا كانت ثمة مملكة ، وكان ثمة ملك وعرش . وبين جدران هذا القصر ، كان يقيم سلاطين مملكة غرناطة الإسلامية آخر الممالك الأندلسية ، وهنا كان رجالات هذه الأندلس الأخيرة ، يوجهون مصائر شعب عظيم مسلم . أجل كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة ، استمر تاريخها يدوى فى الأفاق ، زهاء مائتى عام ، وعنوان مدنية إسلامية زاهرة ، تركت آثارها الخالدة فى الربوع التى تألفت فيها . ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبراً لهذه المملكة وهذه المدينة . وفى بعض

أهباء الحمراء وقع أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزرائه ، معاهدة تسليم غرناطة والحمراء ، وحكموا بذلك على دولتهم بالحو ، وعلى أمتهم بالفناء .

وبين هذه الجدران الصامته ، التي يكاد الأسى يرسم على زخارفها العربية ، ونقوشها الإسلامية ، يضطرم الخيال بهذه الفكر وأمثالها ، بل يكاد الدمع يغالبك وأنت تجوس خلال هذه الأهباء الملوكية الفخمة ، وتقرأ في كل ركن منها تلك العبارة المؤسسية ، التي لبثت شعار بني نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم :

« ولا غالب إلا الله »

ولا بد لنا قبل أن نجوز إلى داخل هذا القصر الملكي ، الذي يضم تاريخ مملكة يأسرها ، أن نقول كلمة عن تاريخه .

إن قصر الحمراء لم يكن سوى جزء صغير فقط : من مدينة الحمراء أو كما تسميها الرواية الإسلامية « قسبة الحمراء » . وكانت القسبة تشمل عادة قصر الحاتم والقلعة أو القلاع التي تحميها ، ودور الوزراء والحاشية . وأحياناً تنمو هذه المجموعة حتى تغدو قاعدة ملوكية محصنة . وكان هذا شأن الزهراء ، التي أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، في أواسط القرن الرابع الهجري ، وكذا كان شأن مدينة الزاهرة ، التي أنشأها المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) عقب إنشاء الزهراء في سنة ٣٦٨ هـ . وعلى هذا المنوال نشأت الحمراء ، ونمت وتطورت ، حتى أصبحت مدينة ملوكية حقة .

ويرجع قيام الحمراء إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . فإن الرواية الأندلسية تشير ، إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء ، بنيت فوق الهضبة الواقعة على الضفة نهر حدره اليسرى ، وكان لها شأن أيام الحروب الأهلية ، التي اضطرت في منطقة غرناطة ، بين العرب والبربر والمولدين في هذا العصر . ولما تولى باديس بن حبّوس زعيم البربر حكم غرناطة ، على أثر قيام دول الطوائف في أوائل القرن الخامس ، أنشأ سوراً منيعاً حول الهضبة التي تقع عليها قلعة الحمراء ، وأنشأ داخله قصراً ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقسبة الحمراء ، وغدت هذه القلعة معقل غرناطة الرئيسي .

ولما غلب محمد بن الأحمر النصرى على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) اتخذ مركزه في « القسبة » ، وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذي أطلق عليه اسم الحمراء القديم ، واتخذة قاعدة للملك ، وجلب إليه الماء من نهر حدره ،

وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة، منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة T. de la Vela الذى سبقت الإشارة إليه ، وابتنى حوله سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . ومن المرجح أنه بنى مسكنه الخاص فى الجنوب الغربى من الحصن ، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه اليوم قصر الإمبراطور شارلكان . وسميت القصبه الحديدية « بالحمراء » ، جريباً على اسمها القديم ، الذى هو أصل التسمية . ومن الخطأ أن يقال إن اطلاق اسم « الحمراء » عليها ، يرجع إلى اسم منشأها « ابن الأحمر » أو أنه يرجع إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية ، ذلك لأنه ثبت أن هذا اللون الأحمر الذى تبدو به الأسوار ، يرجع إلى العصر الحديث ، وأنه من صنع الإسبان .

وفى أواخر القرن السابع الهجرى ، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر ثانى سلاطين غرناطة ، الملقب بالغالب بالله ، الحصن الحديد والقصر الملكى ، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجداً ، هو الذى تحتل موقعه اليوم كنيسة « سانتا ماريا » . ثم جاء السلطان أبو الوليد اسماعيل ، فزاد فى القصر وفى تجمياله . بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعيتها ، بالأخص إلى ولده السلطان يوسف أبى الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فهو الذى بنى معظم الأجنحة والأبهاء الملوكية ، التى مازالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة ، وهو الذى أغدق عليها روائع الفن والزخرف ، وبنى باب الشريعة الشاهق الذى سبقت الإشارة إليه .

وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة ، يبلغ طولها ٧٣٦ متراً ، وعرضها نحو مائتى متر ، ويحيط بها سور ضخم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة . ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقى معظمها إلى اليوم . وأهم أبراجه الباقية ، هى برج الحراسة الواقع فى الطرف الغربى من الهضبة ، وهو الجزء الذى مازال يسمى إلى اليوم « بالقصبه » ، و برج قمارش Torre de Comares ، الواقع فوق قاعة السفراء التى سبقت ذكرها ، و برج المتزين T. del Peinador ، و برج العقائل T. de las Damas ، و برج الآكام T. de los Picos ، و برج الأسيرة T. de la Cautiva ، و برج الأميرات T. de las Infantas . وهذه الستة الأخيرة تقع كلها فى شمال الهضبة ، وتطل على غرناطة والمرج La Vega . و برج الماء T. del Agua ، وهو يقع فى طرف الهضبة الشرقى ، و برج الرؤوس T. de las Cabezas ، وهو يقع

في جنوب الهضبة . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأسماء هي من وضع الإسبان .
وأما أهم أبواب الحمراء الباقية ، فهي باب الغدور *Puerta de las Pozas* ، وباب
الطباق السبع *Puerta de Siete Suelos* ، وبرجه المسمى بهذا الاسم ، وهو الباب
الذي تقول الرواية إن أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس استقبل فيه الفاتحين يوم التسليم
وطلب أن يبني مكانه حتى لا يجوزه إنسان بعده ، وقد نزل الإسبان عند هذه
الرغبة وبنى الباب ، وهو يبدو اليوم مغلقاً ببناؤه القديم . وباب الشريعة الذي سبقت
الإشارة إليه . وكلاهما يقع في جنوبي الهضبة . وباب السلاح *Puerta de las Armas*
الواقع في شمال القصبة على مقربة من برج الحراسة ، وباب التبيذ الذي سبقت
الإشارة إليه وهو داخل الأسوار .

وتقع بعد « القصبة » في الطرف الغربي من الهضبة ، قلعة قديمة تسمى
« حصن الأبراج الحمراء » *Castillo de Torres bermejas*

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال طبيعي نادر ، فهي تشرف من الشمال والغرب
من موقعها المنيع الشاهق ، على مدينة غرناطة ، وعلى فحوصها أو مرجها الشهير *La Vega*
وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرا نفاذا *Sierra Nevada* ، التي
تعرف في الرواية الأندلسية بجبل شلير أو جبل الثلج ، وهي أقرب ما يكون إلى
أحياء المدينة من جانبها الشمالي الغربي ، إذ تشرف من عل على مجرى نهر حدرة
وعلى حى البيازين .

* * *

ولنعد الآن إلى قصر الحمراء .

إن قصر الحمراء ، أو بالحري ما تبقى منه ، هو أعظم وأروع الآثار الأندلسية
الباقية ، كما أنه يعتبر من أبداع الآثار الإسلامية ، التي أبقت عليها حوادث الزمن .
وهو يبدو بعقوده ، وسقوفه ذات الزخارف البديعة ، وأعمدته الرخامية الرشيقة ،
وإناقته المتناهية ، من أجل ما تقع عليه العين من الصروح الأثرية ؛ وهو مشرق
منير يغمره الضوء والهواء . بيد أنه مما يسترعى النظر أن هذا الإشراق ، تطبعه لحة
من الأسى والكآبة ، يحس بها المتأمل في جنباته الصامتة ، وكأنه إنما يرتد في حسرة
وأسى إلى عهد السيادة والعزة ، أيام أن كان قاعدة الملك لمملكة عظيمة .

ويطلق الإسبان على قصر الحمراء ، اسم القصر العربي *Palacio Arabe* . ويجوز

الزائر إليه من مدخل متواضع ، يقع في مواجهة قصر الإمبراطور شارلكان ، وتقع إلى يمين ويسار هذا المدخل عدة أمهات عليا ، يشغلها « متحف الحمراء » .
ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين : الأول ، جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذى يعلوها ؛ وجناح الأسود الذى يتوسطه فناء الأسود . وسوف نتناول تباعاً كل جزء من أجزاء القصر بالوصف ، ثم نورد ما رسم على جدرانه من نقوش .

فناء الرياح

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة Patio de Alberca ، أو فناء الرياح Patio de los Arroyanos . وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء ، تظللها أشجار الريحان ، وهو يستقى منها اسمه الحالى . والظاهر أن هذه الأشجار كانت تزرع من قديم على حافة الماء في هذا الفناء .

وقد نقشت في زوايا فناء الريحان العبارة الآتية : « النصر والتمكين ، والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المؤمنين » .

والآية الآتية : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

ونقشت على الإفريز الرخامى الأوسط لهذا الفناء ، قصيدة من اثني عشر بيتاً ركيكة ، وبها كثير من الأغلاط . ويرجع ذلك كما سنرى ، إلى أن كثير آ من نقوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث ، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة ، تحت إشراف الأثريين الإسبان ، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة . وهذا مطلع القصيدة المشار إليها :

تبارك من ولاك أمر عباده فأولى بك الإسلام فضلاً وأنما
فكم بلدة للكفر صبحت أهلها وأمسيت في أعمارهم متحكما

ومنها عن يمين الباب الشمالى المفضى إلى البهو المجاور :

ولو خير الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما
لقد لاحت أنوار الحلال ببابك يفتر منها النسدى بشرا وأنما
وتلك آثارها في كل مكرمة أبدى وأوضح بدرّ إذا انتظما

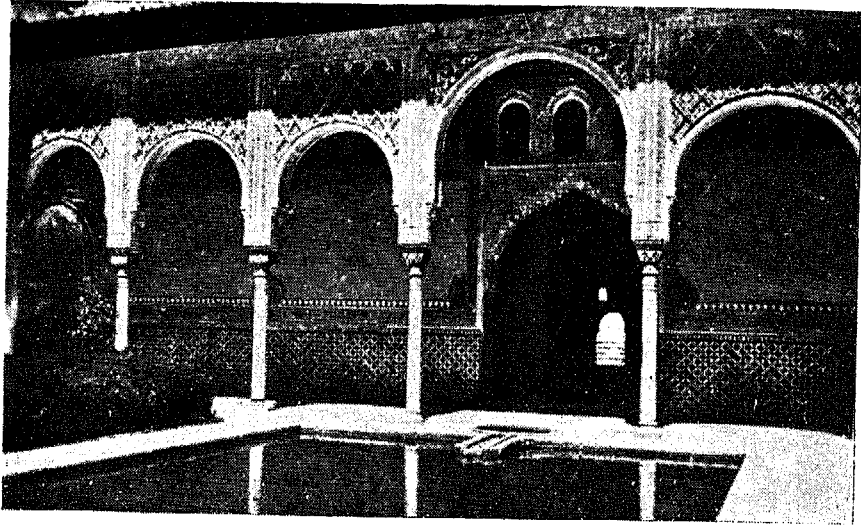
وعن يسار الباب :

فيا ابن العلي والحلم والبأس والندى
طلعن بأفق المليك رحمة
ومن فاق آفاق النجوم إذا انتما
فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا
ليجلو ما قد كان بالظلم أظلما
فإن رعشت زهر النجوم فخيفة
وأرهبته حتى النجوم في كبد السما
وإن سال غصن البان شكرك بما
وقد نقشت فوق الأبيات المذكورة وتحتها عبارة « ولا غالب إلا الله »
باستمرار .

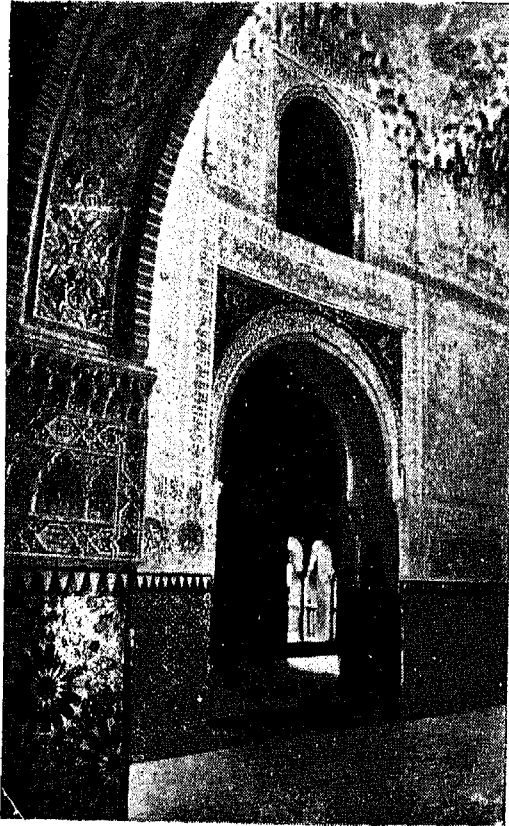
وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو ، يوجد باب عربي ضخيم ، هدمت الأبنية التي كانت من ورائه ، ولم تبق منها سوى بقية خربة ؛ وتوجد في هذه الأطلال بعض النقوش ، منها « ولا غالب إلا الله » « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله » . ويظن أن هذه الأطلال هي بقية الجناح السلطاني الخاص ، وهو الذي هدمه الإمبراطور شارل كان فيما بعد ، ليفسح مكاناً لقصره الذي ابتناه إلى جوار الحمراء .

ويفضى باب فناء الريحان الشمالى ، إلى بهو صغير يسمى بهو البركة ، به قبلة زينت بنقوش جميلة ، وقد نقش على جانبها الأيمن ما يأتي :

أنا محلاة عروس	ذات حسن وكمال
فانظر الإبريق تعرف	فضل صدق في مقال
واعتبر تاجى تجده	مشها تاج الملال
وابن نصر شمس فلك	في ضياء وجمال
دام في رفعة شان	آمنا وقت الزوال
وعلى جانب القبلة الأيسر ما يأتي :	
وأنا فخر لصلاة	سمت سمت السعادة
تحسب الإبريق فيها	قاوما يقضى عبادة
كلما تفرغ منها	وجفت فيها الإعادة
وبمولاي ابن نصر	شرف الله عباده
قد نماه سيد الخز	رج سعد ابن عباده



الحمراء . ساحة البركة (أو فناء الريحان)



الحمراء .
قاعة الأختين

بهو السفراء

ويفضى هذا البهو الذى يلي فناء الريحان ، من الناحية الشمالية ، إلى أعظم وأفخم أمباء الحمراء ، وهو البهو المسمى بهو قمارش أو بهو السفراء Salón de Embajadores

وبهو قمارش هو أعظم أمباء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبته الشاهقة . وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر متراً فى أحد عشر ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش . ويعلو بهو السفراء برج قمارش ، وهو مستطيل فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء قصر قمارش السلطان أبو الوليد اسماعيل فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج ، فأنشأ برج قمارش وبهوه ، وأنشأ جناح الحمامات السفلى القريب منه . وأنشأ ولده محمد الغنى بالله بهو البركة الذى سبق وصفه ، كما أنشأ قصر السباع الذى نصفه بعد .

وأروع ما فى بهو قمارش زخارف قبته ، التى لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية . أما نقوش الجدران ، فإنها مع جمالها ، ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان .

وقد نقشت فى عقد باب بهو السفراء العبارات الآتية : « الحمد لله على نعمة الإسلام » « عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره » .

ونقشت الأبيات الآتية فى جانب العقد الأيمن بعد عبارة « الحمد لله » :

فقت الحسان بحلىتى وبتاج	وهوت إلى الشهب فى الأبراج
يبدو إناء الماء فى كعابد	فى قبلة الحراب قام ينجاج
ضمنت على مر الزمان مكارمى	ذى الأوام وحاجة المحتاج
فكأننى استقرت آثار الندى	من آف مولانا أبى الحجاج
لا زال بدرأ فى سماى لاجسا	ما لاح بدر فى الظلام الداج

ونقشت الأبيات الآتية على جانب العقد الأيسر بعد عبارة « الحمد لله » :

رقت أنامل صانعى ديباجى	من بعد ما نظمت جواهر تاج
------------------------	--------------------------

وحكيت كرسى العروس وزدته أنى ضمنت سعادة الأزواج
من جاءنى يشكو الظما فوردى صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأننى قوس الغمام إذا بدا والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروس المهابة ما غدا بيت الإله مثابة الحجاج
ونقش فى الدائرة العليا للهو ، العبارة الآتية مكررة باستمرار « عزلمولانا
السلطان أبى الحجاج » .

ونقشت فى أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص صورة تبارك كلها، وأولها
« بسم الله الرحمن الرحيم . تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير. الذى
خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق
سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من
فطور . ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

ونهايتها « قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمتنا فمن ينجى الكافرين
من عذاب ألم . قل هو الرحمان آمننا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال
مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتىكم بماء معين » .

وتقرأ فى جدار المشرفية ، وهو الجدار الشمالى للهو هذه العبارة منقوشة
فى أعلاه : « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين نصره
الله » مكررة مراراً .

ثم تقرأ كذلك هذه العبارة فى الدوائر العليا لحدران الهو مكررة : « عزلمولانا
السلطان الملك المجاهد أبى الحجاج عز نصره » .

ونقش فى محيط الهو بكثرة ظاهرة شعار بنى نصر : « ولا غالب إلا الله » .
ونقشت الأبيات الآتية فى إحدى فجوات القبة السفلى :

تحريك من حين تصبح أو تسمى	ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبة العليا ونحن بناتها	ولكن لى التفضيل والعز فى جنسى
جوارح كنت القلب لاشك بينها	وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كان أشكالى بروج سماها	ففى عدا ما بينها شرف النفس
كسانى مولاي المؤيد يوسف	ملايس فخر واصطناع بلايس
وصيرنى كرسى ملك فأيدت	علاه بحق النور والعرش والكرسى

ونقشت في الفجوات الأخرى مقابل هذه الأبيات العبارة الآتية « النصر
والتمكن والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين أيد الله أمره وعز نصره ».

* * *

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وقد
زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو . وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ، فهو
من صنع الإسبان . وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية ، وهو عبارة عن
عدة حمامات رخامية تتخللها أمهات صغيرة . وما زالت بها أماكن الأحواض ظاهرة ،
وكذلك أماكن المواسير والصنابير . ولا يخلو هذا الجناح أيضاً من بعض النقوش .
فمنها عبارة « ولا غالب إلا الله » و « الله عدة لكل شدة » و « النصر والتمكن والفتح
المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين » .

وفي نهاية هذا الجناح من الداخل نقشت في فجوة صغيرة من الرخام قصيدة
من ستة أبيات أولها :

أعجب شيء حادث أوقديم مرابض الأسد بيت النعيم
وآخرها :

من كأبي الحجاج سلطاناً لازال في نصر وفتح عظيم

قاعة الأختين

وتقع شرق فناء البركة قاعة الأختين ، وتصل إليها من باب الفناء الشرقي ،
من رواق طويل مظلم . وقد سميت بهذا الاسم - قاعة الأختين Sala de las dos
Hermanas - لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام فريدتين
في ضخامة الحجم ، وقد نقش عند مدخلها بالكوفية « ولا غالب إلا الله » مكررة ،
ونقشت هذه العبارة أيضاً حول جدرانها في أسفل وأعلى ، ونقش تحتها هذه
الأبيات وهي مقتبسة من قصيدة الوزير ابن زمرك الشهيرة في وصف الحمراء وهي :

تبيت له خنس الثريا معيذه^(١) ويصبح معتل النواسيم رواقياً

(١) في نقوش هذه القصيدة تحريف . ويورد المقرئ هذه الشطرة كالاتي : « تبيت لهم كف
الثريا معيذة » .

فبين يدي مولاى قامت لخدمة^(١) ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
وكم من قسى" أفى ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
به المرمر المحلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ماكان داجيا^(٢)
وكذلك نقشت على الحدران هذه العبارة مكررة : « النصر والتمكين لمولانا
أبى عبد الله أمير المسلمين » .

فناء الأسود

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبي ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ،
ونعنى فناء الأسود أو بهو الأسود وما إليه .

وقد قام بإنشاء هذا القصر أو هذا الجناح ، الذى يسبق على الحمراء أكبر
قسط من الروعة والفخامة والبهاء ، السلطان محمد الغنى بالله الذى تولى العرش
فى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) وتوفى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) ، والذى ما زال
اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباع "Patío de los Leones" ، بطرازه
المصقول ، وقبابه المضلعة ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارفه البديعة ، وناפורته
الفريدة التى تحملها الأسود ، أروع أجنحة الحمراء ، وأوفرها رواء وسجراً . وهو
عبارة عن فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون متراً وعرضه عشرون ،
تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود، تحملها مائة وأربعة
وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية فى الجمال والرشاقة ،
وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل ،
اثنان منهما تتقابلان شرقاً وغرباً ، والأخريان تتقابلان شمالاً وجنوباً ، وهى
متماثلة الصنع والرخزف كأنها رواشن ، ويحمل كل منها عدد تماثل من الأعمدة .
وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء ، يحمل
حوضها المرمرى المستدير الضخم اثنا عشر أسداً ، صفت على شكل دائرة ،

(١) وصحة الشطرة وفقاً للمقرى « فبين يدي مثواك قامت لخدمة » .

(٢) راجع قصيدة ابن زمرك بأكلها فى نفع الطيب (بولاق) ج ٤ ، ص ٧٠٥ - ٧٠٩ .

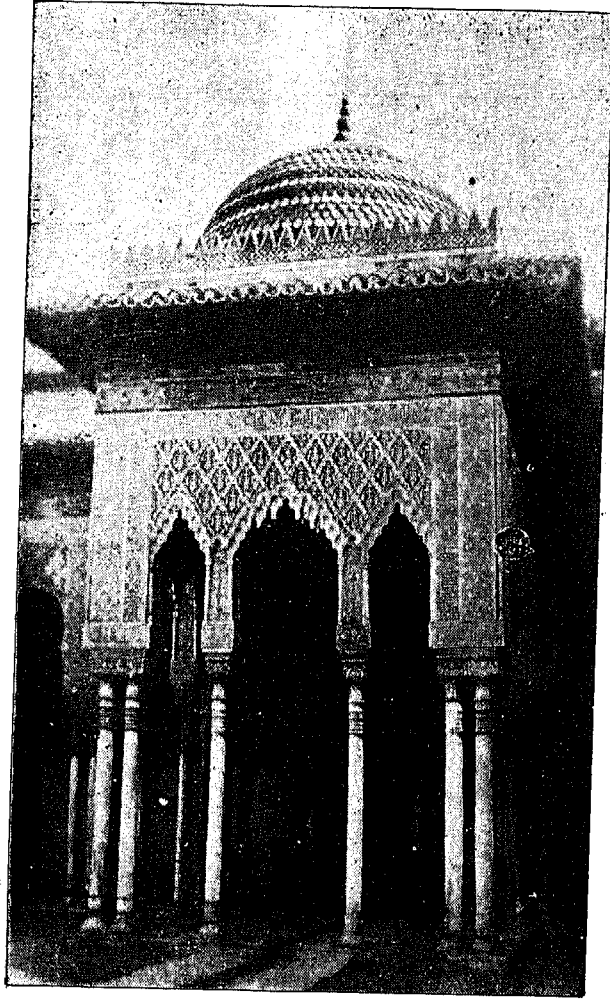


الحمراء . جانب من عقود فناء الأسود

ونحتت من الرخام الأبيض الذي اسمر بمضى الزمن ، وهي ليست بارعة المطابقة ،
ولكن تبدو عليها مخائل التوثب والشجاعة .

وتوجد في فناء الأسود ، طائفة من النقوش التي كتبت بالخط النسخ أو الكوفي
الحميل ، على الحدران والأعمدة والنافورة انفصلها فيما يلي :

نقش شعار بني نصر « ولا غالب إلا الله » بالنسخ والكوفي ، في الجانب القبلي
وراء الأعمدة ، وفوق رأس كل عمود من الأعمدة التي تحمل القبة ، وكذلك على
رعوس جميع العُمد الأخرى .



الحمراء : قبة فناء الأسود الوسطى المواجهة للنافورة

ونقشت العبارة الآتية على كل عمود ثان : « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغنى بالله » .

ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة أي القبة البحرية « ولا غالب إلا الله » . « ولا غالب إلا الله » . ونقش على رموس الأعمدة في المجموعتين الآخرين « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغنى بالله » .

ونقش في الداخل ، وراء القبة ، في صدر البهو الصغير الذي يلحق بالفناء من الناحية البحرية العبارات الآتية : « أبو عبد الله أمير المسلمين » . « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المسلمين » . « ولا غالب إلا الله » .

ونقش على رموس مجاميع الأعمدة التي تزيد عن اثنين ما يأتي : « عز لمولانا السلطان العادل المجاهد أبي عبد الله الغنى بالله » .

وإلى جانب هذه الأدعية ، التي تشيد بذكرى منشىء هذا الفناء ، قد نقشت قصيدة رائعة ، فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود ، تضم اثني عشر بيتاً ، وهي من نظم الوزير ابن زمرك ، ومنها أبيات وردت في قصيدته في وصف الحمراء ، وهذا نصها :

تبارك من أعطى الإمام محمداً	مغانى زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدائع	أبي الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها	تحلى بمرفض الحمان النواعيا
يدوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجمامد	فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء يجري بصفحها	ولكنها مدت عليه الحجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه	وغص بذلك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت	تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لآعن كلاله	تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً	تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

قاعة بنى سراج

وفي منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج "Sala de los Abencerrajes" ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التي لعبت دوراً كبيراً في حوادث غرناطة الأخيرة ، ويقول البعض إن اسم الأسرة هو «بنو السراج» وليس بنى سراج . وهذه القاعة عبارة عن مستطيل مساحته نحو اثني عشر متراً في ثمانية ، غطيت أرضه بالرخام المرمرى ، وفوقه قبة عالية ، مضلعة الدائرة ، وفي جوانبها كوات صغيرة هي التي تمد القاعة بالضوء ، وفي كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربي بديع ، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود ، بزخارف عربية جميلة ، وحفرت في داخل دائرة القبة مقرنصات مثلثة ، ليست هي زخارفها الأصلية ، بل هي من صنع الإسبان ، وترجع إلى القرن الثامن عشر ، وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة : « ولا غالب إلا الله » بالنسخ والكوفي ، ونقش في دائرتين في الجهتين اليمنى واليسرى ، هذا البيت وهو من نظم ابن زمرك :

فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ لاح بأديا
ونقش في جدار الصدر في مواجهة الداخل هذان البيتان :

تبيت له خنس الثريا معيدة ويصبح معتل النواسيم رواقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك في أفق السماء جواريا
وهما أيضاً من نظم ابن زمرك .

وفي وسط قاعة بنى سراج ، حوض نافورة مرمرى مستدير ، وفي قاعة بعض بقع داكنة ثابتة ، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء أسرة بنى سراج ، الذين دبر لهم الساطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم في هذه القاعة واحداً إثر الآخر .

وقد كان لهذه القاعة منفذ آخر مواجه لمدخلها ، فسده الإسبان بالبناء .

قاعة الملوك

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود ، مدخل القاعة التي تسمى قاعة الملوك "Sala de los Reyes" أو قاعة العدل ، ومدخلها عقد بديع مثلث الجوانب . وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت في سقف الحنية الوسطى منها ، صور عشرة سادة

مسلمين يلبسون العمام ، ويجلسون على وسائل ، ولهم لحى ، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة . ويرى بعض الباحثين ، أن هذه صور ملوك غرناطة العشرة ، الذين سبقوا أبى عبد الله فى تولى العرش ، أولهم محمد الغنى بالله ، وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبى عبد الله .

ونقشت فى سقفى الحنيتين الأخيرين ، صور فرسان ومناظر فروسية ، ومناظر صيد يُطارِد فيها دب وخنزير .

ويرى فريق من الأثريين ، أن المرجح فى شأن هذه الرسوم أنها من صنع بعض الفنانين النصرى ، وقد رسمت قبل سقوط غرناطة ، فى القرن الخامس عشر .

منظره اللندراخا

وفى شمال فناء الأسود ، وشمال قاعة الأختين ، يقع البهو المسمى منظره اللندراخا "Mirador de Lindaraja" : وقد اختلف فى تفسير هذا الاسم . ويرى بعض المستشرقين الإسبان ، أنه فى الأصل تحريف لثلاث كلمات عربية هى « عين دار عائشة » ، وأن عائشة هذه كانت من ملكات غرناطة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، (وهى غير عائشة الشهيرة والدة أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس) وأن كلمة عين ، هنا تعنى « النافذة » . وهذه القاعة هى عبارة عن بهو صغير مضلع ، يفضى إليه رواق ذو نافذتين ، ومدخله عقد بديع الزخرف ، وله نافذة ذات عقدين فى أعلى ، وعقدين آخرين على الجانبين ، وهى تطل على الفناء المجاور ، والذى يحمل نفس الاسم ، وهو عبارة عن فناء سفلى ، تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار فى ثمانية ، وبه نافورة وبضع أشجار ، ويطلق عليه اسم « فناء اللندراخا » .

وفى عقد المدخل فجوتان نقشت بينهما عبارة « ولا غالب إلا الله » ، ونقشت فى كل منهما أربعة أبيات تبدأ اليمنى منها بهذين البيتين :

كل صنع أهدى إلى جماله وحبانى بهاؤه وكماله
من رآنى يظننى كألدى تخطب الإبريق تبغى أن تناله
وتبدأ الأربعة اليسرى بهذا البيت :

لست وحدى قد أطلع الروض منى عجباً لم تر العيون مثاله

ونقش تحت الأبيات المشار إليها ما يأتي :

« عز لمولانا السلطان أبي عبد الله بن مولانا السلطان أبو الحجاج » .

ونقشت حول النافذتين اللتين بالرواق ، قصيدة من اثني عشر بيتاً ، تبدأ من النافذة اليمنى وهذا مطلعها :

وجاد بها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب في الأفق الأهلا

ونقش في العقد الأعلى للنافذة الأمامية بالكوفية ما يأتي : « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله ، أيد الله أمره وأدام سعده » وغيرها من الأدعية المماثلة . وتدل هذه النقوش على أن هذه المنظرة قد أنشئت في أواخر القرن الرابع عشر في عصر السلطان محمد الغني بالله ، (١٣٥٤ - ١٣٩١ م) .

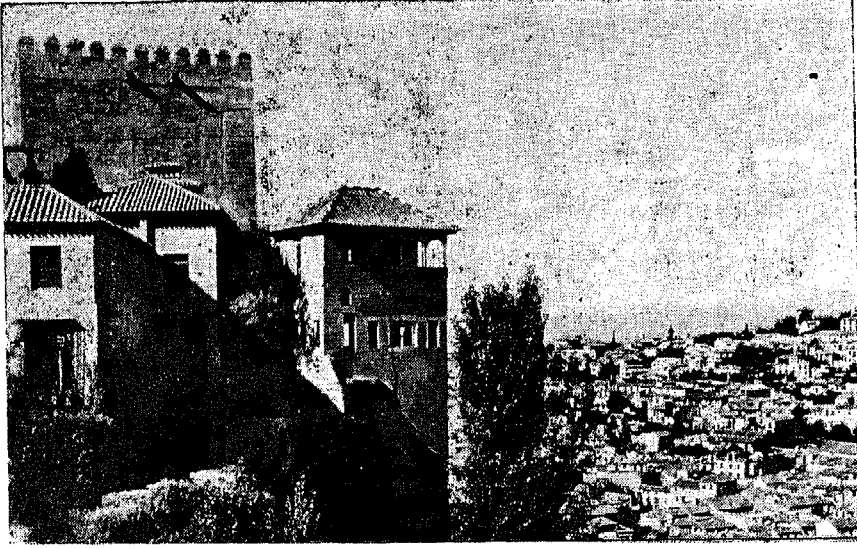
ونقش على صحن نافورة فناء اللندراخا قصيدة من تسعة عشر بيت هذا مطلعها :

أنا حقاً فلك الماء بدا للأنام ظاهراً لم يحجب
لحة عظيمة ساحلها من بديع المرمر المنتخب

ومن المعروف أن فناء اللندراخا ، قد أنشئ أيام الإمبراطور شارلكان ، وأن صحن النافورة فقط ، هو الذي يرجع إلى صنع أندلسي .

متزين الملكة

وهناك رواق بين قاعة الأختين وبين منظرة اللندراخا ، به باب يفضى إلى ساحة مستطيلة ، لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية ، ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شارلكان . وفي هذه الساحة بابان صغيران ، يفضى كلاهما إلى الطبقة العليا ، التي تقع فوق جناح الحمامات السفلى . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى « متزين الملكة » "Peinador de le Reina" ، وهو عبارة عن جناح علوى صغير ، يقع في نهاية الطرف الشمالي للحمراء ، تحت البرج المسمى برج « المتزين » "Torre de Peinador" ، وهو برج يرجع إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج . ويحتوى متزين الملكة على وهو صغير منخفض السقف . وقد أنشئ في القرن



الحمراء . منظره الملكة و برج قمارش ، وفي أسفل حى البيازين

السادس عشر ، أعنى بعد سقوط غرناطة بعصر : ورسمت على جدرانها صور وزخارف نصرانية ، من ريشة بعض أكابر الفنانين الإسبان في هذا العصر . وتطل شرفة المتزين على مدينة غرناطة وعلى مرجها ، ويبدو منظر المدينة من هذا الارتفاع الشاهق ساحراً رائعاً .

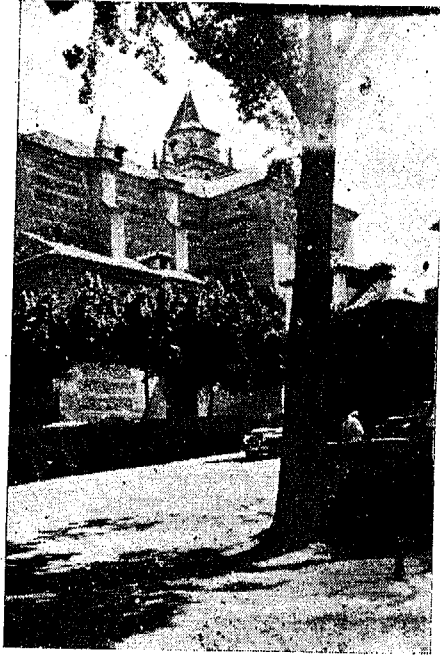
ومما هو جدير بالذكر ، أن الجناح المجاور لساحة الإمبراطور شارل كان من الجنوب ، والذي يقع فوق جناح الحمامات ، وهو مكون من عدة غرف ، يحمل لوحة رخامية تذكارية ، تفيد أنه كان مقاماً للكاتب والمؤرخ الأمريكى واشنطن إيرفنج وذلك في سنة ١٨٢٩ . وقد اشهر إيرفنج بكتابه « فتح غرناطة » و « قصص الحمراء » ، وترجم كلاهما إلى الإسبانية (١) .

الزواية والروضة

وقد زرت في بعض جولاتي بقصر الحمراء ، برفقة الأستاذ سبستيان لومبريرو ، وكيل متحف الحمراء ، ناحية صخرية مهجورة من القصر تقع في غربيه ، ولانفتح للزائرين العاديين ، وهي تم بآثارها عن أنها كانت زاوية أو

Conquest of Granada, The Alhambra Tales. (١)

مصلى ، ففيها مكان مضاءة ومجاريها ، وقاعدة مثذنة صغيرة فيما يظهر . والظاهر أن هذا الجناح ، المحتوى على زاوية ومصلى صغير ، كان مخصصاً لقراء الحضرة ، أو مخصصاً لصلاة الحشم ، لأنه يلي القصر مباشرة .
وزرت خرائب « الروضة » أو مدفن ملوك بني نصر ، ملوك غرناطة ، وهي واقعة خارج القصر ، في جنوب شرقي فناء السباع ، وعلى مقربة من كنيسة



الحمراء . كنيسة سانتا ماريا وهي مكان مسجد الحمراء

سانتا ماريا ، التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء ، ورأيت بها آثار القبور السلطانية ، في ثلاثة مواضع ، كل منها يحتوى على عدة لحود . وذكر لي الأستاذ لومبريرو أن الحفريات في هذه المنطقة ، أسفرت عن العثور على هيكل عظمي واحد رد إلى مكانه .
والظاهر أن السر في عدم العثور على رفات ملوك بني نصر . يرجع كما يقال ، إلى أن أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس ، حمل عند تسليم غرناطة ، فيما حمل من المتاع ، بقايا آبائه وأجداده ، لتدفن في منطقة البشرات ، التي تقرر انتقاله إليها ، ولا يعلم إذا كان بعد ذلك قد حملها معه إلى فاس ، حينما غادر إسبانيا نهائياً إلى المغرب ، أم أنها قد بقيت حيث ووريت في أرض البشرات . وقد وجدت في الروضة عدة شواهد رخامية لقبور ملوك غرناطة . ولكنها ضاعت جميعاً . ويورد لنا ابن الخطيب في كتابه « الإحاطة » ، نصوص النعي المنقوش على بعض منها ، وقد كتب معظمها بأسلوب بليغ مؤثر فيفيض توجعاً وأسى (١) .

(١) راجع كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » ج ١ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٠١ و ٥٤٩ و ٥٦٢ ، وج ٢ ص ٦٦ حيث يورد نصوص هذه النقوش . وراجع أيضاً الأستاذ ليث بروثسال Inscriptions Arabes d'Espagne ص ١٤٥ - ١٥٣ حيث ينقل هذه النصوص .

المسجد والكنيسة

وكان مسجد الحمراء يقع في وسط الهضبة ، جنوبي الروضة ، في نفس المكان الذي تحتله اليوم كنيسة ساننا ماريا . وقد أمر بإنشائه السلطان محمد الخلع ، المعروف بمحمد الثالث ملك غرناطة (سنة ١٣٠٢ - ١٣٠٩ م) ، أنشأه على أبداع طراز ، وزوده بالعمد والزخارف والثريات الفخمة ، فكان على صغر مساحته ، من أفخم مساجد غرناطة (١) .

ولما احتل الإسبان غرناطة ، تركوا المسجد على حاله عسراً ، بعد أن أقاموا فيه هيكلًا واستعملوه كنيسة ، ثم هدم في سنة ١٥٧٦ ، في عصر فيليب الثاني ولد الإمبراطور شارلكان ، وأقيمت مكانه الكنيسة التي سميت باسم « كنيسة سانناماريا » . وقد بنيت على شكل صليب لاتيني . وهي ذات برج شاهق يعلو كل صروح الحمراء . ولم يبق من آثار مسجد الحمراء القديم ، سوى مصباح برونزي بديع الزخرف ، يحفظ الآن بمتحف مدريد الوطني .

نقوش الأبراج

وقد سبق أن أشرنا إلى ما بقي من أبراج قصبة الحمراء . ونزيد هنا أن البرج الذي يسمى اليوم ببرج الأسيرة Torre de la Cautiva ، توجد به نقوش وأبيات شعرية كثيرة ، تشيد بأهمية هذا البرج وحصانته ، وتدل في نفس الوقت على أن الذي أنشأه هو السلطان يوسف أبو الحجاج .

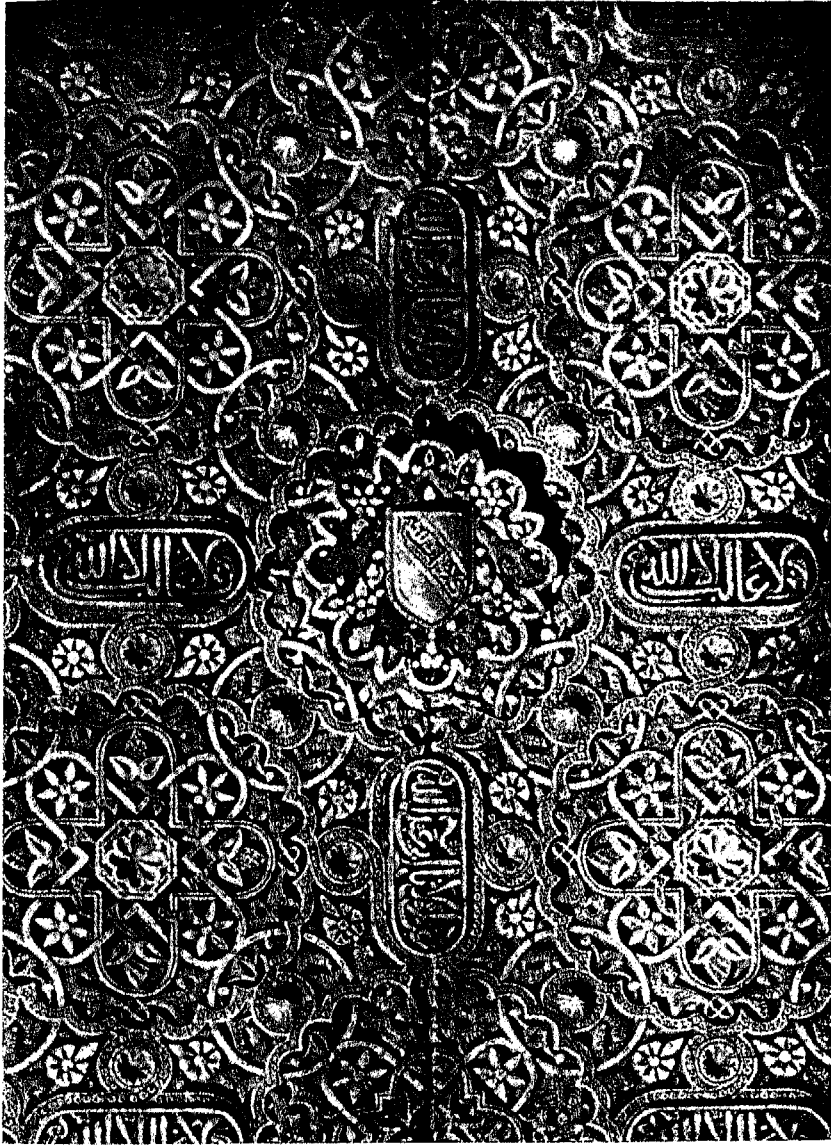
وكذلك يوجد في البرج الذي يليه من ناحية الشرق ، وهو برج الأميرات T. de las Infantas ، نقوش بالدعاء « للسلطان أبي عبد الله المستغنى بالله » وهو على الأغلب السلطان محمد الغني بالله .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم الأسماء التي تطلق على أبراج القصبه ، كمعظم الأسماء التي تطلق على أمهات الحمراء وأفنديتها ، هي من ابتكار الإسبان ، ولا يطابق منها الأسماء الأصلية سوى القليل .

(١) أشار ابن الخطيب إلى إنشاء هذا المسجد في المحفة البدرية ص ٥٠ ، وفي الإحاطة ج ١



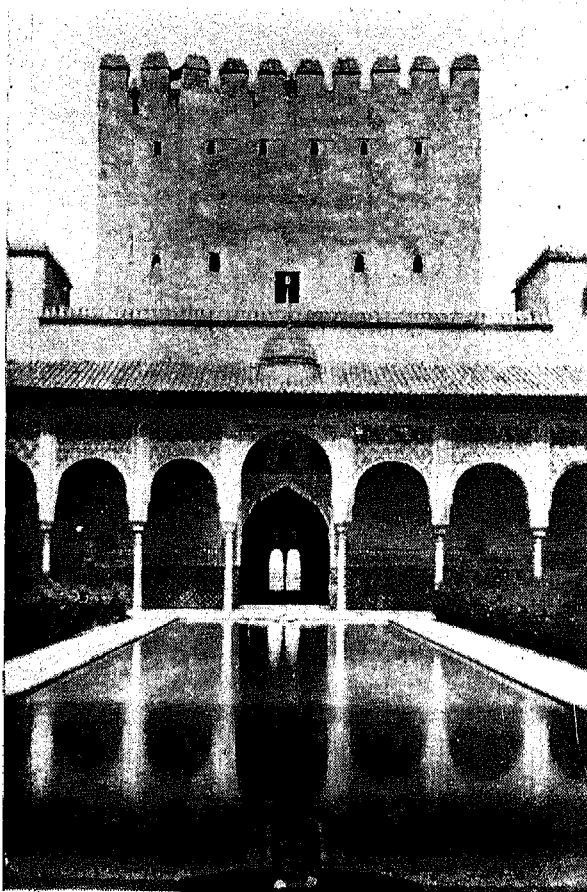
أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة المحفوظة بمتحف «دار الرمالية» Casa de los Tiros بقرنباطة



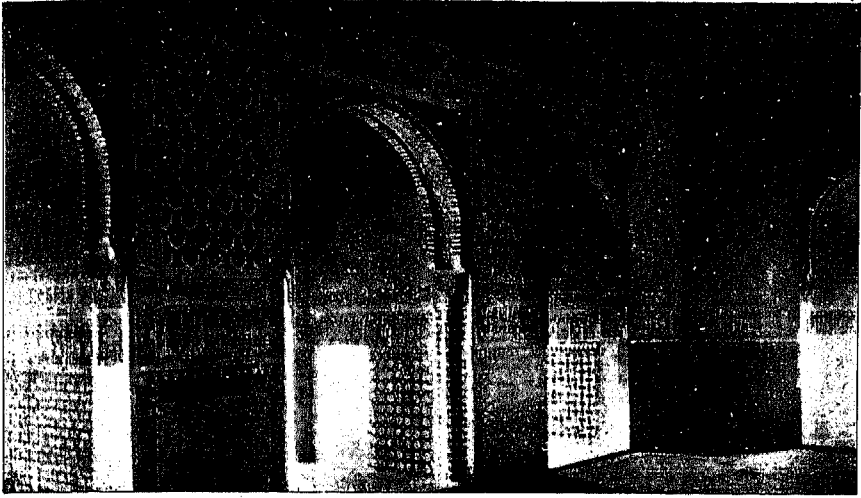
الحمراء . تفاصيل من زخارف بهو السفراء (بهو قمارش)



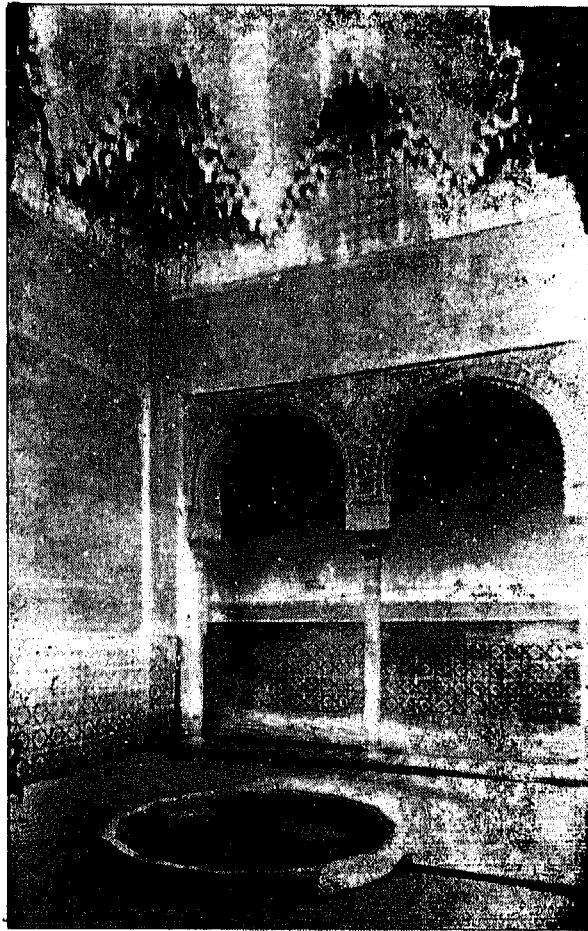
الحمراء . منظر عام لفناء الأسود وناפורته



الحمراء . هو
الريحان (هو
البركة) و برج
قمارش



الحمراء . مدخل بهو السفراء أو بهو قمارش



الحمراء .
بهو ذي سراج

قصر الامبراطور شارلكان

لقد أصيب تراث الأندلس الأثرى ، على يد الإمبراطور كارلوس الخامس أو شارلكان بمحن حمة ، فهو الذى جى على جامع قرطبة بتصريحه بإقامة الهيكل الكبير ، الذى أصاب الجامع بكثير من المسخ والتشويه ، وهو الذى هدم جزءاً كبيراً من قصر الحمراء ليفسح مكاناً لقصره ، وأنشأ فى الحمراء بعض الأبنية الدخيلة حسبها فصلنا فيما تقدم .

وهدم شارلكان ، وفقاً لأرجح الفروض ، الجزء الجنوبى الشرقى من قصر الحمراء ، وهو الذى كان يلى فناء البركة ، ويستعمل حسبها يرى كثير من الباحثين مقاماً شتوياً للملوك غرناطة ، وذلك لكى يقيم مكانه قصرأ جديداً ، وهو الذى ما زال يقوم حتى اليوم بجوار قصر الحمراء .

وقد أنشئ قصر شارلكان فى سنة ١٥٢٧ ، وبنى على الطراز الرومانى ، فوق مربع يبلغ ضلعه ثلاثة وستين متراً ، وبه من الداخلى ساحة كبيرة مستديرة ، تطل عليها أروقة القصر العليا فوق دائرة من العمد ، وهو يبدو على العموم فى شكل المسرح الرومانى القديم . وقد زينت واجهاته برسوم رومانية ويونانية .

وقد حجب قصر شارلكان واجهة الحمراء الجنوبية الغربية ، وهو اليوم فى حالة شبه خربة . وفى بعض أمهاته العليا توجد « محفوظات الحمراء » .

وكان مثل شارلكان فى التجنى على صرح الحمراء ، حافزاً للملك فيليب الخامس (١٧٠١ - ١٧٤٦) ، على القيام بحملة تخريب وتشويه جديدة لهذا الصرح الإسلامى الفريد ، فعمل على مسخ طرازه العربى ، واستبدل الزخارف العربية فى معظم الغرف بزخارف إيطالية ، وأتم تشويهه بإقامة حواجز سدت المنافذ والطرق بين مختلف أقسامه ، وأفقده كثيراً من جماله وحسن نظامه .

وفضلاً عن هذا التجنى المنظم على قصر الحمراء ، فإن الحكومة الإسبانية قد تركته عصرأ فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه أو ترميمه فى البداية ، سوى مرة واحدة فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق ، تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب على الحمراء مظاهر الخراب ،

ويسودها النسيان والوحشة . وفي سنة ١٨٠٢ - أيام الغزو النابوليوني لإسبانيا - نسف الفرنسيون بعض أبراجها ، ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . ولم تفق الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، إلا في أواسط القرن التاسع عشر ، حيث عنيت بإصلاح الحمراء وترميمها . واستمرت أعمال الترميم والإصلاح زهاء نصف قرن ، أولاً تحت إشراف المستشرق والعلامة الأثرى رافاييل كونتريراس ، ثم بعض الأثرين الآخرين . وتبدو الحمراء اليوم في ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة في معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء النقل في مواطن كثيرة .

وقد أثارت هذه السياسة العاشمة ، نحو تراث الأندلس الأثرى سخط العلماء الإسبان أنفسهم ، ونشر العلامة الأثرى الأستاذ جومث مورينو الكبير في سنة ١٨٧٤ ، كتاباً عنوانه « الآثار والصروح الفنية التي فقدتها غرناطة في قرن » (١) ذكر فيه عدداً كبيراً من الصروح والآثار الغرناطية الفنية ، التي هدمت أو شوهت ، بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة . وأشار من بعده كارديناس في أوائل هذا القرن في بعض بحوثه ، إلى أبنية موريسكية كثيرة ، هدمت في حى البيازين وغيره من الأحياء الغرناطية ، وإلى أنه قد اكتشف تحت هذه الأبنية ، كثير من القبور الإسلامية ، والأواني الأندلسية واللوحات الخشبية التي تحمل نقوشاً عربية ، ونوه بما بلغت سياسة الهدم والإنلاف للصروح الأثرية من حدود مروعة (٢) .

ولكن الحمراء مازالت ، بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهي اليوم علم على غرناطة ، تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة في سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ، ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، وليقبضوا لحظات في تأمل صرحها الرائع .

Gomez Moreno : Monumentos y Obras de Arte que ha perdido (١)

Granada en lo que va de Siglo (Madrid 1874).

Antonio Almagro Cardenas : Los Monumentos Granadinos (1911) (٢)

قصر جنّة العريف

Generalife

في ركن منعزل ، وفوق ربوة مستقلة عالية ، تقع في شمال شرقي قصبّة الحمراء ، يقوم صرح أندلسي آخر ، هو قصر جنّة العريف الذي يعرفه الإسبان باسم "Generalife"

وتصل إلى قصر جنّة العريف من طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار الباسقة ، ثم تجوز إلى أخرى تظللها أشجار السرو المتلاصقة ، وتقطع في الطريقين من الحمراء إلى قصر جنّة العريف زهاء ستمائة متر .

ويشرف قصر جنّة العريف من ربوته العالية ، على صروح قصبّة الحمراء وتبدو من ورائه آكام جبال سيرا نفادار الشاهقة ظليّة كالغمام . وهو عبارة عن صرح أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى ، بما أنشأه الملوك الإسبان فوقها من أبنية دخيلة . وتجاوز إليه من مدخل بسيط متواضع . وقد نقشت سورة الفتح ، على لوحة خشبية كبيرة ، تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل .

ويفضى هذا المدخل إلى ساحة فسيحة ، يبلغ طولها خمسين متراً ، وعرضها ثلاثة عشر ، وعلى جانبيها رواقان ضيقان طويلان ، وفي وسطها بركة ماء ، وفي جميع جوانبها نوافير رشيقة ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة . وفي صدر هذه الساحة ، مدخل ذو ثلاثة عقود عربية جميلة الزخرف ، وقد نقشت في مربعاتها القصيدة الآتية :

قصر بديع الحسن والإحسان	لاحت عليه جلالة السلطان
راقت محاسنه وأشرق نوره	وهمت سحائب جوده الهتان
رقمت يد الإبداع في أرجائه	وشيا كمثل أزاهر البستان
فكأن مجلسه العروس تبرجت	عند الزفاف بحسبها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر أن	نال اعتناء خليفة الرحمن
خير الملوك أبو الوليد المنتقى	من نخبة الأملاك من قحطان

المقتدى بالطاهرين جدوده أنصار خير الخلق من عدنان
لحقته منه عناية قد جددت منه جمال مصانع ومبان
في عام نصر الدين والفتح الذي هو بالحقيقة آية الإيمان
لازال معنواً بسعد خالد في نور إرشاد وظل أمان
كما نقشت آية الكرسي في الجزء الأعلى من هذا العقد .

ويبدو من نص هذه القصيدة ، أن قصر جنة العريف قد جدد وزين على
يد السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة ، الذي حكم من سنة ١٣١٤ إلى
سنة ١٣٢٥ م . ومعنى ذلك أن القصر قد أنشئ في تاريخ سابق . والمرجح أنه
أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر .

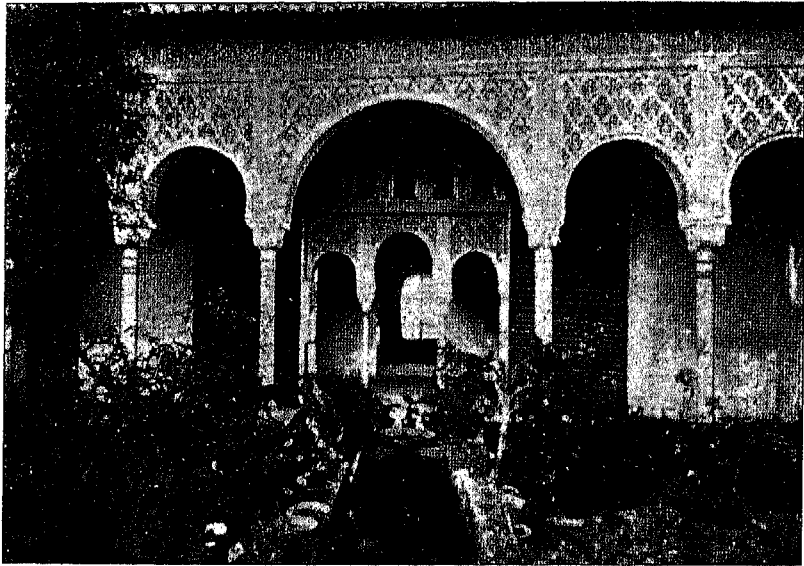
ويفضى هذا المدخل إلى بهو كبير ، يماثل البهو الذي يقع بجوار المدخل .
وتوجد ثمة نقوش عديدة متفرقة ، فوق أعمدة العقود ، وفي عقود النوافذ ،
وفوق الجدران ، وفي دوائر صغيرة منها :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله » « ولا غالب إلا الله »
« العز القائم الملك الدائم لله » « الغبطة المتصلة »
« الحمد لله على نعمة الإسلام » « الملك لله وحده »

وهذه الطبقة السفلى من قصر جنة العريف ، تكون وحدها الصرح الأندلسي .
ولكن الملكة إيسابيلا الكاثوليكية ، قامت عقب افتتاح غرناطة ، بإنشاء طبقة عليا
فوق البناء العربي ، تتكون أيضاً من رواقين طويلين ، ومن جناحين متقابلين ،
ها أسقف مضلعة . وكان الجناح الشمالي ، الذي يقع فوق بهو الصدر ، يضم من قبل
متحفاً فيه عدة صور تاريخية لبعض ملوك قشتالة والملكين الكاثوليكين ، وصورة
يقال إنها صورة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وأخرى لزعيم آل بنيغش
Los Venegas ، وهي الأسرة الأندلسية التي تنصرت عقب سقوط غرناطة ،
وسكنت قصر جنة العريف حيناً . وقد استمر هذا المتحف قائماً حتى سنة ١٩٢١ ،
ونقلت بعض محتوياته إلى متحف آخر في داخل غرناطة ، واحتفى البعض الآخر ،
وحملته الأسرة التي كانت تملك القصر معها إلى إيطاليا ، حسبما فصلنا ذلك في كلامنا
عن متاحف غرناطة .



الحمراء . واجهة قصر جنة العريف



البهو الداخلي بقصر جنة العريف



الحمرء . عقود البهو الداخلى بجنة العريف

ويغلب الخراب على الطابق الأعلى ، وقد نزع نوافذه ، ولكن الأندلسي ، ما زال بالرغم من هذا التشويه ، يبدو بطرازه الإسلامي ساحر ويزيد في هذا السحر ، ما يتخلل القصر وما يحيط به ، من الأشجار المزهرة البديعة .

وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو ، مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين في يومونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر التي تحيط به .

٢ - وادى آش

Guadix

تقع مدينة وادى آش التى تسمى بالإسبانية "Guadix" ، فى شمال شرقى غرناطة على قيد ستين كيلومتراً منها ، وفوق منحدر ربوة صخرية عالية ، تمتد من الناحية الأخرى ، على ضفة نهر « وادى آش » ، وهو فرع صغير من نهر الوادى الكبير ، وتظلها من ورأها الآكام العالية . ويصل بينها وبين غرناطة طريق جبلى وعر ، يبدأ منخفضاً أمام وادى آش فى بسيط أخضر ، وبين الحقول والحدائق النضرة ، وغابات الزيتون هنا وهناك . ثم يرتفع تدريجياً حتى تبدو غرناطة من ورأه فى بطن الوادى . وقلما يخترق هذا الطريق بسائط ، ولكن تطله التلال والمرتفعات الصخرية الوعرة ، ولا ترى فيه سوى بعض القرى الجبلية الفقراء . ولقد كان لوادى آش فى مأساة سقوط الأندلس الأخير شأن يذكر ، فقد كانت من بعد غرناطة ، مقر مملكة الأمير محمد بن سـعـد أخى السلطان أبى الحسن ، وعم أبى عبد الله ، وهو المعروف بمولاي « الزغل » . وكان الزغل يحكم منها جنوب الأندلس ؛ فلما توالى سقوط قواعده ، ولما سقطت مالقة ثغر الأندلس الأول ، ثم بسطة ، فى يد العدو ، اضطر مولاي الزغل ، بعد أن استنفد كل وسائل المقاومة الباسلة ، أن ينزل على حكم الظروف القاهرة ، وأن يسلم مدينة وادى آش إلى الإسبان ، وكان ذلك فى شهر صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير سنة ١٤٩٠ م) أعنى قبل تسليم غرناطة بعامين .

وما زالت وادى آش تبدو فى منعها القديمة ، فهى تقع من الشرق على نهر وادى آش ، ومن الغرب على صخرة منيعة عالية تشرف على وادىها الأخضر ، وتبدو من بعده جبال سيرا نقادا الشاهقة ، على قيد اثني عشر كيلومتراً منها ؛ وما زالت أبراج قلعتها القديمة المسماة « بالقصبة » "Alcazaba" ، تدلى بما كانت عليه من قوة وحصانة ، أيام الصراع الأخير بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة . ومظاهر وادى آش مزيج بين القديم والحديث ، وقسمها القديم هو الواقع فى السهل فى أسفل الربوة ، وأما قسمها الآخر الواقع فوق الربوة ، فيشمل معظم أحيائها الحديثة ، وفيه تقع الكتدرائية على حافة المرتفع مشرفة على السهل ، كما تقع

مبانيها الرسمية ، وشوارعها في هذا القسم حديثة فسيحة ، ويشقها شارع طويل واسع تظله الأشجار ، وبها متاجر وأسواق حسنة ، وتبدو خططها على وجه العموم في شكل صليب كبير ، يمتد طرفاه الشرقى والغربى بين النهر والسهل . وكان سكان المدينة في سنة ١٩٢٠ يبلغون أكثر من ستة عشر ألف نسمة ، وهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثين ألفاً ، وكانت أيام المسلمين تضم أضعاف هذا العدد . ووادى آش مدينة زراعية صناعية معاً ، ومحاصيلها القمح والذرة والخضر ، وبها من المعادن الحديد والنحاس ، ومن مصنوعاتها السكر والحمور والأبسطة . وهى من مراكز الثقافة الدينية في شرقى الأندلس ، إذ يوجد بها معهد دينى كبير "Seminario" ، وتصدر بها صحيفة يومية ، وصحف أخرى أسبوعية .

وأهم آثارها الأندلسية الباقية هى « القصبية » أو القلعة القديمة ، وهى تقع في غربها فوق الربوة ، بجوار معهدها الدينى ، الذى يتصل بناؤها بقنطرة خاصة . وهى عبارة عن بقايا قلعة أندلسية عالية ، بها برج كبير ، وبرجان صغيران في قبالتها ، يتصلان بسور ذى مشارف عربية ، كما يوجد برج رابع في زاوية منعزلة منها . وقد رمت أطلالها وزالت ألوانها القديمة بالطلاء الحديث ، وأقيم فوق البرج الكبير تمثال قديس ، ولا توجد بهذه الأطلال أية نقوش عربية ، والظاهر أنها اختفت تحت أعمال الترميم والطلاء .

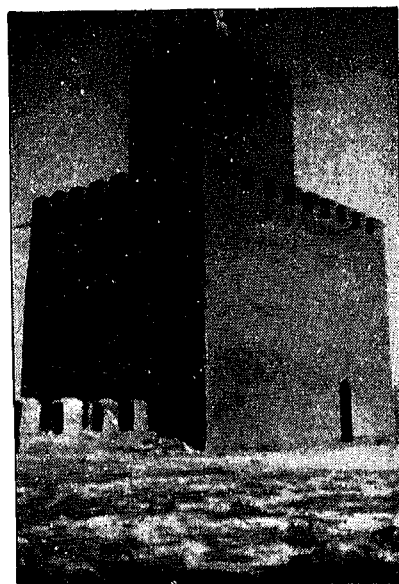
أما الكنيسة العظمى (الكندرائية) فتقع في وسط المدينة ، بين قسميها الأعلى والأسفل ، على حافة الربوة ، وتشرف على المرج الأخضر من عل ، وقد بنيت فوق موقع المسجد الجامع القديم ، ويرجع بناؤها الحالى إلى القرن السابع عشر ، وبرجها مربع متوسط الارتفاع ، يرى من السهل على بعد مسافة كبيرة ، وتبدو فيه ملامح من طراز منارة المسجد القديم . وفي أسفل الربوة ، وعلى مقربة من الكنيسة ، تقع أطلال قديمة يظن أنها بقايا برج أندلسى .

وموقع القصبية هو أعلى مكان في الربوة ، وتشرف أبراجها على المدينة كلها ، وكانت القلعة فيما يبدو أعلى بناء فيها أيام المسلمين .

وقد تجولت في أنحاء المدينة ، ولحقت مسحة ضئيلة من الطابع الأندلسى ، تبدو في بعض دروبها المتواضعة . وقيل إنه يوجد ثمة بها بعض منازل ما يزال داخلها على الطراز الأندلسى ، وبها بعض البقايا الأندلسية ، ولكنى لم أستطع أن أرى شيئاً منها .



وادي آش . أطلال بناء أندلسي



وادي آش . بعض أبراج القصبية الأندلسية



وادي آش .
الكنيسة العظمى

٣ - موكلين

Moclin

أتيح لي ، وأنا بمدينة غرناطة للمرة الثامنة (١) ، أن أزور منطقة الحصون الغرناطية القديمة ، التي اشتهرت أيام الدولة الإسلامية بمناعتها ، والتي لعبت دوراً كبيراً في المعركة الأخيرة ، التي انتهت بسقوط غرناطة ، وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس .

ومن أشهر حصون هذه المنطقة وآثارها الأندلسية الباقية حصن موكلين ، وهو يقع في منطقة جبلية وعرة ، على قيد اثنين وثلاثين كيلو متراً من شمال غربي غرناطة ، ويوصل إليه عن طريق بلدة بنوط Pinos-Puente ، التي تبعد عن غرناطة نحو عشرة كيلومترات ، وقد شاهدت في بلدة بنوط ، القنطرة الأندلسية القديمة ، وهي قائمة فوق نهر كوبياس الصغير ، وهي صغيرة ذات عقدتين قويتين من الحجر . واحترقت من بنوط إلى موكلين طريقاً جبلية صاعدة ، تحف بها الجبال الشاهقة أحياناً ، والوديان السحيقة أحياناً أخرى ، وكلما اقتربنا من موكلين ، كلما ازدادت المنطقة وحشة ووعورة ، وبدت آكام الجبال شاهقة مجللة بالثلوج .

ويقع حصن موكلين على ربوة هرمية عالية جداً ، في نهاية سلسلة من الجبال ، وتشرف من ارتفاعها الشاهق على سائر الوهاد والبساتن المجاورة ، وفي أسفل الهضبة توجد غابات الزيتون ، وترى أمامك نحو الشمال ، عن بعد ، قلعة محصب Alcála la Real ، على ربوتها العالية يظللها الغمام ، وترى إلى الجنوب آكام جبل الثلج Sierra Nevada ، تجللها الثلوج الكثيفة ، والمنطقة كلها عبارة عن هضاب وعرة ، تظللها الجبال الشاهقة ، والرقاع الخضراء بها قليل .

وفي أسفل الحصن تقع قرية موكلين ، وهي عبارة عن محلة صغيرة مستطيلة ، تمتد في سفح الربوة نحو ثمانمائة متر ، وعرضها نحو مائتين ، تحترقها شارع واحد طويل ، ولا يعدو سكانها ألف نفس ، وأمامها الوادي والهضبة .

الحصن : وتبدو أطلال الحصن رائعة من فوق الربوة العالية ، وهي عبارة

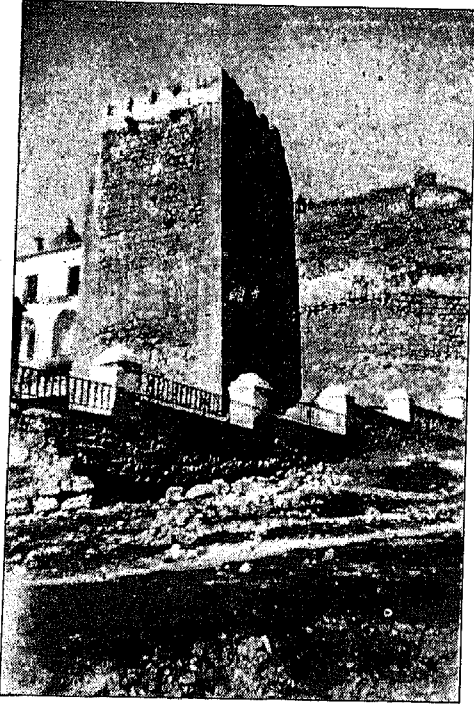
(١) كان ذلك في أواخر شهر يناير سنة ١٩٦٠ .



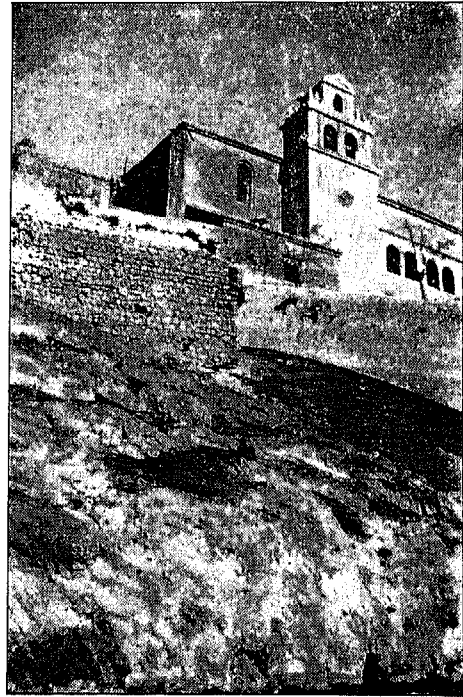
مكلين . جانب آخر من أطلال الحصن



مكلين . أطلال الحصن مشرفة على القرية



مكلين . أحد أبراج الحصن الكبرى



مكلين . الكنيسة القائمة فوق مشارف الحصن

عن مجموعة كبيرة من الأطلال المفردة من الأسوار والأبراج والبوالمك ، ترتفع عن مستوى الهضبة نحو أربعائة متر ، وتقع متدرجة على منحدر صخري وعمر ، وهى طبقتان ، تعلو أحدهما الأخرى ، وعلى منحدر الطبقة السفلى تقوم كنيسة هى كنيسة القرية الوحيدة . وهى كنيسة صغيرة جميلة ذات ثلاثة عقود متقابلة ، وهى تقع فى صدر الحصن ، وتبدو واجهتها البيضاء من بعد ، وقد علت من القس الشاب المتولى أمرها ، أنها بنيت على هذا الارتفاع وفوق هذا المنحدر ، لكى تحتل موقع مسجد القصبة القديم . والواقع ، وهوما يتصل بوجود الكنيسة فى هذا الموقع القفر الوعر ، أن فناء الطبقة العليا من الحصن ، وهى تقع على ارتفاع شاهق ، قد حولت إلى مقبرة للقرية ، وأنشئت بها قبور ومصلات عديدة . وتطل أطلال الحصن من الناحية الأخرى على منحدر سحيق يصل إلى الوادى . وقد بقى من أبراجه نصنى برجين فى الطبقة السفلى ، وتدل بقايا الأبراج المتناثرة ، على أنه كان يضم اثنى عشر برجاً ، وقد بقيت من الأسوار السفلى قطع عديدة ، ومنها فى الناحية الأخرى قطعة كبيرة ، مازالت تحتفظ بسارياتها .

وقد لعب حصن مكلمن فى حرب غرناطة الأخيرة دوراً بارزاً ، وكان من أمنع خطوط الدفاع الشمالية الغرناطية . وفى شهر شعبان سنة ٨٩٠ هـ (يوليه سنة ١٤٨٥ م) ، نشبت تحت أسواره معركة شديدة بين المسلمين بقيادة الأمير محمد ابن سعد المعروف بالزغل ، وكان يومئذ ملك غرناطة ، وبين جيش مهاجم من القشتاليين بقيادة الكونت دى قبره ، فهزم القشتاليون وردوا بخسارة فادحة . وفى شهر جمادى الثانية من العام التالى ، ٨٩١ هـ ، سار فرديناند (فرناندو) الخامس ملك قشتالة إلى حصن إليورة فاستولى عليه ، ثم قصد إلى حصن مكلمن ، وضرب حوله الحصار ، ورماه بالأنفاط بشدة (والأنفاط هى المدافع البدائية) ، فثلمت أسواره ، وهلعت أبراجه ، واضطر المدافعون عنه من المسلمين إلى تسليمه بالأمان ، والخروج بأسلحتهم وأمتعتهم إلى غرناطة (يوليه سنة ١٤٨٦ م) (١) وما زالت آثار ثلم الأسوار والأبراج بفعل الأنفاط ، ترى حتى اليوم ماثلة فى أطلال حصن مكلمن .

(١) راجع كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ص ٢٠ . وكتابى « نهاية الأندلس » الطبعة الثانية ص ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٦ .

٤ - جِيَان

Jaén

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
(أبو الطيب الرندى فى مرثية الأندلس)

تقع مدينة جيان فى قلب الأندلس المسلمة القديمة ، فى بقعة لبثت أندلسية
دهراً ، وتقع فى جنوبى البسيط الممتد من ضفة الوادى الكبير ، وتكثر فى شمالها ،
فيما بينها وبين النهر ، الرقاع الحصبة وغابات الزيتون ، وتحدها التلال العالية من
الجنوب الشرقى ومن الغرب ، حيث يقع حصنها الضخم فوق ربوة عالية ، تشرف
عليها . ومدينة جيان الحديثة هى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الإسم ، وهى
مدينة كبيرة يبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً من الأنفس ، وتقوم فوق رقعة مترامية ،
يقع قسمها القديم فى الجنوب ، فى ذيل المدينة الحديثة ، وتتوسطه الكندرائية ،
وهى تقوم كما هو معلوم فوق موقع المسجد الجامع القديم . وإلى جوار هذا الجزء
نفسه تقع الشوارع الضيقة الصاعدة متجهة نحو الحصن أو القصبية ، ويلى هذا
القسم أحياء المدينة الحديثة ، التى تحتل الوادى العميق الذى تحده التلال المتقدمة
الذكر ، وجيان من المدن الأندلسية القديمة التى مازالت تحتفظ بطابع خاص من
ملاحظها الأندلسية ، ويرتسم هذا الطابع بوضوح فى خططها وشوارعها ، وطرز
منازلها .

وقد كانت جيان أيام الدولة الإسلامية من أعظم قواعد الأندلس الوسطى .
وتشيد الرواية الإسلامية بأهميتها وعمرانها وحصانة قصبها (١) . وقد لعبت فى تاريخ
الأندلس أدواراً ملحوظة ، وكانت أيام الطوائف ، أحياناً من أعمال مملكة غرناطة ،
وآونة من أعمال مملكة ألمرية ، وأخرى من أعمال مملكة إشبيلية . ولما انهارت
الدولة الإسلامية فى الأندلس ، عقب انهيار سلطان الموحدين ، وقامت مملكة
غرناطة فى الجنوب تضم ما بقى من أنقاض الأندلس الكبرى ، كانت جيان من
القواعد التى دخلت فى حوزة المملكة الإسلامية الجديدة ، ولكنها لبثت هى

(١) راجع الروض المعطار ص ٧٠ و ٧١ .

وما حولها من البلاد هدفاً لهجمات النصارى المستمرة . واضطر محمد بن الأحمر سلطان غرناطة أخيراً أن ينزل عنها فيما نزل من البلاد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وذلك في معاهدة الصلح التي عقدت بينهما في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) . ودخل القشتاليون جيان ، واستولوا عليها في العام التالي - سنة ١٢٤٦ م - هي وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار ، وغيرها من بلاد هذه المنطقة . بيد أن جيان لبثت بعد ذلك عصراً ، باعتبارها مدينة من مدن الحدود بين مملكتي قشتالة وغرناطة ، وهدفاً لغزوات الجيوش الغرناطية ، وقد اقتحمها مراراً .

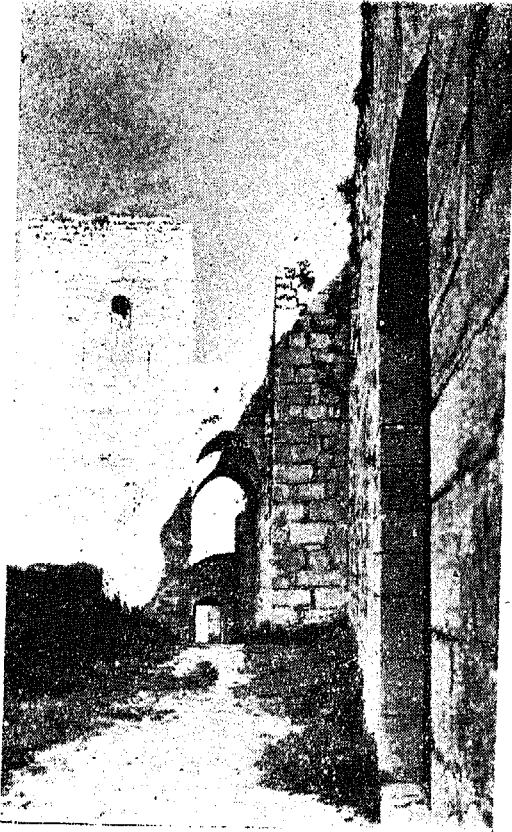
المعالم الأثرية

وأهم معالم جيان الأثرية ، هو بلا ريب الحصن أو القصبة الأندلسية ، وتشيد الرواية كما تقدم بذكر قصبة جيان وحصانها ، وموقع القصبة ذاته فوق الربوة العالية التي تشرف على المدينة ، وماتبقى من الأسوار والأبراج والأطلال الضخمة ، تؤيد هذه الحقيقة ، وتمتد هذه الأطلال فوق الربوة من الناحية الغربية محاذية لمعظم رقعة المدينة ، وتسمى باسمها الإسباني ، «حصن سانتا كاتالينا» *Castillo de Sta Catalina* ، وقد أوضحت لنا سبب هذه التسمية القديمة ، الفقرة الآتية التي نقشت بالإسبانية فوق لوحة ثبتت على يمين أحد العقود الداخلية للحصن ، وهذا نصها :

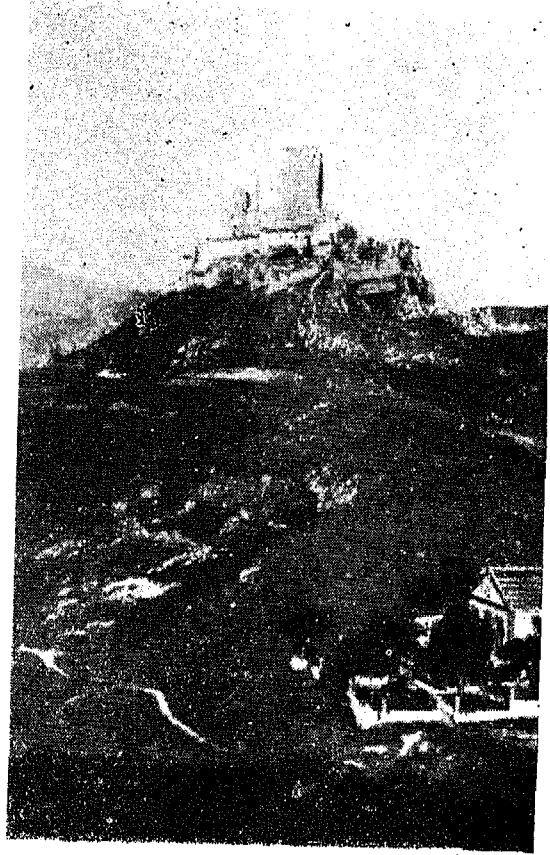
«Segun tradición el XXV de Noviembre de MCCXLVI, dia de Santa Catalina, Alahmar rey de Granada entregó este Castillo a Fernando III el Santo quedando desde este Dia proclamada la Santa Patrona de Jaén»

ومعناه « انه وفقاً للرواية المتواترة ، في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٢٤٦ ، وهو يوم القديسة كاتالينا ، سلم ابن الأحمر ملك غرناطة هذا الحصن إلى فرناندو الثالث المقدس ، وأوضحت من ذلك اليوم تعتبر القديسة حامية مدينة جيان » .

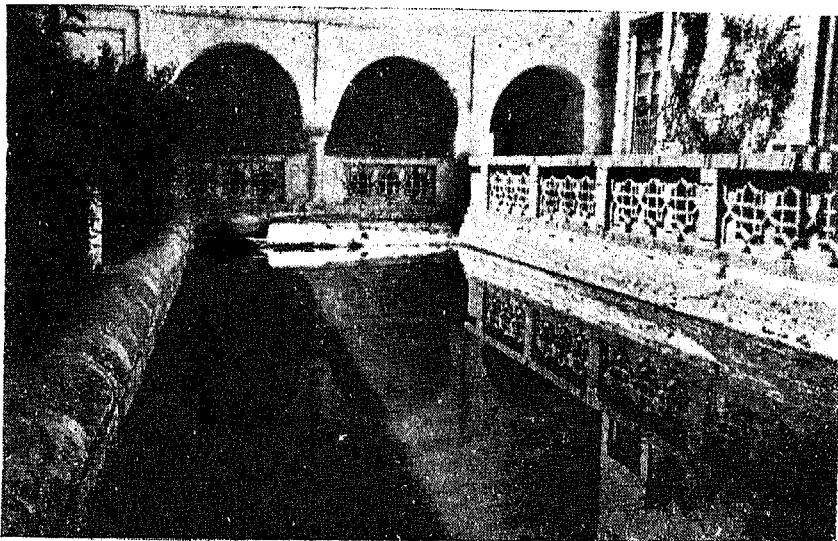
ويذكرنا موقع قصبة جيان ، وأطلالها الضخمة المترامية ، بأطلال القصبات الأندلسية الشهيرة في ألمرية ومالقة . وتشتمل هذه الأطلال على مجموعة كبيرة من الأبراج الضخمة ، والعقود المنبوعة ، بيد أن ما أدخل على القصبة الأندلسية من التغيير والإضافة على يد الملوك الإسبان ، قد أضاع الكثير من معالمها القديمة .



جيان . البرج الأعظم بالقصبة



جيان . أطلال القصبة الأندلسية المسماة الآن حصن سانثا كاتالينا



جيان .
الحمامات العربية

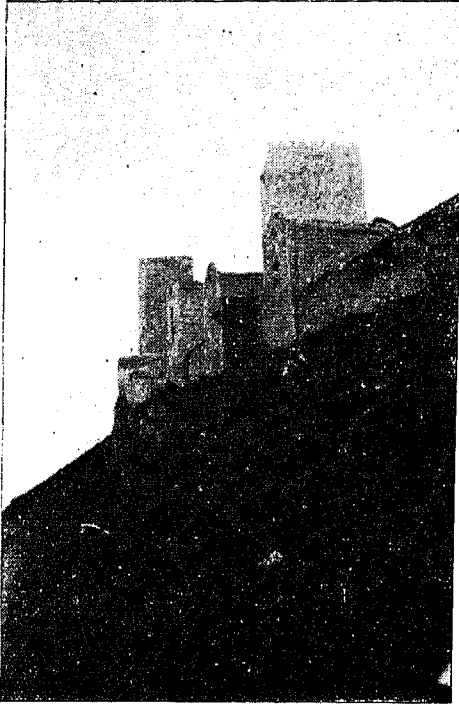
ويقع برج القصبية الأعظم وسط هذه الأطلال ، وهو مربع الشكل ، ويبلغ ضلعه في العرض نحو خمسة عشر متراً وارتفاعه نحو ثلاثين ، وفي أسفله مثلث من العقود الضخمة ، تستند إلى دعامة سميككة ، وتقوم فوق البرج قبة عظيمة ذات دائرتين متقاطعتين ، وفي كل جانب منه نافذة عظيمة ، وتعلوها قبة أخرى أقل ارتفاعاً ، ثم يلي ذلك السطح والمشارف ، وتبلغ المساحة التي تعلوها القبة نحو اثنتي عشر متراً في مثلها ، ويوجد وراء هذا البرج فناء شاسع به مجموعة من أطلال الأسوار ، وعقود وأبراج صغيرة ، وإلى شرقيه برج آخر أصغر منه ، يتصل به يمر خاص .

ويستند الحصن من الورا إلى صخرة منيعة من الأحجار الزرقاء الصلدة ، وينتهي عند الجنوب ببرج صغير ذي عقد ، وأمامه ساحة في أسفلها طابق من ثلاث غرف يبدو أنه كان يستعمل سجنًا .

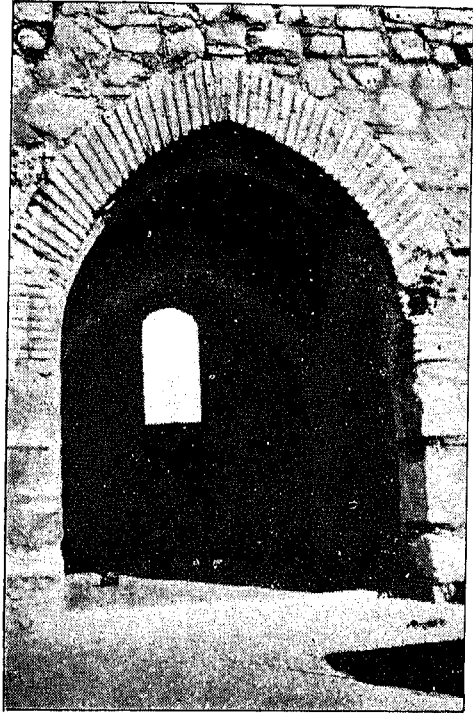
وهنا ، في هذه الساحة ، تقع العين على طلل أندلسي مؤثر ، هو بقايا مصلى عربية قديمة ، تعلوها قبة صغيرة ، ومدخلها عقد عربي ، وجوانبها الثلاثة ، ثلاثة عقود ، والظاهر أنها كانت مصلى خاصة لحاكم القصبية .
وفي نهاية الحصن من الجنوب تقوم سارية ثبت فوقها صليب كبير أبيض يطل على المدينة .

الكتدرائية : هي صرح ضخم ذو واجهة رائعة ، وتحتوي على برجين عظيمين متماثلين ، وهي تحتل موقع المسجد الجامع القديم . وكان فرناندو الثالث على أثر دخوله مدينة جيان في سنة ١٢٤٦ م ، قد حول الجامع في الحال إلى كنيسة ، ثم هدم بعد ذلك ، وأقيمت في مكانه الكنيسة الحالية ، وقد أقيمت على طراز عصر الأحياء ، وهي شاسعة من الداخل ، تقوم على صفتين عظيمين ، من العقود الضخمة العالية ، وقد زينت بتماثيل وزخارف فخمة ، وزودت بمجموعة ثمينة من الصور الدينية ، موزعة في حظائر هياكلها . وتقوم كتدرائية جيان في ميدان شاسع ، وأمامها شبكة من الدروب الضيقة ، وقيامها مكان المسجد الجامع يحدد موقع المدينة الأندلسية القديمة .

ويوجد إلى مقربة من الكتدرائية ، العقد المسمى « عقد سان لورنزو » وهو عقد يبلغ عمقه نحو عشرة أمتار ، وقد أحيط بسياج قوى من البناء ، وهو يمتاز



نجيان . جانب من
أبراج القصبية



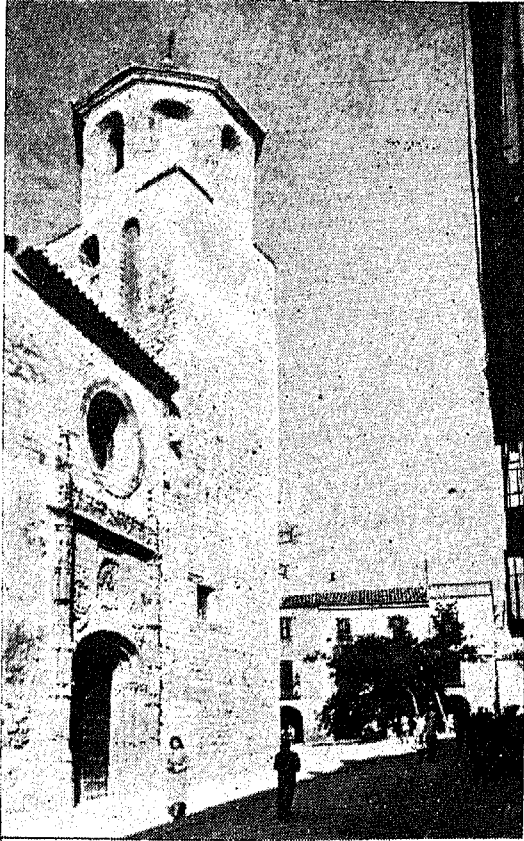
نجيان . المصلى العربى
داخل القصبية



نجيان . واجهة الكنيسة
العظمى (الكندرائية)

ممانته ومناعته ، وقيل لنا إنه يرجع إلى أصل اندلسي . وقيل أيضاً إنه مدجني الأصل والطرز . وإلى جانبه بناء يحتوي على قبر الملك فرناندو الرابع .

الحمامات العربية : وقد شاهدنا في القسم القديم من المدينة ، وهو الذي يتميز بدروبه الضيقة ، أثرين أحدهما أندلسي الأصل ، والثاني يتسم بمسحة أندلسية قوية . فأما الأول فهو



جيان . كنيسة سانتا مجدلينا وبرجها الموريسكي

« الحمامات العربية » Baños Arabes ، وهي تقع داخل

البناء المسمى «ملجأ العجزة» وهي عبارة عن قبو شاسع ذي عقود متعددة قائمة في

صفتين ، وفي بعض قباب هذه العقود ، نوافذ نجمية ، مما قد يدل بأنها كانت بالفعل

حمامات . بيد أنه يلوح لنا أن هذا الوصف إنما هو وصف خاطيء ، وأن هذه العقود إنما هي على الأرجح عقود

مصلى أو مسجد صغير . يوءيد ذلك أنه ما زالت تقوم في أسفلها حظيرة «الميضأة» .

وفي الرواية المتواترة أن هذا البناء الذي يحتوي على هذه

العقود هو بقية من بيوت الملوك الأندلسيين ، وأنه يرجع إلى سنة ١٥٠٥ م ، بيد أنه يبدو لنا من عقود ساحته ومن نوافذه ، أنه بناء مسيحي على الأرجح ، أو أنه قد

عدل إلى هذا الطراز .

وأما الأثر الثاني ، فهو كنيسة « سانتا مجدلينا » ، وهي أقدم كنائس جيان ، وهي كنيسة صغيرة ساذجة ، تقع في الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات

و هي كنيسة صغيرة ساذجة ، تقع في الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات

و هي كنيسة صغيرة ساذجة ، تقع في الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات

العربية ، وهي تقوم من الداخل على صفيين من عقود ثلاثة ، ويغلب عليها الطابع العربي الموريسكي ، وقد بنى برجها الخارجى على طراز المنارة الموحدية ، وهي ترجع إلى القرن الثالث عشر .

المعالم الأخرى : وهناك فى جيان كنيسة أنخريان ، أولها كنيسة «سان أدفونسو» ، وهي كنيسة صغيرة قديمة ، قد بنيت على الطراز القوطى ، وتمتاز بروائها وفخامة مظهرها ، ويقال إنها قد بنيت على موقع أحد المساجد القديمة .
والثانية هي كنيسة «سان أندريس» ، وهي داخل المدينة القديمة ، فى أحد شوارعها الضيقة ، وهي صغيرة ، وقد بنيت عقودها القليلة على طراز مسجدى :

٥ - بياسة وأبدة

Baeza-Úbeda

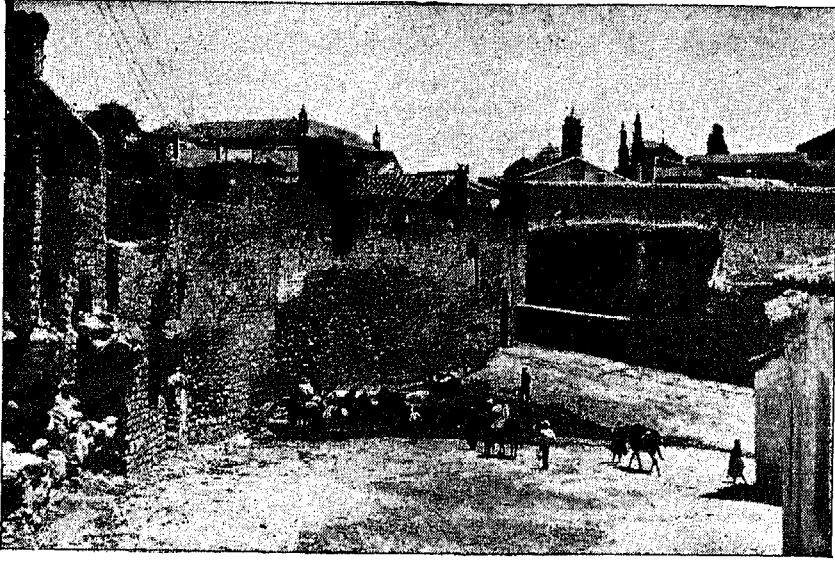
تضم ولاية جيان ، وإلى الشمال الشرقي من مدينة جيان ، مدينتين أندلسيين قديمتين هما بياسة وأبدة ، يبعدان عن جيان نحو خمسين كيلومتراً ، وتفصلهما مسافة يسيرة .

أولاهما مدينة بياسة ، والثانية مدينة أبدة ، وهي تبعد عن بياسة نحو عشرة كيلومترات .

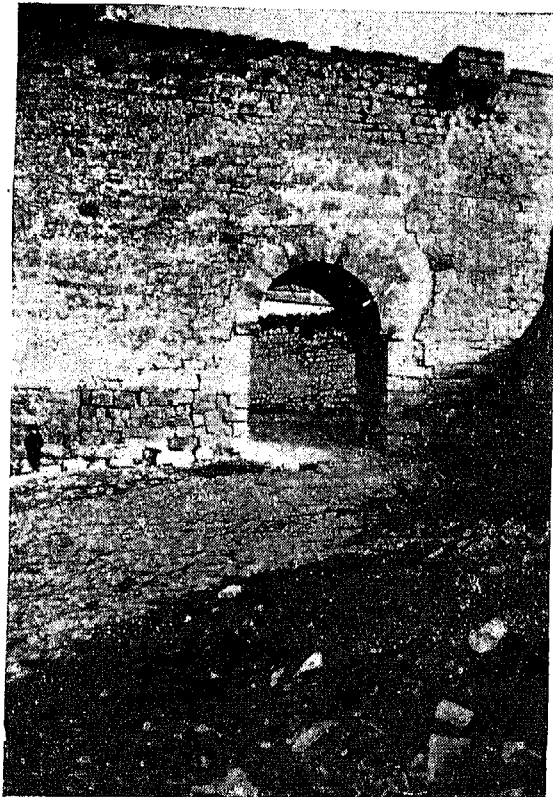
وهذه المنطقة التي تقع في وسطها المدينتان الأندلسيتان ، يغلب عليها السهل المنبسط ، وتمتد سهولها إلى مسافات بعيدة ، ثم تظللها التلال في النهاية ، ومعظم رقاعها خضراء منزرعة ، وقد كانت وقت اختراقنا لها في قلب الشتاء ، تغطيها طبقة خفيفة من الحليد ، ومما يجدر ذكره أن هذا القطاع ، يتصل من الشمال بولاية « لامنشا » التي تكثر في سهولها الكروم الأرضية ، فإذا ما تركت سهول « لامنشا » ونفذت إلى ولاية جيان ، تغيرت الطبيعة ، وظهرت الوهاد والهضاب ، وإن لم تكن وعرة ، ثم تبدأ غابات الزيتون ، وحقول القمح الخضراء ، وتمتد هذه الرقاع الخصبة إلى مسافات بعيدة .

وقد كانت بياسة من مدن هذا القطاع الذي يفصل بين الأندلس الشرقية والوسطى ، وسقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ١١٤٦ م ، ولكن المسلمين استردوها ، ثم تبادها الفريقان بعد ذلك غير مرة ، وأخيراً استولى عليها فرناندو الثالث في سنة ١٢٢٧ م . وضمت بذلك نهائياً إلى مملكة قشتالة ، وحاول المسلمون استردادها في سنة ١٣٢٤ م في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة ، وحاصروها حتى سلمت ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها ، وحاصروها مرة أخرى في سنة ١٤٠٧ م ، ولكن دون جدوى .

وتقع بياسة في بسيط من الأرض على الطريق الممتد من لينارس إلى أبدة ، وهي مدينة متوسطة ، مستطيلة الرقعة ، ذات شوارع طويلة ، وعليها مساحة حديثة ، ويبلغ سكانها نحو خمسة عشر ألف نفس ، وليست بها أية آثار أندلسية . وتقع مدينة أبدة على مسافة قليلة من بياسة ، وتفصلهما هضبة تختلف بين السهل



أبدة . أطلال القسبة الأندلسية وفي ناحيتها اليمنى باب غرناطة



أبدة . باب غرناطة
وهو بابها الباقي داخل
أسوار القسبة

والوعر ، وتظلها التلال من ناحية الشمال ، وتكثر بها غابات الزيتون ، وتقع بها في الطريق إلى أبدة أربع قرى هي « تريس أوليفاريس » Tres Olivares و « كارينا » Carera ، و « روس » Rus ، و « يدرا » La Yedra ، ويربط هذه المحلات حتى أبدة ترام كهربائي متواضع . وقبيل أبدة ، يزداد البسيط من الأرض وتكثر غابات الزيتون والرقاع الحصبة كثرة ظاهرة .

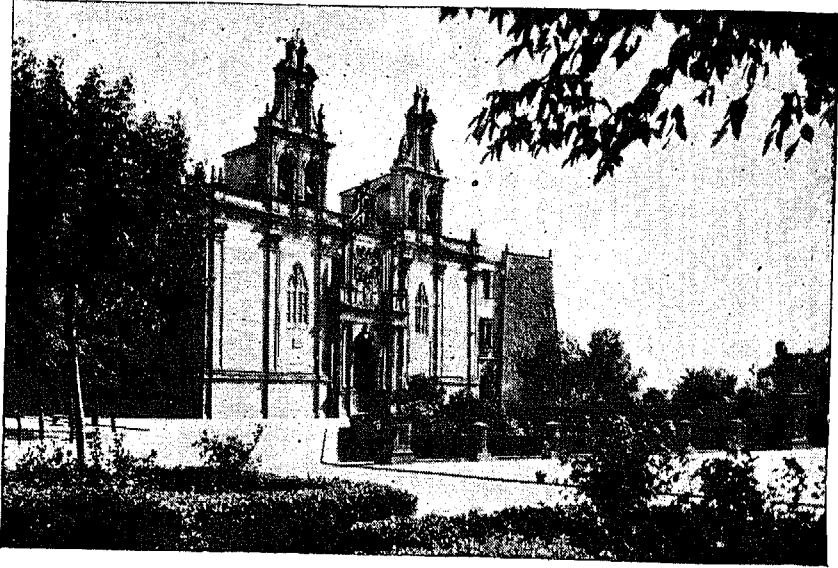
وقد سقطت أبدة في أيدي النصارى في عصر مبكر ، في سنة ١٢١٢ م ، عقب موقعة العقاب التي هزم فيها الموحدون هزيمة شديدة ، وتضعفت من بعدها قوى اسبانيا المسلمة ، وسادها الاضطراب والفوضى .

وأبدة مدينة كبيرة تحترقها شوارع طويلة واسعة ، تجتمع صاعدة إلى الربوة الوسطى التي يحتلها وسط المدينة ، ومنها تنساب الشوارع منخفضة إلى أطرافها ، وتجمع خططها ومبانيها بين القديم والحديث ، ويبلغ سكانها نحو أربعين ألف نفس . وتقع أبدة على ارتفاع كبير عن سطح البحر ، جنوبي سلسلة من الجبال الواقعة على ضفة الوادي الكبير ، وتهب عليها رياح باردة ، تجعلها في الشتاء « أبرد مدينة أندلسية » . وقد قاسينا فيها روعة بردها القارس عند زيارتنا لها في قلب الشتاء في منتصف شهر يناير .

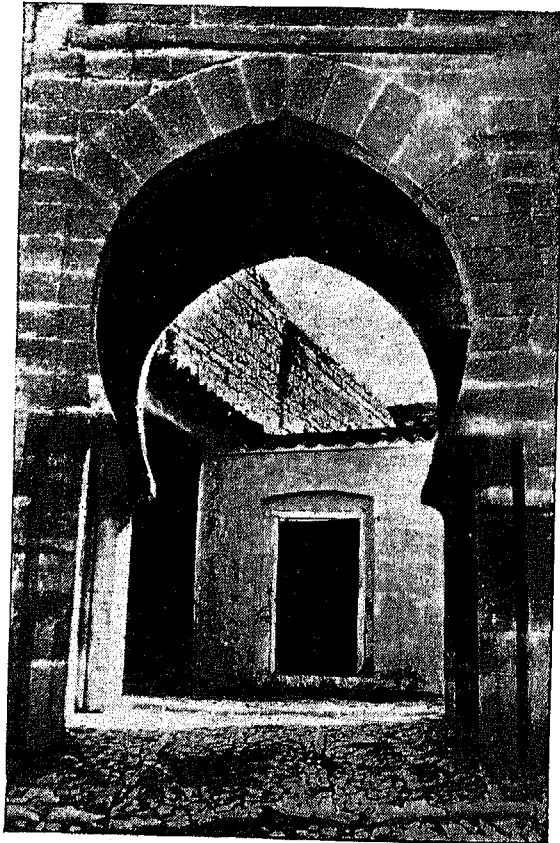
هذا ومازالت أبدة تضم بعض الآثار الأندلسية الهامة ، وهي تتمثل في بقية من أسوارها الأندلسية ، وفي عقدين ، أو باين من أبوابها القديمة .

الأسوار الأندلسية : وتقع بقايا الأسوار الأندلسية على مقربة من الكنيسة العظمى ، في نهاية المدينة ، وهي بقية كبيرة يبلغ طولها نحو ثمانين متراً ، وارتفاعها خمسة عشر أو أكثر في بعض أجزاءها ، وفي وسطها عضادة قوية عالية ، وفي طرفها الأيمن عقد يسمى « باب غرناطة » ، وقد كان هذا فيما يبدو هو نهاية المدينة الأندلسية ، ويقع من وراء هذه الأسوار عدد من الدروب الصخرية الصلدة . وأما باب غرناطة هذا فهو عقد عتيق منخفض نوعاً يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة وعمقه أربعة كذلك ، وإلى يمينه توجد بقية صغيرة أخرى من الأسوار .

عقد روسال Puerta del Rosal : على أن عقد روسال هو أهم آثار أبدة الأندلسية . ويقع هذا العقد في الناحية الأخرى من المدينة وهي الناحية الجنوبية ،



أيدة . كنيسة سانتا مارييا (الكنيسة العظمى)



أيدة . المقعد العربي
المسمى باب رسول

وتوجد في جانبيه ، وفوقه بقية أسوار أندلسية منيعة ، وهو عقد مزدوج ، بن مدخله وعقده الداخلي ، نحو مترين ونصف ، وهو يفضى إلى درب صاعد ضيق ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، واتساعه أربعة ، وفي منتصف كل من ناحيته ، عضادة تقوم على عمود رفيع ، وفي أعلى مدخله عقد معلق ، يبدو عليه القدم والمنعة ، ويقع هذا الطلل كله فوق مرتفع صغير يسمى « مرتفع الرحمة » ، Cuesta de la Merced ، ومن وراء العقد تقوم قطعة كبيرة من الأسوار عمل في أسفلها « هيكل » صغير .

وتمتد من يسار العقد ، بضعة أزقة صغيرة تنحدر إلى واد صغير يقع في شرقي المدينة ، وتقوم في طرفه الآخر ربوة عالية بنيت فوقها بعض المساكن . الكنيسة العظمى : وتسمى كنيسة سانتا ماريا ، وهي تقع في نهاية المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية ، فوق ربوة صغيرة ، وأمامها ميدان كبير ، وهي قديمة ثم جددت ، وفي داخلها يقوم دير قوطي ؛ ويبدو كذلك وفقا للقاعدة التاريخية الماثورة ، أنها تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، وإلى مقربة منها ، تقوم بقية الأسوار العربية التي سبق ذكرها . وفي أبدة كنائس تاريخية أخرى مثل كنيسة « سان بابلو » ، وعدة صروح أثرية نصرانية .

٦ - لورقة وبسطة

Lorca-Baza

تقع بين مرسية وغرناطة ثلاث مدن ، لها في تاريخ الأندلس شأن يذكر ، هي لورقة "Lorca" ، وبسطة "Baza" ووادي آش "Guadix" ، وهي تقع على مسافات متقاربة . فبين مرسية ولورقة نحو ستين كيلومتراً ، وبين لورقة وبسطة ثمانين ، وبين بسطة ووادي آش ستين ، وبينها وبين غرناطة مثل هذه المسافة .

فأما لورقة فهي مدينة كبيرة عتيمة الطراز ، تقع على سفح مرتفع تشرف عليه قلعة قديمة ، ربما كانت القصبية الأندلسية ، ويشقها من الوسط فرع لنهر شقورة ، وتحيط بها الجبال من الغرب ، وتتخللها الحدائق الباسقة والنخيل المثمر . وقسمها القديم تتخلله شوارع ودروب ضيقة ، تم عن طرازها الأندلسي . ولكن قسمها الحديث تشقه شوارع عريضة ، ومبانيها منخفضة وأغلبها ذات طابقين أو ثلاثة ، وسكانها خليط بين الحضر والريف . ويلها من الجنوب بسيط أخضر من الحدائق والمروج . ومما يلفت النظر عدا كثرة النخيل بها ، أن أشجار التين الشوكي المعروف بمصر ، تنموها وبالمنطقة المحيطة بها بكثرة ظاهرة .

وكانت لورقة في العهد الإسلامي قلعة مدينة مرسية ، فيما ينشب من حروب بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت في أيدي النصارى عقب سقوط مرسية في منتصف القرن الثالث عشر .

ولورقة اليوم بلد زراعي وبها صناعات بسيطة ، ويبلغ سكانها زهاء ثمانين ألف نفس .

وتلها مدينة بسطة التي تفصلها عن لورقة سهول شاسعة جرداء . وتقع بسطة في أعماق واد منخفض ، في منطقة جبال سيرا نقادا ، وهي من أعمال ولاية غرناطة ، وتشرف عليها من الشمال الغربي آكام عالية . وهي مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني ، وقد لبثت في أيدي المسلمين طوال الدولة الإسلامية ، ولم تسقط في أيدي النصارى إلا في سنة ١٤٨٩ م ، وبعد دفاع مجيد خلدته صحف العصر . وكانت أيام مملكة غرناطة من قواعدها الزاهرة ، وسكانها يباغون زهاء

خمسين ألف نفس . أما اليوم فإن بسطة مدينة صغيرة ، يشقها شارع طويل على ضفتيه المنازل البيضاء ذات الطابقين والثلاثة ، ولا يعدو سكانها عشرين ألف نسمة . وهي بلد زراعي وبها صناعة الخزف والكتان .

وما زال الطابع الأندلسي يبدو في مظاهر بسطة ، وكنيستها الرئيسية المسماة «سان ماسمو» "San Máximo" تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وكان هذا المسجد قد بنى على موقع كنيسة قوطية قديمة وكذلك كنيستها الأخرى المسماة Annonciación de Nra Señora كانت مسجداً حوله الملكان الكاثوليكيان إلى كنيسة :

وما زالت توجد في بسطة بقية من أسوارها الأندلسية القديمة ، وكذلك يوجد بها حمامان عريان ، أحدهما قديم ، والآخر - وهو ذو أربعة عقود - يرجع إلى العصر الغرناطي المتأخر .

وتوجد في خارج بسطة الحدائق الغناء مترامية الأطراف ، حتى تصل إلى الجبال . ومعظم بقاعها الخارجية يغص بأشجار الزيتون . ويخرج منها طريق طويل تحف به الأشجار الباسقة هو طريق غرناطة . وبسطة هي بداية ولاية غرناطة الحديثة .

٧ - لوشة

Loja

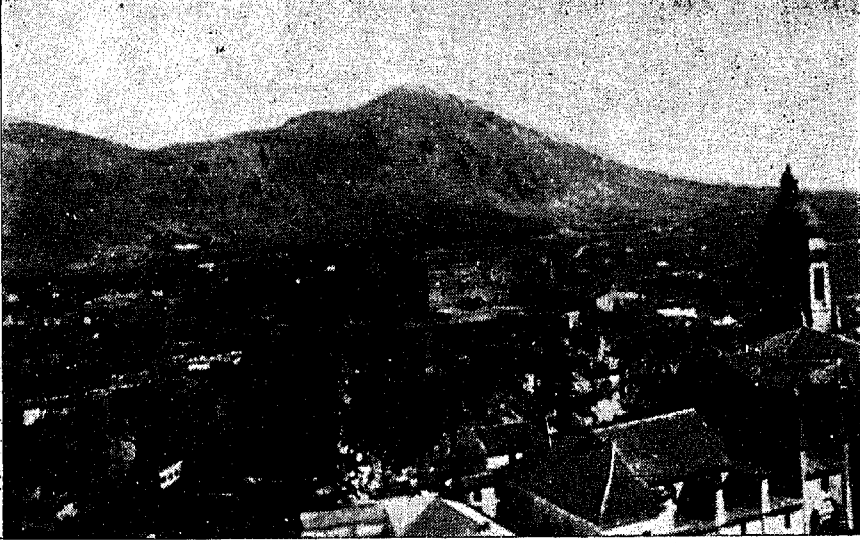
تقع لوشة غربى غرناطة ، على الطريق الممتد إليها من إشبيلية ، وعلى بعد خمسة وخمسين كيلومتراً منها . وهى مدينة متوسطة الحجم ، ذات شوارع كبيرة ، ويقوم بعض مبانيها فوق ربوة صخرية عالية ، ويقوم البعض الآخر فى منخفض الوادى ، ويحترقها نهر شنيل من الشمال ، ويقع على مقربة منها بعد قليل من الأرض الصخرية والتلال ، بسيط كبير من المزارع والحدائق الغناء ، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها ، وتليها أشجار الزيتون .

وبلغ سكان لوشة حسب إحصاء سنة ١٩٢٠ ، اثنى عشر ألفاً ، وهم يبلغون اليوم نحو عشرين ألفاً .

وقد سقطت لوشة فى أيدي الإسبان ، خلال حرب غرناطة الأخيرة فى شهر مايو سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) ، بعد دفاع مجيد اشتهر فى صحف ذلك العصر . وكان فرديناند الكاثوليكي قد هاجمها قبل ذلك بأربعة أعوام ، فى سنة ١٤٨٢ م ، وكانت تدافع عنها حامية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائد الباسل الشيخ على العطار ، فخرجت لمقاتلة النصارى وردتهم بنحسائر فادحة . وكانت أيام الدولة الإسلامية من المدن الزاهرة فى مملكة غرناطة ، وبها ولد مؤرخ الأندلس وسياسيها الكبير ، الوزير لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) .

وتنخذ خطط المدينة شكل صليب ، وتقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى فى وسطها ، ويحترقها من الوسط شارعها الكبير ، المسمى بعضه شارع الجنرال فرانكو ، وباقيه شارع الدوق بلنسية .

ولم يبق فى لوشة اليوم من آثارها الأندلسية القديمة ، سوى أطلال القصبية القديمة أو القلعة ، وما تزال تقوم فى باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً ، وهى عبارة عن ثلاثة عقود على صفين ، وليست بها أية نقوش أو كتابات ، وقد غدت طلالا دارساً يغمره الخراب والعفاء . ويسمى هذا المكان « بالجب » « Aljibe » وتقول الأسطورة المحلية ، إنه يحتوى على كنز للمسلمين . وإلى جانب هذه



لوشة . أطلال القصبية الأندلسية

الأطلال ، يقوم بناء خرب كبير ذو فناء أندلسي قديم ، يقطنه بعض السكان الفقراء ، ويحتوى على طابقين فى كل منهما عدة غرف وأبهاء ، والمظنون أنه من مرافق القصبية الأندلسية القديمة .

وتقوم الكنيسة الكبرى فى وسط المدينة ، على مقربة من أطلال القصبية ، وفوق موقع المسجد القديم ، وتسمى كنيسة «التجسيد» «Encarnación» . وكانت القصبية تضم القلعة والقصر والمسجد الجامع . وهى متوسطة الحجم ، وقد أحرقت أيام الحرب الأهلية ثم جددت ، ولها برج عال يشرف على سائر جنبات المدينة . وقد طفت بأرجاء لوشة ، والذكريات تغمر ذهنى ، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة ، تمتج أحيائها من طرفها إلى الربوة العالية ، وتمتجه أحيائها الوسطى إلى بطن الوادى ، وأحيائها الحانبية ضيقة الدروب والمسالك على الطريقة الأندلسية ، وشارعها الرئيسى طويل فسيح ، وبه كثير من المتاجر والمقاهى والفنادق .

ولوشة على وجه العموم مدينة راقية مثقفة ، وبها صناعات الزيوت والنشا والمنتجات الحديدية . وزرت كنيسة القديس جبريل «San Gabrael» ، وهى أيضاً

من أقدم كنائس لوشة ، وقد بنيت عقب سقوطها في أيدي النصارى بقليل ، فوق موقع أحد المساجد القديمة ، فألفتها في قلب أحد الأحياء الحانبية ، وتبدو جدرانها القديمة عتيقة جداً ، ولكن معظمها قد جدد شأن الكنيسة العظمى :

ورأيت في دار البلدية صورة زيتية كبيرة محدثة ، تمثل تسليم مدينة لوشة أيام حرب غرناطة ، إلى الملك فرديناند الكاثوليكي ، وزعيمها المسلم (وهو بطلها المدافع عنها الأمير محمد بن علي) راعع أمامه ، ومن ورائه بعض الخند المسلمين بعائمتهم ، بيد أن هذه المناظر ليست بالطبع إلا من وحي الخيال . كما رأيت بها صورتين كبيرتين قديمتين تمثلان المدينة ومبانيها في هذا العصر .

ولم أظفر بأية آثار أو معلومات ، تدل على موقع بيت ابن لوشة العظيم ووزيرها العبقري ابن الخطيب .

٨ - أرشدونة

Archidona

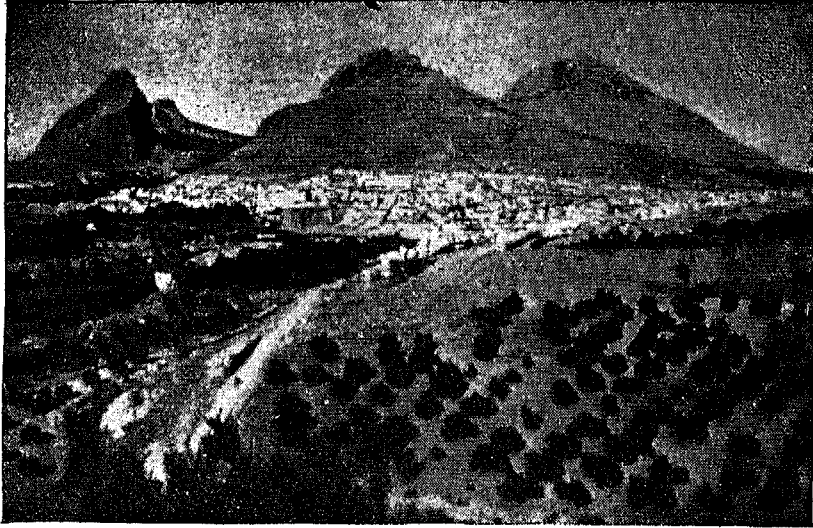
إن الوصول إلى أرشدونة من الأمور الصعبة . ذلك أن البسائط الخضراء الممتدة من غرناطة نحو الجنوب الغربي ، والتي تظللها الآكام العالية ، تنهى جنوب غربي لوشة ، بمجموعة من الهضاب الوعرة . وهناك تقع مدينة أرشدونة . وأرشدونه ذات موقع صعب يأخذ البصر بمناعته ووعورته ، فهي تقع في بطن وادٍ ضيق تحيط به الجبال من كل ناحية ، ولا يرى منها خارج السهل سوى أسطح منازلها وأبراج كنائسها ، وهي تحتل من فجوة الوادى العميق رقعة مستديرة في البداية ، ثم مستطيلة بعد ذلك ، تمتد إلى الداخل نحو كيلومترين ، فوق ربوة صاعدة تنتهى بتل عال ، تقع فوقه أطلال الحصن الكبير أو القصبنة الأندلسية القديمة :

ويشق أرشدونه من الوسط شارعها الرئيسي الطويل حتى نهايتها ، ويمتد إلى إى جانبيه شارعان محاذيان ضيقان ، وتحترقها شوارع جانبية عديدة ، وهي فى مجموعها كبيرة الرقعة ، يقع فى وسطها ميدانها الكبير القديم ذو العقود Plaza Mayor ، ومنازلها بيضاء معظمها من طبقة أو اثنتين ، ويغلب عليها الطابع الأندلسى على نسق مدينة إستجة .

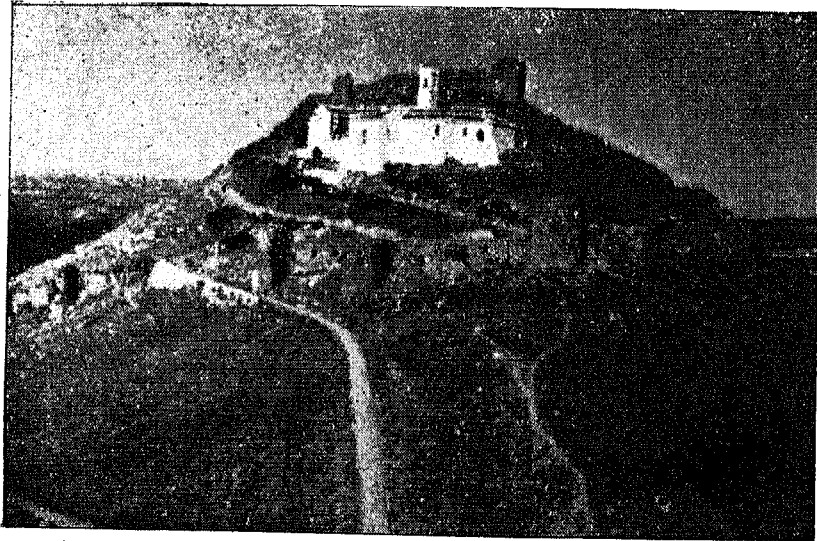
وقد كانت أرشدونة أيام الدولة الإسلامية ، من القواعد الجنوبية الحصينة ، وكان لما شأن أيام الفتنة الكبرى ، حيث كانت من قواعد عمر بن حفصون زعيم ثورة المولدين فى الجنوب ، وتبودلت مراراً خلال الوقائع التى نشبت بين الأمير وجند الثوار .

ولبثت أرشدونة من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية ، ولم تسقط فى أيدي القشتاليين إلا فى حرب غرناطة الأخيرة حينما سقطت مالقة فى يد فرديناند الخامس فى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) وسقطت فى أثرها سائر القواعد القريبة منها .

المعالم الأثرية : وأهم معالم أرشدونة الأثرية هى بالطبع بقايا الحصن أو القصبنة الأندلسية . وهى تبدو فى نهاية المدينة فوق ربوة عالية جداً . وتقع هذه



أرشدونة . منظر عام للمدينة ومن ورائها الجبل الذي تقع عليه أطلال القسبة



أرشدونة . أطلال القسبة وأمامها معبد « عذراء الرحمة »

الأطلال فوق صحرة وعرة ، وهي عبارة عن أسوار القصبية الخارجية ، تتخللها ثمان بوائك من بوائك أبراجها ، ويدل منظر هذه الأطلال وطراز بنائها ، على أنها كانت لحصن في غاية المناعة ، كذلك يبدو من واجهة الحصن ، وهي تبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، وما يترامى وراءها من بقايا أطلاله ، أنه كان يشغل مساحة عظيمة ، وأبرز ما يلفت النظر موقعه الفريد فوق الربوة العالية المشرفة على المدينة إشرافاً تاماً ، يجعلها تحت سيطرته المطلقة ، وقد أشار صاحب الروض المطار إلى هذا الحصن في حديثه عن أرشدونة (١) .

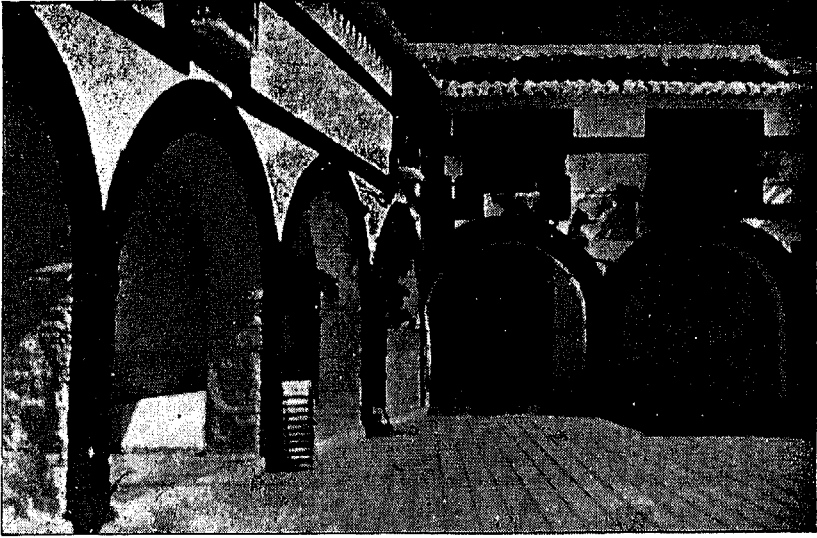
الكنيسة فوق الربوة : هذا وقد بنيت في بطن السور ، فيما بين الأبراج الوسطى كنيسة أو معبد صغير يسمى « معبد عذراء الرحمة » (٢) ، وهو عبارة عن بناء أبيض يبدو للناظر فوق الربوة ، على مسافة بعيدة . وأهم ما يلفت النظر في داخل هذا المعبد ، أنه يحتوي على بضعة عقود عربية . وقد علمت من الدكتور راميلو R.C. Ramilo ، وهو طبيب شاب يعنى بدراسة تاريخ أرشدونة وخططها ، أن هذا المعبد قد أقيم فوق أنقاض جامع القصبية ، وأدخلت ضمنه العقود الباقية من الجامع ، فأصبح على هذا النمط نصفه كنيسة ، والنصف الآخر جامع .

وعلمت من جهة أخرى أن أهل أرشدونة ، يحتفظون بكثير من التقاليد الأندلسية ، وأنه يوجد بها حتى اليوم شارع يحمل اسماً عربياً هو شارع «المحتلى» Almohalla ، وهو من أقدم شوارعها .

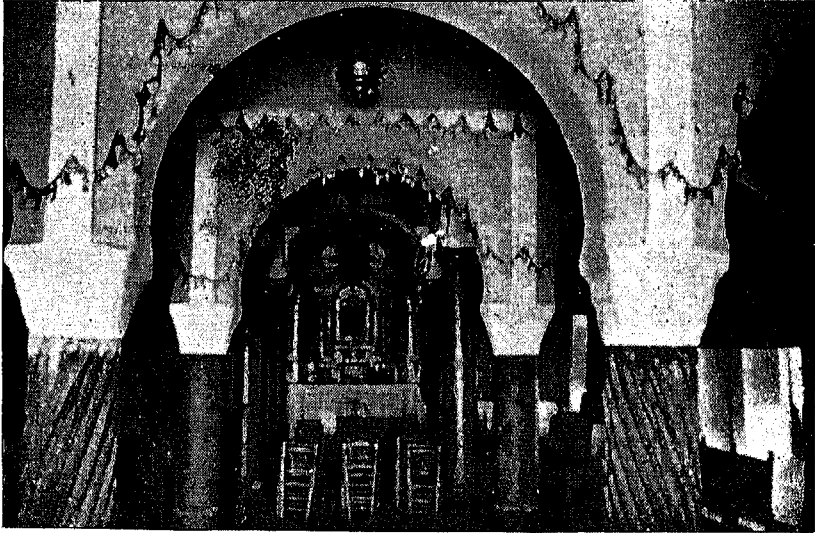
الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى في وسط المدينة ، وهي كنيسة صغيرة مجددة البناء ، ولكن موقعها وسط المدينة ، يحمل على الظن بأنها على الأرجح ، تحتل موقع جامع أرشدونة القديم .

(١) الروض المطار - صفة جزيرة الأندلس - ص ١٢ .

(٢) Ermita de la Virgen de Gracia



أرشدونة . عقود المعبد العربية وهى من بقايا جامع القصبة



أرشدونة . هيكل المعبد وقد أقيم داخل عقود الجامع

٩ - مالقة

Málaga

مالقة هي اليوم عاصمة الولاية الإسبانية التي تسمى بهذا الاسم ، وهي أعظم وأهم ثغور اسبانيا الجنوبية ، ويبلغ سكانها ثلاثمائة ألف نسمة .

وترجع مالقة إلى أصول رومانية وفينيقية . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من أقدم وأهم الثغور الأندلسية ، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي الخالص حتى نهاية مملكة غرناطة ، وسقطت في يد الإسبان في شهر أغسطس سنة ١٤٨٧ م (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) بعد دفاع مجيد سجلته صحف ذلك العصر .

ولكن مالقة تبدو اليوم مدينة أوربية حديثة بكل معاني الكلمة . وهي تقع على البحر الأبيض المتوسط في واد عميق ، تظله المرتفعات من الناحية الشمالية ، ومن وراء الوادي منطقة وعرة كلها جرداء ، والسهل فيها قليل .

وهي مدينة عظيمة مترامية الرقعة ، ذات شوارع وميادين فسيحة : يظللها النخيل والأشجار الباسقة ، ويخترقها نهر « وادي المدينة » "Guadalmedina" ؛ ولكن مجراه يبقى جافاً لأماء فيه معظم أشهر السنة .

وأشهر شوارعها « الأليدا » "Alameda" ، ذو الأشجار العتيقة الضخمة ، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء ، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة التجارية ، وفي مقدمتها شارع المركز دي لاريوس "C. del M. de Larios" الذي يضم أعظم المتاجر والمقاهي والفنادق ؛ ومن أحمل شوارعها الشارع الفسيح الذي يحاذي الميناء ، ويقوم على جانبيه صنفان من النخيل والأشجار الباسقة .

وتمتد المدينة جميلة مشرقة على البحر بضعة كيلومترات ، وإلى شرقها تمتد سلسلة من القرى الجميلة على شاطئ البحر ، في رقعة ضيقة تحدها الجبال من الناحية الأخرى ، وهي رقعة خضراء في معظمها ، وبها جداول ومزارع يانعة . وتقوم غابات النخيل الجميلة في مشارف مالقة من ناحية البحر .

ومالقة مركز صناعي وتجاري هام ، وتصدر المصنوعات الحديدية ، والرصاص والقصدير وزيت الزيتون والنيبند ، والفواكه ولاسيما العنب والتين

واللوز . وقد اشتهرت كذلك بمنتجاتها الجميلة من الفخار والخزف الملون ، وهي صناعة تحرص على ازدهارها منذ العصر الإسلامي .

ولا تحتفظ مالقة اليوم بشيء من طابعها الأندلسي القديم . ولكنها مازالت تحتفظ بطائفة هامة من الآثار والمعالم الأندلسية .

القصبة : وأهم هذه الآثار الأندلسية قصبة مالقة الإسلامية . وهي طلال ضخمة حصين يقع على منحدر صخري قريب من البحر ، ويشرف على متنزه مالقة الكبير



مالقة . واجهة القصبة ، وقد ظهرت قبالتها الكنيسة العظمى

الواقع على مقربة من الميناء . ولقصبة مالقة تاريخ طويل حافل ، وأطلالها الحالية ترجع إلى عهود مختلفة ، وقد كان بنو حمود ، حينما أقاموا ملكهم بمالقة في أوائل القرن الخامس الهجري ، هم أول من عني بتجديد قصبة مالقة . واهتم منهم بالأخص بذلك حسن بن يحيى بن حمود ، المستنصر ، الذي ولي العرش في سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) . وكانت القصبة عندئذ تضم قصر الأمير .

على أن قصبة مالقة تدين بضخامتها ومنعتها بالأخص لياديس بن حبوس ملك غرناطة البربري أيام الطوائف ، فقد انتزع ياديس مالقة من الحموديين في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، ووجد قصبة مالقة ، تجديدا شاملا ، ووسع منشأها حتى

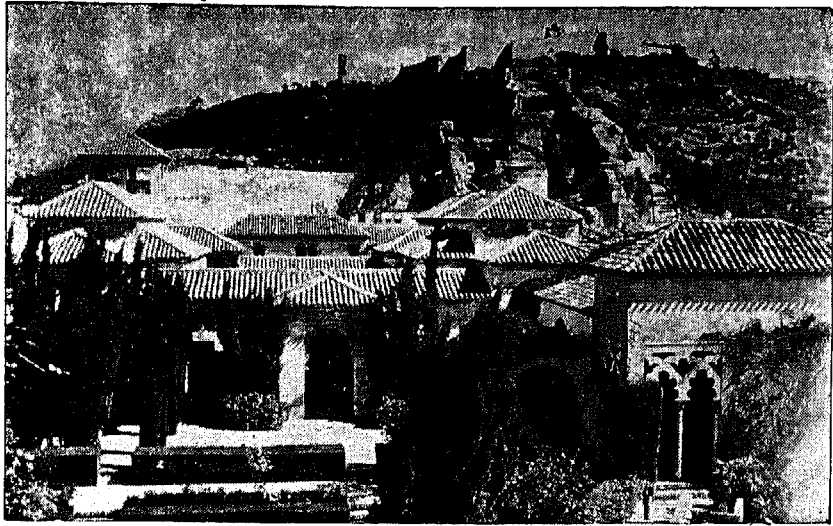
غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، ويحدثنا حفيده الأمير عبد الله بن بلسطين عن ذلك في مذكراته حيث يقول مشيراً إلى جده باديس :

« وبني قصبته (أى قصة مالقة) بنياناً لم يقدر عليه أحد في زمانه ، وأعدّها عدة للمهمات ، وجعل فيها جميع ماورث لابنه وزاد عليه . وكان الذى يتوقع من كسب سلاطين الأندلس ، واتفاقهم عليه لذلك أن يتحصن فيها ما استطاع ، وإلا فيجوز منها إلى عدوة بنى عمه بأهله وذخائره »^(١) .

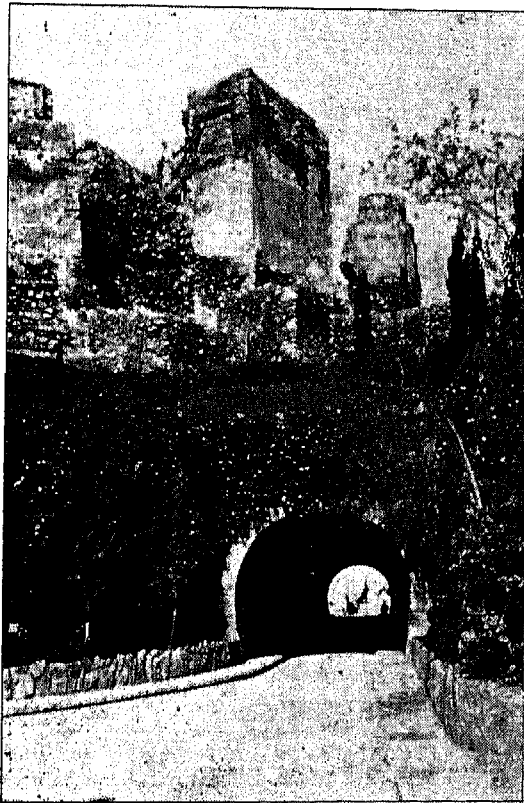
وقد توالى على قصبه مالقة من ذلك العهد تغيرات وتجديدات كثيرة ، وجددت وأصلحت غير مرة على يد سلاطين غرناطة ، وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر ، وخلال القرن الرابع عشر . ولبثت طوال عهدها من أكبر وأمنع القصبات الأندلسية . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت عند حصار مالقة الأخير ، على يد الملكين الكاثوليكين فى سنة ١٤٨٧ م ، تضم أكثر من خمسة عشر ألف من المقاتلة وغيرهم ، وقد أبلت فى الدفاع عن المدينة فى هذا الحصار خير البلاء . والآن تشغل قصبه مالقة رقعة شاسعة تدل على سابق ضخامتها ، كما تدل بوعورتها ومئاته أسوارها وخرائبها على سابق منعها ، وتمثل هذه الأطلال الباقية عهداً وطرازات مختلفة . ولا يوجد اليوم من أبنيتها القديمة أيام باديس ، سوى بقية تقع فى ناحيتها الشمالية ، أما سائر مبانيها الواقعة فى الناحيتين الشرقية والجنوبية فكلها لاحقة لهذا العهد ، ويوجد فى مدخلها عدة أبواب ذات عقود عربية ، ومنها الباب المعروف « بقوس المسيح » Arco del Cristo ، وهو ذو عقدين ، ويرجع إلى القرن الحادى عشر ، وقد أقيم فى صدره هيكل للعدراء .

وقد أسفرت أعمال الحفر والتنظيف التى أجريت بقصبه مالقة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٦ ، عن الكشف عن مجموعة جديدة من الأبنية التى يرجع بعضها إلى العصر الحمودى ، والبعض الآخر إلى العصر الغرناطى ؛ وتقع هذه المباني فى الجزء الأعلى من القصبه ، وهو القائم بين الأسوار والأبراج ، وهى تضم مجموعتين . الأولى تقع بعد باب المدخل مباشرة ، وهى التى يطلق عليها منذ الإسترداد النصرانى Cuartos de Granada (الأجنحة الغرناطية) ، وهو حسبها يبدو قصر القصبه ، وينقسم إلى ثلاثة أهباء . والثانية وهى الواقعة فى الناحية الشرقية ، هى عبارة عن

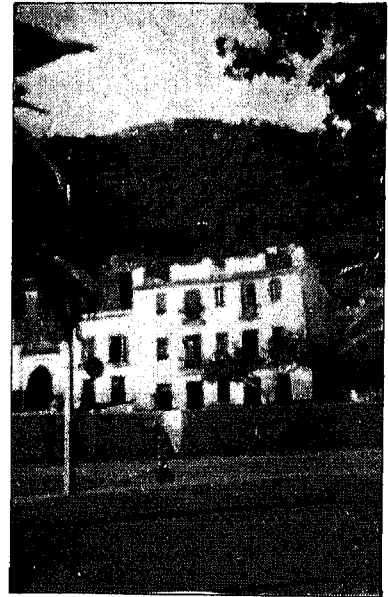
(١) كتاب « التبيان » أو مذكرات الأمير عبد الله المنشور بعناية الأستاذ لى بروفنسال (القاهرة) ص ٤٣ .



مالقة . منظر عام لواجهة المباني الداخلية للقصبة وفي أسرها عقود ترجع إلى عصر بني حمود



مالقة . أطلال حصن جبل فاره



مالقة . جبل فاره وفي أعلاه أطلال الحصن

أبنية سكنية وبها حمامات ، وكان يفصل القصر عن الأسوار والأبراج طريق عريض . وتدل مباني المجموعة الأولى وزخارفها على أنها ترجع إلى العهد الغرناطي ، إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر ، وأنه قد استعملت في إقامتها بعض أنقاض أبنية باديس التي أقيمت في القرن الحادي عشر . ويوجد إلى جانب هذه المجموعة متحف صغير به طائفة من الأواني الخزفية الأندلسية ، التي اشتهرت بصنعها مالقة ، وبعض قطع زخرفية عليها كتابات عربية ، وهي مما وجد بين الأتقاض .

وقد احتفظت قصبة مالقة ، بعد سقوطها في أيدي النصارى ، عصرًا بجدها ورواها ، ولبت قصرها زهاء قرنين ، تمامًا ملكياً ، يومه الملوك والحكام الإسبان لروعة موقعه على البحر ، بيد أنها أهملت منذ القرن الثامن عشر ، وأخذ العفاء يدب إليها شيئاً فشيئاً ، حتى شملها الخراب ، ولم يكن بها في أواخر هذا القرن سوى بعض مبان قائمة وسط أطلالها العديدة يسكنها بعض الفقراء ، واستمر الخراب يعمها ، حتى صارت في أوائل هذا القرن أطلالاً وركاماً دارسة ، إلى أن تداركتها أعمال الحفر الأخيرة ، فكشفت عن بعض معالمها ومحاسنها القديمة .

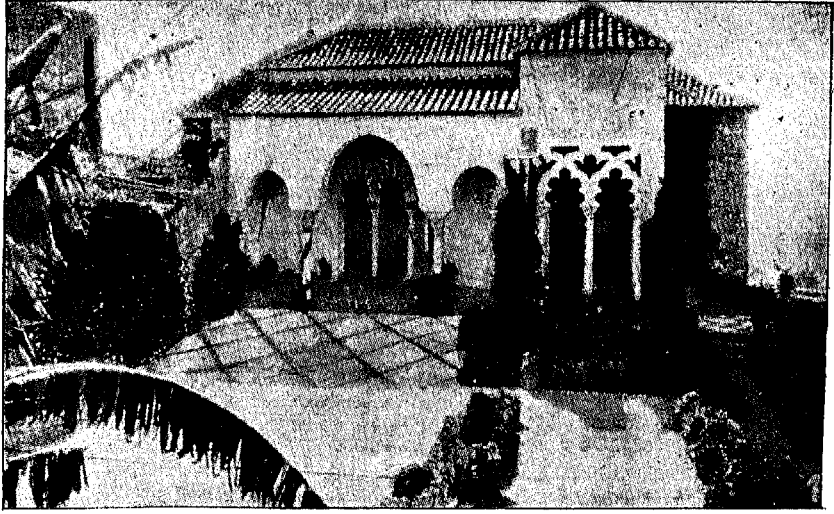
وتحتفظ القصبة ببعض أبراجها القديمة ، وهي تدلى عما كانت عليه أيام المسلمين من القوة والحصانة .

والخلاصة أن قصبة مالقة كانت أيام المسلمين صرحاً من أعظم الصروح الدفاعية وكان لها عندئذ اثنا عشر باباً ، ومائة وعشرة أبراج كبيرة عدا الصغيرة . وكان بها قصر للأمير ومساكن للحاشية وحديقة عظيمة ، تفضي إلى مجموعة من الحمامات . وكان بها مسجد . والواقع أن ما تبقى منها اليوم لا يعدو أن يكون بقية من الأطلال الدارسة لهذا الصرح العظيم القديم^(١) .

حصن جبل فارة وبالإسبانية "Gibralfaro" : وهو صرح دفاعي إسلامي آخر ، يقع على ربوة عالية تشرف على البحر ، على مسافة صغيرة من القصبة ، ويفصله عنها رقعة خضراء ، ويربطه بها طريق مسور ، وما زال هذا الصرح يحتفظ بكثير من مسحة عربية ، وهو أكثر جودة واحتفاظاً بهيكله من القصبة ، ويدخل

(١) راجع مقالاً قديماً عن تاريخ قصبة مالقة وخواصها الأثرية للعلامة المرحوم الأستاذ توديس

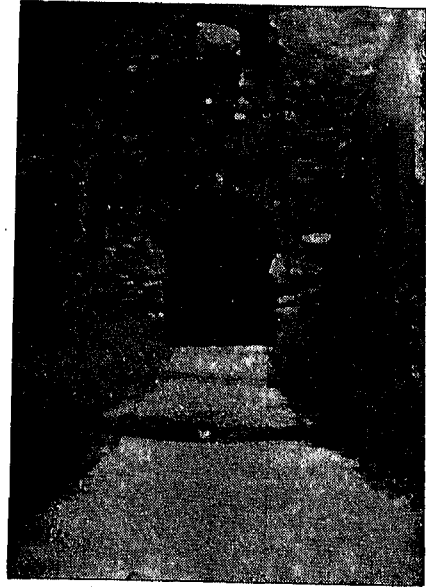
بالباس في مجلة الأندلس : Al-Andalus (1944) Fasc. 1. p. 173-190



قصة مالقة . العقود الفرناطية والمدخل الجنوبي للفناء المكتشف حديثاً



مالقة . باب السوق الأندلسي



مالقة . « باب قوس المسيح » داخل القصة

إليه من باب سفلى ذو عقد كبير ، يليه فناء مربع ذو عقود ، وله مدخل آخر من فوق الرتبة يؤدى إلى أروقة العليا ، وفي صحنه الأسفل حديقة وعمود عديدة ، وأسواره الخارجية مبنية بالآجر الأحمر ، ومن حوله طائفة من الأروقة التي تليها الأسوار . وما زال برجه الرئيسى قائماً ، ويسمى بالبرج الأبيض "Torre Blanca" ، ويحتوى على عدة عقود ومخادع ، وواجهته مستديرة ، ويشرف على المدينة من ارتفاع شاهق . وأمام الحصن من الناحية الأخرى منحدر الجبل ، وممراته الحائنية من هذه الناحية متماثلة ، وتنحدر تدريجياً إلى أسفل . وتبدو من تحتها مدينة مألقة ، في شكل نجمة ذات زوايا ، ومنازلها بيضاء ما بين الحصن والجبل .

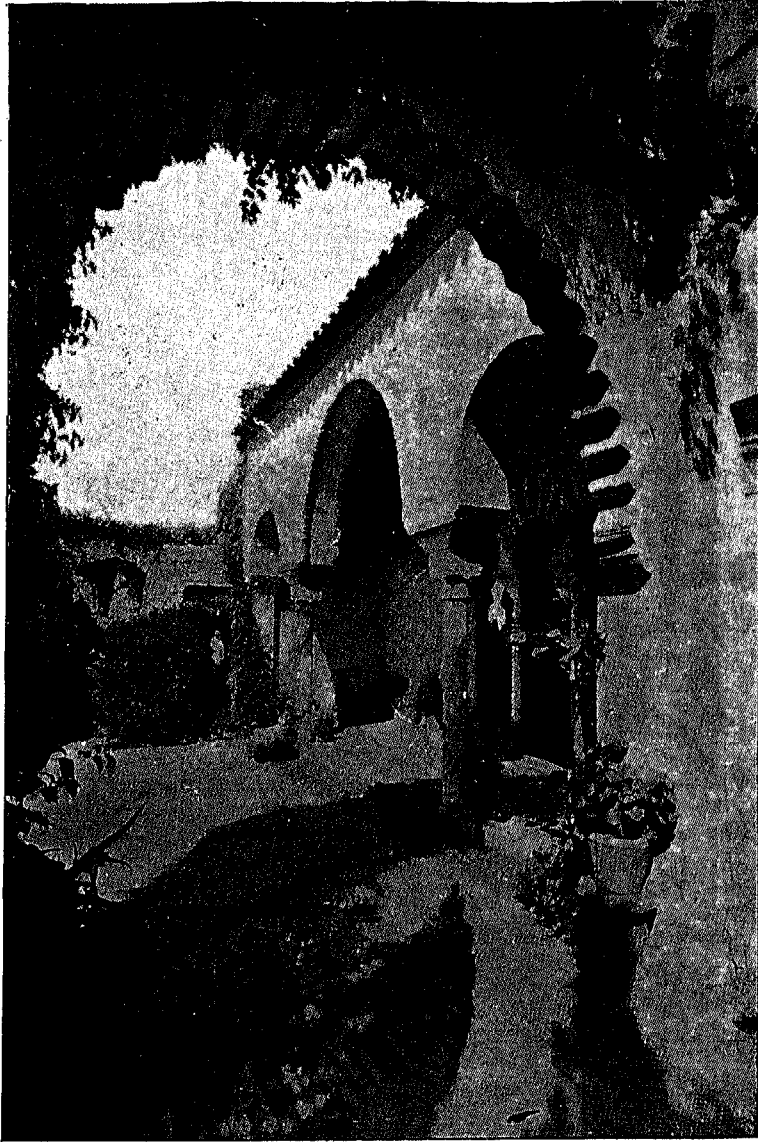
ويشغل الحصن رقعة واسعة . وقد لاحظنا أن مشارف أسواره ، قد بنيت على نمط مشارف أسوار الحمراء وأبراجها .

وقد اشتهر حصن جبل فارة ، أيام حصار النصارى الأخير ، بمواقفه الدفاعية الباسلة ، وكانت تحتله فرقة من جند غمارة ، أبلت في الدفاع بلاء حسناً ، وصمدت حتى آخر لحظة ، وأنزلت بالنصارى خسائر فادحة .

ويبدو أصل هذا الحصن القديم غامضاً ، ويرجع بعض الأثرين في الأصل إلى عصر القينقيين ، والبعض الآخر إلى العصر اليونانى . ولكن الذى لا ريب فيه أنه أصلح وجدد على يد المسلمين غير مرة ، كعادتهم في شأن الصروح الدفاعية القديمة . ويرى بعض الباحثين أنه جدد لأول مرة ، على يد المسلمين ، في عصر عبد الرحمن الداخل الأموى ، في أواخر القرن الثانى الهجرى ، ونحن نعرف فوق ذلك أنه قد أصلح في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، على يد محمد بن الأحمر الثانى سلطان غرناطة ، ثم قام السلطان يوسف أبو الحجاج (١٣٣٣ - ١٣٥٤م) بعد ذلك بتجديده ، وإعادة بنائه على أكمل وجه ، وهو ما يشير إليه ابن الخطيب في قوله « وفي أيامه بنى الحصن السامى الدروة ، المنبئ عن القدرة ، في الجبل المتصل بقصبة مألقة ، فعظم به الفخر ، وجل الذكر » (١) .

وكانت لحصن جبل فارة أيام المسلمين أربعة أبواب كبيرة في سورهِ الأسفل ، يفضى أحدها إلى القصبة ، وكانت به آبار كثيرة للماء .

سوق مألقة : ويوجد ثمة بمألقة أثر إسلامى آخر ذو أهمية خاصة ، وهو



قصبه مالقة . عقد المدخل (البورتكو) للفناء الجنوبي

السوق القديم ، الذى ما زال يحتل موضعه منذ العصر الإسلامى ، وهو يقع اليوم فى وسط المدينة ، وهو عبارة عن ساحة مربعة واسعة ، مخصصة لبيع البقول والأسماك ، والطيور وغيرها ، وما زال هذا السوق يحتفظ ببابه الأندلسى القديم كاملا ، وفى حالة جيدة ، وهو باب مرتفع ذو عقدين ، وعلى جوانبه العليا زخارف وكتابات عربية ، يتخللها شعار بنى نصر ملوك غرناطة « ولا غالب إلا الله » .

الكنيسة العظمى : وتقع كنيسة مالقة العظمى (الكندرائية) على مقربة من القصبة ؛ وقد بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع القديم ، الذى حول عقب دخول الملكين الكاثوليكين المدينة إلى كنيسة .

ثم أقيمت مكانها (الكندرائية) الحالية ، وهى ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، وهى كنيسة ضخمة عالية القباب ، ولها واجهات فخمة شاهقة ، ويغلب عليها طراز عهد الإحياء الإسبانى .

ومن صروح مالقة ذات الصلة بعهد الإسلامى ، كنيسة المساة « مسيح النصر » "Cristo de la Victoria" ، وهى ترجع إلى أواخر عهدها الإسلامى ، وكانت قائمة وقت حصارها الأخير فى سنة ١٤٨٧ م .

وكنيسة سانتياجو (شنت ياقب) ، وقد أسسها الملك الكاثوليكى فى سنة ١٤٩٠ م ؛ واتخذ برجها من منارة مسجد قديم ، كانت قائمة عند سفح القصبة . وكنيسة « سيدة النصر » "Nuestra Sra. de la Victoria" ، وقد بنيت فوق المكان الذى ضربت فيه الخيام الملكية وقت الحصار .

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة سان دومنجو ، التى تقع فى وسط المدينة على مقربة من نهر « وادى المدينة » ، قد بنيت من الداخل على طراز المسجد ، بعقود عربية متقابلة . والمعروف من تاريخها أنها بنيت فى الواقع ، فوق أنقاض أحد مساجد مالقة القديمة ، وأكثر من ذلك أن بابها يتجه نحو الجنوب الشرقى ، مما يدل على أنه أقيم مكان القبلة القديمة^(١) .

* * *

(١) لفت نظرى إلى هذه الكنيسة وخواصها الأثرية ، صديق السنيور خوان تمبورى J. Temboury وهو أحد سعاة مالقة المشتغلين بالآثار الإسلامية .

والخلاصة أن مالقة تبدو في مجموعها مدينة عصرية محدثة الخطط ، ويسبغ عليها موقعها على البحر ، كما تسبغ عليها شوارعها الظليلية ، وامتزاجها الفيحاء ، حلة خلابية من الجمال والسحر .

على أنه ليس من الصعب أن نتلمس في هذه المجموعة الضخمة من الخطط



مالقة : الكنيسة العظمى

العصرية ، بعض مواقع المدينة الأندلسية القديمة . والواقع أن جانباً من خطط المدينة القديمة يتجمع حول موقع حصن جبل فارة ، على مقربة من القصبة ، وفي أسنائها وحول موقع الكنيسة العظمى ، التي تحتل مكان المسجد الجامع القديم . ففي هذه المنطقة مازالت تقوم شبكة من الدروب الضيقة المتتوية ، تقوم عليها منازل متواضعة ، ذات طابق أو طابقين ، ومواقعها فيما يرجع تمت بأوثق صلة ، إلى جانب من خطط مالقة الإسلامية . وتقع هذه المنطقة من مالقة القديمة في جنوب شرقي المدينة .

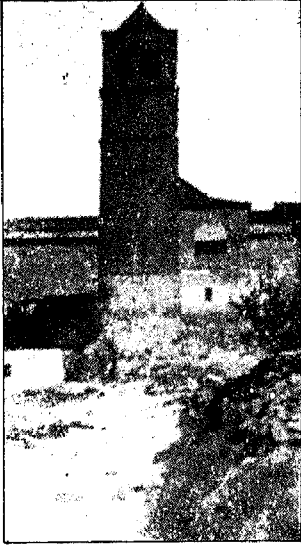
* * *

هذا وتوجد في بعض بلاد ولاية مالقة ، طائفة من الآثار الأندلسية التي مررنا بها مروراً عابراً ، ونذكر منها على سبيل المثال :

(١) يوجد في قرية « الشرو » "El Chorro" ، الواقعة على مقربة من بلدة

بُسْبُشْتَر ، كنيسة أندلسية قديمة ، هي الكنيسة التي أنشأها عمر بن حفصون زعيم
المولدين وكبير الخوارج الأندلسيين ، في أواخر القرن الثالث الهجري ، حينما
ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية .

(٢) يوجد في قرية « قرطامة » « Cártama » الواقعة غربى مالقة ، حصن
عربي صغير ، وكذلك يوجد حصن عربي آخر في بلدة « ألورة » « Alora » ،
الواقعة شمال غربى مالقة .



بلش مالقة . كنيسة سانتا ماريا



ألورة (مالقة) . بقايا الحصن الأندلسي



قرطمة (مالقة) . الحصن الأندلسي

١٠ - بلش مالقة

Vélez Málaga

ليست « بلش مالقة » اليوم سوى مدينة صغيرة ، لا يجاوز سكانها ثلاثين ألفاً من الأنفس ، وليست لها أية أهمية خاصة . بيد أنها كانت أيام مملكة غرناطة الإسلامية ، من أهم وأمنع قواعدها الجنوبية ، وكانت فوق ذلك موطن كثير من العلماء والأدباء ، الذين اشتهروا في القرن الثامن الهجري . وقد اشتهرت في قصة سقوط الأندلس بدفاعها المحيد ، وسقطت في أيدي القشتاليين في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (ابريل سنة ١٤٨٧ م) .

وتقع بلش شرق مالقة ، على قيد ثلاثين كيلومتراً منها ، وتبعد عن البحر خمسة كيلومترات ، حيث تقع بلدة « توري دلمار » "Torre de Mar" ، وهي مصيفها القريب منها .

وبلش مدينة بيضاء مشرقة ساحرة ، وشوارعها طويلة تغص بالمناجر والحركة ويمتد شارعها الرئيسي زهاء كيلومترين ، وهي تقع في بسيط أخضر تحده الجبال من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحده الربوة العالية ، التي تقع عليها أنقاض القلعة القديمة . وتقع كنيستها القديمة المسماة « سانتا ماريا » في أسفل الربوة في نهاية البلدة وهي أقدم كنائسها . وتقع كنيستها الثانية المسماة « سان خوان » في طرفها الآخر ، ومن المرجح جداً أن تكون كلتا الكنيستين قائمتين على موقع مسجد قديم .

وقد شهدنا في الشارع الصاعد إلى كنيسة « سانتا ماريا » ، عقداً عربياً قديماً ، يفضى إلى شارع آخر ، ولكن ليست به نقوش أو زخارف تنبئ عن قيمته الأثرية . بيد أنه يبدو بطرازه وقدمه ، أنه من عقود المدينة الأندلسية القديمة . والواقع أن الشوارع الصخرية الصاعدة المؤدية من بعده إلى الربوة ، وهي شوارع ملتوية ضيقة ذات منازل متواضعة ، تبدو كأنما تقوم فوق أنقاض بعض الأحياء الأندلسية القديمة المتواضعة ، التي كانت تقوم عادة تحت أسوار القصبة القديمة .

وقد كانت القصبة أو القلعة الأندلسية القديمة ، تقوم بلا ريب فوق هذه.

الربوة العالية التي تشرف على المدينة ، بيد أنه لم يبق منها اليوم إلا بقية جدار وأنقاض ليست لها أية أهمية أثرية ، إلا ما كان من دلالتها على موقع القصبة الذاهبة .
ولا توجد في بلبش أية آثار أندلسية أو متحف أو غيره مما يشاهد ويزار .
بيد أن المتأمل لموقعها من فوق الربوة وفي حى الجبال ، يدرك ما كانت عليه أيام المسلمين من أهمية دفاعية ، ويدرك أنها كانت حقاً جناح مالقة الأيمن .
ومما هو جدير بالذكر ، أنه توجد في الطريق بين مالقة وبلبش أبراج صغيرة عديدة قديمة ، بعضها يقوم على شاطئ البحر ، والبعض الآخر يقوم فوق التلال ، ولعلها كانت مراكز للمراقبة في القرن السادس عشر ، أيام غارات المجاهدين المسلمين من الترك والمغاربة ، على الشواطئ الإسبانية الجنوبية : انتقاماً للموريسكيين .

١١ - مَرَبَلَة

Marbella

مرَبَلَة من ثغور شاطئ أسبانيا الجنوبي المسمى «بساحل الشمس» Costa del Sol نظراً لصحو منطقتة ، وصفاء جوه ، وسطوع شمسه ، وهو يمتد من إشبونة حتى مرييل شرقاً ، ويتوسطه ثغر مالقة ، وهو عبارة عن سلسلة من الهضاب التي تتخللها بعض الرقاع الخضراء ، وفيها بعض الحقول الحصبة ، وبعض الحدائق المتفرقة ، ومن وراء الهضاب والرَبِي تقوم إلى الشمال ، جبال عالية قائمة ، ويمتد الشاطئ منخفضاً تظله مياه البحر الزرقاء الداكنة .

وتقع مَرَبَلَة على قيد ستين كيلومتراً غربي مالقة ، والطريق إليها من مالقة تحف به في البداية رقاع خضراء منبسطة ، ثم ينحرف بعد ذلك نحو البحر ، وتظله هضاب ومرتفعات وجبال عالية . ومَرَبَلَة بلد صغير مشرق ، مستطيل الرقعة ، يقع مباشرة على البحر ، فوق سفح جبل عال ، وتتخلله الحدائق وغابات الزيتون ، ويعتبر بشواطئه الساحرة على مياه البحر المتوسط من المصايف الجميلة ، ويعتبر كذلك بدفته وشمسه أيام الشتاء من المشاتي المرغوبة ، على نمط ثغور هذا الشاطئ كله ، وقد أعدت جميعاً لتكون مشاتي ومصايف ، بشواطئها وفنادقها ومنتزهاتها . وكانت مَرَبَلَة أيام الرومان تسمى Maro Polis ، ثم أطلق عليها المسلمون اسم « مَرَبَلَة » ، ولبثت مَرَبَلَة من ثغور مملكة غرناطة الإسلامية ، حتى أخذت قواعد هذه المملكة تسقط تباعاً في أيدي القشتاليين ، وكان سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٨ م ، عقب سقوط ثغر مالقة .

ولم يبق في مَرَبَلَة من معالمها الأندلسية سوى أطلال متناثرة من حصنها القديم ، الذي يوصف بأنه من أقدم الحصون الأندلسية ، وينسب بناؤه إلى القرن الرابع الهجري ، وتقع هذه الأطلال داخل المدينة ، وبين المساكن ، وقد بنيت في ساحته الكبرى مدرسة ، وبقيت من أطلاله واجهة ساريتها الكبرى ، وتدخل كثير من أطلاله في الأبنية الحديثة المجاورة ، وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كبيرة ، ومنها قطع كثيرة من الأسوار ، تقع داخل الأزقة المجاورة ، وهي كلها ضيقة ، يبدو عليها طابع القدم . وإلى مقربة من أطلال الحصن ، تقع الكنيسة العظمى ،

وهو ما يرجح أنها بنيت على موقع الجامع القريب من الحصن أو جامع القصبة نفسه .

سهييل

وإلى شرقى مربلة ، تقع بلدة سهيل ، على قيد ثلاثين كيلومتراً منها ، وهي التي تسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola : وكان اسمها الروماني Selitane ، فغيره المسلمون إلى « سهيل » ، إذ كان يزعم أهل هذه الناحية أن النجم المسمى سهيلاً ، يرى من أعلى الجبل المجاور لها . ويسميا صاحب الروض المعطار «مرسى سهيل»^(١) . وسهييل أو «فونخولا» ، بلد كبير يقع على البحر مباشرة ، فوق سفح الجبال المجاورة ، على قيد ثلاثين كيلو متراً غربى مالقة ، ويمتد من الشاطئ إلى مسافة كبيرة ، وإلى شرقها تقع بلدة صغيرة تسمى « بنى المدينة » Beni Almedina ، مما يحمل على الاعتقاد في أصلها العربي .

وإلى غربها تقع أطلال حصن أندلسى كبير ، لم يبق منه اليوم ، سوى أسواره الخارجية ، وهي عبارة عن حظيرة مسدسة الأضلاع ، يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثين متراً ، وفي إحدى أضلاعها نوافذ تعلوها الساريات الصغيرة ، وهو يقوم على ربوة عالية ، تقع على نحو كيلومتر من البلدة ، وتشرف على البحر ، ويبلغ ارتفاع الأسوار نحو عشرة أمتار ، وما زال به برجان خربان ، يرتفع كل منهما نحو ستة عشر متراً ، وليست به عقود أو ملامح عربية واضحة .

والمعروف من تاريخ هذا الحصن ، أنه بنى في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، في النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، واستمر قائماً حتى انتهت دولة الإسلام في الأندلس ، ثم عدل بناؤه أيام الإمبراطور شارلكان ، فالطلل القائم اليوم ، إنما هو طلل هذا الحصن المعدل البناء .

ونجد آخر إشارة في الرواية الإسلامية لهذا الحصن ، في رحلة ابن بطوطة ، فهو يشير إليه ، في حديثه عن رحلته إلى مالقة ، ويقول لنا إنه سافر من مربلة ، « وهي بليدة حسنة خصبة » ، وقصد إلى حصن الرابطة المعروف بحصن سهيل ، وقضى به الليل مع قائده ، ثم سار من الغد إلى مالقة^(٢) .

وفي حصن سهيل ، كان مولد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلى ، وذلك في سنة ٥٥٩ هـ (١١١٥ م) .

(١) الروض المعطار ، صفة جريرة الأندلس ، ص ١٨٠ .

(١) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٦ .

١٢ - المنكب

Almuñecar

إن الطريق من مالقة إلى المنكب وشلوبانية ، هي أيضاً طريق ألمرية ، وهي طريق ضيقة ملتوية ، صاعدة ومنخفضة ، تجرى على مقربة من البحر ، في كنف هضاب ومرتفعات صخرية ، تظلها من آن لآخر أشجار ونخيل وغابات زيتون . ويبلغ من التواء الطريق أحياناً أن تتعاقب متدرجة في طبقتين أو ثلاث ، وتعلو بذلك عن سطح البحر أربعين أو خمسين متراً . وتبعد المنكب تسعين كيلومتراً عن شرقي مالقة ، وأول البلاد الكبيرة في هذا الاتجاه هي بلدة « نرخا » Nerja ومن بعدها تخرق الطريق الجبال باستمرار حتى المنكب .

وتقع المنكب على خليجين مقوسين متجاورين في البحر ، وهي ثغر جميل مشرق ، وتحجبها الجبال من الناحيتين الشرقية والشمالية ، ولها شاطئ طويل على البحر ، تكثر فيه الخليجان الصغيرة ، ويبدو حصنها المنيع في وسطها قائماً فوق ربوة عالية .

هبطت إلى المنكب في عصر يوم الميلاد^(١) ، وما كدت ألقى نظرة فاحصة على مواقع هذا الثغر الصغير ، الذي يحتضن خليجانه ، وتحجبه الجبال من ظهره ، حتى ذكرت قصة عبد الرحمن بن معاوية ، أو عبد الرحمن الداخل ، وأدركت لماذا اختار هذا الأمير المغامر ، أن ينزل في ثغر المنكب ، ليجوز منه إلى داخل شبه الجزيرة ، وأنه إنما اختاره لخصانته الطبيعية من البر والبحر .

قال صاحب الروض المعطار : « وهذا المرسى (أي المنكب) خرج الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس ، وذلك في ربيع الأول من سنة ١٣٨ ، ويتلو مرسى المنكب ، مدينة حسنة متوسطة ، كثيرة مصايد السمك ، وبها فواكه حمة »^(٢) .

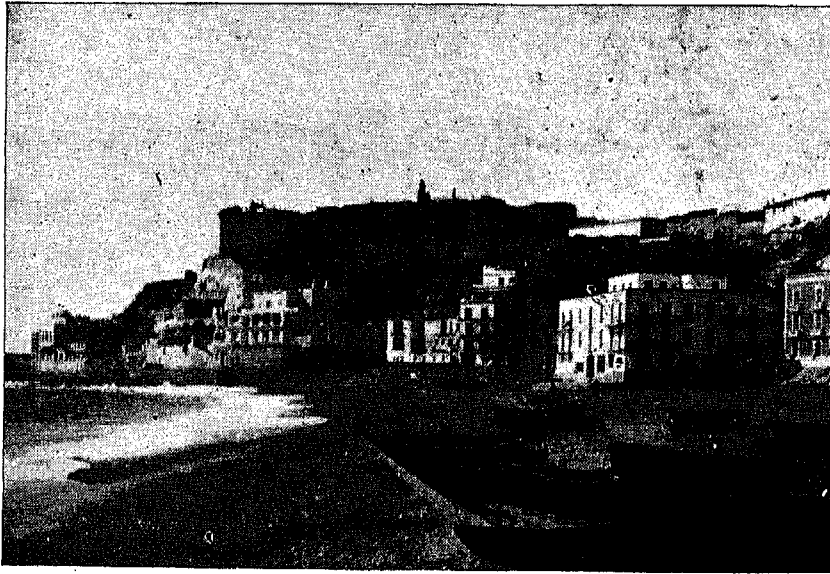
وهذا الوصف مازال ينطبق على « المنكب » ، فهي مدينة جميلة متوسطة ، تضم من السكان ثلاثة عشر ألف نفس ، وتقع أحيائها الأمامية الحديثة على بسيط

(١) في يوم ٢٥ ديسمبر من سنة ١٩٥٩

(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٦



المنكب . منظر عام للمنكب وثغرها



المنكب . أطلال الحصن المشرف على البحر

صغير يمتد على الشاطئ ، وتقع معظم أحيائها القديمة على سطح الربوة ، التي يقع الحصن في طرفها الجنوبي ، والكنيسة العظمى في طرفها الشمالي ، والجبال من وراء ذلك تشرف عليها ، وقد رأينا حين طوافنا بالمدينة نخلا مشمراً ، في هذا الوقت من الشتاء .

حصن المنكب : وأهم معالم المنكب الأثرية ، هي أطلال حصنها الأندلسي ، وهو الذي يشير إليه صاحب الروض المعطار بقوله : « وعليه (أى مرسى المنكب) حصن كبير لا يرام » . والواقع أن هذه الأطلال المتناثرة ، تدل بوعورتها على مناعته القديمة ، وهو يبدو كثير الضلوع والمنحنيات ، وله لسان يمتد من أسفل حتى شاطئ البحر ، وقد حول هذا الحصن المدارس إلى مقبرة تدفن فيها أموات المدينة ، وحولت أسواره من الداخل إلى طاقات (نيشات) صغيرة للمواطنين ، وتوضع فيها الأشياء المقدسة واللوحات التذكارية . وفي داخله كنيسة صغيرة ، ويدخل إليه من ممر تشرف عليه بقية عقد عربي ، وللحصن طابق سفلي آخر تحيط به الأسوار المشرفة على البحر مباشرة ، وقد أقيمت المباني بجوار الأطلال المتناثرة من كل ناحية ، وهي تدل في مجموعها ، وبمسافات المتباعدة ، بأن الحصن كان يشغل مساحة كبيرة .

ويرى الناظر من أعلى الحصن ، على بعد ، أثرين آخرين ، هما برجان يرجعان إلى أصل عربي ، وهما البرج المسمى Torre del Monje (برج الراهب) ، وهو يقوم على لسان داخل في البحر ، وبرج آخر يقع في ناحية الشرق ، ويشرف على الشاطئ أيضاً .

والواقع أنه توجد على طول الشاطئ الممتد من مالقة إلى المنكب أبراج كثيرة مستديرة ، تقع على مسافات متباعدة ، ومنها ما يرجع إلى أصل أندلسي ، والظاهر أن معظمها أقيم فيما بعد ، في أوائل القرن السادس عشر ، حينما بدأت غارات المجاهدين المسلمين البحرية على الشواطئ الإسبانية .

وتقوم وراء الحصن من الجهة الشمالية ، ربوة عليها دروب ومسالك ضيقة متصاعدة ، يبدو أنها تقوم على خطط المدينة الأندلسية القديمة . أما أحياء المدينة الحديثة ، فتقوم حسبما تقدم على شاطئ البحر ، ومنها منازل وفنادق جميلة أعدت للمصيف .

الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى ، في شمالى المدينة ، قبالة الحصن ،
على مسافة نحو أربع مائة متر ، وهي كبيرة وقديمة ، بنيت على الطراز القوطى ،
ومن المرجح أنها أقيمت على موقع المسجد الجامع القديم .
وفي المنكب عقود قنطرة رومانية قديمة ، تقع خلف المدينة في الشمال .
وقد سقطت المنكب في أيدي القشتاليين في شهر المحرم سنة ١٨٩٥ هـ ، الموافق
شهر ديسمبر سنة ١٤١٩ م .

١٣ - شلوبانية

Salobreña

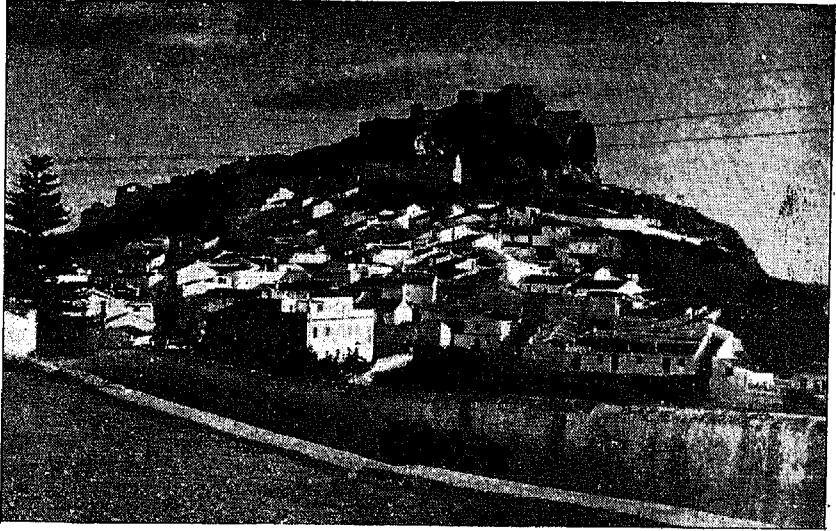
تقع شلوبانية أو شلوبينية على مسافة أربعة عشر كيلومتراً شرق المنكب ، وهي بلدة صغيرة جميلة ، تقع على ربوة مستطيلة متصاعدة ، تمتد على شاطئ البحر ، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، ويخترقها من أولها إلى آخرها طريق طويل ، وأمامها ربوة أخرى بارزة في البحر عليها بعض الأحياء الحديثة . ومنازلها جميعاً بيضاء ، وسقفها من القرميد الأحمر .

وحصن شلوبانية هو أهم آثارها الأندلسية الباقية ، وهو يقع في وسط المدينة على منحدر صخري وعر ، مشرف على البحر ، ومدخله عقد مزدوج تلوه قبة معقودة ، وأسواره سميكة عرضها نحو ثلاثة أمتار ، وهي ما تزال تحمل سوارها العربية القديمة وقد أصلحت ، وفي داخله في مواجهة البحر ، عقد ومدخل جانبي آخر يفضى إلى وسط الحصن ، وقد بقي من أبراجه برج كبير ارتفاعه نحو ثمانية أمتار في مثلها ، وقد أصلح وجدد ، وتوجد في وسطه أساسات بناء قديم آخر ، ربما كانت لمنزل الحاكم . وهو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، ويبدو من مجموعة أطلاله ، أنها أطلال القصبية القديمة ، وأن القصبية كانت تشغل مساحة شاسعة ، وتتصل بأسوار المدينة العامة .

الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى ، على مقربة من الحصن ، فوق الربوة المشرفة على البحر ، وهي صغيرة الحجم ، وبرجها مربع عال يبلغ ارتفاعه نحو خمسة وعشرين متراً ، وهو ذو طراز عربي تقريباً ، على مثل طراز المنارة الموحدية (لآخر الدا) ، وهي تحتل بلا ريب موقع الجامع القديم .

وقد سقطت شلوبانية في يد المالكين الكاثوليكين ، في نفس الوقت الذي سقطت فيه المنكب ، أعني في سنة ١٤٨٩ م .

وإلى شلوبانية ينتسب إمام النحو الأندلسي أبو علي الشلوبين المتوفى بإشبيلية سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) .



شلوبانية . منظر عام للبلدة وقد ظهر في أعلاها الحصن



شلوبانية . الكنيسة العظمى

١٤ - متريل

Motril

وإلى شرقي شلوبانية ، تقع مدينة متريل على بعد ستة كيلو مترات منها ، وهي مدينة كبيرة تظللها الجبال شرقاً وشمالاً ، وتبعد قليلاً عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

وكانت متريل من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية ، سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٩ م ؛ وكانت لها أسوار ذات بابين ، وبها ثلاثة مساجد ، فلما تغلب عليها النصارى ، هجرها سكانها المسلمون إلى المغرب في سنة ١٥٠٧ م ، وغاب في سكانها الموريسكيون (أو العرب المنصرون) . وكانت خلال القرن السادس عشر عرضة لغارات المجاهدين البحرية ، التي قادها أمير البحر التركي خير الدين عصرا ، ومن بعده زعماء المجاهدين من المغاربة والموريسكيين .

ولانوجد في متريل آثار أندلسية ظاهرة ، ولكن كنيسة المسماة La Virgen de la Cabeza (عذراء الرأس) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذكرى أندلسية مؤثرة . ذلك أنها تقوم فوق ربوة تقع في وسط المدينة ومن حولها المزارع والتلال في السهل ، وتشرف على البحر ، وكان يحتل هذه الربوة من قبل حصن أو قصر إسلامي ، كانت تعيش فيه الملكة عائشة الحرة ، والدة السلطان أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة ، فلما سقطت متريل في أيدي القشتاليين في سنة ١٤٨٩ م ، أمر الملك الكاثوليكين بهدم هذا الحصن ، وأقيمت فوق موقعه الكنيسة المذكورة . واستمرت هذه الكنيسة قائمة مدى عصور ، حتى خربت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، ثم أعيد بناؤها في نفس المكان ، وربما على نفس طرازها القديم ، بيد أنه لا يوجد في البناء الحديد شيء من آثار البناء القديم .

١٥ - ألمرية

Almería

تعتبر ألمرية من أجمل الثغور والمدن الإسبانية ، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل ، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط ، ويقال ان اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما « مرآة البحر » .

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة ، يشقها من الوسط شارع عظيم ، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين ، ويسمى اليوم «متنزه الجنرال الأعظم» "Paseo del Generalísimo" وكان من قبل يسمى « شارع الأمير » "Avenida del Principe" ، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهى والفنادق الكبيرة ، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة . وأحياء المدينة كبيرة مشعبة ، وهي على العموم أكثر اتساعاً ورونقاً ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة . وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة ، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة ، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد .

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل ، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل ، وصفت المقاعد ، وهو من أجمل الطرق التي شهدناها في المدن الإسبانية .

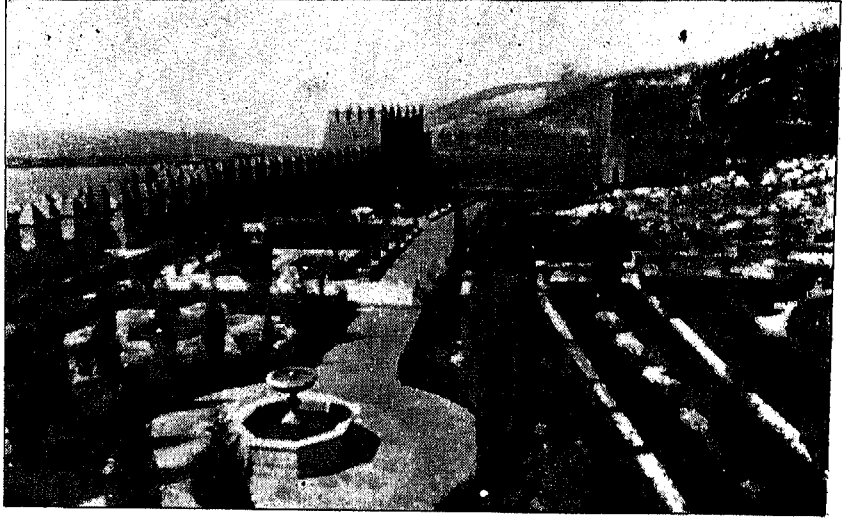
ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة ، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفواكه .

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادى آش ، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء . وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة «غدر» "Gádor" ، وهي تقع في واد عميق أخضر ، به زروع ونضرة وحدائق يرتقال غناء ، وتليها بلدة "Benahadux" وأصل اسمها عربى هو بنو عبدوس ، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق ، ثم بلدة بجانة "Pechina" ذات الأصل الأندلسى العربى . وقبيل ألمرية تكثر البسائط الخضراء والنخيل ، تحدها الجبال من ناحية ، والبحر من الناحية الأخرى .

وكانت ألمرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبية ، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفها في سنة ٩٥٥ م . وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاخرة أولاً في ظل الفتيين العامريين خيران ثم زهير (١١٠٤- ١٠٣٨ م) ، ثم بعد ذلك في ظل بني صُهادح (١٠٤١- ١٠٩١ م) . ثم كانت أيام مملكة غرناطة ، فضلاً عن أهميتها البحرية والتجارية ، موطن كثير من أكابر العلماء والأدباء ، وفي مقدمتهم ابنها الشاعر الكبير أبو جعفر ابن خاتمة الأنصاري . وقد سقطت ألمرية في يد الإسبان في فبراير سنة ١٤٩٠ م (٥٨٩٥ هـ) ، بعد أن سقطت معظم قواعد الأندلس الأخيرة .

القصبة

وما تزال ألمرية تحتفظ بقسط كبير من سمها الأندلسية ، وهي تكاد تشبه في ذلك غرناطة وإشبيلية . والواقع أنها تحتفظ إلى اليوم بأثر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهو بقايا القصر والقلعة القديمة ، المسماة بالقصبة "Alcazaba" وقصبة ألمرية عبارة عن طلل عظيم فسيح الأرجاء ، يقع في شمال المدينة على ربوة صخرية منيعة عالية في طرف جبل غُندر ، على مقربة من مصب نهر أندَرَش وتشرّف على الميناء . وقد اشتهرت هذه القصبة أيام الطوائف ، بضخامتها ومنعتها ، وقد قام بإصلاحها وتوسعتها خيران الفتي العامري ، وهو أول من حكم ألمرية عقب انهيار الخلافة ، وغدت عندئذ من أعظم القصبات الأندلسية وكانت تسمى لذلك قلعة خيران . ويمكننا أن نقدر ضخامتها متى علمنا أن طولها من الشرق إلى الغرب يبلغ ٥٣٠ متراً ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة من الأسوار والبرج الرئيسي ، وعدد آخر من الأبراج الصغيرة ، وتحتوى على عدة أفنية متدرجة في الارتفاع . وقد جدد هذا القسم أيام الملكين الكاثوليكين ، عقب سقوط المدينة في أيدي النصارى . وتقع وراء البرج الرئيسي ساحة كبيرة ، بها بقايا أسس لبناء أو قصر كبير تضم غرفاً وأبهاء عديدة ، ويبدو أنه كان مسكن الأمير أو الحاكم في وقت من الأوقات . ويرى بعض الأثرين الإسبان أن هذه هي أطلال قصر عبد العزيز المنصور أمير بلنسية الذي حكم ألمرية وقتاً قصيراً ، على أثر مصرع صاحبها زهير العامري في سنة ١٠٣٨ م ، ولهذا يسمى الشارع الذي تشرّف عليه القصبة « بشارع المنصور » "Calle de Almanzur"



المرية . منظر عام لحدائق القسبة وأسوارها الخارجية



المرية . منظر الميناء ، وقد أشرفت عليها أطلال القسبة

وقد غرست في فناء القصبه الكبير ، وهو الفناء الأول السفلى ، الأشجار والخضرة اليانعة ، ونسقت منه حديقة جميلة متصاعدة ، تضم شجيرات مما ينبت في التربة الوعرة ، وشقت خلالها السلالم المتدرجة ، يصعد منها إلى الطبقة العليا ، وقد كان هذا القسم أيضاً هو موقع الحديقة القديمة .

ونصب فوق أعلى السور المتوسط في نهاية الفناء الكبير صليب ، وتحته جرس على شكل برج صغير .

وإلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من أطلال القصبه ، توجد مجموعة أخرى أصغر منها ، وتقع في شمالها على ربوة عالية منفصلة عنها ، وبها خمسة أبراج صغيرة ، وقد نصب على قاعدة أمامية فيها تمثال للقديس كرسطوبال .

وأسوار القصبه في حالة جيدة من الحفظ ، وتبدو مشارفها جميعاً متصلة منسقة ، وقد أجريت في الأطلال كلها أعمال تجديد أسبغت عليها رونقاً ورواء .

ويقع وراء هذه المجموعة الكبيرة من الأطلال من الناحية الشمالية ، بقية من أبراج وأسوار سفلية ، تصل بينها وبين القسم الآخر المواجه لها ، مما يدل على أن القسمين كانا متصلين في الماضي ، وأنهما كانا يؤلفان معاً جهة دفاعية منيعة .

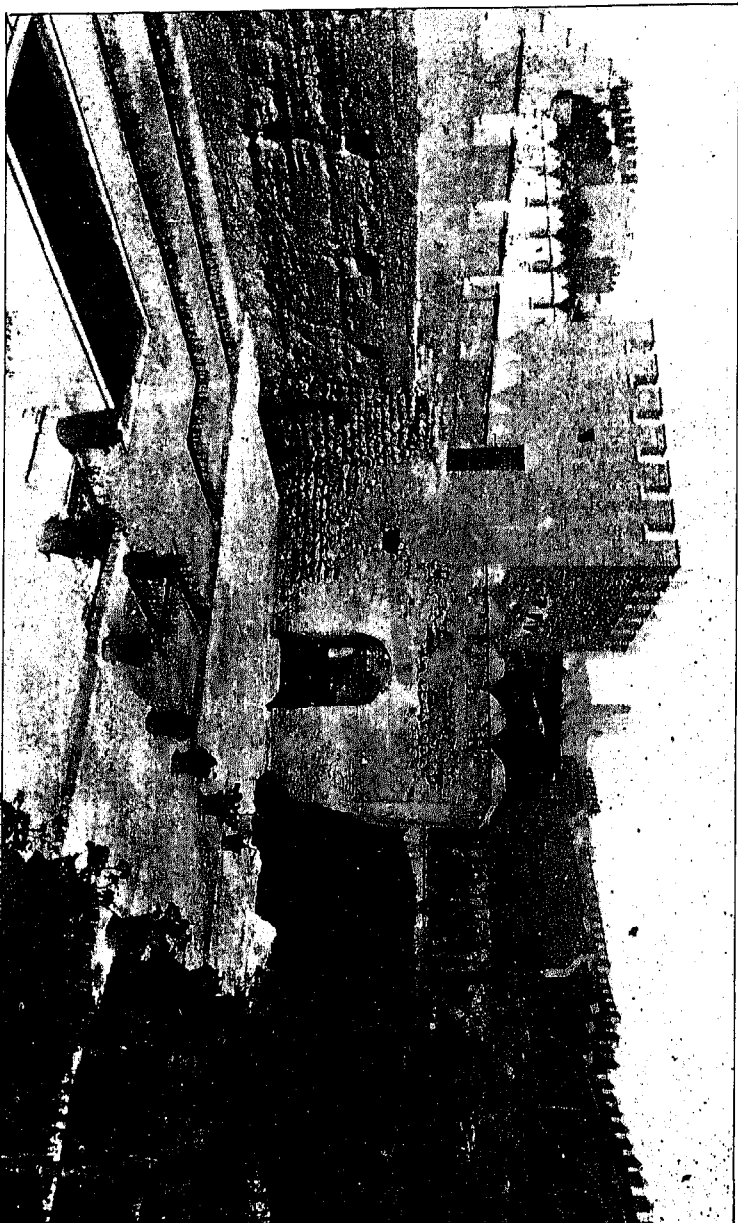
ولم نجد بالأسوار أو الأبراج أية زخارف أو نقوش عربية ، والظاهر أنها بحيت بمعنى الزمن ، ومن جراء أعمال التجديد والإصلاح ، التي قامت بها السلطات الإسبانية .

وقد ألقينا من أعلى القصبه على المرية الجميلة نظرة طويلة ، فإذا بها تبدو بشوارعها المنسقة ومنازلها الجميلة الوضاء في شكل بيضاوى ، ومن وراء ضلعها الكبير بسيط أخضر ، يليه البحر بمياهه الزرقاء الهادئة . ويقع الميناء في مواجهة القصبه ، ومن وراء الخليج المستطيل الذي تمتد على شاطئه المدينة من ناحية الشرق ، تبدو سلسلة من التلال القائمة .

والحق أنه كان منظرأً بالغ الروعة .

* * *

ولم نفتنا أن نزور كتدرائية المرية ، وهي تقع في وسط المدينة ، بين شبكة من الدروب الضيقة ، وهي مثل معظم الكنائس المماثلة قد بنيت على النمط القوطى ، وليست بها خواص تاريخية أو أثرية مميزة . والمرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد



المرية . منظر عام لواجهة القصبية الأندلسية (قصبة خيران المسمى) وقد ظهرت بها الأبراج والمدارس الباقية

المرية الجامع ، جرياً على القاعدة التقليدية التي اتبعتها اسبانيا النصرانية في سائر مدن الأندلس .

بيد أنه يقال من جهة أخرى إن كنيسة سان خوان ، وهي إحدى كنائس



المرية . الكتدرائية أو الكنيسة العظمى

المرية القديمة ، هي التي بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع . ويقول الأستاذ جومث مورينو تأييداً لهذا الفرض إنه توجد في هذه الكنيسة آثار بناء سابق ، يرجع إلى أوائل القرن الحادي عشر ، وهو الوقت الذي جدد فيه خيران العامري المسجد (١) .

وهناك في نهاية المدينة على طريق مالقة ، يقوم طلل قديم دارس ، فوق ربوة عالية تطل على البحر ، ويطلق عليه اسم حصن سان تلمو "Castillo de San Telmo" ويقولون إنه من آثار المسلمين . وقد صعدنا إلى أعلى الربوة

رغم ارتفاعها الشاهق ووعورة مسالكها ، لنفحص هذا الطلل ، فإذا به عبارة عن أسوار قديمة مربعة بينها فراغ ، ولا يدل منظرها أو بناؤها على أية أهمية أو خاصة أثرية .

R o n d a

تقع مدينة رندة غربى مالقة ، تفصل بينهما منطقة تمتاز بوعورتها ، وكثرة جبالها وآكامها ، وقلة بسائطها ، ووديانها القفرة السحيقة ، وهى تكاد تخلو من الرقاع الخضراء ، إلا بعض غابات الزيتون المتناثرة هنا وهناك . وتبدو البسائط قبل رندة بقليل ، ولكنها بسائط صفراء ، تتخللها فى نفس الوقت منحدرات مدرجة ، وكلها مغطاة بأشجار الزيتون ، وليست بها أية زروع أخرى .

وقد كانت رندة من أهم القواعد الأندلسية الثالثة ، ثم كانت بعد ذلك من أهم مدن مملكة غرناطة الإسلامية ، وكانت معقلاً حصيناً يحمى مالقة من الغرب . فلما سقطت رندة فى يد القشتاليين ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (أبريل سنة ١٤٨٥ م) بعد حصار قصير ، أصبح الطريق ممهداً لاستيلاء النصارى على مالقة ، وقد سقطت فعلاً فى أيديهم بعد أمد قصير فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس سنة ١٤٨٧ م) .

وتتمتع رندة بموقع طبيعى رائع ، فهى تقع فوق منطقة من الربى المرتفعة ، تحيط بها الوديان السحيقة والآكام العالية ، تتخللها قليل من البسائط ، التى تنمو بها زروع ضئيلة ، ويشقها من وسطها نهر وادى لبين "GuadaIebin" ، فى مجرى عميق ينساب إلى بطن الوادى السحيق ، وعليه قناطر ثلاث : الرومانية والعربية والحديثة . وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الأندلس سنة ١٣٥٠ م بقوله : « وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وصفاً » (١) .

وتتخذ رندة طابعاً خاصاً ، فهى مدينة يغلب عليها القدم والبساطة ، وتحفظ بكثير من طابعها وخططها الأندلسية القديمة ، فمعظم دروبها ضيق متعرج ، ومعظم منازلها منخفضة ذو طابق أو طابقين ، ويحتوى على الأفنية الداخلية ذات الأشجار ، والمزينة « بالموزايك » الأندلسى عند المدخل ، ولا يبدو فيها سوى القليل من المنازل الحديثة العالية .

(١) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٥ .

ورندة مدينة متوسطة الحجم ، مشرقة الطالع بالرغم من قدم طابعها ، يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طويل جداً ، يسمى في نصفه الأول بشارع "Paz de la Virgen" ، ثم يسمى بعد ذلك بشارع "Armiñan" . وهذا الشارع هو قلب المدينة وفيه المتاجر والمقاهي ، ويقع في منتصفه مسرح الثيران ، وهو أقدم مسرح من نوعه أنشئ في اسبانيا ، وكان إنشائه سنة ١٧٨٤ ، ويمتاز بمدخله المعقود ذي الزخارف الشبيهة بالمدجنية ، ويقع بعده بقليل متنزه المدينة وهو يشرف من عل على الوادي السحيق ، الذي يحده المدينة من الغرب وله مشرفيات بارزة مشبكة بالقضبان الحديدية ، تسمى الوسطى منها « منظره الملكين الكاثوليكين » .

ويتفرع من هذا الشارع الرئيسي شوارع جانبية عديدة ، لاسيما في الناحية اليسرى حيث تمتد الشوارع صاعدة طويلة . أما الناحية اليمنى ، فتمتد نحو الوادي العميق بضعة شوارع قصيرة ، وأهم الشوارع الجانبية اليسرى هو شارع "La Vela" التجاري ، وهو شارع ضيق يغص بالمتاجر ويمتد نحو كيلومتر . ويبلغ سكان رندة أكثر من ثلاثين ألفاً .

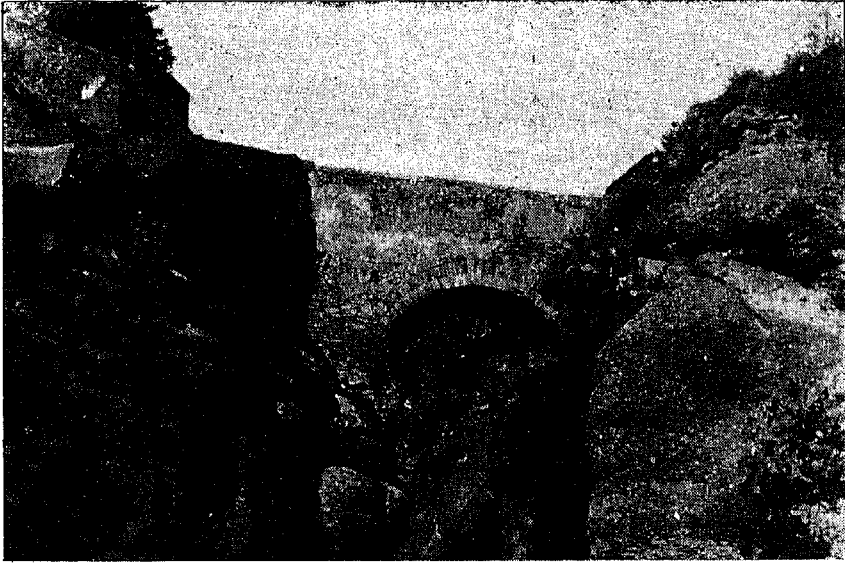
المعالم والآثار الأندلسية

وما زالت رندة فضلاً عن طابعها الأندلسي ، تحتفظ بطائفة هامة من الآثار الأندلسية .

وفي مقدمة هذه الآثار أطلال قصبة رندة الشهيرة ، وهي تقع فوق ربوة عالية تطل على الوادي السحيق ، الذي يقع جنوب غربي المدينة وتظله الآكام العالية . ولم يبق اليوم من هذه الأطلال ، سوى جزء من السور ، وثلاث بوائك ضخمة ، وبقايا أبراج دارسة . وفي أسفل هذه المجموعة من الأطلال ، يقع عقد باب من أبواب القصبة . وقد كان موقع قصبة رندة فيما يبدو وعراً جداً ، والظاهر أنها كانت تمتد إلى مسافة كبيرة على حافة الهاوية . وقد ذكر لي الأستاذ الأب رمباؤو ومدير معهد السلسيان الديني ، القريب من هذه الأطلال ، أن أسوار المدينة القديمة كانت تمتد من القصبة ، وأن هذا المعهد قد بنى فوق أنقاض فناء القصبة ، وما زال يسمى حتى اليوم «الحصن» "El Castillo" تنوياً بموقعه القديم . وتقع الكنيسة العظمى المسماة "Sta Maria la Mayo" في طرف المدينة

الجنوبي ، على مقربة من الحصن ، وهي أقدم كنائسها ، وقد بنى نصفها القديم وهو الذى به الهيكل ، فى أواخر القرن الخامس عشر ، فوق موقع جامع رندة القديم ، وأدمج فى بناء هذا القسم من أطلال الجامع أربع قباب عربية صغيرة ، ركبت فى سقف الكنيسة ، وهى ظاهرة وحييدة الطراز . أما القسم الآخر من الكنيسة فهو حديث .

والظاهر أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تقوم حول الكنيسة العظمى . مبتدئة من جانب القصبه حتى منزل المركز دى سالبترا الذى يجيء ذكره ، وحتى القنطرة العربية المجاورة له ، وأن أسوار رندة القديمة كانت تحيط بهذا القسم من المدينة . أما القسم الحديث من المدينة فهو الممتد من عند مدخلها حتى القنطرة الحديثة .



رندة . القنطرة العربية على نهر وادى لبين .

القنطرة العربية : وهى على صغرها من أهم الآثار الأندلسية الباقية ، وهى صخرية منيعة ، تقوم على النهر فى منخفض عميق ، عند مدخل المدينة الغربى ، وفى أضيق جزء من مجراه ، وهى ذات عقد واحد رائع بالغ الارتفاع ، والنهر يمر من تحها بين صخور وعرة شاهقة .

وتقع على مقربة منها القنطرة الأخرى المسماة « بالقنطرة الحديدية » ، فى وسط

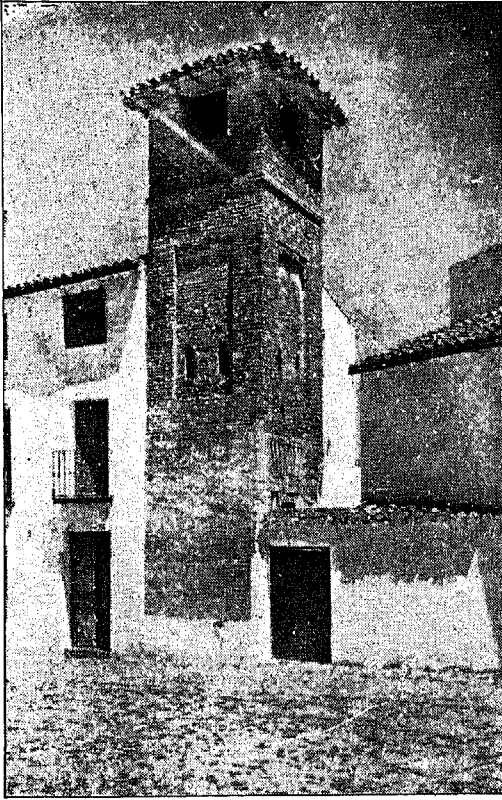
المدينة ، في امتداد الشارع الرئيسي ، وهي ذات عقدتين كبيرين ، وقد أنشئت في أواخر القرن الثامن عشر .

الحمامات العربية : وهي أطلال دارسة من حمامات أندلسية قديمة ، تقع في طرف رندة الجنوبي ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، في بسيط منخفض . وهي عبارة عن أربعة عقود متقابلة في صفين ، يظللها سقف مقبي ذو ثلاث بوائك ، وتتخلله كوات النور المعروفة ، وإلى جانبها مكان البركة ، التي كانت تمد الحمامات بالماء ، وتحتها الأسراب التي تستعمل للتصفية ، وقد أضحى هذا الأثر في حالة خراب ، يخشى أن تؤدي إلى انهياره في المستقبل القريب ، لأنه يقع في ملك خاص ولا يعنى بصيانته أحد .

وقد رأينا إلى جانب هذا الطال عدة أحجار وأنقاض أثرية ، بينها لوحة خشبية طويلة كتب عليها ما يأتي : « لا إله إلا الله . يا أيها المجلس . الحمد لله فإنك الطالع » .

المنارة : تقع هذه المنارة اليتيمة ، في نهاية المدينة قبيل الكنيسة العظمى بقليل في ميدان صغير ، وهي مربعة الشكل ، تقوم فوق الأرض مباشرة بين منزلين صغيرين ، ويبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً فقط ، ويوجد في وسطها في كل جانب من جوانبها الأربعة كوتان ، وقد سدت الكوات في جانبيين ، وبقيت في الجانبين الآخرين تدل على أصلها الإسلامي ، وعلى صفحتها كئذنة لمسجد صغير ، وقد حول المسجد فيما بعد إلى كنيسة ، واتخذت المئذنة برجاً للأجراس ، ثم هدمت الكنيسة ، وبقي البرج أو المئذنة القديمة . والظاهر أنها ترجع إلى عصر الموحدين ، إذ هي تشبه طراز مآذن عصرهم . ومما يجدر ذكره أن جزءها الأعلى هو الذي غير وحول إلى برج للأجراس ، وبقي جزؤها الأسفل على بنائه الإسلامي .

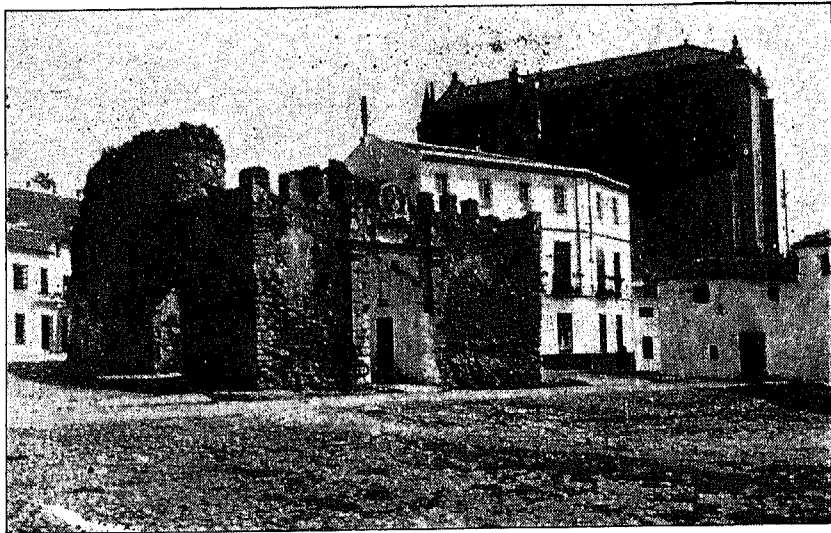
قصر الأمير أبي مالك : هو أثر أندلسي مغربي رائع ، مازالت خواصه ونقوشه الإسلامية ، باقية في أروع مظاهرها . وهو يعرف في رندة أيضاً باسم « منزل خيجانتي » « Casa del Gigante » ، وهو اسم الأسرة التي تملكه . ويقع هذا المنزل في طرف المدينة الجنوبي ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، في بعض الدروب الضيقة ، وله فناء أندلسي رائع يزدان أحد جوانبه بستة عقود عربية ، وقد زينت رؤوس أعمدها بالزخارف العربية الجميلة ، وفي بعض حناياها عقود



رندة . المنارة العربية



رندة . بقايا الحمامات العربية



رندة . باب المقابر من أبواب رندة الإسلامية

رخامية ، وعقود نوافذ صغيرة بها زخارف وكتابات عربية ، وتوجد بجوار الفناء قاعة نوم أندلسية ، ذات سقف خشبي مطعم بالمقرنصات الجميلة ، وفيها عقدان كبيران متقابلان قد غصا بالزخارف والكتابات العربية ، كذلك يوجد في أعلى جانبي القاعة كثير من النقوش الرخامية المتقطعة . ومعظم هذه الكتابات آيات قرآنية وأدعية وتحيات .

ويوجد في وسط الفناء حوض ماء قديم مربع الشكل . وبالمزمل برئ يمدده بالماء

وينسب هذا المنزل للأمير أبي مالك ولد السلطان أبي الحسن المريني . ونحن نعرف أن ابن الأحمر ملك غرناطة ، نزل عن مدينة رندة وحصونها إلى بني مرين ملوك المغرب ، في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، ثمناً لعونهم إياه ضد القشتاليين ، وبقيت في أيديهم حيناً ، وقد أقام الأمير أبو مالك برندة فترة من الوقت ، والظاهر أنه أنشأ قصره المشار إليه في هذا الحين ، واتخذة مقراً لإقامة .

ويرى بعض الأثرين من جهة أخرى ، أن هذا المنزل كان ملكاً لأحد أكابر المغاربة ثم استولى عليه بعد الفتح النصراني ، بعض الحكام النصراني ، وتعاقب في الملكية من بعده أعيان القشتاليين^(١) .

منزل الملك العربي : هذا المنزل حديث النشأة فخم بني على طراز شبه عربي ، وهو يسمى منزل مندراجون "Mondragón" ، ولا ندرى لماذا سمي أيضاً بمنزل الملك العربي "Casa del Rey Moro" ، لأنه بمحاذة عهده لا يمكن أن يمت بصلة إلى العصر الإسلامي . بيد أنه يوجد خلفه سلم حجري سحيق يتكون من ٣٦٥ درجة ، وينزل إلى النهر الواقع وراء المنزل ، وهذا السلم قديم العهد ، يرجع فيما يبدو إلى عصر بني مرين في رندة ، لأن الملك العربي الذي ينسب المكان إليه ، ربما كان أيضاً الأمير أبو مالك المريني ، وقد أحيط اكتشاف هذا السلم بقصص وأساطير مغرقة . وربما كان تفسير نسبة هذا المنزل للأمير المسلم ، أنه بني على أنقاض قصر إسلامي سابق .

منزل المركيز سالبيرا : ويقع بعد منزل الملك العربي بقليل على مقربة

(١) مجلة الأندلس (١٩٤٤) p. 473 . Al-Andalus

من النهر ، وهو قصر فخم ذو فناء أندلسى ، تزيينه من جوانبه الأربع عقود أندلسية بديعة .

باب المقابر Puerta de Almocobar : ويقع فى حى سان فرنسيسكو ، فى طرف المدينة الجنوبى الشرقى ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وهو ذو أربع عقود عربية ، ويوصف بأنه أحد الأبواب الثلاثة الرئيسية ، التى كانت مداخل رندة فى العهد الإسلامى .

وقد رأينا قبيل رندة وعلى مقربة منها فى الطريق إلى شريش ، طلالاً كبيراً يتكون من عقود عديدة . والظاهر أنه كان قنطرة رومانية قديمة .

١٧ - مدينة طريف

Tarifa

كانت طريف أو جزيرة طريف ، أول بقعة إسبانية وطئتها أقدام الغزاة المسلمين . ففي سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) عبرت حملة إسلامية صغيرة جهازها والى إفريقية موسى بن نصير ، البحر من سبته بقيادة طريف بن مالك ، أحد الضباط البربر ، ونزلت بالبقعة المقابلة فى اتجاه الغرب ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى التى سميت باسم قائد الحملة جزيرة طريف .

وتقع جزيرة طريف أو مدينة طريف ، فوق لسان منبسط أخضر ، يمتد فى البحر فى جنوب غربى المثلث الإسبانى ، وتقع قبالتها الجزيرة الخضراء فى الناحية الشرقية ، وتفصل بين الجزيرة الخضراء وطريف ، سلسلة من التلال المتصلة ، تتخللها بعض الوديان الصغيرة المنخفضة ، وهى بقعة جرداء لا تبدو فيها سوى بعض النباتات والحشائش البرية ، وترتفع هذه الهضبة تدريجياً حتى تعلو سطح البحر ، ثم تنخفض بعد ذلك على مقربة من طريف ، وتبدو فيها أشجار الزيتون تغطى بعض البساط والمرتفعات .

وطريف من المدن الأندلسية الثالثة . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية ، مثل جبل طارق والجزيرة ، ذات أهمية بحرية خاصة ، ومركزاً لنزول الخيوش المغربية العابرة ، وقاعدة من قواعد الوصل بين المغرب والأندلس ، وقد لبثت حتى أواخر الدولة الإسلامية تحتفظ بأهميتها الحربية ، وسقطت فى يد النصارى فى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) فى عهد ملكهم سانشو الشجاع ، ولم يستطيع المسلمون ، رغم تكرار المحاولة ، أن يستردها منهم بعد ذلك .

وهى مدينة صغيرة جميلة تبدو بيضاء مشرقة ، على خليج مستدير فى البحر ، وتكاد تحيط بها مياه البحر إلا من ناحية واحدة تحدها الجبال ، وتستطيع أن ترى من شاطئها جبال المغرب الواقعة ما بين سبته وطنجة . ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تقع تحت أسوار حصنها الذى ما يزال قائماً فى شرقها ، بينه وبين الكنيسة القديمة ، التى أصبحت اليوم طلالاً دارساً . وتقع كنيستها الرئيسية

الأخرى وهي كنيسة سان ماتيو في وسطها . وتخرق المدينة من الوسط عدة شوارع قصيرة ظليلة . وتخرقها من أطرافها دروب ضيقة متعرجة ، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو طابقين . ويقع شارعها الرئيسي خارجها ، ويمر من تحت « باب شريش » « Puerta de Jerez » ، وهو باب أندلسي قديم ، ذو ثلاثة عقود داخلية ، وقد أصلح وغيرت بعض معالمه العربية ، ووضعت عليه لوحة هذا نصها :

“Muy noble muy léal y heroica ciudad de Tarifa ganaba a
los Moros Sancho IV El Bravo en 21 Septiembre de 1292”

« إن مدينة طريف وافرة النيل ، وافرة الولاء والبسالة ، قد انتزعها من المسلمين سانشو الرابع « الشجاع » في ٢١ سبتمبر سنة ١٢٩٢ . »

وإلى ما قبل نصف قرن فقط ، كانت الأسوار الأندلسية التي تحيط بمدينة طريف ما تزال كلها قائمة ، ولكنها زالت اليوم ولم يبق منها سوى بضعة أجزاء ، تمتد إلى يسار باب شريش ، ومنها قطعة صغيرة بها عدة كوى ، يليها قطعة كبيرة يبلغ طولها نحو خمسين متراً ، وهي ممتدة نحو الداخل في اتجاه الحصن ، حيث يكاد يبدو اتصالهما القديم . وتؤلف هذه البقية من الأسوار مع الحصن مجموعة كبيرة من الأطلال الأندلسية . كذلك توجد إلى يمين باب شريش ، قطعة أخرى من الأسوار القديمة تتصل بمتنزه المدينة .

وتتفرع من باب شريش إلى داخل المدينة ، شبكة من الدروب الضيقة الصاعدة هنا وهناك ، وهي تمتاز بطابعها ومنازلها الأندلسية الطراز . ويبلغ سكان طريف زهاء خمسة عشر ألفاً .

الحصن

والأثر الأندلسي البارز في طريف هو الحصن ، وهو فيما يرجح بقية القصبية الأندلسية القديمة ، يدل على ذلك موقعه المنيع المشرف على المدينة ، والذي يحميه البحر من خلفه .

والظاهر من أوصاف الغزال أن القصبية الأندلسية ، كانت وقت زيارته لمدينة طريف في سنة ١٧٦٥ ، كاملة الهيكل والأبراج ، فهو يقول في وصفها :

« ولما وصلنا القصبية ، وجدناها باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله ، لها من الأبراج ثمانية عشر ، وقدر ارتفاع السور والأبراج عشر قامات ، وفيما بين البرج والذي يليه في نفس السور آجر مزدوج مرقوم ، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة ، وقدر مساحة الزليخ المذكور ، أربعة أدرج طولاً وعرضاً ، وبناء هذه القصبية من الحجر المنجور الشبيه بالرخام ، وبأعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفي : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً . أمر عبد الله عبد الرحمان الداخل أمير المؤمنين ... » وما بعده فمحو (١)

أما اليوم فإن حصن طريف عبارة عن قلعة صغيرة ، مازالت في حالة جيدة من الحفظ . وهو يقع على البحر ، وله فناءان كبيران ، ويدخل إليه من باب ذي عقد عربي ، وبعد الفناء الأول يدخل إليه من بابين متوالين معقودين ، وقد زالت سائر أبراجه العليا ، ولم تبق منها سوى آثارها ومواقعها ، ويتصل الحصن من جانبه الخلفي بأطلال أسوار المدينة القديمة .

وتوجد في حصن طريف لوحة رخامية عربية مثبتة في عقد بابه الداخلي مكسورة ومصححة : وقد كادت تمحى نقوشها الكوفية القديمة ، وقد جاء فيها ما يأتي :

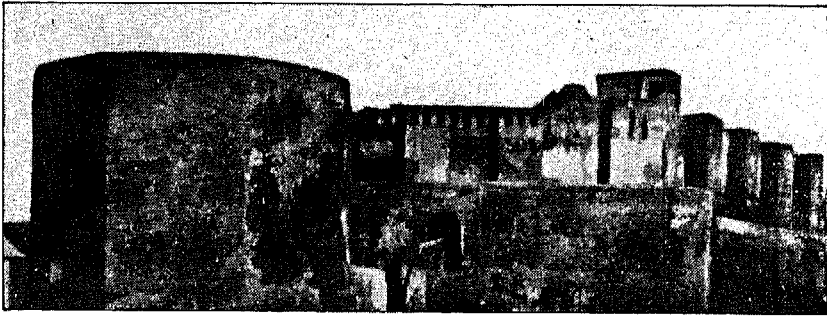
« بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله [بقاه] بينان هذا البرج فتم [بعون الله] في شهر صفر من سنة تسع وأربعين وثلث مائة على يدي وزيره عبد الرحمن بن خير مولاه » .

والظاهر أن الغزال قد وهم في قراءة هذا النص . أو أنه قرأ لوحة أخرى لا توجد اليوم .

ويستعمل الحصن اليوم مركزاً عسكرياً ، وتشغله فرقة من الجنود الإسبان . وتقع أمام حصن طريف في البحر ، جزيرة صخرية صغيرة محصنة يربطها بالمدينة جسر ضيق .



طريف . باب شريش ، وهو مدخل المدينة



طريف . منظر عام لبقايا الحصن الأندلسي

١٨ - الجزيرة الخضراء

Algeciras

كانت الجزيرة الخضراء حينما عبر المسلمون إلى الأندلس ، محلة رومانية دارسة ، فجددها المسلمون وأنشأوا بها مدينة زاهرة ، استمرت قرونًا في مقدمة الثغور الجنوبية . وزادت أهميتها في أواخر عصر الدولة الإسلامية ، لأنها كانت إلى جانب جبل طارق وطريف ، قاعدة للاتصال بين المغرب والأندلس .

وسقطت الجزيرة الخضراء في يد القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م) ، عقب موقعة « سالادو » الشهيرة ، التي هزمت فيها جيوش المغرب والأندلس ، بقيادة السلطان أبي الحسن المريني والسلطان يوسف أبي الحجاج . واستولى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وخرّبها ، وحول مسجد الجامع إلى كنيسة ، سميت كنيسة « Sta. Maria de las Palmas » (القديسة مريم ذات النخيل) ، وهى التى غدت فيما بعد كاتدرائية . ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين استعملوا فى هذه الموقعة ، ما يسمى فى تاريخ الأندلس « بالأنفاظ » ، وهى آلات تقذف النار والحديد ، ويقال إن الأندلسيين كانوا قد توصلوا يومئذ إلى اكتشاف البارود ، وإن الأنفاظ لم تكن سوى نوع من المدافع البدائية .

واستمرت الجزيرة الخضراء أطلالا خربة ، حتى أعاد الإسبان بناءها فى سنة ١٧٦٠ ، فى عهد الملك كارلوس الثالث . وهذا هو السر فى أن الجزيرة الخضراء ، تبدو مدينة نصرانية حديثة لاصلة لها بالعهد الإسلامى ، وليس فيها آثار أندلسية أو غيرها . وقد بنيت كنيستها العظمى « Iglesia Mayor » على موقع الكاتدرائية القديمة ، وبنيت على طراز الجامع ، ذات عقود عربية ، وهى تقع على ربوة فى الجانب الأيسر من المدينة . والظاهر أن المدينة الإسلامية القديمة كانت تقع حول هذه الربوة ، حيث تحتل الكنيسة العظمى موقع المسجد الجامع .

ومدينة الجزيرة ثغر كبير ، يقع على خليج داخلى مستدير ، تجاه جبل طارق ، التى لاتبعد عنها بالبحر أكثر من ستة أميال ، وتقع من ورأها سلسلة من التلال ، فى سفوحها بسيط أخضر ، ينمو فيه القمح وغابات الزيتون ،

وشوارعها صاعدة نحو الربوة ، ومنازلها بيضاء على الأغلب ، وميادينها صغيرة تقوم فيها أشجار النخيل . وأمامها في الخليج جزيرة صغيرة بها عدد من الأبنية ، ويربطها بها جسر كبير .

وتقع الميناء شمال المدينة ، وهي ميناء متوسطة ترسو بها السفن الكبيرة . وتربط الجزيرة خطوط بحرية منتظمة بثغور المغرب الشمالية ، ولاسيما سبتة وطنجة ، وهي معبر إسبانيا المفضل إلى المغرب .

ويبلغ سكان الجزيرة مثل طريف زهاء خمسة عشر ألفاً .

ويصل الجزيرة بثغر قادس طريق سيارات معبد ، يمر بطريف ثم يخترق بسائط الفرنتيره ، في الناحية الأخرى من المثلث الإسباني ، ماراً ببلدة فيخير الفرنتيره ، ثم بشكلانا ، ثم بسان فرناندو ، وهو خلال ذلك يخترق بسائط خضراء تتخللها التلال من آن لآخر ، وتتخللها مزارع القمح وغابات الزيتون . ومنذ سان فرناندو تبدو منطقة شاسعة غنية بالملاحات العظيمة حتى ثغر قادس .

١٩ - جبل طارق

Gibraltar

لم تكن جبل طارق أول بقعة من شبه جزيرة الإسبانية نزها الغزاة المسلمون ، وإن كانت أول بقعة نزها الجيش الإسلامي الفاتح . أما أول بقعة إسبانية نزها المسلمون فهي جزيرة طريف ، أو مدينة طريف الإسبانية ، التي تقع جنوبي ثغر الجزيرة في الطرف الغربي لمضيق جبل طارق ، والتي سبق الحديث عنها .

ولأنك لتسطيع أن ترى صخرة طارق ، من شاطئ ثغر سبتة الإفريقي ، تراها كالغمام القاتم ، يعترض البسيط الأزرق الشاسع من مياه البحر الأبيض المتوسط ، فإذا صوبت نحوها البصر من الجزيرة الخضراء ، وهي التي تقع مقابلها في الطرف الآخر من الخليج ، فإنك ترى أمامك أروع منظر يمكن تصوره .

ترى صخرة طارق رابضة في البحر ، جاثمة على شكل أسد عظيم ، رأسه نحو الأرض الإسبانية ، وذيله نحو البحر ، وتراها غابسة مروعة تحت أشعة الشمس الساطعة ، كأنها تذكر كل من يرنو إليها بقوتها ومنعتها التي لا تقهر .

وقد كان من الطبيعي أن تكون جبل طارق ، معبر الغزاة المسلمين إلى الأرض الأوربية ، فهي أول بقعة تراها العين من الشاطئ الإفريقي ، وهي بموقعها الصلد ، ومرفأ المنيع ، تعتبر قاعدة برية وبحرية من الطراز الأول .

عبر طارق بن زياد فاتح الأندلس ، بجيشه من سبتة إلى الصخرة المقابلة في شهر رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل سنة ٧١١ م) ، فسميت الصخرة الوعرة الهائلة باسمه جبل طارق ، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم ، محرفاً بالإفريقية "Gibraltar" .

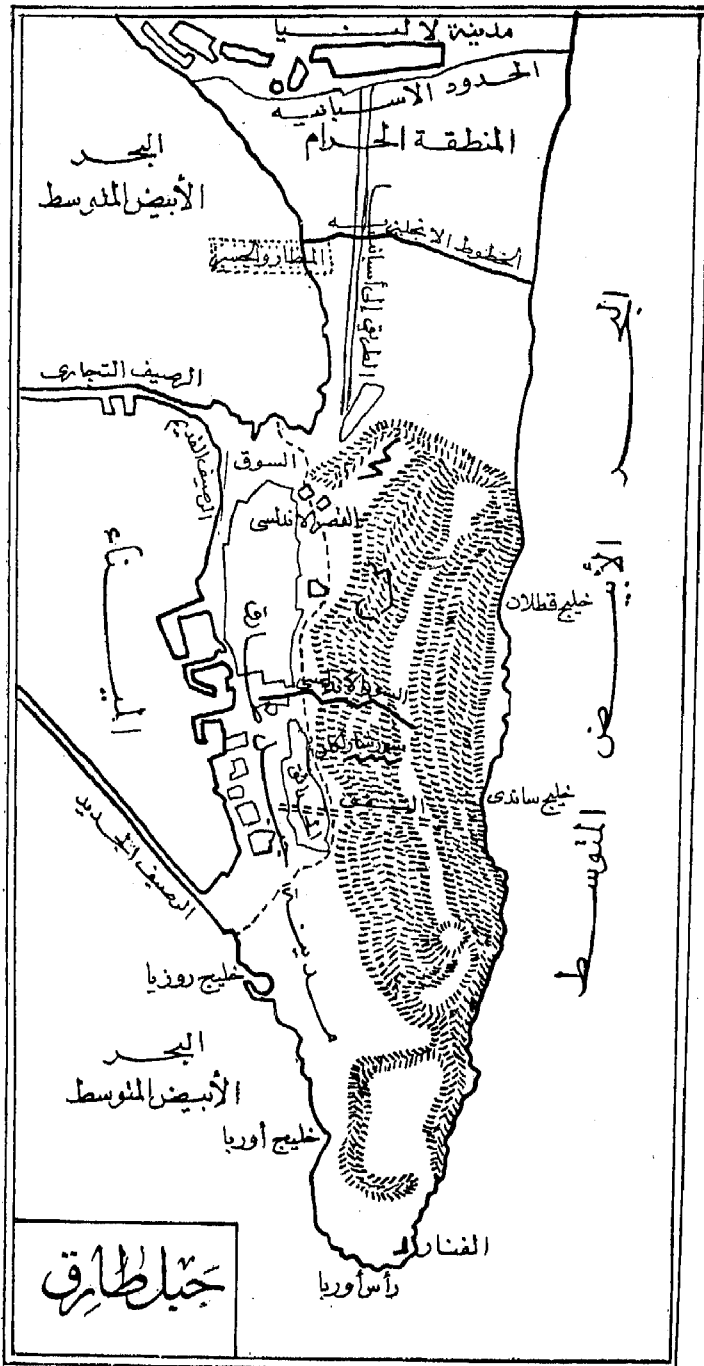
وقد كانت صخرة طارق قبل أن يعبر إليها الغزاة المسلمون ، وقبل أن يطلق عليها اسم الفاتح المسلم ، تعرف في الجغرافية القديمة بجبل كالي "Mons Calpe" وتسمى مع جبل أتيليا المقابل لها في الساحل الإفريقي ، بأعمدة هرقل ، وكان الأقدمون يعتبرونها نهاية العالم من الغرب ، ويجاريهم بعض الجغرافيين المسلمين في ذلك ، فيسمى ما وراء جبل طارق من مياه المحيط ، ببحر الظلمات ، ويعتبرونه منطقة غامضة لانهاية لها .



وقد لعب جبل طارق في تاريخ الأندلس دوراً عظيماً ، وكان دائماً معبر الجيوش الإسلامية ، من المغرب إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان يعتبر مفتاحها من الجنوب . ولم يكن جبل طارق أيام الدولة الإسلامية ، سوى قاعدة عسكرية برية وبحرية ، وقد أنشأ بها المسلمون منذ عصر الفتح حصناً عظيماً فوق سطح الصخرة الأوسط من ناحيتها الشمالية الغربية ، وأسواراً ضخمة كانت تسمى أسوار العرب . وفي أواخر سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) عبر إليها عبد المؤمن بن علي أعظم خلفاء الموحدين ، وذلك على أثر استرداده لثغر المهديّة من الفرنج ، وافتتاحه لسائر قواعد إفريقية (تونس) . وكان الخليفة قد أرسل خلال حملته المذكورة ، في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ، كتاباً إلى ولده السيد أبي سعيد وإلى غرناطة ، بأن يقوم ببناء « مدينة كبرى » بجبل طارق ، تكون « منزلاً للأمير عند إجازته العساكر » ، وكتب في نفس الوقت إلى ولده السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية ، بأن يستنفر جميع العرفاء والفعلة من كل ضرب ، ومن جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين لهذا الغرض . وندب لوضع خطط المدينة الحديدية ، والإشراف على بنائها ، عدة من أكابر المهندسين مثل الحاج يعيش المالقي ، وأبي إسحق برآز بن محمد . وتولى النظر على أعمال البناء العريف أحمد بن باسة الإشبيلي . قال ابن صاحب الصلاة :

« وابتدأوا البناء في الموضوع الذي وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه بسيف البحر مما يلاصقه ويليه . . . وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والأديار ، واخترعوا في أسسها طيقانا وحنانيا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والحيار ، بما هو عجب من الآثار . . . واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح ، في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحرق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً في المعقل التي لا يتمكن أطامع فيه طمع . . . » . واستمر العمل شهوراً مهمة مضاعفة ، حتى تم بناء المدينة الحديدية في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر ١١٦٠ م) ، وابتني بها جامع وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجلب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحسين الصخرة أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة ، جبل الفتح أو مدينة الفتح . ولما كمل بناء المدينة ، في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ ، عبر إليها الخليفة عبد المؤمن من ثغر سبتة . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكبه في ذلك اليوم المشهود . وأقام الخليفة بجبل طارق ، أو بجبل الفتح ، شهرين يتلقى وفود الأعيان والعلماء والأكابر من أهل الأندلس ، وأشياخ الموحدين من السادة والقادة والحفاظ والطلاب والحند ، وأنشد الشعراء قصائدهم بين يديه^(١) ، وكانت فترة إقامته بالجبل من أيام الأندلس المشهودة . ولبت جبل طارق بعد ذلك أحقاباً أخرى ، قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب ، تعبر إليه الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي ، تتوالى حملات اسبانيا النصرانية لافتتاح هذا المعقل العظيم ، ويتفانى المسلمون في الدفاع عنه ، لشعورهم بأهميته وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم . وفي سنة ١٣١٠ م استولى القشتاليون لأول مرة على جبل طارق . ثم استرده الأندلسيون بمعاونة السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب في سنة ١٣٣٣ م .

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، وصفاً ضافياً لمقدم عبد المؤمن إلى جبل طارق ، وحضور الوفود لديه ، والقصائد التي ألقيت بين يديه . (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١ وما بعدها) . وراجع في ذلك « الحلل الموشية » ص ١١٨ ؛ والإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ١٦٠ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ، وكذلك الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٢١ .



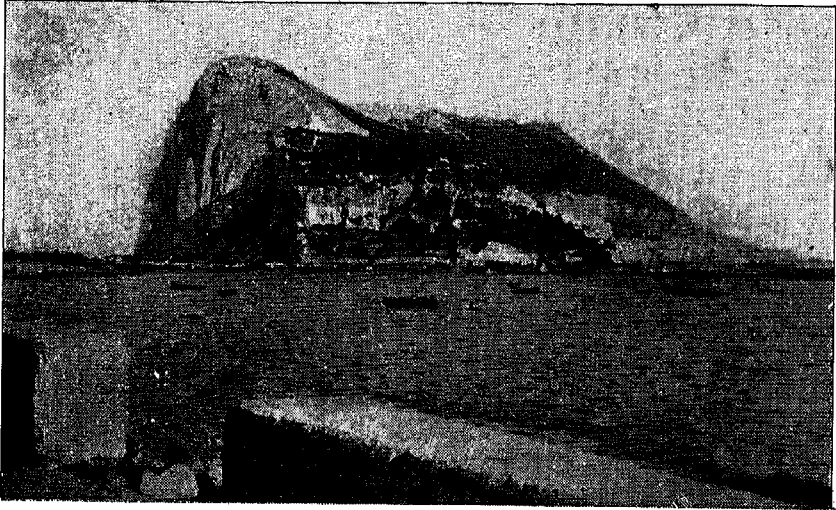
وجدد السلطان أبو الحسن الحصن ودار الصناعة والأسوار ، ثم جدها ولده السلطان أبو عنان . واستمر جبل طارق في يد المسلمين بعد ذلك زهاء قرن وثلث . وفي سنة ١٤٦٢ م ، استولى الإسبان أخيراً على جبل طارق ، وكان فقده ضربة شديدة للأندلس ، وكان من م مهدات سقوطها الأخير .

وبقي جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الإسبان ، حتى استولى عليه الإنجليز والهولنديون خلال حرب « وراثة العرش الإسباني » في سنة ١٧٠٤ . ثم ضمته إنجلترا إلى أملاك التاج ، وما زالت تقبض عليه حتى اليوم بيد من حديد . ولم تنجح محاولات اسبانيا أيام قوتها في استرداده ، وكانت أشهر محاولة قامت بها في ذلك السيل سنة ١٧٧٩ ، حيث استمر حصارها للصخرة زهاء أربعة أعوام ، ولكنها أخفقت في النهاية ، ولم تقع من ذلك التاريخ أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق ، وهو اليوم بوضعه الحالي مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني ، يعين له حاكم من قبل التاج .

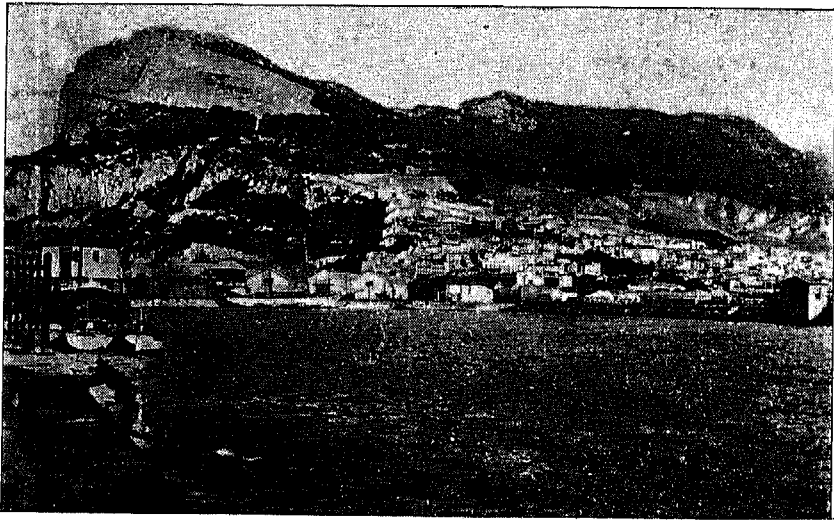
* * *

وليس جبل طارق سوى لسان صخري وعر ، ممتد من طرف اسبانيا الجنوبي في البحر زهاء ثلاثة أميال ، ويتراوح عرضه بين ربع ميل وثلاثة أرباع الميل ، ويبلغ ارتفاعه من الجنوب نحو أربعائة قدم ، ومن الوسط نحو ألف قدم ، ومن الشمال نحو ألف وهايتي قدم . وكما أنه يمكن الوصول إليه من البحر ، فكذلك يوصل إليه من البر الإسباني بالسيارة من الجزيرة ، في طريق بديع تظله الأشجار الباسقة ، يمتد على الخليج تجاه الصخرة ، وتحف به الجبال من الناحية الأخرى ، في سفوحها المروج اليا نعة ، ويمر ببلدة لوس باريوس "Los Barrios" ، ثم ببلدة سان روكي "San Roque" ، وينتهي بمدينة « لالنيا » "La Linea" نهاية الأرض الإسبانية :

ومتي جزت مدينة لالنيا ، وهي مدينة متوسطة الحجم ، مشرقة ، مستطيلة الرقعة ، ألفت نفسك تجاه الصخرة الهائلة من ناحيتها الشمالية ، تفصلها عن لالنيا شقة حرام ، تمتد بجوار الصخرة نحو سبعمائة متر ، ويبلغ عرضها نحو اربعمائة متر . ثم تبدأ بعد ذلك الحدود الإنجليزية ، وتسير بك السيارة بضع مئات أخرى من الأمتار ، وعن مينك ساحة المطار ، يليها لسان طرا نحو اربعمائة متر ، يمتد



جبل طارق . منظر الصخرة كما يبدو من البر الإسباني المواجه .



مدينة جبل طارق في أسفل الصخرة والميناء

داخل البحر ، ويحمى أرصفة الميناء والرصيف التجارى ، ثم الرصيف الشمالى ، ثم الرصيف المنفصل ، يليه الرصيف الحديد أو الرصيف الجنوبي ، وكلها ضخمة تأوى أعظم السفن . وبعد اجتياز هذه المسافة القصيرة ، تجد نفسك إزاء مدينة جبل طارق .

أجل مدينة جبل طارق . ذلك ان الإنجليز قد أنشأوا مدينة حقة ، فى السفح الممتد غربى الصخرة ، مدينة حديثة بكل معانى الكلمة ، تمتد من المطار فى شكل قوس مفتوح ، يلاصق الصخرة ويشرف على البحر ، حتى الحسرى الجنوبي بطول يبلغ نحو ثلاثمائة متر . ويحترق هذه الرقعة شارع طويل واحد يسمى « الشارع الرئيسى » "Main Street" ، وهو شارع مشرق نظيف يغص بالمناجر والمقاهى ، ويزخر بالبضائع والحركة . ويتفرع من هذا الشارع الرئيسى على الجانبين ، عدة شوارع قصيرة أو أزقة "Lanes" ، تسمى كلها بأسماء إنجليزية مثل "College L." "Bell. L., Parliament L., Market L." إلى غير ذلك . وتقع معظم دوائر الحكومة مما يلى البحر ، وينتهى هذا الشارع الطويل بالأبواب الجنوبية "South Gates" ، وهى عبارة عن أربعة عقود ، منها اثنان صغيران قديمان ، وقد جددا فى أواخر القرن الماضى حسبما رقم عليهما ، والآخرا حديثان ، ويتصل الأولان بجزء من السور القديم الذى يسمى « السور الأندلسى » . ومن ورأيهما قاعدة من الأسوار القوية كتب عليها « الدعامة الجنوبية » "S. Bastion" (سنة ١٥٤٠) ، وهذه يرجع تاريخها إلى عصر الإمبراطور شارلكان .

ويتمد الطريق بعد ذلك زهاء ميل آخر . وينتهى بالحوض الحاف و « الفناء » . وهذا الطريق عريض تقوم على جانبيه المباني الضخمة ، والعمارات الشاهقة ، فى سفح الصخرة . وتقع فى بدايته الحداثق والمنزهات المسماة « ألميدا » "Alameda" وجانب المدينة الذى يلى البحر ، يزخر بالمخازن والمصانع ، والمهام البحرية الضخمة ، والمراكز والإدارات العسكرية .

والخلاصة أن مدينة جبل طارق تبدو بالرغم من ضيق رقعتها المستطيلة ، بتخطيطها البديع ، وشوارعها المنسقة المغطاة بالمكدام ، وأحيائها ومنتدياتها الأنيقة المشرقة ، كأحسن ما تبدو المدينة الأوربية الراقية .

ولا توجد فى الناحية الشرقية من الصخرة ، سوى محلة صغيرة تسمى

« كاتلان باى » "Catalan Bay" .

ويبلغ سكان جبل طارق اليوم ثلاثين ألفاً ، منهم الحامية وعددها سبعة آلاف ، والباقي من السكان المدنيين . وهؤلاء خليط من الإسبان سكان جبل طارق الأصليين ، ومن المالطيين والحنويين ، وقليل من الإنجليز ، وبعض العناصر الأخرى . والإسبان في جبل طارق أرقى من مواطنهم وأوفر تمدناً ورخاء ، ولكنهم يتكلمون إسبانية رديئة ، كما يتكلمون إنجليزية رديئة . هذا ولا بد لنا من أن نسجل هنا ما لاحظناه من أن هذا الشعب الخليط من سكان جبل طارق ، يبدو بالرغم من مظاهره التمدنية ، شعباً خشناً نزقاً ، قليل الرقة والمجاملة ، وهو ما يلاحظ عادة في المرتزقة من سكان الموانئ .

وإلى جانب سكان جبل طارق المقيمين ، يفد على المدينة كل يوم نحو خمسة عشر ألفاً من الإسبان ، ممن يبيعون مختلف المؤن والسلع ، ومن يعملون في الميناء والأحواض ، ثم يعودون في المساء إلى الأرض الإسبانية .

الآثار الأندلسية

ولا تخلو جبل طارق من الآثار الأندلسية الباقية : فهناك بقايا الحصن الأندلسي أو القصر الأندلسي أو المغربي "Moorish Castle" ، وهو عبارة عن قلعة حصينة ، تقوم فوق ربوة عالية تقع على مقربة من الطرف الشمالي الغربي للصخرة ، ومن تحتها سرايب وعقود عربية ، ويستعمل جناحها الأسفل سجناً مديناً . ويشرف طلال برجها الرئيسي على ساحة السجن في ارتفاع شاهق . وبدل تخطيط القلعة وحافاتها ، على أنها قد ترجع إلى عصر الموحدين ، حيث ابنتى خليفتهما عبد المؤمن بن علي بالصخرة حسبما تقدم ، قلعة وقصراً . بيد أن بعض الأثرين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية وأنها قد أنشئت فيما يبدو في عصر السلطان يوسف أبي الحجاج ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر (١) . والمرجح أيضاً أن يكون هذا البناء ، قد أقيم على بناء أنقاض القصبية الأندلسية القديمة ، التي أقيمت منذ عصر الفتح . وتنحدر أطلال القلعة إلى أسفل لتتصل بأطلال أخرى ، يبدو أنها برج حرس أو ما يشبهه .

(١) هذا رأى الأستاذ توريس بالباس في مقال له عن جبل طارق ونشأتها وتاريخها . راجع مجلة :

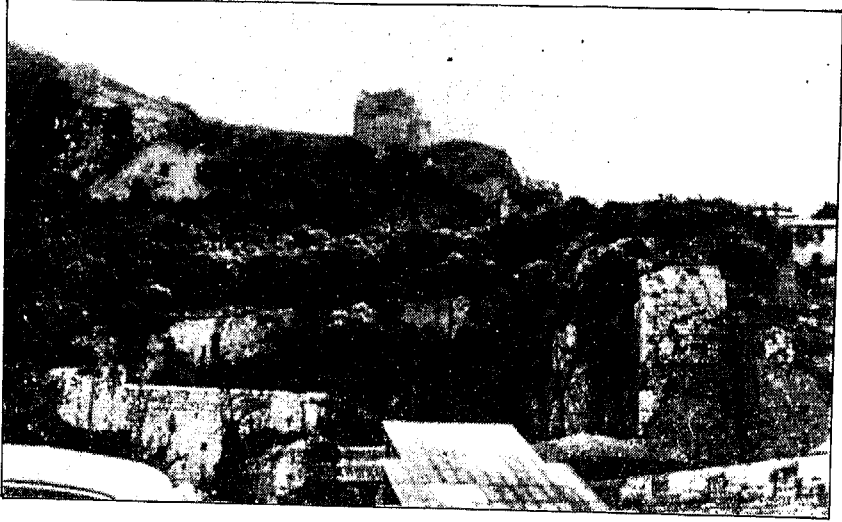


جبل طارق . بعض عقود الحمامات الغرناطية (القرن الرابع عشر)

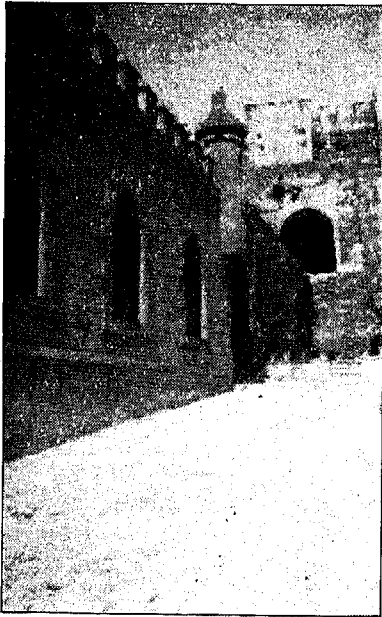
ويشرف القصر الأندلسي من على ، على صفوف متعاقبة من المباني المتدرجة فوق سفح الصخرة ، والتي تتصل في النهاية بميدان "Casement" ، وهو أكبر ميادين جبل طارق ، ومن ورائه يرتفع جانب الصخرة العليا التي تحدد الجبل من الشمال

ويوجد أثر أندلسي آخر لا يقل أهمية عن الحصن وهو الحمامات العربية . وتقع هذه الحمامات تحت بناء متحف جبل طارق ، وهي عبارة عن صفين من العقود العربية ، يتكون كل منهما من ثلاثة عقود ، وتجمعها قبة منخفضة . وهذا الطلل في حالة طيبة من الحفظ ، ولكن ليست به أية نقوش . وترى مجرى المياه محفوراً في الوسط والجانب الأيمن . وإلى جانب البناء المعقود ، يوجد بهوان كبيران ، ربما كانا يستعملان لتجهيز الماء الحار والبارد ، وأحدهما ذو سقف تتخلله كوات معقودة .

وتقوم عقود هذا البناء على أعمدة رومانية فيما يظهر ، يدل على ذلك خلوها من النقوش العربية . وقد وصف هذا الأثر في الرقعة الخاصة به ، أنه يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي . ولكن الأستاذ توريس بالباس يرى بالعكس أن هذه



جبل طارق . منظر الحصن الأندلسي من أعلى الصخرة



إحدى واجهات الحصن الأندلسي



مدخل الحصن الأندلسي

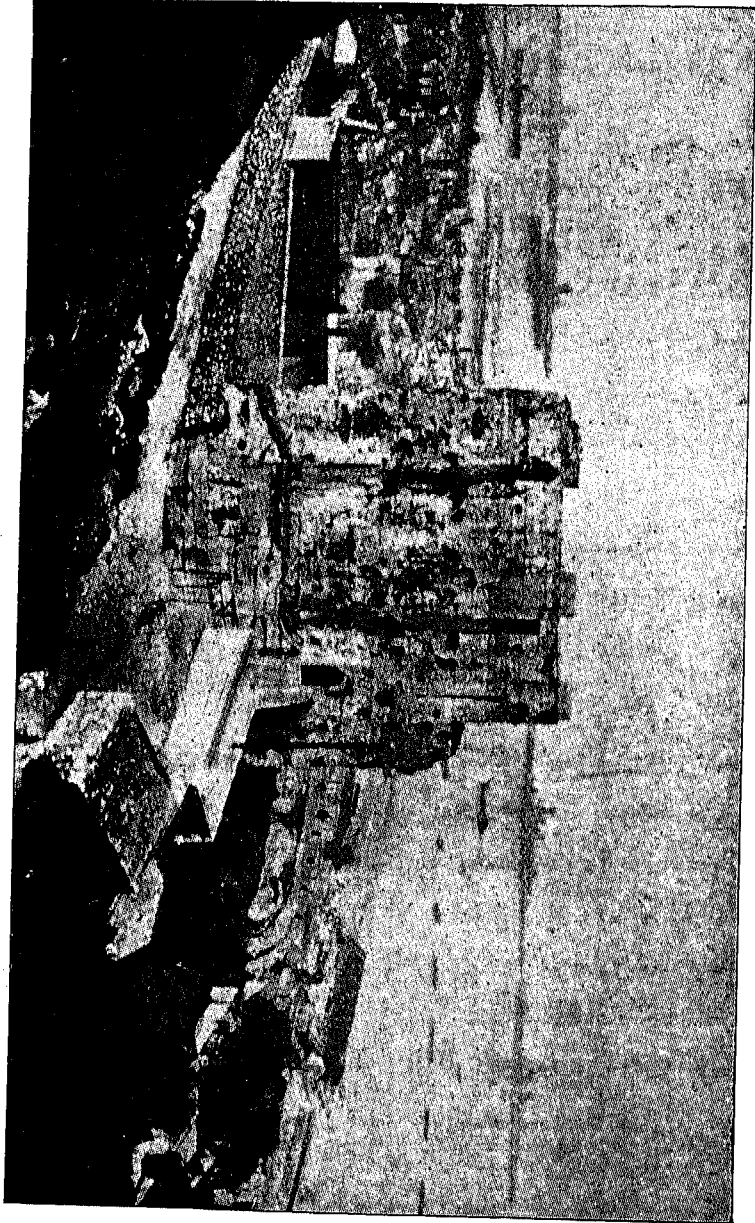
الحمامات من طراز غرناطي يشبه طراز حمامات الحمراء ، وأنها ترجع إلى نفس العصر الذي أنشئت فيه التحصينات أي إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج (١).
وأما عن الأسوار الأندلسية القديمة ، فقد رأيت أنه مازال ثمة قطعة من الأسوار تتصل بالأبواب الجنوبية ، وتسمى بالبور الأندلسي أو المغربي ، وهذه التسمية دليل على أصلها العربي . ويمتد هذا السور من وسط الصخرة منحدرًا على سفحها حتى الأبواب الجنوبية في اتجاه البحر ، في قطع وأطلال متصلة ، ويحترق الطريق الرئيسي الذي يشق وسط الصخرة من الجنوب إلى الشمال .

وقد كانت توجد في سفح الصخرة الغربي ، على مقربة من البحر اسوار أخرى هدمت ولم يبق لها اليوم أثر ، ولكن يدل على موقعها الأبواب التي تسمى « أبواب الماء » "Water Gates" ، وهذه تقع وراء الميدان الكبير المسمى ميدان « كاسمنت » "Casement" ، وهي عبارة عن صفيين من عقود ثلاثة ، بينهما مسافة ٤٠ مترًا ، وكان الصف الأول منها يطل فيما مضى على الماء قبل امتداد الرقعة اليابسة ، ويسمى لذلك أبواب الماء ، وهذه الأبواب العربية القديمة تعين مكان السور الغربي . ثم خربت هذه الأبواب بمضى الزمن فأزيلت ، وأنشئت مكانها الأبواب الحالية ، وسميت أبواب « كاسمنت » باسم الميدان الذي يقع وراءها ، ويقع هذا الميدان الذي تؤدي إليه أبواب الماء في الشمال الغربي للصخرة ، تحت الربوة التي يقوم عليها « القصر الأندلسي » . وأبواب كاسمنت هي مدخل مدينة جبل طارق الحقيقي ، وقد سجل الإنجليز في لوحها التذكارية ، أنها بنيت على موقع « أبواب الماء القديم » ، كما عينوا مكان الأسوار الأندلسية القديمة ، بتسمية الطريق الذي يجرى مكانها ، وهو الذي يحاذي البحر والميناء ، « بطريق خط السور » "Line Wall Road" .

معالم أخرى

ويوجد في جبل طارق متحف في البناء الذي يقوم فوق الحمامات العربية ، وهو عبارة عن متحف حربي محض ، به نموذج بديع للصخرة وخططها ، ونماذج من السلاح التي لها علاقة بتاريخ جبل طارق ، ولاسيما نماذج السلاح التي استعملت

(١) الأستاذ توريس بالباس في مقاله السالف الذكر.



جبل طارق . الحصن الأندلسي وفي أسفله المدينة والبيضاء من الناحية الغربية

في الحصار الكبير سنة ١٧٨٣ ، وطائفة من الوثائق التاريخية الهامة التي تتعلق بهذا الحصار ، من أوامر عسكرية وتقارير للقادة وغيرها . ومن المدهش أن يضم المتحف « موميائين » مصريتين ، قيل لنا إنهما سقطتا من إحدى السفن التي كانت قادمة من مصر إلى إنجلترا .

وهن أروع ما رأيناه في الصخرة المغار العظيم الذي يوجد في وسطها ، وهو مغار طبيعي عميق واسع الجنبات رائع الشكل قد أُنير بالكهرباء .
وفي بطن الصخرة توجد خزانات المياه العظيمة التي أنشئت في سنة ١٩٠١ ، لتمد مدينة جبل طارق بالماء العذب طوال العام ، وهي خزانات عديدة ضخمة تصب فيها مياه الأمطار التي تجتمع في نهيرات صغيرة تفضى إليها ، ويوزع الماء بواسطة المواسير الضخمة في شعب المدينة ، وهو عمل عظيم يكفي المدينة كل موئتها من الماء .

* * *

وبعد فقد بسطنا القول نوعاً في جبل طارق ، وخرجنا عن الحد الذي رسمناه في الكلام على المعالم الأندلسية . والواقع أن جبل طارق ، إلى جانب الدور العظيم الذي لعبته في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وفي الوصل بين قوى الإسلام في المغرب والأندلس ، مازالت تعتبر في عصرنا من أعظم المعاقل البحرية . وهي تسيطر على المضيق المسمى باسمها ، والذي هو مدخل البحر الأبيض المتوسط من جهة المحيط . وهرفؤها يصلح لإيواء أعظم السفن الحربية والمدنية ، وهي مازالت بالرغم مما طرأ على الخطط البحرية والعسكرية ، من جراء تطورات الحرب العالمية الثانية ، تعتبر من أهم وأمنع المواقع البحرية في خط المواصلات الإمبراطورية البريطانية . وبالرغم مما أبدته اسبانيا في الأعوام الأخيرة من رغبة ملححة في استرداد جبل طارق ، فإنه يلوح أن السياسة البريطانية لم تبد أقل استعداداً للتنازل عن هذا المعقل البحري العظيم ، الذي تسيطر باحتلاله إلى جانب مالطة على مياه البحر الأبيض المتوسط .

Jerez de la Frontera

إن طريق السيارة هو سبيل الاتصال الوحيد المباشر ، بين جانبي المثلث الإسباني ، ومن ثم فقد غادرنا رنדה بالسيارة إلى بلدة شَرِيش الفَرَنْتِيرَه ، في الجانب الآخر من المثلث ، وأتيح لنا خلال الرحلة أن نخترق تلك البسائط ، التي كانت مسرحاً لمعركة شذونة الفاصلة بين العرب والقوط ، والتي انتهت بفتح المساميين لإسبانيا .

وهي منطقة وعرة المسالك ، معظمها هضاب وتلال وجبال متصلة ، قليلة البسائط والخضرة ، قليلة السكان . وأهم بلادها الواقعة على هذا الطريق هي ألخدرالس "Algodorales" ، وهي بلدة صغيرة ذات مساكن منخفضة على الطراز الأندلسي ، ثم بلدة قلياً مرتين "Villa Martin" ، ثم برنش "Bernos" ، ثم أركش "Arcos" الواقعة على نهر وادي لكته ، وهي من البلاد الأندلسية القديمة . ومنذ منتصف الطريق تكثُر الخضرة والمزارع المتدرجة ، وترى الكروم وغابات الزيتون ، ثم تكثُر البسائط شيئاً فشيئاً تنمو بها المحاصيل المختلفة ، ومن بينها رقاغ صغيرة من القطن .

ومتى جزت إلى النصف الآخر من المثلث ، وهو أرض الفَرَنْتِيرَه التي تنتمي بشاطئء المحيط الأطلنطي ، رأيت معظمها من البسائط الخضراء ، ولا سيما بعد أركش . والأرض في هذه المنطقة سوداء التربة ، وتزرع في معظمها الحبوب من القمح والذرة ، ويجود بها القطن على منوال مزارعه في بلنسية ، وتقل فيها غابات الزيتون . وقبيل شَرِيش تزداد البسائط اليانعة ، تغطيها المحاصيل المختلفة ، والأشجار الباسقة ، وحدائق الفاكهة وأشجار النخيل ، وتبدو الطبيعة الخضراء في أروع حللها .

وشَرِيش مدينة كبيرة عظيمة الحركة ، تقع على مقربة من مصب نهر وادي لكته في المحيط الأطلنطي ، وسكانها يزيدون على مائة ألف ، وتشتهر بنوع خاص بكرومها اليانعة ، ونبيلها الذائع الصيت . وهي تبدو مشرقة منيرة كثيرة الأنوار بالليل ، وشوارعها طويلة واسعة ، وبها عدة ميادين كبيرة تظللها الأشجار والنخيل

ما يطلق عليه Alameda (المكان الظليل) . وأهم ميادينها ميدان الملكين الكاثوليكين الذى تقوم فى جوانبه أشجار النخيل ، وتغطيه الحدائق الصغيرة المزهرة ، وفى وسطه أثر الجنرال دى رقييرا ، ومن حوله نوافير ماء بديعة تضاء بالليل ، وينبثق الماء من عشرات الصنابير . والجنرال دى رقييرا من أبناء شريش ، وقد كان من أعظم مؤسسى النظام الحاضر فى اسبانيا ، ولهذا تعتبر شريش من معاقل هذا النظام . وتتفرع من ميدان الملكين الكاثوليكين ، عدة شوارع كبيرة رئيسية ، منها شارع « لارجا » C. Larga ، وهو شارع المقاهى والمتاجر ، وشارع فرانكو ، وشارع قادس المؤدى إلى « القصر » وغيرها .

وشريش مترامية الرقعة ، وتقع أحيائها القديمة ذات الدروب الضيقة ، وراء الميدان ، والشوارع الكبرى ، وهى تبدو على العموم حديثة الطابع ، ولا تبدو على أحيائها وأبنيتها أية مسحة أندلسية . بيد أنه مما يلفت النظر أنه ما تزال بها عدة كبيرة من الأحياء والمنازل الأرسقراطية الفخمة ، التى تستحق اهتمام السائح . بيد أنها مغلقة دون الزيارة ، وقد رأينا بها منزل المركز دومنيك ، وفيه ساحة أندلسية بديعة . والظاهر أنه ما تزال ثمة فى شريش بقية من المجتمع الأرسقراطى القديم ، فى شوارع المدينة الكبيرة تجد كثيراً من القصور والمنازل الأرسقراطية ذات الطراز الأندلسى ، والأفنية الواسعة ، والأبواب المزدوجة ، تقف أمامها العربات الضخمة ذات الخيل المطهمة ، والحشم ذوى الأثواب الخالصة ، مما يذكرنا بما كانت عليه الأرسقراطية الإسبانية فى ظل الملوكية ، فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى .

وتشبه شريش بجيادها الأصيلة الرشيقة ، التى تمت بأوثق الصلة إلى الأرومة العربية .

المعالم الأثرية

وليس فى شريش كثير من الآثار الأندلسية ، ومع ذلك فإن القليل الذى تضمه منها يمتاز بطرافته وأهميته التاريخية والأثرية .

القصر : وأعظم هذه الآثار الباقية هو « القصر » El Alcázar ، وهو صرح ضخم يقع فى ميدان شاسع على الطريق المؤدى إلى قادس ، وقد أحيط بالأشجار والحدائق الصغيرة ، وفوق مدخله برجان كبيران مئاثلان . ثم يلي البرج

الأيسر منهما برجان آخران كبيران ، ومن بعدهما برج صغير ومشارف متدرجة ، وفي داخل فناءه الكبير يقوم قصر ضخم حديث الطراز ، هو ملك الأسرة التي تملك البناء كله .

ومن الواضح أن مدخل هذا الصرح وأبراجه الخارجية ، هي وحدها التي تمتاز بقيمتها الأثرية . بيد أن الذي يلفت النظر حقاً ، هو الكنيسة الصغيرة التي تقع داخل القصر ، فإن هذه الكنيسة أو المصلى ، هي في الواقع مسجد صغير مازال محتفظ بطابعه وعقوده القديمة . وقد كان فيما يبدو مسجد القصر الخاص ، وينقسم هذا المصلى إلى قسمين ، القسم الكبير وبه أربعة عقود ، قد سد فيما بينها بالبناء ثم ينفذ منه إلى قسم أصغر ، وفي هذا القسم أربعة عقود متقابلة ، وتقوم فوق القسم الكبير قبة عربية كبيرة ، ذات ثمانية أضلاع .

وقد وضعت في صدر هذا المصلى لوحة رخامية ، رأينا أن نثبت ما نقش عليها من عبارات تاريخية ذات مغزى وهي :

“Capilla Real de Santa Maria de Alcázar, antigua Mezquita Arabe. Fué dedicada al divino culto en 1264 por el Rey Alfonso X El Sabio. Honorada la memoria de este monarca ha sido restaurada en 1827 por Salvador Diez.”

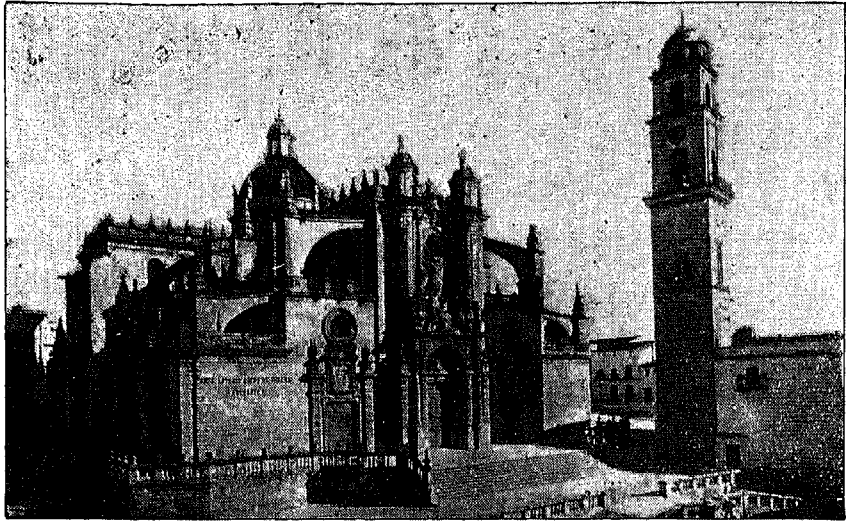
ومعناها « المصلى الملكية للقديسة مريم ذات القصر ، وقد كانت مسجداً عربياً قديماً ، فحواله للعبادة الإلهية في سنة ١٢٦٤ الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وتخليداً لذكري هذا الملك أجرى تجديدها في سنة ١٨٢٧ على يد سلفادور ديث » . والسنة التي سجلت في اللوحة تحويل هذا المسجد إلى كنيسة ، وهي سنة ١٢٦٤ . هي السنة التي سقطت فيها شريش في أيدي النصارى ، بقيادة ملكهم ألفونسو العالم . وكان ذلك في نهاية عصر الموحدين بالأندلس . وقد حاول ملك المغرب السلطان أبو يوسف المريني استردادها ، وضرب حولها الحصار سنة ١٢٨٤ ، ولكن النصارى استطاعوا إنقاذها بقيادة ملكهم سانشو الملقب بالشجاع ولد ألفونسو العالم . وأمام هذا المصلى الأثرى ، فناء صغير به عقد عربي ، عمل مدخلا للقصر الحديث .

ومن الصعب أن نحدد تاريخ بناء هذا الصرح ، الذي توالى عليه التغييرات

حتى لم يبق من أبنيته القديمة سوى بعض الأبراج ، والظاهر أنه يرجع إلى القرن الحادى عشر أعنى إلى أوائل عصر الموحدين ، وكان فى الأصل حصناً ، كما تدل على ذلك أبراجه ، وموقعه فى طرف المدينة فى إحدى مواقعها الدفاعية .

الكنيسة العظمى : (الكندرائية) وهى تعرف باسم La Colegiata ، وتقع على مقربة من القصر فى الطرف الجنوبى الغربى للمدينة ، وفى ميدان شاسع فوق ربوة مرتفعة . وهى مضلعة الشكل بنيت عقودها على الطراز اليونانى الرومانى ، ولها واجهة عظيمة ، وتبدو من الداخل بالغة الروعة والفخامة . ومما يلفت النظر فى طرازها ، أن قبتها الكبرى قد صنعت على شكل قبة المسجد ، وأن برج أجراسها منفصل عنها ، وقائم على مقربة منها . وقد صنع على شكل منارة الجامع ، وعلى طراز « لاختيرالدا » برج أجراس كندرائية إشبيلية الشهيرة ، وأطلق عليه اسم « سان سالقادور » ، وكان فى الأصل من مباني الكندرائية القديمة ، التى أقيمت فوق موقع جامع شريش القديم ، التى حلت مكانها الكندرائية الحالية . وفى هذا البرج من الداخل زخارف من الطراز الأندلسى ، عملت فيه بعد فتح النصارى للمدينة . هذا وتوجد فى شريش عدة كنائس أثرية أخرى ، مثل كنيسة سان دونزيو التى أنشئت فى سنة ١٢٦٤ حينما دخل ألفونسو العالم المدينة ، وهى ذات طراز مدجنى (إسلامى نصرانى) ، وكنيسة سانتياجو (شنت ياقب) وهى ترجع أيضاً إلى أواخر القرن الثالث عشر ، وسان ماتيو ، وسان ميغل ، وكنيسة حنا أبى الفوارس ، وكنيسة الرحمة La Merced ، وهى أيضاً من أقدم كنائس شريش ، وقد شيدت عقب استرداد النصارى للمدينة من المسلمين بأعوام قليلة . وفما خلا ذلك فإنه لا توجد ثمة مميزات خاصة لهذه الكنائس ، وربما كان منها ما شيده فوق مواقع المساجد الإسلامية .

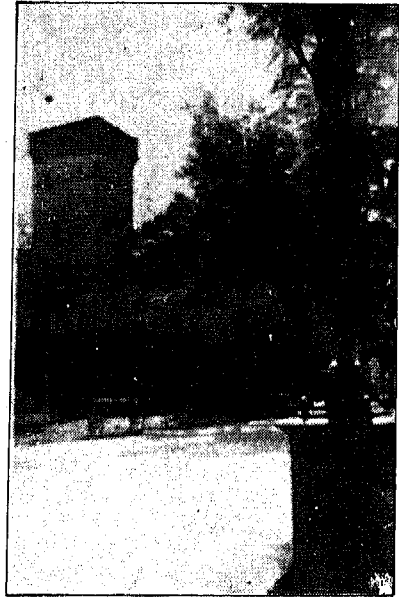
ومما يلفت النظر أن موقع الكنيسة العظمى ، تحيط به الأحياء القديمة والدروب الضيقة ، فإذا أضفنا إلى ذلك كونها بنيت فوق موقع المسجد الجامع ، أمكننا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية القديمة . ومن الملاحظ بوجه عام أن معظم كنائس شريش القديمة ، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفيما بينها تمتد شبكة الدروب الضيقة ، فإذا افترضنا أن معظم هذه الكنائس قد أنشئء فوق أنقاض المساجد القديمة ، فإن موقع شريش الأندلسية ، كان يشغل الحانب الغربى الجنوبى من المدينة الحديثة ، وهو الذى يضم القصر وسائر الكنائس الأثرية .



شريس . الكنيسة العظمى (الكونخياتا) وبرجها المنفصل



شريس . عقد عربي داخل القصر



شريس . بعض أبراج القصر وأسواره

Cádiz

إن منطقة «الفرنتيره» La Frontera ، التي تمتد جنوبي شريش مما يلي شاطئ المحيط ، هي عبارة عن بسائط تتخللها التلال المنخفضة ، وتبدو هذه الظاهرة بوجه خاص على ضفتي نهر وادي لكثته . بيد أن هذه البسائط ليست وافرة الخصب ، ولم نر فيها أثراً لحدائق الفاكهة أو غابات الزيتون ، التي تكثر شمال هذه المنطقة . وأغلب ما تراه العين فيها شجيرات الحلفاء والحشائش البرية . وعند بلدة «الثغر الملكي» Puerto Real على مقربة من قádiz ، تبدو أشجار الفاكهة والنخيل في منطقة صغيرة ، ثم تليها منطقة كبيرة تغطى بالمستنقعات والملاحات الكبيرة ، التي تتسرب إليها المياه من المحيط ، وتستمر كذلك حتى تقترب من قádiz .

وقádiz هي ثغر بحري هام ، يقع على لسان ممتد في مياه المحيط ، وله مرفأ يفضاوى كبير ترسو فيه بعض سفن الأسطول الإسباني . هذا عدا ما يقصده من السفن التجارية . والمدينة مشرقة علييلة الهواء ، طويلة الرقعة ، تحترقها طائفة من الشوارع المتوازية الضيقة ، وبها عدة ميادين كبيرة ظلييلة ، ويبلغ سكانها اليوم زهاء خمسة وسبعين ألف نسمة . ويبدو النخيل بكثرة في شوارعها وميادينها ، فيسبغ عليها رواء وجمالا . والنخيل ظاهرة واضحة في سائر مدن اسبانيا الجنوبية . وتتشج قádiz بثوب أوربي حديث محض ، ولا تكاد تبدو عليها أية لمحة من ملامح المدن الإسبانية الأخرى ذات الطابع الأندلسي ، إلا فيما يبدو في بعض أحيائها الداخلية المتواضعة من ضيق الدروب والتوائها ، ومن مشارف منازلها الأندلسية واستواء سقوفها .

وتضم قádiz على نمط باقي المدن الإسبانية ، عدة من الكنائس الجميلة ، وفي مقدمتها الكنيسة العظمى ، وهي تعتبر من حيث الحجم والفخامة من كنائس اسبانيا الكبرى . وقد أقيمت في القرن السابع عشر على أنقاض الكتدراية القديمة التي أنشأها الملك ألفونسو العاشر عقب افتتاحه للمدينة من المسلمين . وعلى هذا فن المحقق أن تكون قائمة على موقع المسجد الجامع القديم وفقاً للقاعدة المأثورة :

وهي تقع على مقربة من البحر وظهرها إليه . كذلك ترجع معظم كنائس قادس إلى قرن أو قرنين ليس غير .

كذلك تضم قادس عدة من الحصون ، وهي قائمة كلها في ناحيتها الشرقية . وقيل لنا إن منها ما يرجع إلى العصر الأندلسي ، ولكننا لم نلاحظ فيما شاهدناه منها ما يحمل على هذا الاعتقاد .

وهنالك أثر آخر ينسب أيضاً إلى أصل أندلسي ، وهو المسمى باب تيرا Puerta Tierra ، وهو صرح ضخم يقع خارج المدينة على مقربة من البحر .



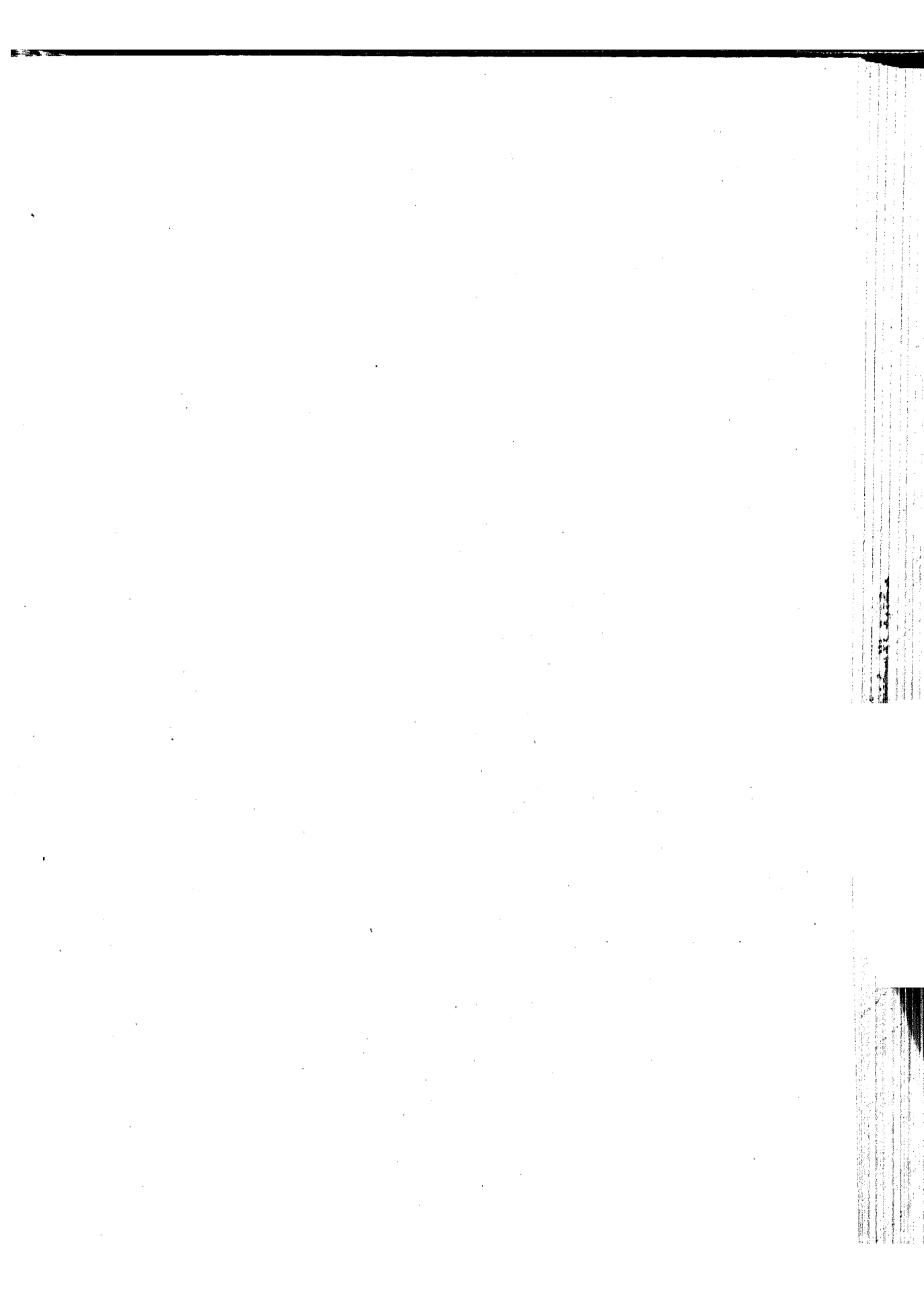
قادس . الكنيسة العظمى

ويتكون من قاعدتين كبيرتين من الأبنية الحجرية ، إحداهما من ناحية البحر والأخرى قبالتها ، وبينهما عقدان كبيران منخفضان ، وكل منهما يستند إلى عقود ثلاثة ، وفي الوسط يقوم برج يبلغ ارتفاعه نحو اثني عشر متراً . وليس في هذا الصرح سواء من حيث الشكل أو الطراز ما يدل بأصله الأندلسي ، وربما كان قد أقيم على أنقاض طلل يرجع إلى العصر الإسلامي ، أو على أنقاض جزء من السور القديم .

ويوجد في متحف قادس الأركيولوجي ، مجموعة

من النقود الأندلسية ترجع إلى عصر الإمارة والخلافة الأموية ، وعصر الموحدين . كما أنه يضم عدة لوحات خشبية بها كتابات عربية حملت إليه من ثغر سبتة ، من أنقاض مسجدها القديم .

وقد سقطت قادس في يد القشتاليين ، في عهد الملك ألفونسو العاشر في سنة ١٢٦٢ م .



الكتاب الرابع
ناقار وقشالة القديمة

تمهيد

عزينا فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب ، بوصف القواعد والمدن التي لبثت عصوراً طويلة ، قواعد ومدناً أندلسية إسلامية حقة ، ووصف ما أبقت عليه يد الدهر بها من الصروح والآثار ، والذكريات الأندلسية الباقية .

وقد رأينا إلى جانب ذلك أن نغني بوصف البقاع والمدن الإسبانية ، التي لم يطل أمد بقائها في ظل الحكم الإسلامي ، واستردها النصراني في عصر مبكر ، مثل بلد الوليد ، وآبله ، وسمورة . وشقوبية ، أو التي لم يحكمها المسلمون ، وإنما كانت خلال العصور الأولى عرضة لفتوحهم . أو مهبطاً لحملاتهم الغازية ، ويدخل في ذلك عادة من المدن الإسبانية النصرانية المحضة ، التي يقترن اسمها مع ذلك بتاريخ الأندلس من آن لآخر .

وسنرى أنه يوجد في معظم هذه المدن - حتى النصرانية الخالصة منها - بعض الآثار والذكريات الأندلسية الهامة ، التي تحتفظ بها متاحفها ، أو التي تمثل في بعض الصروح الأثرية ، التي تأثرت بروح الفن الأندلسي وطرازه ، من قصور وكنائس وغيرها ، ولعب الفن المدجج ، الأندلسي النصراني . أكبر دور في تكييفها . وسنرى في بعض الأحيان أن هذه المدن الإسبانية النصرانية ، تملك من تراث الآثار الأندلسية ثروات رائعة . لا تملك القواعد الأندلسية الذاهبة شيئاً منها .

وسوف نتبع في ذكر هذه المدن ، التقسيم الجغرافي الإسباني ، ونجمعها بحسب مواقعها في قطاعين : الأول : ناغار وقشتالة القديمة ، وهو هذا الكتاب الرابع ، الذي نفتتحة بهذه الكلمة ، والثاني : هو ليون وجاليسية والأسترياس .

١ - بنبلونة

Pamplona

بنبلونة هي عاصمة ولاية نافار أو نبرة أو بلاد البشكنس ، كما تسمى في التواريخ العربية . وكانت نافار منذ الفتح الإسلامي لإسبانيا ، من أشد الولايات الإسبانية مقاومة للمسلمين . ولما قامت مملكة نافار النصرانية في تلك الجهة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادي ، غزاها المسلمون مراراً ، ودخلوا عاصمتها بنبلونة غير مرة في القرنين التاسع والعاشر . ولكن هذه المملكة الصغيرة ، كانت دائماً تدافع عن استقلالها بمنتهى البسالة ، سواء ضد المسلمين أو ضد جيرانها من النصارى . وبالرغم من أن نافار لم تخضع للحكم الإسلامي ، فإنها قد تأثرت إلى حد كبير بمجاورتها للمسلمين ، ولاسيما عند ما كانت في القرنين التاسع والعاشر ، ترتبط في معظم الأحيان برباط التحالف والمصاهرة ، مع الثوار المسلمين في الولايات الشمالية ، أمثال التجيبين وبنى قسى وغيرهم .

وتقع بنبلونة على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً من مدريد ، على الضفة اليمنى لأحد أفرع نهر إيبرو ، وهي مدينة جميلة ذات شوارع فسيحة مستقيمة ، وميادين شاسعة ، أهمها الميدان المسمى «ميدان أمير فيانا» P. del Principe de Viana ، وميدان كاستيليا P. de Castilla ، وهو ميدان كبير مربع ذو عقود قوطية ، وبه عدة من المقاهي الكبيرة ، وتشرف عليه دار البلدية والمسرح ، ويتصل به شارع بنبلونة الفسيح المسمى «متنزه بالنسية» Paseo de Valencia ، وهو جميل تظله الأشجار الباسقة . وهو ملتقى الجماهير ومنتزههم في الأمسية الصافية . ومباني بنبلونة جميلة عالية ، وهي على العموم من أكثر المدن الإسبانية بسمة وإشراقاً . ويبلغ سكانها اليوم سبعين ألف نسمة .

ويشتغل أهل بنبلونة بالزراعة والصناعة ، ومن منتجاتها الأقمشة والصابون والورق والحديد .

وبنبلونة مركز ثقافي هام ، وبها معهد ديني كبير ومدارس كثيرة . وبها مسرح كبير لمصارعة الثيران ، بني كالمعتاد على الطراز العربي . وبها مسارح للعبة «البيلوت» Pelota التي يشتهر بها أهل نافار ، والتي يقال إنها من أصل أندلسي .

تحفة أندلسية

وليس في ناغار آثار أندلسية لأنها لم تخضع لحكم المسلمين كما رأينا . ولكن كنيسة بنبلونة العظمى تحتفظ بتحفة أندلسية ذات أهمية فنية خاصة . وكانت هذه التحفة في الواقع هي مقصدى الأول من زيارة بنبلونة .

وترجع كتدرائية بنبلونة إلى أواخر القرن الرابع عشر . أنشأها سانشو الثالث الملقب بسانشو النبيل في سنة ١٣٩٧ م ، فوق أنقاض كنيسة رومانية قديمة ، لم يبق منها اليوم سوى ركن صغير من « المقدس » ، ودفن بها سانشو وزوجه ، ثم جددت في القرن الثامن عشر ، وبنيت واجهتها الكبرى الحالية .

أما التحفة الأندلسية التي أشرنا إليها ، فهي عبارة عن صندوق خشبي جميل مطعم بالعاج ، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمتراً ، وارتفاعه عشرين ، وسطحه شبه منحرف مربع الجوانب ، وقد رسم على واجهته الظاهرة صورة شيخ وحوله طفلان ، وتحتهم وعلان صغيران . ورسم في الناحية اليسرى صورة سيدتين ، وفي الوسط صورة ثلاثة أشخاص ينفخون في المزمار .



ونقشت حول الصندوق في شريطه الأوسط هذه الكلمات بخط كوفي متداخل :

« بسم الله بركة من الله ، وغبطة وسرور وبلوغ أمل ، في صالح عمل ، وانفساح أجل ، للحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور وفقه الله . مما أمر بعمله على يد الفتي نمبر بن محمد العامري مملوكة سنة خمس وتسعين وثلث مائة » .

بنبلونة : نموذج من صور الصندوق الأندلسي المحفوظ بالكنيسة العظمى

وقد حفظت هذه التحفة الفنية الفريدة ، في قاعة خاصة في نهاية الكنيسة . وعلقت عليها للتعريف بها لوحة كتب عليها ما يأتي :

Arqueta Hispano Arabe considerada como
primera pieza artistica en España. Año 1005 A. D

ومعناه « صندوق إسباني عربي يعتبر قطعة فنية من الطراز الأول في اسبانيا سنة ١٠٠٥ م. » .

وعلمت من القس الذي صحبني أثناء الزيارة ، أن هذا الصندوق كان في الأصل ، من الغنائم التي ظفر بها ملك نافار في حروبه مع المسلمين ، ثم أودع في دير من الأديار في أراجون القديمة ، يسمى دير « ليري » Leire . وفي القرن التاسع عشر أهدي آباء هذا الدير الصندوق إلى كتدرائية بنبلونة^(١) .
ويوجد أيضاً إلى جانب هذا الصندوق ، قطعة صغيرة من القماش حجمها نحو ٢٥ س في ٨ ، وقد نقشت عليها حروف عربية لاتقرأ . والظاهر أنها من صنع المدجنين .

* * *

وقد عثرت في محفوظات بنبلونة بدار البلدية ، على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة في شهر ابريل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) ، وهي وثيقة تعامل وتعاقد ، تدل بحقائق ذات شأن ، في حياة المدجنين في مملكة أراجون .

(١) نشرنا صورة هذا الصندوق ضمن المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع .

Burgos

لم تكن مدينة برجوس ، التي تسمى في الجغرافية العربية « برغش » . موجودة وقت الفتح الإسلامي لإسبانيا ، ولكنها أنشئت لأول مرة في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠ م) ، وكان في مكانها عدة قرى وضياع يغير عليها المسلمون من آن لآخر ، فأنشأ ألفونسو حولها سوراً وابتنى قلعة للحمايتها من غارات المسلمين ، وكان هذا مولد مدينة برجوس ، التي غدت فيما بعد عاصمة قشتالة القديمة ، ثم أصبحت اليوم من أجمل المدن الإسبانية التاريخية .

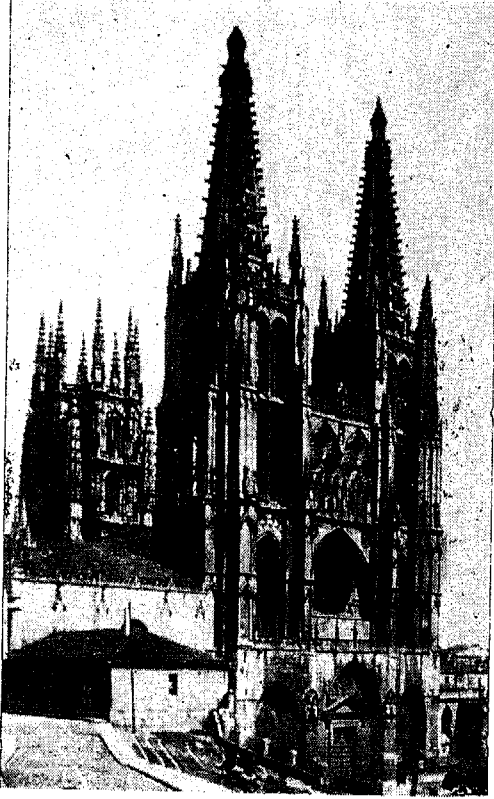
وتقع برجوس على منحدر مجموعة من التلال ، تمتد نحو السهل الأخضر . ويخترقها من نهايتها الجنوبية نهر « ارلانتون » ، أحد فروع نهر دويره (دورو) . وهي مدينة كبيرة فخمة تحتفظ بكثير من طابعها الأثري . وتخترقها عدة من الشوارع الفسيحة ، أطولها وأجملها شارعها المحاذي للنهر ، والمسمى « متزه الجزيرة » Paseo de la Isla ، وهو شارع عريض تظله الأشجار الباسقة ، وتمتد في وسطه الحدائق الغناء . وميدانها الكبير المسمى Plaza Mayor ، يقع وسطها وتظله عقود قوطية . ويقع على مقربة منه ميدان الكنيسة العظمى . ويليه في الأهمية ميدان سان دومينجو كئمان . وفي برجوس مبان كثيرة فخمة ، وعدة كنائس وأديرة وقصور تاريخية . والحركة فيها شديدة متواصلة . ولكن أحياءها القديمة ذات شوارع ودروب ضيقة كباقي المدن القشتالية . وهي على العموم مدينة جميلة أخاذاة . ولكنها ليست مشرقة مثل بنبلونة .

ويبلغ سكان برجوس وفق إحصاء سنة ١٩٤٧ ، ٧٨,٩٠٠ نسمة .

وإذا لم تكن ثمة في برجوس آثار أندلسية مباشرة ، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين ، فإنها تحتوي مع ذلك على بعض الآثار والتحف الهامة ، التي تتعلق بتاريخ الأندلس ، ومن ثم كان مقصدنا إليها .

ولنبداً بذكر كنيسها العظمى (الكتدرائية) ، وهي من أفخم وأعظم كنائس إسبانيا . ويرجع إنشاؤها إلى سنة ١٢٢١ م ، في عصر فردناندو الثالث ملك قشتالة ،

واستمر البناء فيها حتى سنة ١٥٦٧ م . وهي بناء رائع فخم ، ويعتبر أعظم أثر



برغش . الكنيسة العظمى

على الطراز القوطى فى اسبانيا كلها ، وهى تقع فى وسط المدينة ، وتطل عليها فى عظمة وجلال ، ويرى جمالها وفنها البديع عن بعد . وفى أحد أجنحتها توجد قاعة للكنوز ، تخص بالصلبان والآنية والأيقونات الذهبية ، وعلى جدرانها عدد من بسط جوبلان الفاخرة تمثل مناظر دينية بديعة .

ويوجد تحت قبتها العظمى أثر تخليدى للسيد الكبيادور ، El Cid Campeador ، وزوجه خمينا . وهذا الأثر عبارة عن لوحة رخامية كبيرة سوداء طولها ثلاثة

أمتار وعرضها متران ، وقد نقش عليها ما يأتى باللاتينية والإسبانية :

Roderigus Didaci Campidoctor
MXCIX Anno Valentiae Mortuus
A todos alcanca Odora
Por el que en Buen or nacio
+

Eximina Uxoreius
Didaci Comitiss Oveensis
Regali Genere Nata

والسيد الكبيادور (وبالعربية الكنديطور) هو ردرىجودى بيقار ، الفارس القشتالى الشهير ، وأصله من مدينة برجوس ، وقد حارب المسلمين فى أواخر حياته واستطاع أن يفتح بلنسية فى سنة ١٠٩٤ م ، وأن يحكمها بضعة أعوام ، ثم توفى بها

سنة ١٠٩٩ م ، وهو يدافع عنها ضد المرابطين حينما حاولوا استردادها ، ودافعت عنها من بعده زوجه خمينا دى أوفيدو مدى عامين ، ثم غادرت المدينة حاملة رفات زوجها ، واسترد المرابطون المدينة من النصارى فى سنة ١١٠٢ م (١) . وكذلك يوجد فى برجوس أثر آخر للسيد ، يعين مكان المنزل الذى كانت تقيم فيه أسرته ، وهو عبارة عن ثلاث لوحات قائمة فوق قاعدة ، وقد كتب على إحدى اللوحات بالإسبانية « أن السيد ولد فى سنة ١٠٢٦ م ، وتوفى فى بلنسية . وأن هذا الأثر قد عمل فى سنة ١٧٨٤ فى عهد الملك كارلوس الثالث » . ويسمى هذا الأثر « موقع منزل السيد » Solar del Cid

وعلى مقربة من هذا الأثر الذى يقع فى أطراف برجوس ، يوجد باب على الطراز العربى ذو عقود ثلاثة ، هو باب سان مرتين Arco de San Martin

الدير الملكى

وتوجد فى الدير الملكى المسمى : Real Monasterio de las Huelgas تحف أثرية أندلسية تثير ذكريات مخزنة . ويقع هذا الدير فى مشارف برجوس على مقربة من « متزه الجزيرة » ، على قيد نحو كيلو مترين من المدينة ، وهو بناء حصين يرجع إلى القرن الثانى عشر ، وقد بنى ليكون مصيفاً للملوك قشتالة ، ثم حول بعد ذلك إلى دير وضريح ملكى . وفى فناءه الكبير ، توجد إلى جانب البناء الرئيسى واجهة من العقود العربية ، ومنها عقد على جانبه عدة من العمد يضارع عقود المسجد ، وقد نقشت عليها نقوش مدجنية لاتقرأ . وكان هذا الدير قبل إنشاء قصر الإسكوريال ومدفنه الملكى فى القرن السادس عشر ، يستعمل مدفنًا للملوك قشتالة ، وتوجد بالفعل فى أروقتة عدة توابيت حجرية ، مدفون بها عدة من الملوك والأمراء الإسبان .

ويبدو أثر الفن الأندلسى والفن المدججى ، فى أبنية الدير وزخارفه بوضوح ، فقد صنعت جوانب صحنه الداخلى من عقود عربية ، وفى سقف أحد أروقتة الداخلية نقوش مدجنية ، تتخللها كتابات كوفية ونقوش عربية ، وفى قبة هيكله الرئيسى توجد زخارف وكتابات عربية ، استطعنا أن نقرأ منها « بسم الله » . والظاهر أن العرفاء والصناع المدجنين ، كانوا ينقلون رسوم الآيات القرآنية

(١) ويوجد قبر السيد بدير سان بيدرو ببلدة كاردنيا القريبة من برجوس .

والعبارات العربية ، دون أن يفقهوا شيئاً من معانيها ، وعلى أنها رسوم وزخارف فقط . ومن ثم فإننا نجد في كثير من الكنائس والأديار الإسبانية التي يغلب عليها

الفن المدججى ، بعض الآيات القرآنية ، التي أدرجت في نقوشها بصورة مشوهة .

ومما يلفت النظر أن باب المصلى ، قد صنع على طراز عربي مدهش ، وزين بمقرنصات خشبية على شكل نجوم داخل حظائر مسبعة الأضلاع . ويرى الأستاذ جومث مورينو أنه يرجع إلى القرن الحادى عشر أو إلى أوائل القرن الثانى عشر ، وأنه أندلسى الأصل والصنعة ، وربما أخذ من مقصورة أو منبر أحد المساجد ، ونقل إلى قشتالة كخنيمة ثمينة ، ثم أودعه ألفونسو الثامن ديره الذى أنشأه^(١)



برغش . الدير الملكى وعقوده الخارجية

على أن أهم ما يسترعى النظر بين محتويات هذا الدير ، هو العلام الإسلامى الكبير الذى علق فى واجهة إحدى قاعاته الداخلية ، وكتب تحته للتعريف ماأتى :

“Trofeo conquistado al enemigo en la Batalla de las Navas de Tolosa”

ومعناه « غنيمة انتزعت من العدو فى موقعة هضاب تولوسة » .

والموقعة المشار إليها فى هذا التعريف ، هى الموقعة الشهيرة التى تعرف فى

G. Moreno : El Arte Arabe-Espanol hasta los Almohades (Ars. (١)

Hispaniae, Vol. III) p. 278.

التواريخ الإسلامية بموقعة العقاب أو حصن العقاب ، والتي وقعت في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) بين الموحدين ، وجيوش اسبانيا النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ، في هضاب تولوسه على مقربة من بياسة ، وهزم فيها الموحدون هزيمة شنيعة .

أما هذا العلم الذي كان بين غنائم النصارى في الموقعة ، فهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ متراً ، وعرضها ٢,٢٠ متراً ، وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء ، يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة . وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوشٍ عربية جميلة . ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة ، أحزمة بئنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفي ذيلها دوائر نقشت فيها أدعية مختلفة . وقد كتب في أعلى العلم في شريط بنى بالأزرق ما يأتي :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله » .

وكتب تحته في الشريط الذي فوق المربع ما يأتي :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

وكتب في الشريط الذي على يمين المربع ما يأتي :

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وفي الشريط الذي على يساره تكلمة الآية :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات » .

وفي الشريط الذي في أسفله هذه التكملة :

« تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك . . . » .

وأما في دوائر الذيل فقد نقشت الأدعية الآتية على التوالي ، بخطوط زرقاء

على رقعة بيضاء :

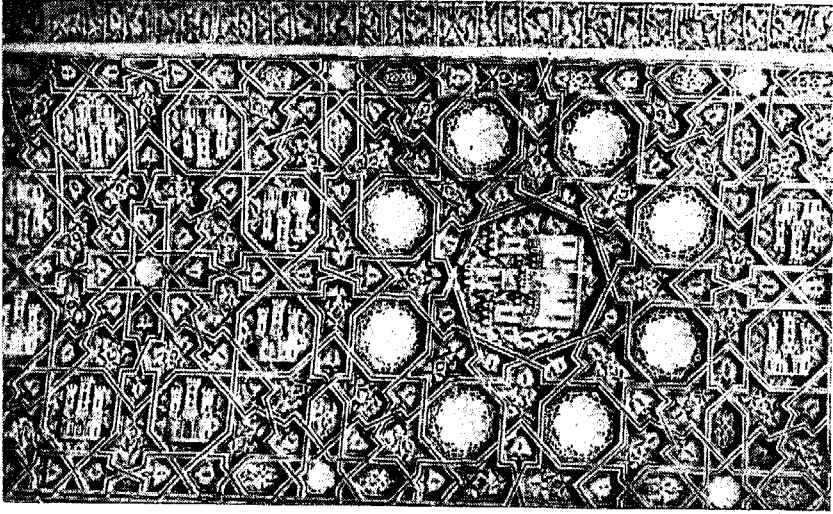
« العافية الباقية . الغبطة المتصلة . السلامة الدائمة . العافية البركة . العافية

الباقية . السلامة الدائمة . العافية الباقية » (١) .

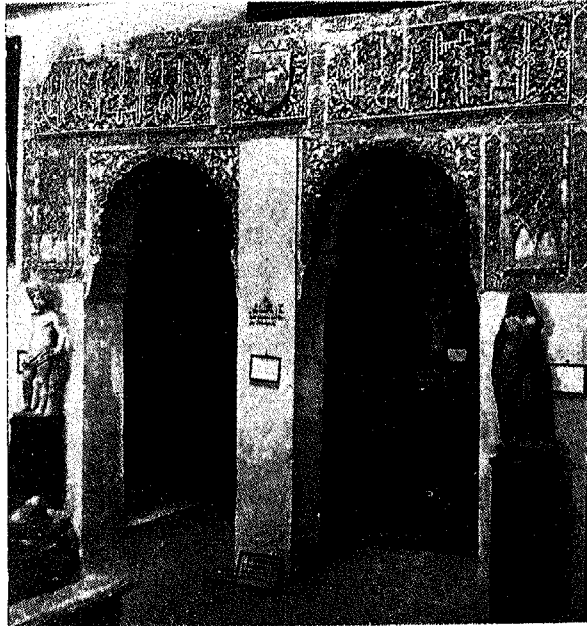
وتوجد في أحد أروقة الدير صورة زيتية كبيرة ، تمثل موقعة العقاب المذكورة

وهزيمة الموحدين فيها .

(١) وقفنا طويلاً أمام هذه التحفة الأندلسية المحزنة فقرأ خطوطها المغربية بصعوبة . وراجع في وصفها ونقوشها أيضاً : R. Amader de los Ríos : Trofeos militares de la Reconquista : التي سبقت الإشارة إليه . وقد نشرنا صورة هذا العلم في المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع .



برغش (الدير الملكي) . زخارف مدجنية من المقرنصات الحشبية فى سقف الجهو الرئيسى



متحف برغش . عقد من الرخام ذو نقوش مدجنية

وقد علق إلى جانبي هذا العلم الموحدى الكبير ، علمان تركيان صغيران ، أخذنا من الترك فى معركة لپانتو البحرية الشهيرة ، التى وقعت فى المياه اليونانية فى سنة ١٥٧١ م ، وهزمت فيها الأساطيل التركية ، أمام الأساطيل النصرانية المتحدة .

ويوجد فى متحف الدير قطعة من القماش المغطى بالحرير ، وعليها كتابة عربية ظاهر فيها الكلمات الآتية :
« لك والسلام الأعلى » ، وعليها تاريخ مارس سنة ١٣٣٣ م .

فى متحف برجوس

وفى متحف مدينة برجوس عدة تحف أندلسية أثرية ، أولها صندوق من الخشب المطعم على مثل صندوق كتدرائية بنبلونة ، طوله ٣٠ سنتيمتراً وعرضه ١٥ ، وغطاؤه شبه منحرف ، وعليه كتابة عربية من الحانين القصيرين . وقد جاء فى دليل هذا المتحف أنه صنع فى قونقة فى سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) . وذكر المستشرق أمادور دى لوس ريوس فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه أن المنقوش على الصندوق هو ما يأتى :

« باقية لصاحبه أطل الله بقاءه مما عمل بمدينة قو (نكه) (سنة) سبع عشر وأربع مائة عمل محمد ابن زيان عبده أعزه الله » .
لكننا بالتأمل الدقيق فى كتابات هذا الصندوق ، لم نستطع أن نقرأ فيها شيئاً من العبارات المتقدمة .

وقد نقشت على الصندوق ، صور وعول وجياد وسباع ، وفى أحد جانبيه القصيرين صور نساء نصرانيات ، رسمت فيما يبدو بريشة بعض المصورين النصارى .

ويرى المستشرق أمادور دى لوس ريوس ، أن هذا الصندوق ، وقد أتى به فى الأصل من أحد الأديار ، إنما هو تحفة زائفة (١) .

والأثر الأندلسى الثانى فى متحف برجوس ، عبارة عن صندوق خشبى به من الناحيتين سلاطين من الخزف السمنى ، فى كل ناحية خمس منها ، وقد جاء

فى الدليل ، أنها صنعت برسم « عبد الرحمن أمير المؤمنين » . بيد أننا لم نجد عليها
أثراً لأية عبارة مكتوبة . وقد يرجع ذلك إلى أن ما دونه المستشرق أمادوردى
لوس ريوس عن هذه الآثار فى دليل المتحف وفى كتابه ، قد دُون منذ أكثر
من ستين عاماً ، طرأت خلالها على هذه التحف بعض التغيرات .
ويوجد أيضاً فى متحف برجوس بعض عقود رخامية من صنع المدجنين
عليها نقوش عربية غير واضحة الكلمات ، وإنما هى رسوم منقولة فقط .

Valladolid

كانت بلد الوليد أو بالإسبانية « فايّادوليد » ، من القواعد الأندلسية الشمالية التي استردها النصارى منذ أوائل القرن العاشر ، ولم تمكث تحت حكم المسلمين أكثر من قرنين .

واسمها ينم عن أصله الأندلسي ، ولكن ليس من المعروف إن كان لها قبل الفتح تاريخ ، يرجع بها إلى العهد القوطي أو الروماني ، أم أنها أنشئت عند الفتح على أطلال محلة أو قاعدة قديمة ، وأسبغ عليها ذلك الاسم العربي « بلد الوليد » الذي حرفه الإسبان إلى وضعه الحالي « فايّادوليد » .

وعلى أى حال فإن بلد الوليد ، لم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ الأندلس المسلمة . وليست بها اليوم أية آثار أندلسية .

وبلد الوليد مدينة مشرقة من أجمل المدن الإسبانية ، وهى اليوم تحمل طابعاً أوربياً لامراء فيه . وبها شوارع عريضة جميلة ، ومنازل غناء ، وميادين شاسعة وأعظم شوارعها ، هو « متزه ثورليا » Paseo Zorrilla ، المسمى باسم شاعرها الكبير « خوسية ثورليا » ، وشارعها التجارى الزاخر شارع سانتياجو . وأجمل ميادينها « ميدان ثورليا » والميدان الكبير Plaza Mayor ، وهو ميدان تاريخي تشرف عليه دار البلدية ، وعدة صروح تاريخية قديمة .

أما من الناحية الأثرية ، فإنه توجد في بلد الوليد عدة من الكنائس الأثرية القديمة ، وفي مقدمتها الكاتدرائية التي أنشئت في أواخر القرن السادس عشر ، وبناء الجامعة التي ترجع إلى القرن الثالث عشر ، ومتحف النحت الوطنى ، الذى يغص بالتماثيل والصور الدينية ، وهو يقوم فى صرح قديم كان فى الأصل معهداً دينياً ، وفى هذا الصرح بالأخص يبدو أثر الفن الأندلسى واضحاً . فهو يشتمل على ساحة سفلى أقيمت على جوانبها عقود عربية ، وتشرف عليها من الدور الأعلى أروقة ذات عقود مدجنية زينت بزخارف دينية دقيقة ، وبعض أسقف أبهاء المتحف ، مزينة بزخارف مدجنية مذهبة، وكذلك سقف السلم العربى العريض.

مزخرف على الطراز المدجنى . وبالجملة فان هذا البناء ، يتم بعقوده وزخارفه الجميلة عن طابع أندلسى واضح .

وإذا لم يكن ثمة فى بلد الوليد ما نصفه من الآثار الأندلسية ، فإنها تحتفظ بأثرين قوميين جليدين يتصلان بعالم الأدب .

أولهما ، المنزل الذى عاش فيه كاتب اسبانيا الأشهر ميغل ثرفانتس ، مؤلف « القصة الخالدة » « دون كيخوتى » Don Quijote حيناً من الدهر ، وهو

عبارة عن منزل صغير متواضع ذى طابقين ، يقع فى درب صغير مغلق يسمى شارع راسترو Calle Rastro ، ونوافده مشبكة بالقضبان العريضة . ويوجد فى

الطابق الأول منه ، بعض مقاعد وموائد من طراز العصر (أوائل القرن السابع عشر) وورقة مخطوطة بخط ثرفانتس وتوقيعه ، وخطاب موجه منه إلى الملك فيليب

الثالث . وكذلك صورة فتوغرافية مأخوذة عن الطبعة الأولى من قصة « دون كيخوتى » ، التى صدرت لأول مرة فى سنة ١٦٠٥ م

والثانى ، هو المنزل الذى ولد فيه الشاعر خوسيه ثورليا J. Zorrilla . وهو

من أعظم شعراء اسبانيا فى العصر الحديث ، وهو يقع فى درب صغير على مقربة من كنيسة سان بابلو فى نهاية المدينة ، وقد كتب عليه ماأتى تحت صورة من الحصن

للشاعر « هنا ولد الشاعر الكبير دون خوسيه ثورليا فى سنة ١٨١٧ » . ويحتوى المنزل على متحف للشاعر ، حفظت به بعض الأثاث والرياش وبعض مخطوطاته ،

وتوجد به قاعة عمله ومكتبته .

وقد لعبت بلد الوليد دوراً ملحوظاً فى تاريخ قشتالة الحديث . وكانت

منزل البلاط فى فترات كثيرة . وفى أوائل القرن الخامس عشر . جعلت عاصمة مملكة قشتالة ، وفيها عقد زواج فرديناند وإيسابيلا الذى أدى إلى اتحاد اسبانيا .

النصرانية (١٤٦٩ م) . وفيها توفى كرسstof كولومبوس مكتشف العالم الجديد (١٥٠٦ م) ، وولد فيليب الثانى (١٥٢٧ م) .

حصن شنت منكش Simancas

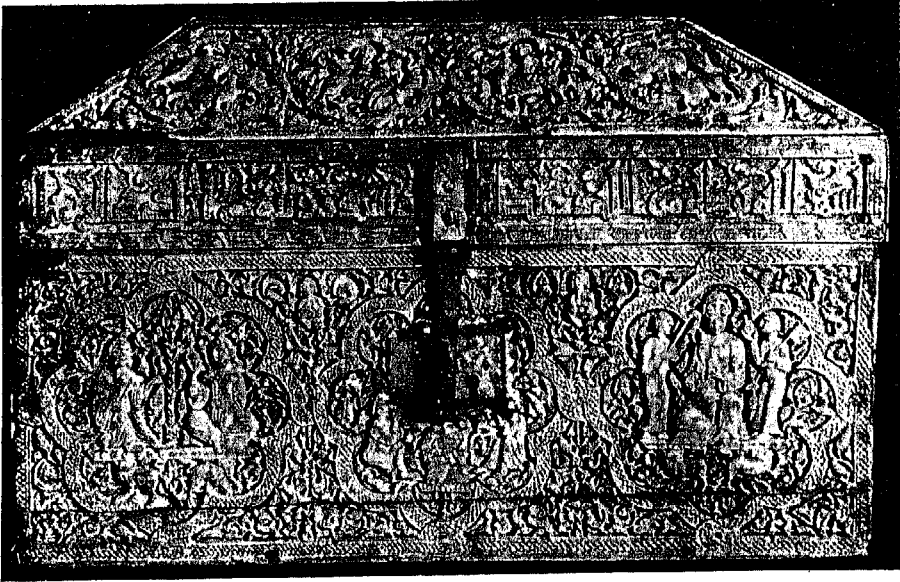
على أنه إذا كانت بلد الوليد تخلو من الآثار الأندلسية ، فإنه توجد على

مقربة منها بلدة صغيرة ، تضم أثراً أندلسياً قديماً ، وله صلة وثيقة بالتاريخ

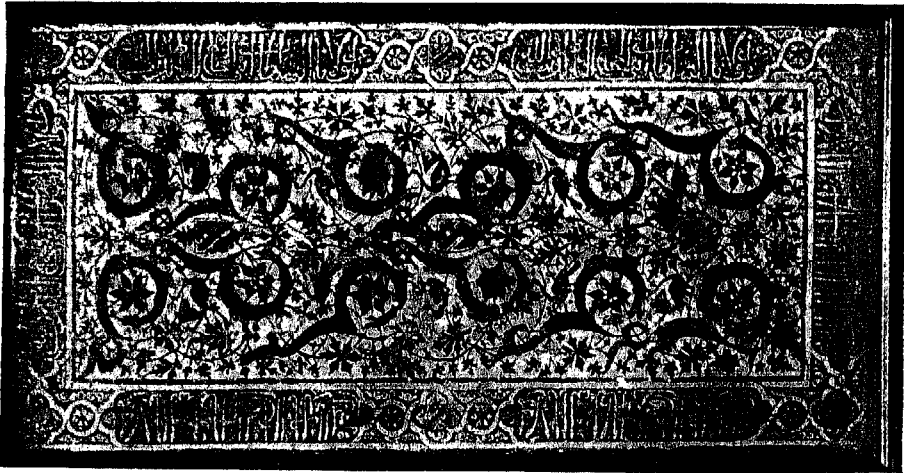
الأندلسى ، ثم بتاريخ اسبانيا الحديث .

تلك هي بلدة شنت منكش أو شنت مانكش الصغيرة ، وهي بالإسبانية بلدة Simancas ، التي تضم الحصن الشهير الذي يحمل نفس هذا الاسم .
وتقع شنت منكش أو «سيانقا» جنوبي غربي بلد الوليد ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، في واد عميق أخضر يقع على ضفة نهر بسوجرا أحد أفرع نهر دويرة . وهي عبارة عن محلة صغيرة تحتوى على عدد قليل من المساكن .
يبد أنها تشتهر بالأخص بحصنها الشهير ، الذي يقع في وسطها فوق ربوة مرتفعة . ويرجع حصن شنت منكش أو حصن سيانقا إلى القرن التاسع الميلادي ، وقد أنشأه المسلمون ، ولبت في أيديهم إلى نحو منتصف القرن العاشر . وعلى مقربة من شنت منكش ، فيما بينها وبين سمورة ، كان مسرح الموقعة الشهيرة التي وقعت بين عبد الرحمن الناصر ، وراميرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) ، والتي هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة ، وتعرف هذه الموقعة في الرواية الإسلامية بموقعة الخندق Alhandega :

وقد توالى على حصن شنت منكش بعد وقوعه في يد النصارى ، تغييرات وتعديلات كثيرة . وهو يبدو في شكله الحالي ، قلعة حصينة بنيت من الصخر الصلد ، وبها عدة أبراج منيعة . وتحتوى على أربعة طوابق في كل منها عدة غرف صخرية . وكان هذا الحصن يستعمل خلال العصور الوسطى سجناً من سجون الدولة ، ثم كان بعد ذلك من معاقل ديوان التحقيق (Inquisición) ، واستعمل منذ أوائل القرن السادس عشر داراً للمحفوظات الإسبانية . وهو ما يزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التي تضم مجموعات عديدة ، من أهم وأنفس الوثائق ، التاريخية والدبلوماسية والقضائية . ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وتشغل هذه المحفوظات الغنية أربعة وأربعين غرفة . ويطلق عليها اسم « دار المحفوظات العامة بسيانقا » Archivo general de Simancas ، وهي تستقبل العلماء والباحثين من سائر أنحاء العالم . وقد أتيج لنا زيارتها والعمل فيها غير مرة ، لقمينا خلالها من القائمين بأمرها ، أحمل ترحاب ومعاونة .



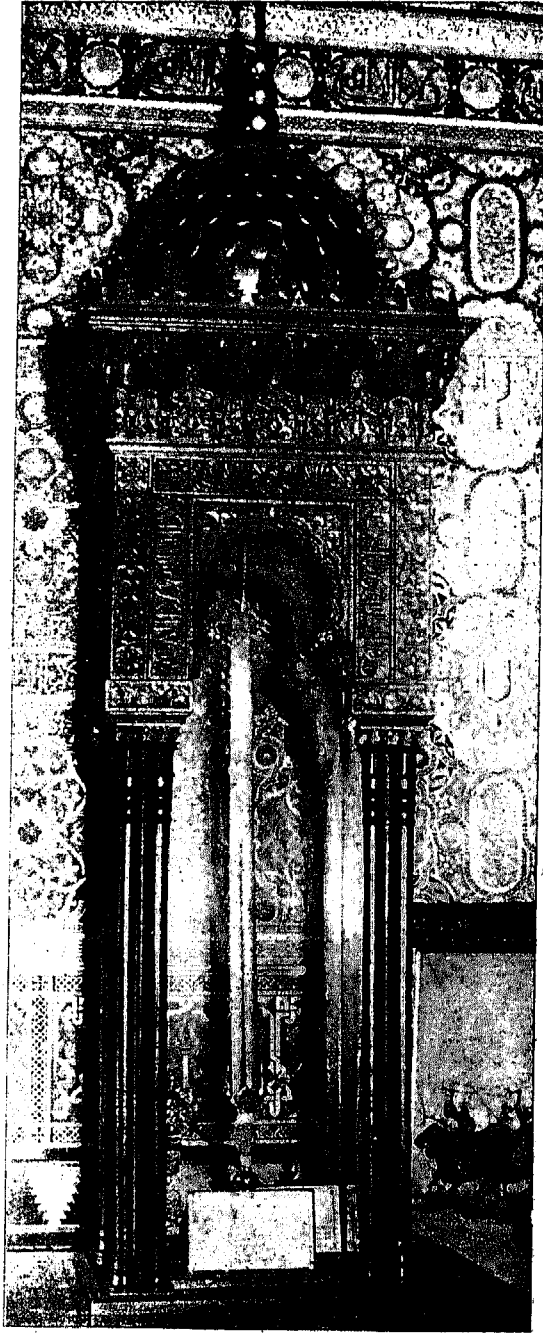
صندوق عاجي لعبد الملك المنصور (١٣٩٥ هـ) محفوظ بكنيسة بنبلونة العظمى



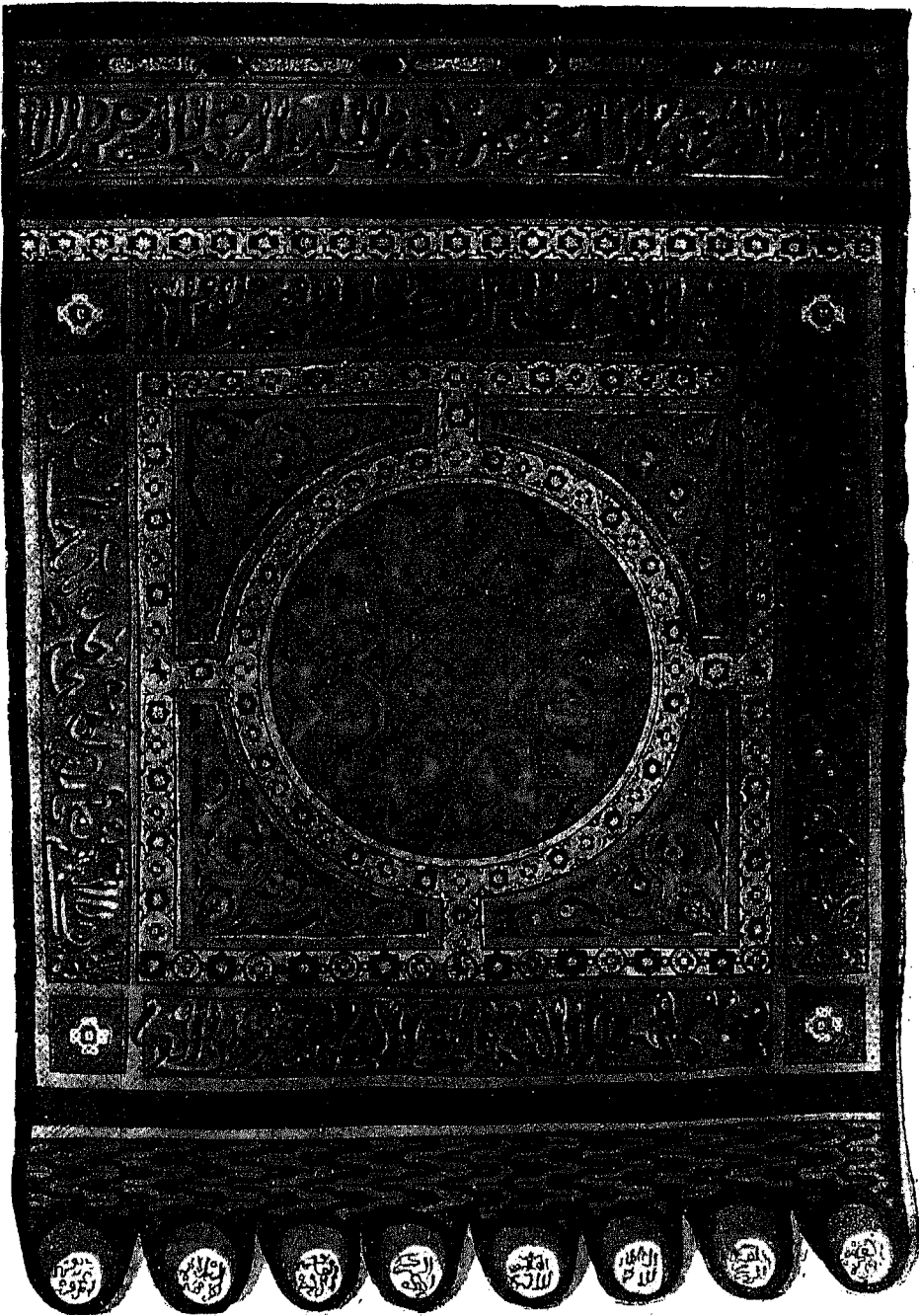
لوحة أندلسية من الخراف المذهب (الزليخ) ، محفوظة بمتحف بلنسية دي دون خوان بدير



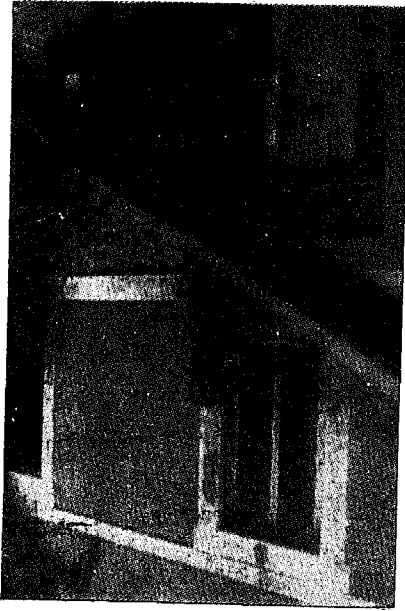
عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، المحفوظة بمتحف مدريد العربي



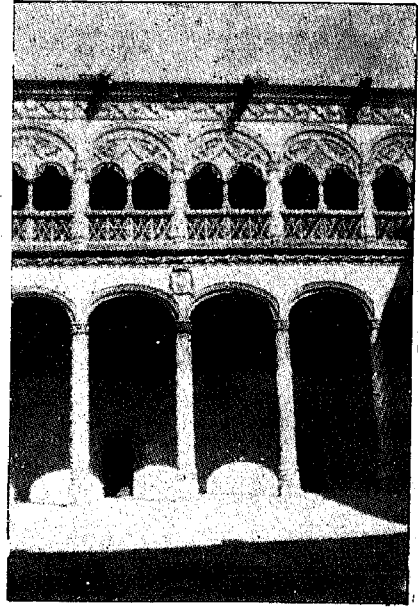
سيف على العطار بطل لوشة ، المحفوظ بمتحف مدريد الحربي



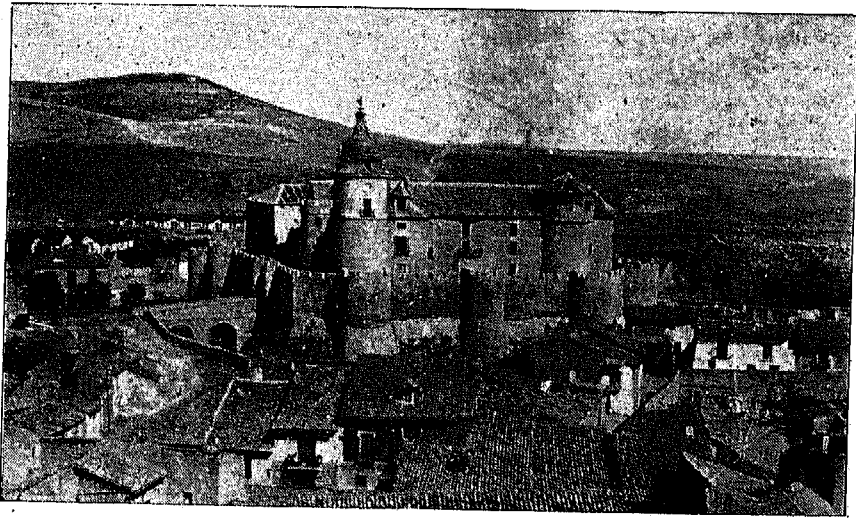
علم الموحدين الذي غنمه الإسبان في موقعة العقاب (١٢١٢م) وهو محفوظ بالدير الملكي بمدينة برغش



بلد الوليد . واجهة منزل ثرفانتس



بلد الوليد . عقود المتحف



شنت منكش (سيمانقا) . القلعة الأندلسية القديمة وهي اليوم دار المحفوظات الإسبانية العامة

٤ - شقوبية

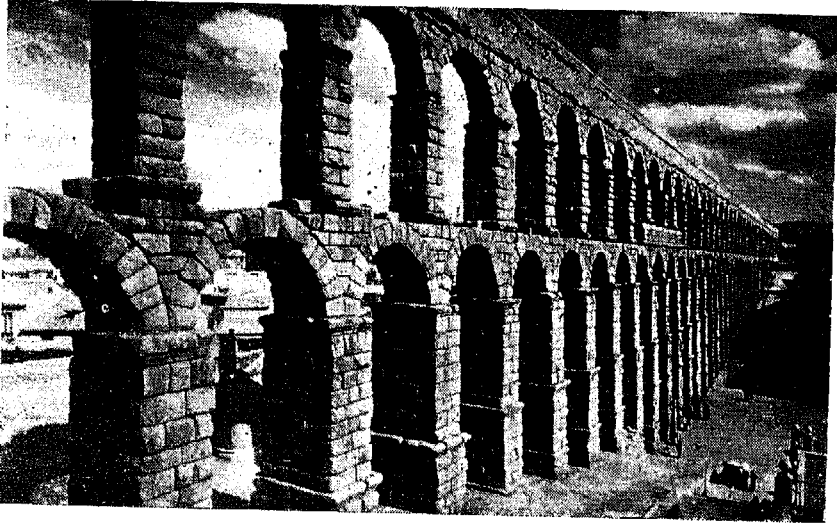
Segovia

تعتبر شقوبية أو بالإسبانية سجبوية من مدن إسبانيا الأثرية العريقة .
والواقع أن شقوبية تبدو للسائح المتجول ، مدينة قديمة تحمل طابع العصور
الوسطى ، بل العصور الغابرة ، ويكفى أن تلقى نظرة على قنطرتها الرومانية الهائلة
القائمة في وسطها ، لتدرك أنك في مدينة يرجع تاريخها على الأقل إلى العصر
الروماني .

وهي تقع شمال غربي مدريد على قيد تسعين كيلومتراً منها ، في سفح جبال
وادي الرملة (جواداراما) ، وتمتد أمامها بسائط خضراء يانعة ، تنتج مختلف
المحاصيل ولاسيما الحبوب ، وتحف بها الجبال . وأهم صناعات شقوبية الدقيق
والورق والخزف . ويبلغ سكانها زهاء خمسة وعشرين ألف نسمة . وهي هادئة
الحركة ، يشقها من الوسط حتى ميدان القنطرة الرومانية شارع طويل ضيق ،
ثم يمتد من هذا الميدان شارعها التجاري حتى ميدانها الرئيسي ، الذي تشرف عليه
دار البلدية ، ويقع على مقربة من كنيسها العظمى . وشوارع شقوبية ودروبها
صخرية منحدره . ومنازلها عتيقة الطراز قائمة اللون ، وكل مظاهرها تدل بطابعها
القديم .

وكانت شقوبية من أوائل المدن الأندلسية الشمالية التي استولى عليها النصارى .
وقد سقطت في أيديهم في عصر عبد الرحمن الأموي حوالي سنة ٧٥٧ م .
واتخذت طابعها القشتالي في عصر مبكر ، فهي في الواقع من أعرق مدن قشتالة .
القديمة .

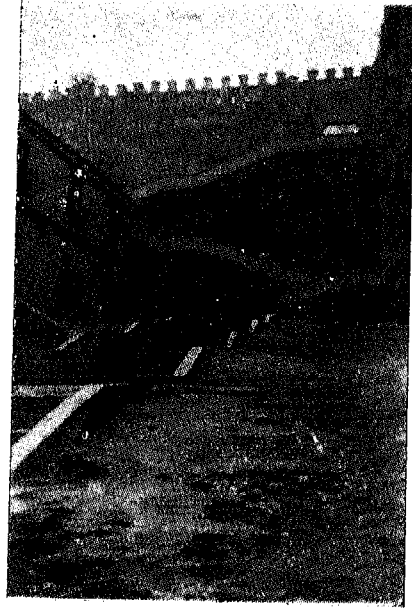
وبالرغم من أن شقوبية لم تتمكث طويلاً تحت حكم المسلمين ، فإنها مازالت
تحتوى على بعض الآثار الأندلسية . وأهم هذه الآثار هي بقايا الأسوار العربية
القديمة . التي مازالت قائمة إلى جانب القنطرة الرومانية تشرف عالية على الميدان ،
وقد كادت تحجبها المنازل الحديثة الملاصقة لها . ويصعد إليها بواسطة سلم حجري
عريض .



شقوبية . القنطرة الرومانية الكبرى



شقوبية . عقد سان أندريس



شقوبية . بقية من الأسوار الأندلسية

وتمتد القنطرة الرومانية الشهيرة من عند بقية الأسوار العربية . وهي أثر هائل من أعظم آثار العصر القديم . وتمتد على ضلعين كبيرين يباغ طولهما أكثر من كيلومتر ، ويتكون كل من الضلعين من عقود هائلة من الحجر الصلد ، تبدأ من الأسوار على عقدين فوق بعضهما يبلغ ارتفاعهما نحو ٣٥ متراً . ويستمر الصنف مزدوجاً ودرجياً في الانخفاض حتى ينتهي إلى عقد واحد . ثم يعود في الضلع التالي فيبدأ عالياً بعقده الموحد ، ويتضاءل في الارتفاع تدريجياً ، ويمتد على طول ستمائة متر تقريباً .

وقد شيدت هذه القنطرة العظيمة في عصر الإمبراطور تراجان الروماني ، في القرن الأول بعد الميلاد ، وكانت تقوم بوظيفتها في نقل ماء النهر (وهونهر فريو فرع نهر دويرة) عبر الجبال إلى المدينة خلال مختلف العصور ، واستمرت تقوم بمهمتها إلى أواخر القرن الماضي . ولكنها اليوم تغدو أثراً مهجوراً لا عمل له . وتقع الكنيسة العظمى أو الكاتدرائية ، فوق صخرة عالية على مقربة من الميدان الكبير ، وتمتد هذه الصخرة منحدره حتى موقع « القصر » . وكاتدرائية شقوبية ضخمة رائعة من الداخل . وقد بنيت في أواخر القرن السادس عشر على الطراز القوطي . ويمتد « مقدسها » خلال رواقين كبيرين . وبها معرض للمخطوطات المقدسة من الأناجيل والأناشيد الكنسية ، وكذلك تعرض بعض الوثائق القشتالية في سهو المحفوظات . وبها متحف يقدم طائفة من التحف الدينية المذهبة والصور التاريخية ، ومجموعة من السجاد الفاخر من صنع جوبلان ، وقد صوره عليه تاريخ ملكة تدمير نقلا عن المصور « روبنس » .

وقد لفت نظرنا في هذا المتحف قطعة رخامية ، هي عبارة عن رأس عمود مزخرف مقرنص وعليه كتابة عربية قرأنا منها :

« بسم الله والحمد لله

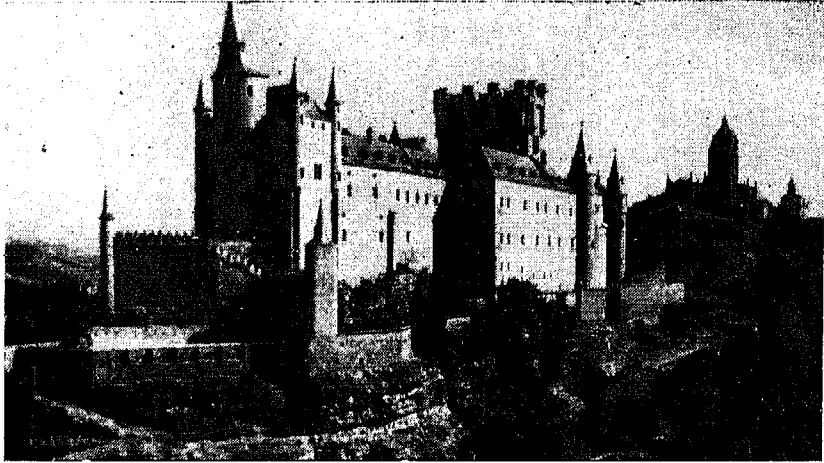
نعمة شاملة

أطال الله بقاءه مما أمر بعمله . .

سنة تسع وأربعين وثلثمائة والحمد لله » .

ويفضى من الكاتدرائية إلى « القصر » طريق صخري ضيق منحدر . ويقع القصر Alcázar فوق صخرة وعرة تجثم في أعماق هاوية مخيفة ، وهو يتخذ شكل

قلعة منيعة ذات برج ضخمة ، يبلغ ارتفاعه منذ مرساه في الهاوية إلى قمته نحو مائة متر . ولا بد أنه يمت بصلبة ما إلى صرح أندلسي قديم مثل القصبة أو القصر إذا اعتبرنا دلالة الاسم . ولعله قد بنى فوق أنقاض هذا الصرح الأندلسي القديم أو فوق موقعه . والمعروف من تاريخه أنه بنى في القرن الثالث عشر ، وجدد في القرن الرابع عشر ، وكان من الصروح الملكية القديمة ، التي كانت تستعمل للإقامة المؤقتة ، ويعقد به البلاط من آن لآخر ، وهو يحتوى بالفعل على بهو ملكي وقاعة للعرش ، ومما يلفت النظر أن قاعة العرش لها سقف عربي . بزخارف مقرنصة على شكل قبة عربية ، تحفها نقوش مدجنية ، والمقول أنها صنعت على



شقوية . منظر عام للقصر والربوة القائم عليها

مثل زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقد زينت أهباء « القصر » بطائفة من الصور التاريخية .

ويقع على مقربة من الكنيسة العظمى في أسفل الصخرة ، عقد قديم منيع ذو طراز عربي ، يسمى باب سان أندريس ، وإلى جانبه الأيمن بقية من أسوار قديمة . بيد أننا لم نستطع أن نقف على العصر الذي بنى فيه ، ولم نعرف إن كان يرجع إلى العصر الأندلسي ، أم أنه من إنشاء العصر القشتالي .

وفي شقوية ساحة لمصارعة الثيران .

٥ - آبله

Avila

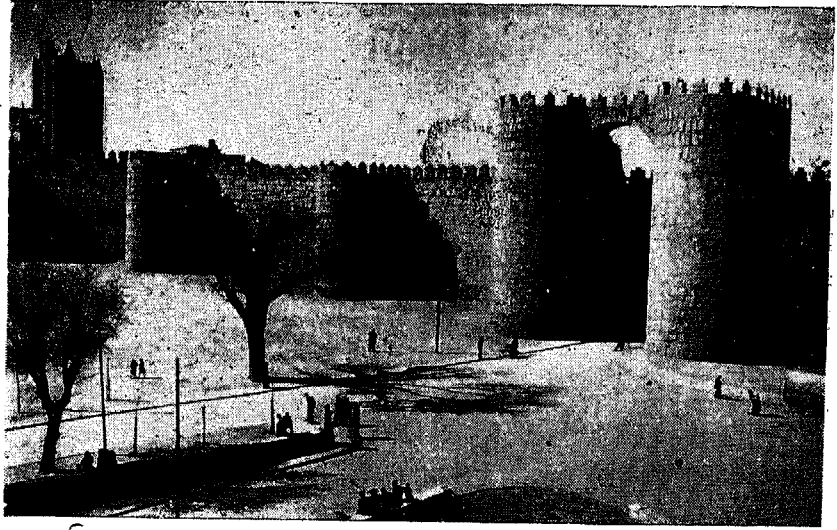
كانت آبله ، مثل شقوية ، من أوائل المدن الأندلسية التي استردها النصارى . وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الأموى حول سنة ٧٥٧ م .
وهى مدينة صغيرة تقع فى شمال غربى مدريد ، على قيد ثمانين كيلومتراً ، وبينها وبين شقوية مسافة صغيرة ، ويربطها بمدريد قطار كهربائى . ويبلغ سكانها خمسة عشر ألف نسمة .

وآبله ضيقة الرقعة ، يشقها شارع طويل يبلغ نحو كيلو مترين . وهى مدينة هادئة جميلة المظهر ، وبها أسواق حسنة . وأعظم آثارها الظاهرة هى بقية أسوارها الضخمة التى مازالت تحيط بقسمها الغربى ، وهى أسوار منيعة عالية يبلغ طولها نحو نصف كيلومتر ، وبها عدد كبير من الأبراج ، وعدة أبواب مازالت كلها فى حالة جيدة . ويبدو من منظر هذه الأسوار ، وطرازها أنها ترجع إلى العصر الرومانى ، ولكن يبدو كذلك فى كثير من أجزائها ، أن العرب قاموا بإصلاحها والزيادة فيها .

وفى آبله عدة كنائس أثرية فى مقدمتها الكنيسة العظمى ، وهى بناء ضخم أقيم على الطراز القوطى ، ولها واجهة فخمة ، وبها من الداخل زخارف وهياكل بديعة . ويرجع إنشاؤها إلى القرن الثالث عشر . وتليها فى الأهمية كنيسة سان بنثى ، وهى أيضاً جميلة فخمة وبها متحف صغير .

ومن آثار آبله الأندلسية القصر Aicázar ، وهو عبارة عن حصن قديم حول منذ عهد بعيد إلى ثكنة عسكرية .

وهناك رأى فيما يتعلق بمسجد آبله القديم ، وهو أن موقعه لم يشغل ببناء الكنيسة العظمى وفقاً لسياسة إسبانيا النصرانية ، التى اتبعتها فى سائر مدن الأندلس ، ولكن ظهر من البحوث الحديثة أن موقع هذا المسجد ، يقوم اليوم مكانه دير سانتا ماريا دى جراثيا Monasterio de Sta. Maria de Gracia ، الذى يشغله الراهبات الأوغسطينيات ، يدل على ذلك كتابة وجدت على قطعة من الخشب ،



آبله . جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت في نهايته الكنيسة العظمى
وكذلك مذكرة قديمة كتبها أحد رؤساء هذا الدير في القرن السابع عشر . بيد أنه
من الصعب أن نعرف متى كان هذا المسجد قائماً ومتى هدم ، إذ أنه من أقدم
المساجد الأندلسية (١) .

(١) يراجع في ذلك بحث للمستشرق F. Gonzalez عنوانه « مسجد آبله القديم » Antigua
Mezquita de Avila منشور في مجلة أكاديمية التاريخ الملكية Boletín de la Real Academia
de la Historia (T. XIV, 1889).

٦ - وادى الحجارة

Guadalajara

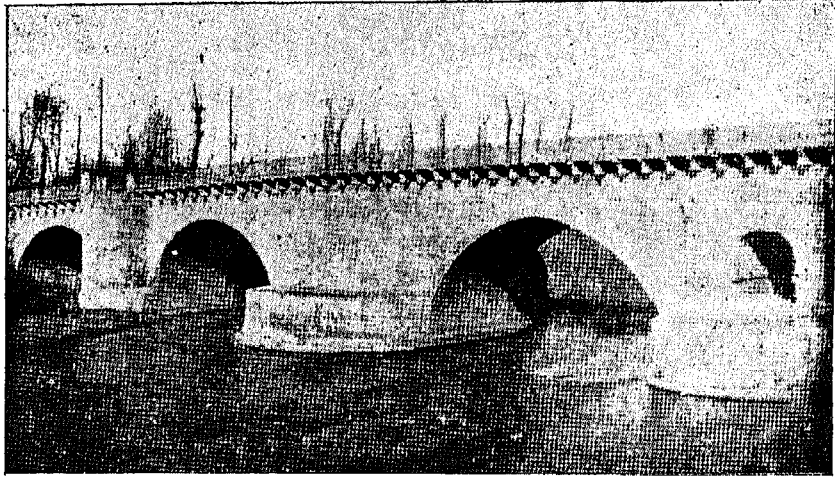
هى مدينة أندلسية قديمة ، كانت أيام المسلمين تعتبر من المراكز الأمامية للغزوات الإسلامية فى نافار وقشتالة ؛ وهى تقع على نهر هنارس شمال شرقى مدريد وعلى قيد خمسين كيلومتراً منها ، وبينها وبين العاصمة الإسبانية منطقة خضراء تتخللها بعض التلال ، وتغطيها غابات الزيتون والحقول اليبانة .

وقد لبثت وادى الحجارة تحت حكم المسلمين زهاء ثلاثة قرون ونصف ، وسقطت فى أيدي القشتاليين عقب سقوط طليطلة فى سنة ١٠٨٥ م ، وكان الذى استولى عليها هو القائد ألبرفانيس أو ألبرهانس Alvar Fañez زميل السيد الكنييطور El Cid ، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة قشتالة ، وحاول المسلمون استعادتها فى سنة ١١٩٦ م ، فلم يفلحوا .

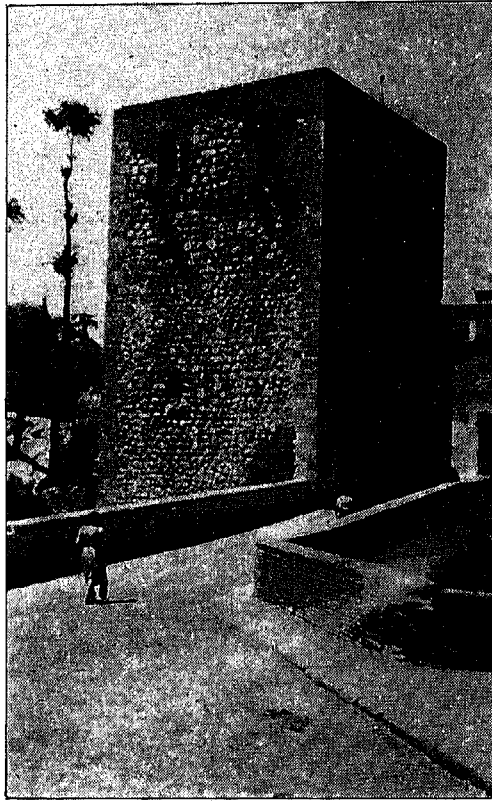
وتبدو مدينة وادى الحجارة ، إلى جانب مناظرها الطبيعية الجميلة ، مدينة قديمة الطراز ، وهى طويلة الرقعة قليلة العرض ، يشقها شارع طويل جداً هو شارع القائد الأعظم ، وهو شارعها الرئيسى وفيه المتاجر والمقاهى ، وتنتفع منه سائر أحياء المدينة على الجانبين فى عرض قليل ، وتضم المدينة من السكان اثنى عشر ألفاً . ويلاحظ أن الدروب الواقعة فى طرف المدينة هى دروب ضيقة وصاعدة ، تحمل طراز العصور الوسطى .

ولاتوجد فى وادى الحجارة آثار أندلسية بارزة ، اللهم إلا بقية أسوار قديمة تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفوقها بناء مربع عال يظهر أنه برج قديم وفى أعلاه عقود نافذة ، ويسمى « برج العلمين » ، وقيل لنا إنه يرجع إلى عهد المسلمين .

وتسمى الكنيسة العظمى كنيسة « سانتا ماريا » ، وهى صغيرة الحجم ذات عقود كعقود الجامع ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، وهى بسيطة قليلة الزخارف ، وفيها تحفظ صورة قديمة للعنداء ، كان ألفونسو السادس ملك



وادی الحجارة . القنطرة العربية على نهر هنارس (القرن العاشر إلى الحادى عشر)



وادی الحجارة . برج العلمین وبقية الأسوار الأندلسية

قشتالة يحملها معه في حروبه ضد المسلمين ، في أواخر القرن الحادى عشر .
وظاهر من موقع الكنيسة أنها ربما كانت تحتل موقع الجامع القديم .
وتقع كنيسة سان فرنسيسكو في طرف البلدة على ربوة مرتفعة ، على مقربة
من الكنيسة العظمى ، ويقال إنها ترجع إلى عهد المسلمين ، وربما كانت تقوم
أيضاً فوق موقع أحد المساجد .

ويوجد إلى يسار هذه الكنيسة بناء هو عبارة عن برجين مستديرين بينهما
سور طوله نحو ثمانين متراً ، ويعرف هذا البناء بأبراج «ألبرفانيس» فاتح
المدينة ، وربما كان النصرارى قد أنشأوها فوق أنقاض القصبية العربية القديمة ،
يرجح ذلك الفرض موقعها في نهاية المدينة ، وفي طرف الربوة المطلة على الوادى .
كذلك توجد كنيسة القديس نيقولا ، وهى كنيسة صغيرة ذات عقود
وقبة على طراز الجامع ، وهى تقع في وسط المدينة .

ويوجد في وادى الحجارة صرحان كبيران يرجعان إلى القرن الخامس عشر ،
من طراز ملجنى يسمى أحدهما « قصر مندوسا » .
كما توجد القنطرة العربية القديمة فوق نهر هنارس ، وقد بقى من عقودها
الأربعة عقدان من عهدنا الإسلامى .

ويبدو من تأمل الدروب والأحياء التى تقع حول الكنيسة العظمى ، أن
المدينة الأندلسية كانت تقوم فوق هذه الرقعة ، صاعدة نحو الربوة التى تقع عليها
كنيسة سان فرنسيسكو في طرف المدينة ، وممتدة من الناحية الأخرى حتى القنطرة .

إن مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ليست من العواصم القديمة . ولم تكن مدينة أندلسية ، ولكنها مدينة باسمها وموقعها من الناحية التاريخية إلى بلدة أندلسية صغيرة ، أنشأها المسلمون في أواسط القرن التاسع الميلادي ، هي «مجريط» Magerit أو كما ينطقها الإسبان مجريط .

وكانت مجريط محلة صغيرة ، أمر بإنشائها الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم أمير الأندلس (٨٥٢ - ٨٦٦ م) ، حوالي سنة ٨٦٠ م . واختطت فوق سطح جبل وادي الرملة Guadaramma شمالي طليطلة ، وجنوب غربي وادي الحجارة ، في منطقة الحصون الدفاعية ، وبنيت بها قاعة منيعة ، مشرفة على الضفة اليمنى لنهر مثنارس ، أحد أفرع التاجه . لتعاون في رد غارات النصارى ، من ناحية الثغر الأعلى ، كما أقيم بها مسجد جامع ، وقامت حولها بلدة إسلامية صغيرة .

ويذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون «مجريط» . ويصفونها بأنها مدينة صغيرة وقلعة منيعة ، ويصفون حصن مجريط بأنه من «الحصون الحليمة» (١) . وكانت أهمية مجريط في عهدها الإسلامي تنحصر قبل كل شيء في قيمتها الدفاعية . ومع ذلك فقد كانت مجريط في ذلك العهد بلدة زاهرة ، وكانت موطناً لبعض علماء الثغر الأوسط ، ومنهم المحدث سعيد بن سالم الثغري المتوفى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) . وكذلك ينتسب إليها العلامة الفلكي الأندلسي : أبو القاسم مسألمة المجريطي القرطبي المتوفى في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) .

ولبثت مجريط زهاء قرنين ونصف قاعدة دفاعية أمامية : تؤدي دورها الهام في الحروب التي تنشب بين المسلمين والنصارى في منطقة وادي الحجارة ، وكانت في أواخر عهدها الإسلامي من أعمال مملكة طليطلة ، أيام بني ذى النون ،

(١) راجع معجم ياقوت تحت كلمة (مجريط) . وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس)

وكانت محور كثير من المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، وبين ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وانتهت آخر الأمر بسقوطها في يد ألفونسو السادس في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، قبيل استيلائه على طليطلة بنحو عامين ، وقد هدم مسجدها الجامع ، وبنيت فوق موقعه كنيسة عرفت فيما بعد بكنيسة سيدة المدينة Nuestra Sra. de Almedina .

ثم اتخذ بعض ملوك قشتالة من هذه المحلة مركزاً للصيد والتنزه ، وذلك للحال موقعها ، وطيب هوائها ، وأقام الملك هنرى الرابع مكان القلعة الإسلامية القديمة Alcázar قصرًا للصيد ، وجاء الإمبراطور شارلوكان فعنى بتوسيعه وتجميله ، وكان ينزل فيه من آن لآخر ، واشتهرت مجريط وسهلها المسمى « البارود » ، يومئذ بأنها أجمل منتجع للصيد والتنزه . وأخيراً جاء ولده الملك فيليب الثاني فاتخذها مقراً لبلاطه ، وذلك أثناء قيامه بإنشاء قصره العظيم « الإسكوريال » Escorial في بقعة تقع على مقربة من مدريد ، وكان ذلك في سنة ١٥٦١ م . ومن ذلك التاريخ تغدو مجريط ، أو مدريد وفق اسمها الحديث الذي تطور إليه الاسم القديم ، مقر البلاط ومقر الحكومة ، وتغدو عاصمة لإسبانيا .

وهكذا ولدت مدريد العاصمة الإسبانية ، واستقرت مكان أمها العربية الأندلسية مجريط ، وهى تغدو اليوم بشوارعها وميادينها الفسيحة ، وصروحها الفخمة العديدة ، من أجمل العواصم الأوربية . وقد خلفت الملوكية في مدريد ومن حولها كثيراً من الصروح والمنشآت الباذخة التي تضيء عليها مسحة ساحرة من الروعة والحلال .

ويعنى أولو الأمر عناية خاصة برواء العاصمة الإسبانية وتجميلها . ويعتبر شارع « جران بيا » Gran Via ، أو « خوسيه أنتونيو » أعظم شوارعها التجارية والاجتماعية ، ففيه أشهر المتاجر والفنادق والمسارح والمقاهى ودور الأعمال ، وفي نهايته من ناحية « ميدان اسبانيا » يقع « صرح اسبانيا » ، وكان إلى أعوام قلائل أعظم وأعلى بناء في العاصمة الإسبانية ، ويحتوى على ست وثلاثين طبقة (١) ، وأمامه الحدائق التي يتوسطها أثر الكاتب الإسباني الأشهر « ميغيل ثرقاتنس » . ويلي « الجران بيا » في الأهمية شارع « مايور » (الشارع الكبير) الذي تقع من

(١) وقد قام في الأعوام الأخيرة أمام « صرح اسبانيا » صرح جديد آخر أعلى منه بعدة طبقات .

ورائه مدريد القديمة بأحيائها العتيقة وشوارعها الضيقة ، وشارع « ألكالا » Alcála (القلعة) وكلاهما يتفرع من ميدان «باب الشمس» P. del Sol في اتجاهين متقابلين . وهذا الميدان القديم الذى تقع دار البلدية فى أحد جانبيه ، يكاد يكون قلب مدريد النابض الذى يوزع مجمل الحركة على شوارعها الكبرى ، ويتفرع منه عدة شوارع أخرى صاعدة كلها ، من ناحية نحو « الجران بيا » ، وعدة أخرى من الناحية الأخرى صاعدة كلها نحو أحياء مدريد الشعبية . وشارع « ألكالا » هو شارع البنوك وبعض الوزارات ، ويمتد حتى حدائق الريترو ، ثم ينحرف بعدها إلى مسافة طويلة . وحدائق الريترو El Retiro هذه تفتخر بها مدريد أعظم الحدائق الأوربية ، وقد تفضل حدائق فرساي روعة واتساعاً . ويمتد قبيل الريترو ، بمحذاء الكالا ، شارع آخر من شوارع مدريد الكبرى هو شارع سمرانو . بيد أن أعظم وأطول شوارع مدريد ، وأبدعها تخطيطاً هو طريق «كاستيليانا» Castellana الذى يشق العاصمة الإسبانية من الوسط ، وتقوم فى وسطه المتنزهات المستطيلة الرحبة ، وتتخلله عدة ميادين فخمة ذات نوافير تاريخية بديعة . وأهم هذه الميادين وأجملها ميدان ثبليس Cibeles الذى يقع فى منتصفه ، والذى تشرف عليه دار الريد العامة بأبراجها القوطية الرشيقة ، وهى من أجمل صروح مدريد الحديثة . ومن أعظم وأشهر صروح مدريد قصر المشرق «أورينتى» وهو مقر رئيس الدولة ، والقصر الملكى السابق (قصر باردو) ، ومتحف البرادو الشهير ، والمتحف الأركيولوجى ، والمكتبة الوطنية ، ودار البرلمان (الكورتيس) ، ومسرح مصارعة (الثيران) (الكوريدا) ، والجامعة الجديدة ، وكثير غيرها .

ويقع القصر الملكى السابق Palacio Real فى غربى المدينة ، فوق مرتفع يشرف على نهر مثنارس ، وقد بنى فى أواخر القرن الثامن عشر ، على موقع قلعة مجرىط الإسلامية القديمة ، مكان قصر الصيد السابق .

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن العاصمة الإسبانية لذاتها ، ولا أن نصف خططها ومنشأتها ، ولكننا نريد فقط أن نتحدث عما تحتويه متاحفها من الذخائر التى تتعلق بتاريخ الأندلس وحضارتها .

فى متحف مدريد الحربى ، الواقع على مقربة من متحف البرادو ، توجد قاعة صغيرة خصصت لبعض الآثار الأندلسية . وتكاد تنحصر هذه الآثار فى قطع ثلاث ، ترتبط كلها بمأساة سقوط الأندلس .

١- وأولى هذه القطع صورة مكبرة لإقرار بالعربية ، كتبه أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بخطه ، بالموافقة على نصوص آخر معاهدة للتسليم ، عقدها مع الملك فرديناند الكاثوليكي وزوجه الملكة إيسابيلا فاتحي مملكة غرناطة ، وأمضاه بتوقيعه (محمد بن علي بن نصر) وبصممه بخاتمه . وتاريخ هذه الوثيقة المؤثرة هو ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ ، (الموافق ٧ أغسطس سنة ١٤٩٣ م) وبلى هذا القبول ترجمته بالقشتالية (الإسبانية) .

وهذا هو نص الإقرار المذكور : « الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خدمكم وصلتنى من مقامكم العلى العقيد وفيها جميع الفصول الذى عقدها عنى وبكم التقديم من خديمى القائد أبو القاسم المليخ . وصلت بخط يدكم الكريمة عليها وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذى تصلكم . وإنى نوفى ونحلف أتى رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة ، أنا كاتبه محمد بن علي بن نصر رضيت وقلت جميع ما فى هذا المكتوب الثابت وتقبل بيدي . إلى أضيافى السلطان والسلطانة مُدلى هنا كما » .

وتنص هذه المعاهدة التى مهرها أبو عبد الله بقبوله المتقدم ، على تعهده بأن يغادر الأندلس بصورة نهائية ، وأن يعبر إلى المغرب فى موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأن يتنازل عن سائر ضياعه فى أندلس وغيرها بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) . وقد كتبت المعاهدة المشار إليها باللغة القشتالية ، وهى محفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيانقا (١) .

٢- وإلى عمن هذا الإقرار الملىء بالعبر المؤلمة ، تعرض العبادة الملوكية التى تنسب إلى أبى عبد الله ، وهى عبادة نصفية من الخمل أرجوانية اللون ، وعليها نقوش عربية جميلة بيضاء . وقد كتب تحتها أنها عبادة أبى عبد الله Capa de Boabdil ، وأنها أهديت إلى المتحف من أسرة المركيزة ماريادل

كارمن بيرث Doña Carmen Perez Vanidas y Berry

(١) حصلنا أثناء بحوثنا فى قلعة سيانقا (شنت منكش) على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة . وقد

نشرنا محتوياتها فى كتابنا « نهاية الأندلس » (الطبعة الثانية) ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

وإذا صح حقيقة أنها عباءة أبي عبد الله ، فأغلب الظن أنها أخذت منه في معركة حصن اللسّانة ، التي وقعت بين المسلمين والنصارى في ابريل سنة ١٤٨٣ ، قبل سقوط غرناطة بعدة أعوام . وقاد فيها قوات المسلمين أبو عبد الله وهو يومئذ سلطان غرناطة القتي ، وقد أسر فيها أبو عبد الله . وقضى في أسره في بلاط الملكين الكاثوليكين زهاء ثلاثة أعوام . وربما أخذ منه سلاحاً وثيابه الملكية يومئذ . عنواناً لظفر النصارى وتذكيراً من هذا الأسير الملكي الكبير .

٣ - وثالثة هذه التحف . سيف أندلسي ضخم بمقبض ثمين مموه بالذهب ، ومرفوم بأنه سيف على العطار *Aliatar* .

وهذا السيف هو تذكار بطولة أندلسية خالدة ، فقد كان صاحبه الأمير على العطار قائداً بطلاً ، من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى ، وكان يرتبط بملك غرناطة السلطان أبي عبد الله برباط المصاهرة . إذ كان السلطان متزوجاً بابنته الحسناء مريم . وقد أبدى على العطار بسالة نادرة في الدفاع عن مدينة لوشة . التي كان قائداً لحاميتها حينها هاجمها النصارى في يولييه سنة ١٤٨٢ . وكان يومئذ في الثمانين من عمره ، ولكنه كان بالرغم من شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان الأندلس . وقد أخذ هذا السيف منه في معركة اللسّانة التي خاضها ضد النصارى مع أبي عبد الله وأسر معه فيها (١) .

وإلى جانب هذه الذخائر الثلاث ، يوجد أيضاً في المتحف الحربي درعان يقال إنهما كانا لأبي عبد الله ، كما توجد مجموعة من قطع النقد الأندلسية ، ترجع إلى عصور عبد الرحمن الناصر ، والزهاء ، والمستنصر . والمنصور .

متحف بلنسية دي دون خوان

يضم هذا المتحف الصغير الواقع في شارع فرتوني ، والذي يضمه بناء عربي أنيق ، مجموعة ثمينة جداً من اللوحات والشواهد الرخامية الأندلسية ، والزخارف العربية ، والأواني الخزفية الأندلسية والمدجنية ، وقطع البسط الأندلسية ، وهي تشغل معظم قاعاته .

ومن الأسف أنه لا يوجد لهذا المتحف دليل مفصل شامل يقوم بالتعريف

(١) نشرنا صورتي العباءة والسيف في المجموعة الخاصة بالكتاب الرابع .

عن محتوياته ، ولم توضع على محتوياته بيانات إيضاحية ، وقد أنفقنا في البحث فيه ساعات طويلة نستقرئ ذخائره الأندلسية ، وإليك بعض ما لفت نظرنا من هذه المحتويات :

١ - عدة لوحات رخامية من شواهد قبور ، مختلفة الأحجام والتواريخ ، قد صيغ معظمها في أساليب متشابهة ، وافتتح معظمها بالآية : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » ، هذا قبر . الخ « (١) » .

بيد أنه قد لفت نظرنا منها شاهدان كتب كلاهما بأسلوب مختلف أولهما ، لوحة رخامية حجمها ١,٥٠ × ٢٣ مترآ ، وقد نقش فيها ما يأتي :

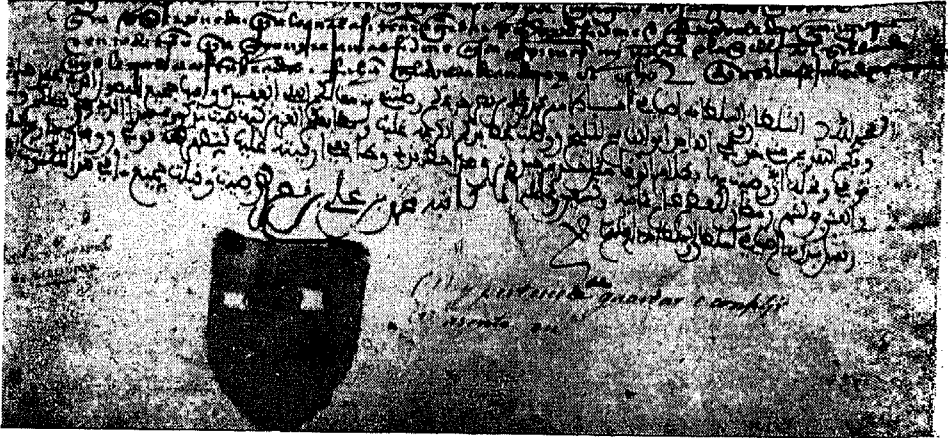
« دفن بهذا القبر رجل من أهل الخير ، أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ المرحوم محمد بن زياد البلنسي سنة تسعة وعشرين وسبعائة رحمة الله عليه وكتبه ابنه فضل وحاج عنه نفعه الله به وببركة رظاه » . وقد وجدت هذه اللوحة في مدينة ألمرية .

والثانية لوحة رخامية كبيرة حجمها ١,٧٥ × ٨٠ مترآ وقد وجدت بمدينة غرناطة ، ونقش عليها هذا النعي البليغ المؤثر :

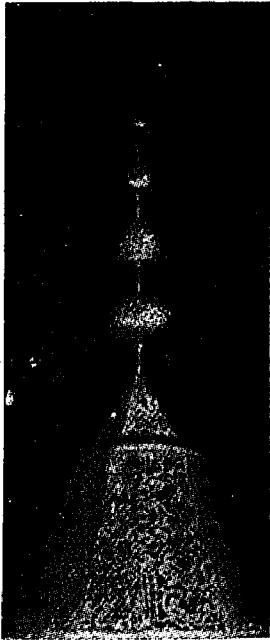
« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله ، هذا قبر الشاب الفقيه الأجل السرى الأفضل الأبرع الأخصل المرحوم أبي جعفر بن شبرين رحم الله شبابه ، وروى بماء الرحمة تراه ، لما تشوقت منه الرتب إلى كفوها ، ووليت منه مقلد حلما ، والبراع إلى مجبل أفراسها ، والرقاع إلى راقش أطراسها ، دعاه داعي الأجل ، فحث سبيله بأقصى العجل ، وعاق هلاله عن التمام ، صرف الحمام ، وبقى وجه ربك ذو الحلال والإكرام ، وكان [سبب] وفاته رحمه الله بفرس قيض لحينه ، فأثكل الحجد ، ومحاقرة عينه ، فيا له من بدر عدا عليه الرامح ، وشهاب اقتران يهتدى به اللامح ، أجزل الله بمصابه ثواب والديه ، وجعل له من صالح العمل نورا يسعى خلفه وبين يديه ، ولد في ظهر يوم الاثنين الرابع وعشرين لصفر أربعة وعشرين وسبعائة وتوفي في أول يوم الأربعاء السادس عشر لذي حجة اثنين وأربعين وسبعائة ،

(١) راجع : Lévy-Provençal ; Inscriptions Arabes d'Espagne : اللوحات رقم

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ . . . الخ



متحف مدريد الحربي . إقرار أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس بقبول معاهدة التسليم الأخيرة



متحف مدريد الوطني . قنديل برونزي من
مخلفات جامع الحمراء

٢٢ - آثار



متحف مدريد الوطني . زخارف
قطعة من البسط الأندلسي

- ٢ - صندوق صغير مستطيل من مخلفات مدينة الزهراء نقش على جوانبه ما يأتي :
« بسم الله بركة الله ويمن وسعادة وسرور لأحب ولادة مما عمل بمدينة الزهراء
سنة خمس وخمسين وثلاث مائة عمل خلف » .
- ٣ - زلعة أو جرة كبيرة من الخزف بوجه مذهب ، ونقوش كوفية
وعربية ، على مثل زلعة الحمراء ، وقد نقش على عنقها مكرراً « اليمن والإقبال » .
- ٤ - لوحة من الخزف المذهب حجمها نحو متر في نصف متر ، وقد كتب على جوانبها
الأربع هذه العبارة « عز لمولانا السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله » . وقد كتب عنها في
الدليل الموجز الذي عمل عن بعض محتويات المتحف ، أنها وجدت في حى البيازين بغرناطة .
- ٥ - قطعة من الخزف المزخرف ظاهر أنها جزء من لوحة كبيرة ، وقد نقش
عليها « الملك الدائم ، العز القائم » .
- ٦ - قطعة من قماش مستطيلة طولها متر ونصف وعرضها ثلاثون سنتيمتراً
مذهبة الحواشي ، وفي وسطها رقعة سوداء كتب عليها بخط مذهب باهت « ولا غالب
إلا الله » عدة مرات .
- ٧ - قطعة من سجاد مستطيلة ضيقة طولها متر ونصف وعرضها ١٥ سنتيمتراً
وعليها كتابة مكررة « سلطان أيده الله ، بالسعد والفتح والنصر . لمولانا عمدة ملوك
الأرض قتي اليمن . . الخ » .
- ٨ - عدة قطع أخرى من سجاد عليها نقوش مختلفة مثل « عز لمولانا
السلطان » وغيرها .
- ٩ - عدد كبير من الأواني الخزفية الجميلة ، المدجنية والموريسكية ذات
الألوان الزاهية .

المتحف الوطني

ويضم متحف مدريد الوطني أو الأركيولوجي ، قسماً كبيراً للآثار الأندلسية
والمدجنية والموريسكية . ويضم بالأخص لوحات وقطعاً زخرفية عديدة ، من
مخلفات الصروح والقصور الأندلسية المختلفة ، وبه كذلك عدد من شواهد القبور ،
رأينا من بينها شاهد قبر الأمير أبي محمد سير بن أبي بكر اللمتوني ، القائد المرابطي
الشهير والمتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، وشاهد قبر الوزير أبي عمران موسى بن الأزرق
الفهري ، قائد ابن مردنيش المتوفى سنة ٥٦٦ هـ

وإليك بعض ما لفت نظرنا من محتوياته الأندلسية :

١ - لوحة رخامية تذكارية سجل بها ، إنشاء الخليفة الحكم المستنصر بالله لأحد أبراج حصن بجهة جيّان على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببنيان هذا البرج عبد الله الحكم المستنصر بالله ، أمير المؤمنين أطال الله بقاءه على يد موله وقائده ميسور بن الحكم فتم وكل بحول الله وتأييده وذلك في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلث مائة » .

٢ - صندوق مربع الشكل من مخلفات اسماعيل بن ذى النون الظافر ، صاحب طليطلة ، نقش على جوانبه الأربع ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة دائمة ونعمة شاملة وعافية باقية وغبطة طائلة وآلاء متتابعة وعز وإقبال وإنعام واتصال وبلوغ آمال لصاحبه أطال الله بقاءه مما عمل بمدينة قونكة بأمر الحاجب حسام الدولة أبي محمد اسماعيل بن المأمون ذى المجددين ابن الظافر ذى الرياستين أبي محمد بن ذى النون أعزه الله في سنة إحدى وأربعين وأربع مائة عمل عبد الرحمن بن زيان » .

٣ - صندوق صنع برسم المعز لدين الله الفاطمي ، وعلى وجهه العاجي نقش هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معدّ أبي تميم الإمام المعز [لدين الله] أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين مما أمر بعمله بالمنصورية المرضية صنعه أحمد الخراساني » (١) .

٤ - قطعة من قماش حريري مزركش بالذهب ، من مخلفات الخليفة هشام المؤيد بالله وقد كتب عليها ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » .

٥ - طشت وضوء من مخلفات المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) نقش عليه ما يأتي :

« . . المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله مما أمر بعمله بقصر الزاهرة

(١) هذا ليس من التحف الأندلسية ، ولكنه وجد في بعض الحفريات التي عملت على مقربة من بلدة بالنسيا بقتالة .

فم بعون الله وحسن تأييده على يدي . . الفتي الكبير العامري سنة سبع وسبعين [وثلاث مائة] .

هذا وقدر أينا فضلاً عما تقدم في هذا القسم الزاخر بالآثار والذكريات الأندلسية ، باباً عربياً مزخرفاً من صنع المدجنين ، وزلعة كبيرة بنقوش بديعة مذهبة على مثل زلعة الحمراء ، وقطعاً خزفية غرناطية ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وقطعاً خشبية عليها نقوش عربية مختلفة قرآنية وغيرها ، وآنية مختلفة من الخزف المذهب ، ترجع إلى عصر الملكين الكاثوليكين ، وعصر الموريسكيين في القرن السادس عشر ، وعليها نقوش وصور بديعة ، وأطباق آفانية مذهبة رائعة الصنع ترجع إلى نهاية عصر الموريسكيين .

متحف لازارو

ورأينا في متحف لازارو صندوقين صغيرين من الخشب ، يبدو أنهما من صنع مدجتي أو موريسكي ، وأولهما يبلغ حجمه نحو ٤٠ × ٢٠ سنتيمتراً ، وغطاؤه شبه منحرف ، ويبدو أنه موريسكي الصنع ، وقد نقشت عليه صور شيوخ على رؤوسهم « كاب » تشبه العمامة وتيجان . وثانيتها في حجم الأول تقريباً ، وقد زينت جوانبه بصور الأزهار ، ونقشت عليه عبارات عربية قرأنا منها ما يأتي : « البركة والسعادة » مكررة ، تتخللها صور طواويس غير متقنة .

المكتبة الوطنية

ويضم قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية ، طائفة من المخطوطات العربية ، ليس بينها كثير من المخطوطات ذات القيمة الخاصة . ومعظمها منقول عن مخطوطات « الإسكوريال » . وهي مذكورة في الفهرس الخاص بها . ولهذا لا نرى مجالاً للتحدث عنها هنا . وتوجد في قسم « المحفوظات التاريخية » Archivos Históricos الملحق بالمكتبة الوطنية ، مجموعة من الوثائق العربية ، نقلت إليه من دير سان كلمنتي في طليطلة ، وهي عبارة عن عقود بيع وشراء وهبة وغيرها ، عقدت بين المسلمين والنصارى أو بين النصارى وحدهم ، ومعظمها يرجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . وقد حصلنا على صور فتوغرافية لعدد منها (١) .

(١) نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسباني الكبير جونثالث بالنشيا مقرونة بترجمتها الإسبانية في أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان : Los Mozarabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)

الكتاب الخامس

ليون وجليقية والأسترياس

١ - شنت ياغب

Santiago

إنها أسطورة من أروع الأساطير الدينية ، تلك التي تحيط بنشأة مدينة شنت ياغب أو شنت ياغب أو شنتياغو Santiago ، وبالذور العظيم الذي لعبته في تاريخ مملكة جليقية ، وفي حضارتها في العصور الوسطى .

وتقع هذه المدينة الدينية الثالثة في واد خفيض ، تواجهها التلال ، ومن حولها بسائط يانعة ، في الركن الشمالى الغربى من اسبانيا ، وفي جنوب غربى ثغر لاكورنيا La Coruña ، على مقربة من المحيط الأطلنطى . وهى عاصمة ولاية جليقية القديمة . والطبيعة في جليقية بالرغم من عبوسها وخشونتها ، أجمل وأبهج منها في بقاع كثيرة في اسبانيا . وبالرغم من أنها ليست سهولاً وبسائط متصلة ، بل تتخللها التلال والمرتفعات الكثيرة ، إلا أنها على العموم خضراء جميلة متنوعة ، وبها غابات من مختلف الأشجار ، وتكاد الطبيعة في جليقية ، تشبه سفوح الألب في النمسا وسويسرة ، من حيث تنوعها وخضرة هضابها . والبسائط هنا خصبة جداً ، والمياه موفورة لكثرة تساقط الأمطار في هذه المنطقة .

ومدينة شنت ياغب (سنياجو) من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها . وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار . وهى تبدو بشوارعها المعقودة المرصوفة بالبلاط الضخم ، وميادينها التي تظللها الصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التي تقوم في وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة ، وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية . ويحترق المدينة من الشرق شارعان كبيران كلاهما ذو عقود حجرية من الحانين ، أولها شارع فليار Rua del Villar ، المؤدى إلى ميدان الكندرائية ، وهو من أهم شوارعها التجارية ، وثانيهما الشارع الحديد Rua Nueva ، وهو يسير محاذياً للأول ويؤدى إلى ميدان سان پلايو ، وهما بلا ريب من أقدم شوارع المدينة إن لم يكونا أقدمها على الإطلاق .

ومعظم صروح المدينة وأهمها الصروح الدينية ، من كنائس وأديرة وقصور أسقفية ، ترجع إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر ، وكلها تسبغ على المدينة طابع العراقة والقدم ، فهي حقاً مدينة من مدن العصور الوسطى ، لم تخلع عنها شيئاً من خواصها .

وبالرغم من الأفق الديني الذي يغمرها ، فإن شنت ياقب مدينة كثيرة الحيوية ، ذات حركة تجارية وصناعية كبيرة . وهي فضلاً عن منتجاتها الزراعية



الوفيرة ، تنتج الأقمشة والورق والحمور وغيرها ، ويلاحظ فوق ذلك أن حوانيتها خاصة بالآنية الفضية المزخرفة ، والذكريات المقدسة من صور وتماثيل وصلبان وغيرها . ويبلغ سكانها ثمانية وعشرين ألف نفس .

ويجدر بنا قبل أن نعرض إلى معالم شنت ياقب الأثرية ، أن نذكر ملخص الأسطورة الدينية التي كانت سبباً في إنشائها ، والتي جعلت منها كعبة الحجاج طوال العصور الوسطى .

إن شنت ياقب هو القديس يعقوب أو يعقوب

الحواري . وتذكر الأسطورة أنه قتل شهيداً بأمر هيرود ، فحمل تلاميذه جثته في مركب ، جازوا به البحر الأبيض إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالاً حتى انتهوا إلى موضع في قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس في سفح تلال هنالك . ومضت العصور وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس

تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ؛ فذاعت الأسطوره في الحال ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا إلى البقعة المقدسة ، وأنشئت فوقها كنيسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت هي مدينة شنت ياقب المقدسة Santiago de Compostela ، وكلمة Compostela المضافة إلى اسم المدينة مشتقة من اللاتينية Campus Stellae أى « سهل النجمة » ، إشارة إلى النجم الذى اهتدى الأسقف بنوره فى اكتشاف القبر . وكان لوقوع هذا الحادث ، وقيام هذه المدينة المقدسة ، أثر كبير فى إذكاء الحماسة الندية والعاطفة القومية الإسبانية ، وغدا « القديس ياقب » حامي اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية فى سائر أوربا .

ويعلق العلامة ألتاميرا على هذا الحادث الدينى بقوله : « وقد بعث هذا الاكتشاف فى النصارى أما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة جاءت لتتحج إلى القبر ، لا من الأراضى الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً . وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية فى جليقية . وكان لها أعظم تأثير فى العادات والآداب » (١) .

وكانت شنت ياقب عصرأ عاصمة لمملكة جليقية النصرانية ، قبل أن تنقل إلى ليون . ولم تصل الغزوات الإسلامية إلى ذلك الركن النائى من هضاب جليقية ، إلا فى عهد الحاجب المنصور . فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) قام المنصور بأعظم غزواته فى شمال غربى إسبانيا ، وتابع زحفه المظفر حتى جليقية ، وقصد مدينة شنت ياقب ، فاقتحمها وهدم كنيستها العظمى ، وصروحها . ولكنه احترم قبر القديس فلم يمسه الحند المسلمون بسوء . وعاد المنصور إلى قرطبة مثقلا بالغنائم ، ومنها عدة من أبواب صروح شنت ياقب الفخمة ، جعلت أبواباً للمسجد الجامع بقرطبة ، وكان هذا آخر عهد الحيوش الإسلامية بتلك الأنحاء .

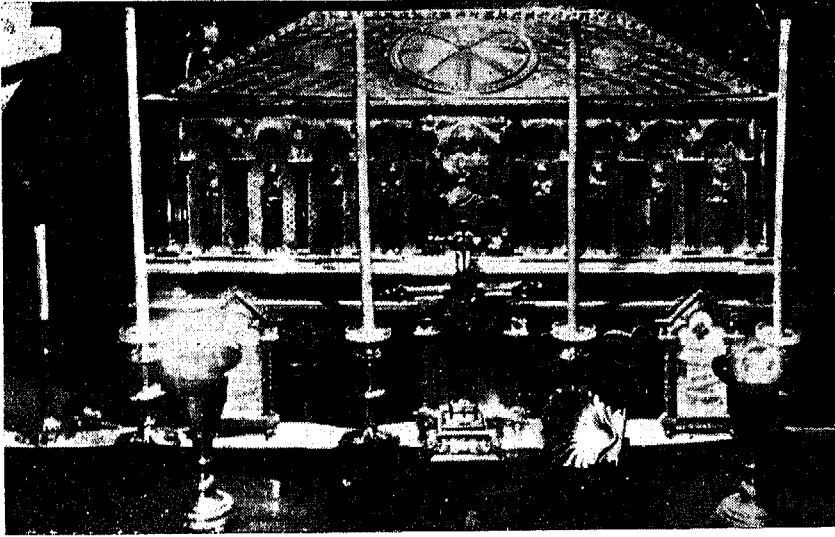
* * *

ولنعرض الآن إلى معالم شنت ياقب الأثرية ، فنقول إن أعظم صروحها هو بلاريب كنيستها العظمى ، أو الكندرائية ، التى تضم فى داخلها قبر القديس يعقوب ، وهى من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة ، تقع فوق مرتفع يحيط



شنت ياقب . الكنيسة العظى

به ثلاثة ميادين كبيرة ، وبطل مدخلها الرئيسي على ميدان اسبانيا . وهو مدخل قوطى شاهق رائع الفخامة ، نقش عليه شعار قشتالة ، ومن حوله وفوقه عمد وزخارف بديعة . وقد بديء بتشييد هذه الكنيسة العظيمة فى سنة ١٠٨٢ م ، واستمر العمل فيها حتى سنة ١٢١١ م ، وكان الأستقف ديجوخلمريث D. Gelmirez الذى تولى الأستقفية فى سنة ١١٠٠ م ، من أعظم العاملين على توسعتها وزخرفتها ، واستصدار المراسيم البابوية بامتيازها ، وتأكيد مركزها الخاص . وفى عصره تقاطرت وفود الحجاج من سائر أنحاء النصرانية على شنت ياقب ، حتى قيل «إنه لم تكن شمة لغة أو لهجة لم ترن أصواتها هنالك» .



شنت ياقب . قبر القديس ياقب (يعقوب) الرسول

وقد بنيت كندرائية شنت ياقب ، على شكل صليب لاتينى هائل ، يحتوى كل ضلع من أضلاعه على عدة عقود قوطية شاهقة ، وفى معقده الهيكل الأعظم الذى يعلو قبر القديس . ولأروقها الوسطى التى تعلو العقود ، واجهات معقودة على مثل عقود الجامع ، وهى بادية القدم والروعة . وفى عقب الكنيسة عند طرف الصليب الأفقى ، توجد الواجهة الداخلية المسماة «مشرفية المجد» Pórtico de la Gloria وهى عبارة عن أربعة أبواب ، الأول والرابع عقدان والأوسطان غير معقودين ،

وقد نقشت عليها صور القديسين ، وزينت بأعمدة رومانية جميلة ، وهي ترجع إلى القرن الثاني عشر .

ويقع قبر القديس ياقب تحت الهيكل الأعظم ، في سرداب يمتد على طوله ، ويدخل إليه من الجانبين ، وهو من الرخام وعليه حلية كبيرة من الفضة ، صنعت على شكل منحروط ، ويحج إليه المؤمنون ويحجئون أمامه بمنتهى الخشوع والإجلال . ويستمترونه البركة والرعاية .

وتوجد في متحف الكتدرائية مجموعة نفيسة ، من سماجيد زينت بصور جويا وموريليو وغيرهما ، من أعظم المصورين ، وترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وإلى جوار الكتدرائية من ناحية ميدان اسبانيا ، يقع القصر الأسقفي القديم المسمى قصر خلمريث ، وهو قصر صخري عتيق ، يرجع إلى أوائل القرن الثاني عشر ، وله بهو سفلى ذو عقود عالية ، وفي أعلاه بهو مماثل ذو عقود قوطية . وتغص مدينة شنت ياقب بالكنائس والأديار القديمة . وقد زرنا منها فضلاً عن الكتدرائية ، كنيسة « ماريا سالومي » وهي كنيسة صغيرة تقع في الشارع الحديد ، وكنيسة سان بلايو وهي صغيرة ذات عقدتين متقابلين ، وقبة كعبة الجامع ، ودير كنيسة سان مرتين . ويرجع هذا الصرح إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والكنيسة فخمة كثيرة الزخارف المذهبة في هياكلها الثلاثة . وهيكلها الأعظم قطعة رائعة من الزخرف والتماثيل الصغيرة المقدسة . ويقع الدير أو المعهد الديني إلى جانبها ، وله صحن كبير ذو عقود على نمط العقود العربية .

وفي شنت ياقب جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية ، أنشئت بمقتضى مرسوم بابوي أصدره البابا جوليوس الثاني سنة ١٥٠٤ م ، في عهد الملك فرديناند الكاثوليكي ، وبها اليوم كليات الطب والعلوم والحقوق والآداب ، وتحتل كلية العلوم بناءً أثرياً هو دير فونسكا القديم ، وله صحن معقود يرجع إلى عصر الأحياء .

ومن معالم شنت ياقب الأثرية منزل الملوك الكاثوليكين Hospicio de los Reyes Católicos ، وهو يقع في الميدان الكبير (ميدان اسبانيا) ، الذي تطل عليه واجهة الكتدرائية الرئيسية ، وقد بديء بإنشائه في سنة ١٥٠٤ م ليكون فندقاً لإيواء الحجاج القادمين من سائر الأنحاء إلى المدينة ، ثم حول فيما بعد إلى مقام

ملكى ثم إلى مستشفى . ولكنه أعيد اليوم إلى فندق أرستقراطي فخم . ولقد جينا
أهباء هذا الصرح الأثرى وأزوقته ، وشهدنا ما اتخذ من استعدادات هائلة لتأثيته
وتجهيزه ، فإذا به اليوم من أروع فنادق العالم . وقد حولت أهبائه الملكية القديمة
إلى أهباء للطعام . وهو يضم ثلاثة أفنية كبيرة ، ذات عقود قوطية ونوافير أثرية ،
ومصلى ملكياً فخماً . وله باب أثرى شاهق يرجع إلى القرن السادس عشر .

* * *

وبعد فإن مدينة شنت ياقب هي بحق مدينة مقدسة . وهي تبدو بخطتها
القدمية ، وشوارعها المعقودة ، وكنائسها العظيمة ، وكنائسها وأديرتها العديدة ،
كأنها بيت مقدس أخرى ، يغمرها الجلال والوقار ، وتبعث إلى نفس الألى
يتجولون في طرقاتها ، وفي رحابها الدينية ، شعوراً بالتأثر والخشوع ، مهما
كانت آراؤهم ومعتقداتهم .

٢ - ليون

León

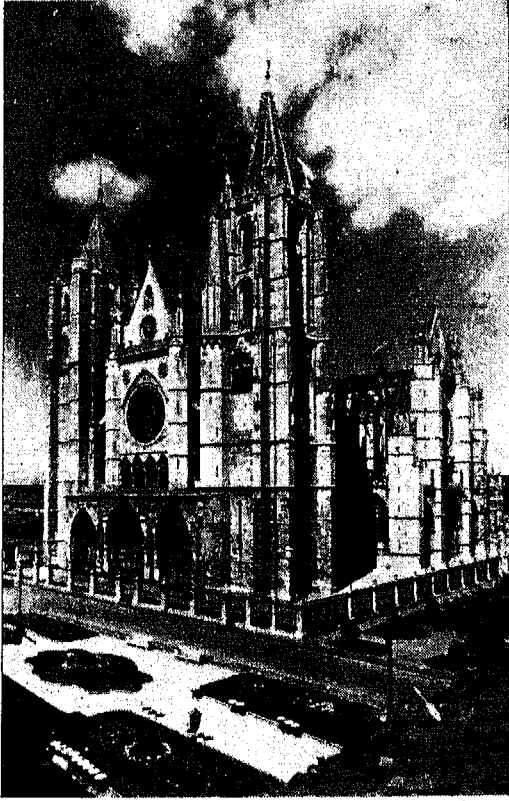
تحتل مدينة ليون في تاريخ الأندلس أهمية خاصة ، فقد افتتحها العرب في سنة ٧١٧ م ، عقب افتتاح الأندلس بقليل ، ولكنها لم تمكث في أيديهم سوى ربع قرن ، وعاد النصارى فاستردوها في سنة ٧٤٢ م . ولما نمت المملكة النصرانية الشمالية ، واتسعت رقعتها ، اتخذت مدينة ليون عاصمة لها منذ أوائل القرن العاشر ، وغلبت عليها اسم مملكة ليون بدلا من مملكة جليقية ، وأضحت مدينة ليون مركز الكفاح والمقاومة ، في النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، لمملكة قرطبة الإسلامية .

وكانت مملكة ليون مقصد الحملات الإسلامية الغازية من آن لآخر . ولكن هذه الحملات قلما كانت تصل إلى مدينة ليون ، لأنها ووقوعها في قاصية الشمال . وفي سنة ٩٨٤ م غزاها المنصور بن أبى عامر ، واحتلتها الجيوش الإسلامية مدى حين . فلما توفى المنصور في سنة ١٠٠٢ م استرد النصارى المدينة ، وكان هذا آخر عهدا بالغزوات الإسلامية .

وتقع مدينة ليون على أحد أفرع نهر دويرة ، فوق تل مرتفع ولكن منبسط الساحة . وهى مدينة ضخمة حديثة بكل معانى الكلمة ، ذات شوارع كبيرة فسيحة Avcnidas ، وميادين شاسعة فخمة ، تظلها مبان حديثة ، ترتفع أحيانا إلى ثمان طبقات أو عشر . وإذا استثنينا قسمها الداخلى ، الذى يضم معالمها الأثرية ، فإن مظهرها على العموم لا يخالطه أى طابع يذكرنا بماضيا ، كعاصمة لمملكة ليون القديمة ، وهى تخلو حتى من ذلك الطابع التاريخى القديم ، الذى تحتفظ به مدن أخرى في شمال اسبانيا ، مثل شنت ياقب (سانتياجو) . وبالرغم من أنها تضم عدداً من الصروح الأثرية ، فإنها لا تحمل طابع القدم والتاريخ المؤثر ، وهى بذلك قد خلت نهائياً من طابع العصور الوسطى ، وغدت مدينة أوربية بكل معانى الكلمة .

وقد نمت ليون في نصف القرن الأخير نمواً عظيماً ، وأضحت مدينة تجارية وصناعية ذات شأن ، وتضاعف سكانها حتى غدوا اليوم خمسة وستين ألف نسمة .

وتقع معظم معالم ليون الأثرية في قسمها الداخلي ، وهو يبدأ من الباب المعقود المسمى باب بلايو P. de Pelayo . وتوجد عن يمين هذا الباب وعن يساره بقية من أسوار ليون القديمة ، وهي على الأغلب من بقايا الأسوار الرومانية . كما أنه توجد في شمال المدينة وفي شرقها أجزاء كبيرة من هذه الأسوار . وتبدأ بعد باب بلايو ، شبكة من الشوارع والدروب الضيقة القديمة ، ويفضي إحداها إلى الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى .



ليون . الكنيسة العظمى

وأروع الكنائس أعظم والإسبانية ، ومع أنها لانضارع كاتدرائية طليطلة أو إشبيلية في الضخامة ، فإنها لا تقل عنهما زخرفاً وجمالاً . ويرجع إنشاؤها إلى نهاية القرن الحادى عشر ، واستغرق العمل فيها زهاء ثلاثة قرون ، ولها مدخل قوطى فخيم ، قد ثبتت في أعلاه وفي جانبيه تماثيل الرسل . وصحنها الداخلى قوطى الطراز ، وهو كثير الفخامة والروعة ، وأهم ما يلفت النظر ، نوافذها العديدة فى الحائنين ، وقد نظمت

صفوفاً متعاقبة ، وجهزت كلها بزجاج ملون ذى صور ورسوم ساحرة . ويالحق بها من الجانب الأيسر ، صحن كبير معقود وبه متحف غنى ، رأينا فيه إنجيلاً عربياً مخطوطاً ، يرجع إلى القرن السادس عشر ، وآخر مطبوعاً يرجع أيضاً إلى قرنين أو ثلاثة .

ومن كنائس ليون الأثرية كنيسة سان إيزيدورو ، وهي كنيسة قديمة يرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الحادى عشر ، ولها واجهة عتيقة مزخرفة ، ومدخل ذو عقد قوطى وأعمدة رومانية ، وهي صغيرة الحجم ، وصحنها الداخلى ذو عقود عادية ، ومن فوق العقود تبدو مشارف الرواق الدائرى فى طراز عربى معقود ، وفى داخلها المدفن الملكى يضم توابيت عدة من ملوك ليون .

ومنها كنيسة ودير سان ماركوس ، ويقع هذا الصرح خارج ليون فى قسمها الحديث ، وكان الذى وضع مشروعه الملك فرديناند الكاثوليكى فاتح غرناطة ، ولكن الذى أنشأه هو حفيده الإمبراطور شارلكان ، وهو يتكون من دير قديم له صحن كبير معقود ، وكان أيام إنشائه يستعمل نزلا للحجاج ، الذين يقصدون إلى مدينة شنت ياقب المقدسة ، وهو اليوم يستعمل متحفاً يضم طائفة من الآثار الحجرية والرومانية من تماثيل وغيرها ، كما يضم عدة قطع من أبواب خشبية ذات نقوش مدجنية . وتقع كنيسة سان ماركوس إلى جانب الدير ، وهي كنيسة صغيرة ولكن جميلة الزخرف ، وهي الآن مغلقة لا تستعمل للعبادة .

وتوجد فى ليون بضعة كنائس أثرية أخرى ، وكذلك بعض القصور ، مثل قصر آل قزمان P. de los Guzmanes ، وهو من أجمل قصور اسبانيا ، ويرجع إلى القرن السادس عشر .

ومن الواضح أنه لا توجد فى مدينة ليون أية آثار أذكرىات أندلسية ، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين سوى فترة قصيرة ، تلتها سلسلة من الغزوات الإسلامية العابرة ، التى لم تخلف وراءها شيئاً من الآثار الباقية .

٣ - سمورة

Zamora

تقع مدينة سمورة فوق مرتفع صخري، يشرف على ضفة نهر دويرة (دورو) اليمنى، وهي مستطيلة الرقعة ومن ورائها بسيط أخضر، وفي ظاهرها على النهر قنطرة قديمة ذات عقود رومانية، ربما كان للمسلمين دور في إصلاحها وتجديدها، وهي تبدو على العموم بشوارعها الطويلة المكتظة بالحركة مدينة كبيرة، ويبلغ سكانها زهاء أربعين ألف نسمة.

وقد كانت سمورة من القواعد القوطية، وافتتحها المسلمون كما افتتحوا معظم المدن الشمالية، ولكنها لم تلبث في أيديهم سوى نصف قرن، واستطاع النصارى استعادتها في عهد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٧ م (١٣٠ هـ)، مع لك وشلمنقة وآبلة وغيرها من المدن الشمالية. ثم استعاد المسلمون سمورة بعد ذلك غير مرة، ولكنهم كانوا يحتفظون بها لفترات قصيرة فقط، وكانت آخر غزواتهم لها أيام المنصور ابن أبي عامر، فقد اجتاحتها وأحرقها في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ).

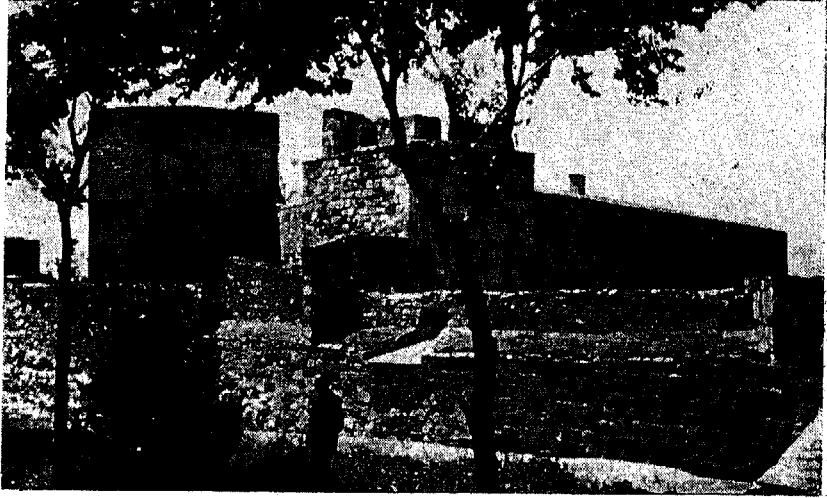
وفي بعض الروايات الإسلامية والنصرانية، أنه قد وقعت تحت أسوار سمورة هزيمة المسلمين الفادحة، بقيادة عبد الرحمن الناصر، في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه سنة ٩٣٩)، وهي الموقعة التي تعرف في تاريخ الأندلس بموقعة الخندق، لوقوعها على خنادق سمورة (١).

وسمورة مدينة عتيقة المظهر، وهي قسمان، القسم القديم ويحتفظ بطابع العصور الوسطى، وفيه تقع معالمها الأثرية، والقسم الحديث وهو يتكون من بضعة أحياء حديثة، بنيت خارج المدينة القديمة.

وتؤدى إلى وسط المدينة من النهر، عدة من الشوارع الصاعدة العتيقة المرصوفة بالحجارة، وتوجد مقابلها من الناحية الأخرى شوارع مماثلة، صاعدة نحو الكنيسة العظمى، وهذه الشوارع هي أقدم شوارع سمورة.

وتقع كتدرائية سمورة في طرف المدينة الأيمن، وهي قديمة ترجع إلى القرن

(١) راجع كتابي دولة الإسلام في الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٣٨٨ و ٣٨٩.



سمورة . منظر عام للحصن والأسوار



سمورة . الكنيسة العظمى

الثاني عشر ، قوطية الطراز ، ذات عقود مستديرة من أعلى ، ولها قبة مستديرة هي أقرب إلى شكل قبة الجامع ، يحيط بها من الخارج ، عدة قباب صغيرة مستديرة ، على مثل قباب كنيسة أيا صوفيا البيزنطية ، وهي جميلة الزخرف من الداخل بالرغم من صغرها ، ولها برج أجراس مربع عريض ذو طابع خاص وقائم إلى يمينها ، وتوجد في متحفها مجموعة ثمينة من السجاجيد ، وبه تحفان أندلسيتان هما عبارة عن صندوقين ، أولها صندوق صغير من العاج ، ارتفاعه ١٨ سنتي متراً وعرضه ١٠,٥ سنتي متراً ، وقد زينت جوانبه بصور الطيور والغزلان ، ونقش عليه بالخط الكوفي ما يأتي :

« بركة من الله للإمام عبد الله الحكيم المستنصر بالله أمير المؤمنين مما أمر بعمله للسيدة أم عبد الرحمن على يدي دري الصغير سنة ثلثة وخمسين وثلث مائة » .

والثاني صندوق كبير من الخشب مطعم بالعاج ، طوله ٣,١٥ متراً وعرضه مران ، وارتفاعه ٢,٣٥ متراً ، وعلى جوانبه نقوش عربية متقطعة هذا نصها :

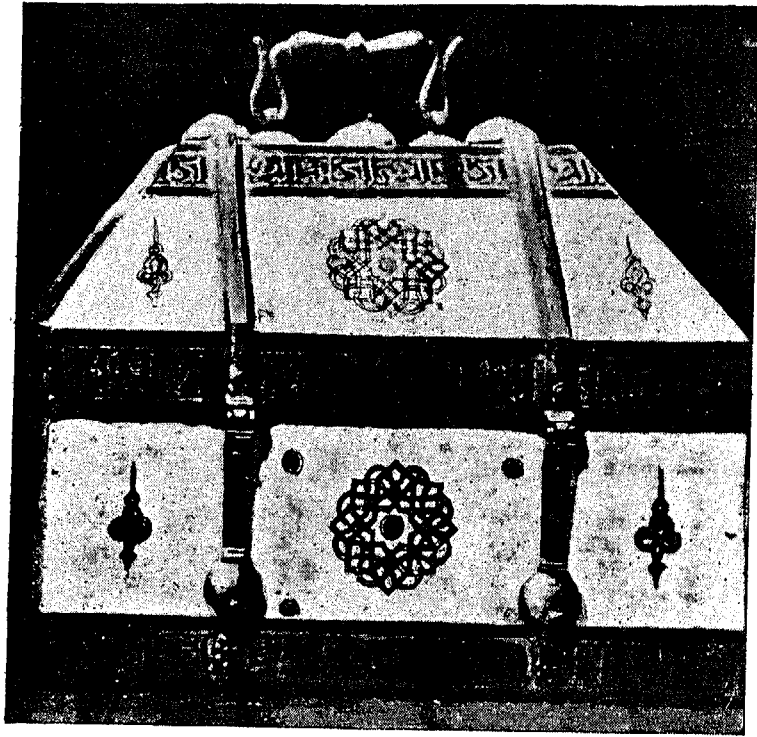
« . . . وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً خيراً حافظاً وهو

العزة الدائمة والنعمة [الكاملة] والغبطة المتصلة والسعاد [ة] [ال]

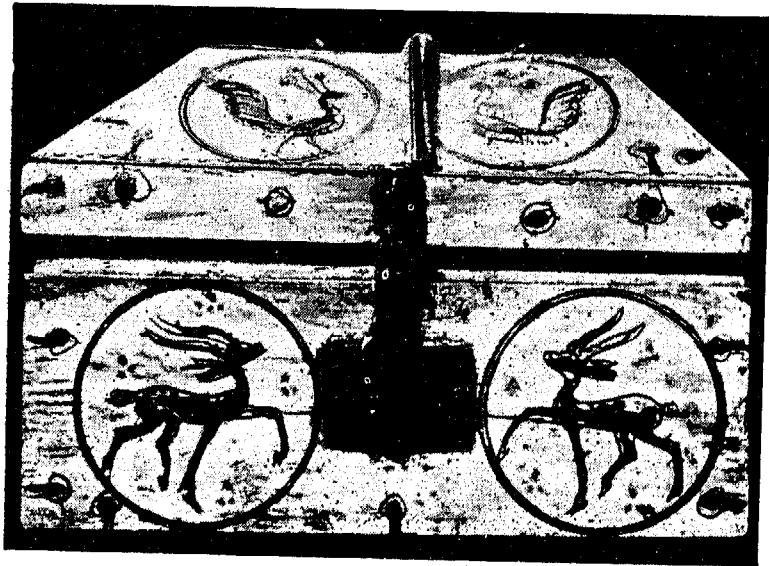
قبيلة واليمن والتأييد والنصر والتسديد والعز لصاحبه » .

وأما عن الآثار الأندلسية ، فإنه ما زالت توجد قطعة من أسوار سمورة القديمة أدمجت في ظهر بعض المباني الحديثة ، وتقع بجوار هذه الأسوار شوارع عتيقة صاعدة نحو الكندراية ، التي يبدو أنها تحتل مكان الجامع أو مسجد القصبه القديمة .

وتقع قلعة سمورة فوق أعلى جزء من الربوة ، ويطلق عليها اسم حصن « أوركا » . وأوركا هذه هي ابنة فرديناند الأول ملك ليون ، وكان بعد أن استرد المدينة من المسلمين في سنة ٩٨٦ م ، قد أصلحها ومنحها لابنته المذكورة . على أنه يبدو أن حصن أوركا قد بنى فوق أسوار وأنقاض القلعة الأندلسية القديمة ، التي أقامها المسلمون منذ الفتح . ويسمى أحد أبواب الحصن « باب الخيانة » P. de la Traición لأنه فتح بخيانة حراسه في بعض المعارك ، التي نشبت بين الملكة أوركا وخصومها .



سمورة . جانب من الصندوق الأندلسي الكبير المحفوظ بالكنيسة



سمورة . جانب من الصندوق الأندلسي العاجي الصغير المحفوظ بالكنيسة

ولا داعي لأن نتحدث عن باقي المعالم الأثرية في سمورة ، وهي كنائس أخرى مثل كنيسة مجدلينا ، وسانتا ماريا ، وسانتياجو ، وبعض صروح ترجع إلى العصور الوسطى . بيد أنه مما يلاحظ في خطط المدينة القديمة وشوارعها الصاعدة نحو الكنيسة العظمى ، وما يتخللها من الدروب الضيقة والمنازل العميقة الطراز ، أنها تقوم على الأغلب ، فوق رقعة المدينة الأندلسية القديمة ، متأثرة بمظاهرها وطرازها .

٤ - شلمنقة

Salamanca

كانت شلمنقة من أوائل المدن الأندلسية التي فقدتها المسلمون ، فلم تمكث في أيديهم سوى نصف قرن ، ثم استردها النصارى في سنة ٧٥٧ م ، في أوائل عهد عبد الرحمن الداخل الأموي .

وتقع شلمنقة^(١) على الضفة اليمنى لنهر تورمس أحد أفرع نهر دويرة ، وهي مركز مواصلات مهم لمدن قشتالة الشمالية ، مثل بلد الوليد وبرغش وسمورة وليون ، واشتهرت شلمنقة في العصور الوسطى بنوع خاص ، بجامعتها الشهيرة التي كانت تنافس جامعة غرناطة الإسلامية ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتي ما زالت إلى يومنا تسبغ على اسمها فخراً وبهاء .

وشلمنقة مدينة عظيمة ، تكاد بزقتها المترامية وشوارعها الفخمة ، وميادينها الفسيحة ، تضارع بعض المدن الإسبانية الكبيرة ، مثل إشبيلية وقرطبة ، بيد أنها أصغر منهما حجماً ، وأقل سكاناً ، وسكانها لا يعدون خمسة وثمانين ألفاً .

وتحتفظ شلمنقة بطابع تاريخي بارز ، وترسم عليها ملامح المدينة القديمة النالدة ، مدينة العصور الوسطى ، وتسبغ عليها صروحها التاريخية المتعددة حلة الوقار والنبيل والسحر ، وما يزال كثير من خططها وشوارعها وميادينها على حالتها التي كانت لها منذ قرون . وميادنها الكبير Plaza Mayor ، من أكبر وأروع ميادين المدن الأوربية ، وهو عبارة عن مربع شاسع يبلغ ضلعه نحو مائة متر ، وتحيط به من جوانبه الأربع عقود حجرية جميلة ، وله مداخل عديدة من شوارع المدينة الرئيسية كلها معقودة ، وتتصل به ، وتقع من حوله شوارع قدممة ذات عقود ، وشوارع ضيقة مسقفة على نظام (الخاليريا) أو القيسرية الأوربية . ويرجع هذا الميدان إلى أكثر من قرنين ، وقد أنشئ ليتسع لعشرين ألفاً من النظارة ، الذين يحتشدون لشهود مصارعة الثيران .

(١) وقد رأيناها تكتب « شلمنقة » وذلك في مخطوط كنسى قديم بمكتبة مدريد الوطنية .

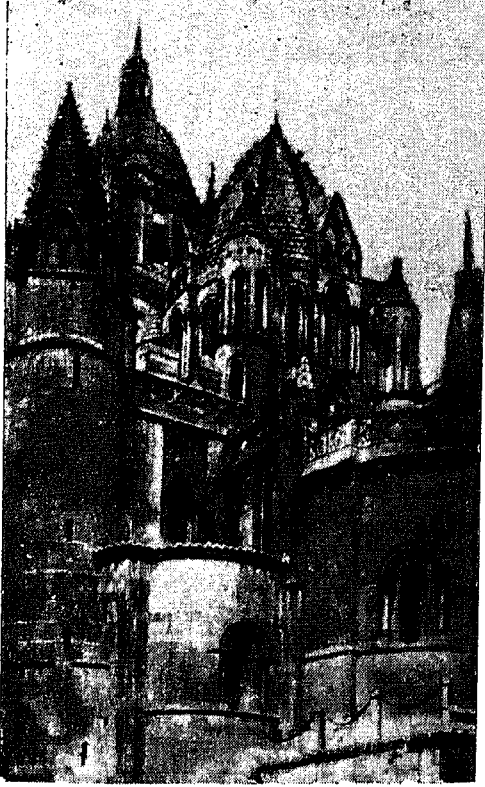
وبالرغم من هذا الطابع التاريخي القديم ، فان شلمنقة تحتوى على طائفة من الأحياء الحديثة ، التي تخترقها شوارع فسيحة مرصوفة ، وتقوم بها أبنية وعمارات كبيرة حديثة الطراز .

وليس في المدينة شيء يذكرنا بماضيها الأندلسي القصير المدى ، وإن كانت خططها القديمة وشوارعها المعقودة ، تبدو متأثرة بطراز المدن الأندلسية في العصور الوسطى .

* * *

وتجتمع معظم صروح شلمنقة التاريخية في منطقة واحدة ، فالجامعة ، والكتدرائية ، وغيرها من الكنائس التاريخية ، والقصر المسمى « دار الأصداف » وقصر مونتييري ، كلها تقع على مقربة من بعضها البعض داخل المدينة القديمة . وجامعة شلمنقة بلا ريب هي أعرق وأشهر صروحها الأثرية ، وهي أقدم جامعة في اسبانيا ، ومن أقدم جامعات العالم . وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر ، في عصر ألفونسو التاسع ملك ليون ، وأغدق عليها الملك ألفونسو العاشر (العالم) (١٢٥٢ - ١٢٨٢) رعايته ، وأنفق أموالا عظيمة في سبيل تدعيمها ، وتوسيع نطاق الدراسة فيها ، وصدر مرسوم البابا اسكندر الرابع باعتبارها من معاهد الدراسات العامة ، على مثل جامعات بولونيا وباريس وأكسفورد يومئذ . وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ذاعت شهرتها العلمية في سائر أنحاء أوروبا ، وهرع إليها الطلاب من كل فج ، وبلغ طلابها يومئذ نحو خمسة عشر ألفاً ، غير أنها أخذت في التضاؤل والذبول منذ القرن السابع عشر ، واستمرت كذلك حتى انتهى عدد طلابها في بداية القرن الحالى ، إلى نحو ألف ومائتى طالب ، وأضححت في يومنا لا تحتفظ من سمعتها القديمة بأكثر من صفتها التاريخية ، وإن كانت تحاول دائماً أن تجعل من هذه الصفة شيئاً مذكوراً ، بما تجريه من احتفالات تذكارية ، وما تنظمه من دراسات موسمية خاصة .

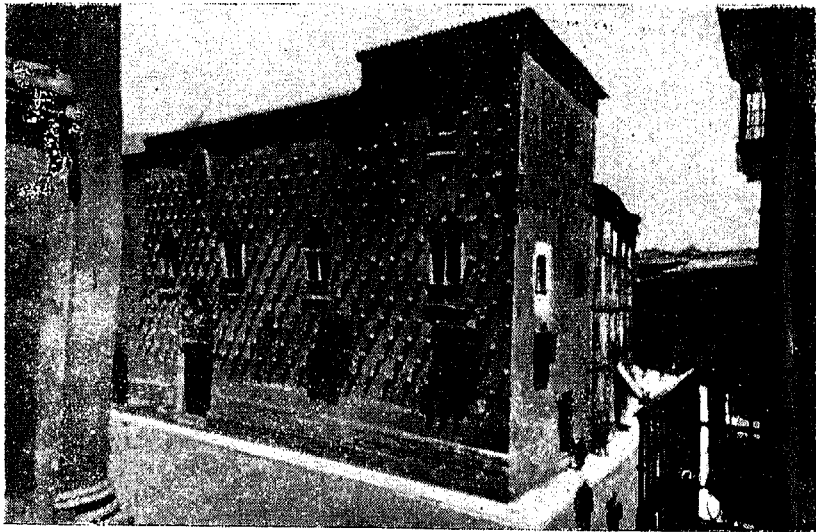
وما زالت جامعة شلمنقة تحتفظ بصروحها التاريخية ، التي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهي عدة صروح متقاربة مبنية من الحجر الصلد ، ولها عقود وأبهاء فخمة ، وبها كثير من الزخارف المعمارية ، من طراز عصر الأحياء ، وتضيق هذه الصروح القديمة اليوم عن أن تتسع لكلياتها الخمس ، وهي الآداب ،



شلمنقة . الكنيسة العظمى



شلمنقة . بناء الجامعة القديم



شلمنقة . « دارالأصداق »

والفلسفة ، والحقوق ، والعلوم ، والطب ، ولهذا فقد بنيت إلى جوارها وعلى مقربة منها عدة صروح حديثة . ولجامعة شلمنقة مكتبة قديمة نفيسة ، تحتوى على ألف مخطوط ونحو مائة ألف كتاب .

وتقع كتدراثة شلمنقة ، فوق مرتفع يشرف على نفس الميدان ، الذى تشرف عليه الجامعة ، وهى كنيسة عظيمة الحجم قوطية الطراز ، شاهقة الارتفاع ، كثيرة التنسيق والزخرف ، وترجع إلى القرن السادس عشر ، ولها واجهة عظيمة من الأمام وأخرى من الخلف ، ومن ورأها توجد الكتدراثة القديمة بقباها وأبراجها الصغيرة المنخفضة .

ويوجد غير الكتدراثة عدة أخرى من الكنائس التاريخية ، منها كنيسة كليريشيا Clerencia ، وهى على مقربة من الجامعة والكتدراثة ، وترجع إلى القرن السابع عشر ، وكانت فى البداية معهداً لليسوعيين ، ويقوم اليوم إلى جانبها معهد دينى آخر ذو صحن كبير معقود ؛ وكنيسة سان مرتين ، وهى كنيسة صغيرة ولكن قديمة فخمة .

كما شهدنا بعض الصروح التاريخية ذات الخواص الأثرية والزخرفية ، منها « دار الأصداف » Casa de las Conchas ، وهى ترجع إلى عصر الملكين الكاثوليكين (أواخر القرن الخامس عشر) ، وقد سميت كذلك ، لما تزدان به واجهتها من الأصداف المدببة . ومنها قصر مونتيبرى ، وهو صرح جميل فخم مبنى على طراز عصر الإحياء ، وبه كثير من الزخارف الجميلة .

٥ - أوفييدو

Oviedo

تقع منطقة الأسترياس Asturias^(١) في شرقي جليقية ، على القسم الأوسط من خليج بسكونية ، وتحدها من الجنوب جبال كنتبريا الشهيرة . وكان من المتعين بعد زيارتي لجليقية ، أن أجوب تلك المنطقة ، التي عمجز الفاتحون المسلمون عن إخضاعها ، والتي نمت فيها البدور الأولى للمملكة النصرانية الشمالية .

وقد رأيت خلال تجوالي مدينة « لُك » Lugo ، وهي أيضاً من مدن جليقية التي افتتحها المسلمون ، وبقيت في يدهم زهاء نصف قرن ، ثم كانت من أوائل المدن التي استردها النصارى ، حيث استولوا عليها في سنة ٧٥٧ م ، أيام عبدالرحمن الداخل ، مع بعض المدن الشمالية الأخرى ، مثل أسترقه وسموره وشلمنقة ، حسبما سبقت الإشارة إليه .

وتقع مدينة « لك » على مقربة من شنت ياقب فوق ربوة مرتفعة ، وتقوم أحياؤها موزعة متدرجة فوق أجزاء الربوة ، ومن ورائها السهل الأخضر ، تتلوه سلسلة من التلال ، وهي فيما يبدو مدينة تجمع بين طابع العصور الوسطى والطابع الحديث .

ومنطقة الأسترياس كمنطقة جليقية ، ذات طبيعة جميلة متنوعة ، وتحترقها الجبال والتلال والآكام العالية ، والوديان العميقة ، بلا انقطاع . وهذه الهضاب الوعرة ، إما صخرية أو تغطيها الخضرة والأشجار ، والبسائط منها نادرة ، وهي في هذه المنطقة أشبه ما تكون ببعض نواحي الألب النمساوية ، ويسير القطار خلالها ساعات متوالية دون أن تتغير مناظرها .

وقبل مدينة أوفييدو تكثر التلال والبسائط المتدرجة الياقة ، وهي منطقة خصبة جداً ، تغطيها مختلف المحاصيل والأشجار .

* * *

(١) تسمى منطقة Asturias في الجغرافية العربية بمنطة « أستوريش » .

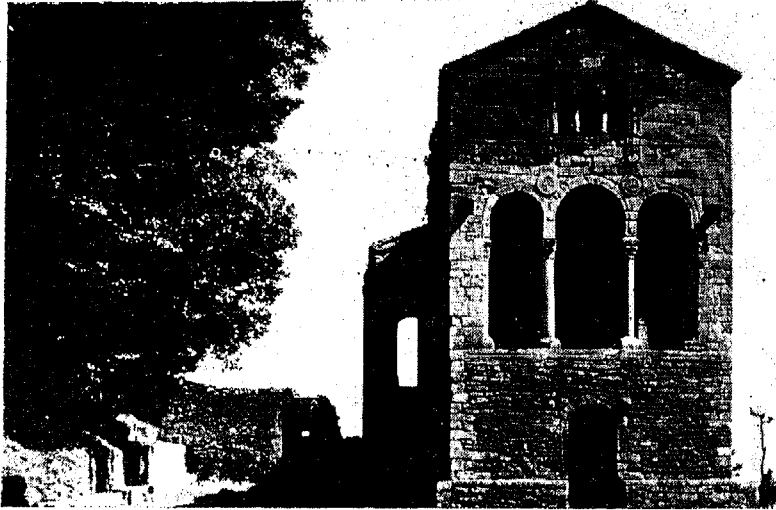
وتقع مدينة أوفيدو عاصمة ولاية الأسترياس ، في واد عميق أخضر تحيط به الربى والتلال ، وتشغل رقعة تمتد على شكل قوس مفتوح ، تجتمع في وسطه أحيائها الهامة ، وتوجد في جانبيه طائفة من الأحياء الأنيقة المتفرقة بمثابة الضواحي ، وأمامها وخلفها التلال تحميها ، وبسيطها يانع وافر الخصب ، تحيط به طائفة من التلال المتدرجة الخضراء .

وأوفيدو مدينة كبيرة ، ذات شوارع فسيحة وميادين فخمة ، وفي وسطها متزه عظيم جميل التنسيق ، وطابعها حديث ، ومبانيها جميلة مشرقة ، بيد أنه توجد في بعض أحيائها الداخلية بعض شوارع ضيقة عتيقة الطراز ، وفي هذه الأحياء تقع صروحها الأثرية ، التي تذكرنا بتاريخها القديم ، أيام أن كانت عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية . والمدينة وافر الحركة والنشاط ، ويبلغ سكانها زهاء مائة ألف . ومما يجدر ذكره أن النخيل القصير يرى في شوارع أوفيدو وضواحيها ، وهو نادر الوجود في هذه الأصقاع الشمالية .

وفي أوفيدو عدة معالم أثرية ، في مقدمتها الكاتدرائية (الكنيسة العظمى) ، وهي كنيسة عتيقة قوطية الطراز ، ذات واجهة تتكون من ثلاث عقود كبيرة ، وفناء مستطيل ، يتوسطه عقد ، وقد زينت بمختلف الزخارف وصور الرسل ، وصحنها الداخلي قوطي الطراز أيضاً ، وبها عدة هياكل جميلة الزخرف .

ويرجع صرح الكاتدرائية الحالي إلى القرن الرابع عشر ، ولكنه أقيم فوق أنقاض كنيسة قديمة صغيرة بنيت في القرن الثامن . وفي داخل الكنيسة ، مصلى قديم يسمى « الغرفة المقدسة » Camara Santa ، وهو يضم عدة ذخائر نفيسة ، من أحجار كريمة وصلبان أثرية ، ومنها صليب يقال إنه هو الذي كان يرفعه النصراني في موقعة كوفادنجيا ، التي هزم فيها المسلمون في أوائل القرن الثامن . وتوجد بالمدينة عدة كنائس أثرية أخرى ، مثل كنيسة سان إيزيدورو اليسوعية ، وسان خوان وغيرهما . بيد أن أقدم كنائس أوفيدو الأثرية ، تقع خارج المدينة ، على التل المشرف عليها .

فهناك توجد كنيسة ترجعان إلى القرن التاسع الميلادي . الأولى « سانتا ماريا دل نرانكو » وهي عبارة عن زاوية صغيرة الحجم ، قديمة جداً ، مبنية من الحجر الصلد ، وأهم ما يميزها من ناحية الطراز ، واجهتها الأمامية



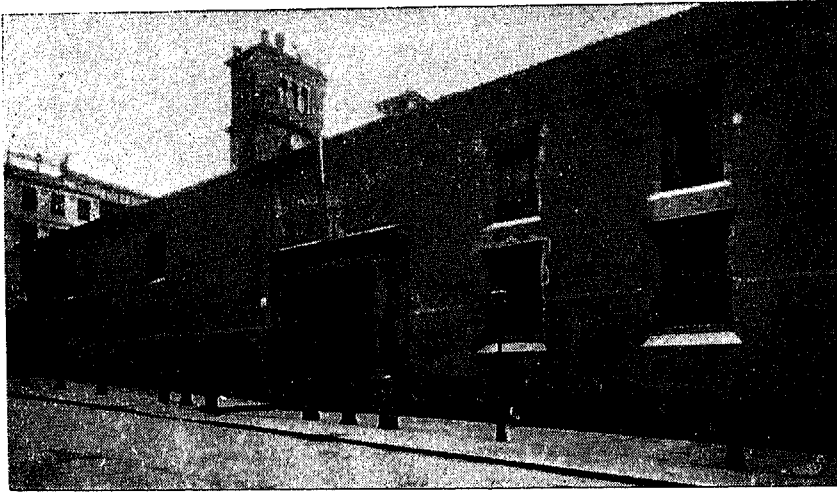
أوفييدو . كنيسة سانتا ماريا دل فرانكو



أوفييدو . كنيسة سان ميغل دي ليو

والخلفية ، وكل منهما عبارة عن شرفة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة جميلة ، وفي أعلاها شباك صغير ذو ثلاثة عقود صغيرة . ومدخلها وكواتمها كلها ذات عقود عربية ، وأعمدة رومانية ، وصحنها الداخلى عبارة عن قبة قوطى مستطيل ، يقوم فوقه وهو يصل ما بين الواجهتين ، وقد كانت هذه الكنيسة قصرأ شهيد الملك راميرو فى أواسط القرن التاسع الميلادى ثم حول إلى كنيسة .

والثانية هى كنيسة سان ميغل دى ليو ، وهى تقع فوق الربوة على مقربة من الأولى وهى عتيقة فى حالة تهدم ، وبنائها عادى لا يمتاز بشىء من الخواص الفنية ، إلا نوافذها الثلاثة الصغيرة على الجانبين ، فكل منها ذو عقدين صغيرين على الطراز العربى ، وفى أعلا كل من جانبها ، توجد أيضاً نافذة عربية ، ذات ثلاثة عقود صغيرة ، وترجع هذه الكنيسة أيضاً إلى القرن التاسع الميلادى .



أوفييدو . واجهة الجامعة القديمة

ومما يلفت النظر فى شأن هذين الصرحين العتيقين ، هو ما يحتويانه من العقود والنوافذ العربية ، وهى ظاهرة تدل على أن الطراز العربى الأندلسى ، كان له أثره منذ وقت مبكر ، فى طراز الكنائس والصروح النصرانية . حتى فى هذا الجزء النأى من اسبانيا .

وفى أوفييدو أيضاً جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية ، وقد أنشئت فى

سنة ١٦٠٤م في عصر فيليب الثالث ، وهى مازالت إلى اليوم تحتل صرحها القديم داخل المدينة ، وهو عبارة عن بناء حجري متوسط الحجم ذى طابقين ، وله فناء أندلسى معقود ، تطل عليه أروقة الطابق الثانى ، وهى تضم كلية للحقوق ، وأخرى للعلوم (الكيمياء فقط) ، وقسم من كلية الآداب هو قسم العلوم الرومانية . أما باقى الكليات والأقسام فهى ملحقة ببعض الجامعات القريبة الأخرى ، مثل بلد الوليد وشمالقة . والجامعة أوڤيلدو مكتبة قديمة ، تضم كثيراً من المخطوطات اللاتينية ، والكتب الكلاسيكية .

٦ - كوفادونجا

Covadonga

طالما تاقت نفسى إلى زيارة منطقة الصخور الوعرة المسماة صخور كوفادونجا ،
وهى الصخور التى عجز الفاتحون المسلمون عن إدراكها ، التى اعتصمت بها
فلول القوط عقب فتح الأندلس ، بزعامة أميرهم بلايو ، ثم كان منها خروجه
لاسترداد بعض الأراضى المفتوحة من المسلمين ، ووضعها بدور المملكة النصرانية.
فلما وصلت إلى مدينة أوفييدو ، حرصت كل الحرص على تحقيق هذه الأمنية.
وتقع كوفادونجا شرقى أوفييدو ، على قيد خمسة وثمانين كيلومتراً منها ، وتفصل
بينهما منطقة من أجمل مناطق الأسترياس ، وهى منطقة معظمها بسائط خضراء ،
وافرة الحصب ، تنمو بها مختلف الأشجار ، وتوجد بها الجيوب ولاسيما الذرة ،
وتتخللها الرقاع المتدرجة ، ولكنها دائماً خضراء . وبها كثير من المراعى الجيدة ،
وتحدها التلال من الجنوب . وهنا تتفوق المناظر الطبيعية فى جمالها ، على مناظر
أواسط اسبانيا وجنوبها ، وتقترب فى هذا الجمال من نظائرها فى بلاد أوربا .
وتقطع ثلاثة أرباع هذه المسافة أولاً بالقطار ، من أوفييدو إلى بلدة الريونداس
Arriondas الصغيرة الأنيقة ، ثم تؤخذ منها السيارة إلى كوفادونجا .

ولا تعدو هذه المسافة ثمانية عشر كيلومتراً ، وفى خلالها تمر بمدينة كانجاس
دى أونيس Cangas de Onis ، وهى بلدة صغيرة قديمة ، كانت خلال القرن
الثامن الميلادى ، وقبل أوفييدو ، أول عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية ، وهى
تقع فى سهل منبسطة نوعاً .

ومتى جرت مدينة كانجاس ، فإنك تدخل منطقة الصخور التاريخية التى تنهى
بأكام كوفادونجا . وفى هذه المنطقة تمتد الربى الصخرية العالية على جانبي الوادى ،
ومعظمها ربي وعرة جرداء ، ويضيق الوادى شيئاً فشيئاً حتى ينتهى إلى كوفادونجا .
ولامراء فى أن هذه المنطقة ، بواديه الضيق وآكامها العالية ، ومراكزها الدفاعية
الكثيرة ، تصلح للمعارك الحربية .

كوفا دنجا ! لأنها ليست بلدًا ، بل ولا قرية . وهي لاتعدو أن تكون بقعة سياحية رائعة ، بها فندق وبعض مقاهي ، وأفراد قلائل من السكان لخدمة السياح الوافدين . وكل ما فيها عدد من رجال الدين ، وعدد من رجال الحرس الوطني ، وأبنيتها قليلة متناثرة هنا وهناك في السهل ، وفي أطراف الربوة التي تشرف عليه . ولكن كوفادنجا من جهة أخرى تقدم بصخورها الهائلة ، وآكامها الشاهقة ، أروع منظر يمكن تصوره .

والصخرة الهائلة ، والصخرة الأثرية التي هي مقصد الناس ، تسمى صخرة أوسيبا Auseba ، ويقوم أزاءها من الناحية الأخرى جبل يسمى خنيس Gines ، ويوجد بينهما وادسحيق ، هو الوادي الذي يقال إن المسلمين قدموا من ناحيته ، لمقاتلة النصاري الذين التفوا حول زعيمهم بلايو ، وأن النصاري اعتصموا بمغار في صخرة أوسيبا ، وصمدوا حتى يئس المسلمون من إدراكهم وانصرفوا .

إن الأسطورة تمزج هنا بالتاريخ . وقد كان بلايو هذا (أو بلاجيوس) من زعماء أو أشرف القوط أو البسكونيين ، وقد عرف بالجرأة والبسالة ، فالتفت حوله فلول القوط الذين نجوا من بطش الفاتحين ، ولجأوا إلى قاصية الشمال ، واحتموا بالحبال . وتعرف الرواية الإسلامية بلايو هذا وتسميه (بلاي) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ، ولكنها كالرواية النصرانية لاتحدثنا عن نشأته أو ظروف إمارته . بيد أنها من جهة أخرى تحدثنا عن الحملات التي جردها المسلمون عليه ، وعن الوقائع التي نشبت بينه وبينهم ، في ذلك الموطن الشهير .

وتعرف الرواية الإسلامية هذا المكان « بالصخرة » أعني صخرة كوفادنجا ، وتحدثنا عن روعته وعن وديانه السحيقة ، ثم تذكر لنا كيف اجتاح المسلمون نافار وبسكونية ، ونفذوا إلى أعماق جبال الأسترياس ، لكي يقضوا على تلك البقية الباقية من قوات النصاري ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراك العدو ، لأن بلايو وأصحابه ، لجأوا إلى مغار عظيم في هذه الصخرة الهائلة واعتصموا به ، وكان عددهم بضع مئات ، فرابط المسلمون في الوادي العميق الذي تشرف عليه الصخرة ، وحاصروا النصاري مدى حين ، وهم يتساقطون تباعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية الإسلامية سوى ثلاثين رجلاً وعشرة نساء^(١) . ثم انصرف

(١) راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٨ ، ونفع الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٥٧ .

المسلمون عنهم احتقاراً لشأنهم . ولكن الرواية النصرانية تزعم من جهة أخرى ، أن بلايو وأصحابه كروا على المسلمين في السهل ، وأن المسلمين هزموا هزيمة فادحة وفقدوا عدة ألوف ، وكان ذلك في سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ) .

وعلى أى حال فإن موقعة كوفادونجا ، مهما كان القول في شأنها ، قد أسفرت عن أعظم النتائج . ذلك أن هذه الشراذم القليلة من النصارى ، استطاعت في ظرف أعوام قلائل ، أن تغدو قوة يحسب حسابها ، واستطاع بلايو بعد أن أمن مطاردة المسلمين ، أن ينظم إمارته الصغيرة ، التي استحالت غير بعيد إلى مملكة إسبانية نصرانية ، لبثت تنمو وتقوى تبعاً ، واستطاعت بعد صراع طويل الأمد ، أن تقضى على الدولة الإسلامية في الأندلس .

* * *

ولنعد إلى كوفادونجا :

إن صخرة أوسيبا التي تجتمع حولها تلك الذكريات التاريخية العظيمة ، هي صخرة هائلة شاهقة ذات آكام مدببة ، يجري من تحتها الماء من عيون صغيرة ، وتشرف على بسيط صغير من الأرض ، ويبلغ ارتفاعها نحو مائتي متر .

وفي وسط الصخرة ثغرة كبيرة ، تنفرج عن ساحة صغيرة ، في ركنها الداخلي كنيسة قديمة ، وفي وسطها مغار صغير يضم قبر بلايو .

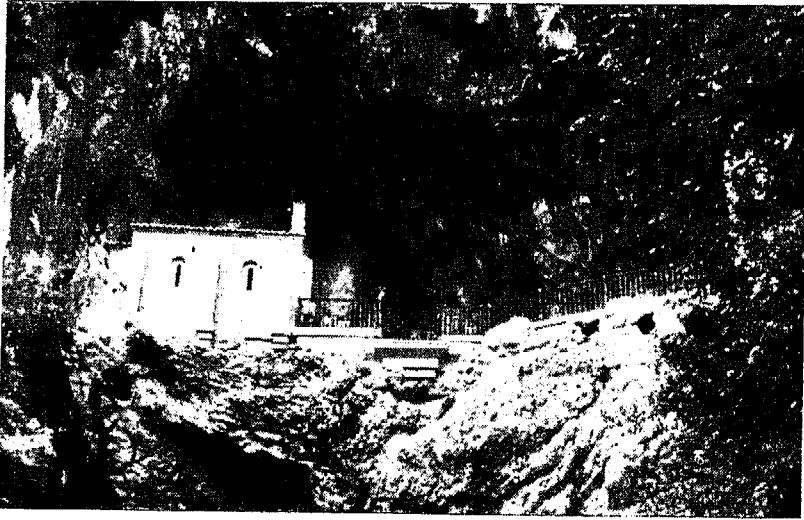
ويمكن الوصول إلى هذه الساحة التي بها الكنيسة والقبر ، إما بواسطة نفق طويل مد إليها من الرتبة المجاورة التي تحاذي في الارتفاع وسط الصخرة ، وإما بواسطة سلم طويل منحدر ، يصعد إليها من البسيط المنخفض الذي يطل عليه .

فأما الكنيسة الصغيرة فتسمى «مصلى عذراء كوفادونجا» Capilla de la Virgen de Covadonga ، وهي عبارة عن هيكل صغير ، أقيم في حمي ركن من الصخرة ، يجثو أمامه الرواد في خشوع ، ويقام فيه القداس يوم الأحد ، حينما يغص المكان بالزوار من سائر الأنحاء .

وقبيل هذا المصلى يوجد قبر بلايو ، وهو عبارة عن خرق قد في الصخرة (قبل نهايتها بنحو خمسين متراً) ، وقد وضع فيه تابوت من الحجر الأبيض تطل عليه كوة صغيرة معقودة ، وقد حفر على واجهته بالقشائية ما معناه :



كوفادنجيا . منظر عام للوادي ومن حوله الجبال



كوفادنجيا . جانب الصخرة الذي به الكنيسة وقبر بلايو

« هنا يثوى الملك دون بلايو الذى انتخب سنة ٧٢٦ ، والذى كان فى هذه الصخرة » . ويلى ذلك تاريخ الوفاة وهو سنة ٧٣٧ م .

وقد علمت من أحد الآباء المطلعين ، أن رفات بلايو لم تودع فى الأصل فى هذا المغار ، ولكنها دفنت أولاً فى جبل خنيس ، ثم نقلت فيما بعد فى عصر صهره وخلفه الملك ألفونسو الأول ، إلى مكانها فى مغار الصخرة ، التى صمد فيها أمام المسلمين ، تنويهاً بنصره ، وتحليداً لذكراه .

وإلى يسار المدخل من ناحية النفق الذى أشرنا إليه ، توجد بقايا الكندرائية القديمة ، وهى عبارة عن رواق كبير معقود ، ويستعمل اليوم لاجتماع الرهبان ويسمى « دار الرهبان » Casa de Sacerdotes .

وإلى كنيسة الصخرة هذه يتقاطر الحجاج ، من سائر أنحاء اسبانيا الشمالية ، وغيرها ، وللمؤمنين فى شأنها اعتقادات غريبة ، ومنهم من يصعد إلى الصخرة من سلمها الأسفل أو يأتيها من النفق جاثياً على ركبتيه ، حتى يصل إلى هيكلها . وقد رأينا الكثير من الرجال والنساء ، يسرون ركعاً فى التراب والطين ، حتى يصلوا إليها ، ويبتهلون إلى العذراء أن تقضى حاجاتهم .

وتوجد فى أسفل الصخرة تحت الكنيسة ، بركة صغيرة يتساقط إليها الماء كما قدمنا من عيون صغيرة ، وقد علمت من أحد الرهبان ، أن هذا الماء يأتي من ينبوع نهر صغير ينبع من فوق الصخرة ويسمى نهر « رينوثا » Reynoza . وهو يجرى منحدرًا نحو السهل ماراً بالصخرة .

وفى هذه الربوة المقابلة للصخرة ، والتي يظللها جبل خنيس Gines ، تقوم كندرائية كوفادانجا الجديدة ، التى شيدت منذ خمسين عاماً فقط ، وهى قوطية الطراز وتسمى « بازيلكا كوفادانجا » .

الكتاب السياسي
الأندلس الغربية والبرتغال

١ - بطليوس

Badajoz

ترجع بَطَلْيُوس إلى العصر الروماني ، وربما إلى عصور أقدم ، ويعتقد بعض الباحثين أنها تقوم على موقع مدينة Pax Augusta الرومانية . وكانت بطليوس ، حتى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ، محلة قوطية خربة ، لم يعن بها المسلمون ، حتى كان اضطرام الفتنة الكبرى ضد حكومة قرطبة في تلك الفترة ، فالتجأ إليها أحد زعماء الثورة المولدين ، وهو عبد الرحمن بن مروان الخليقي النائر بماردة ، وبنائها وحصنها (٨٧٥ م) ، وامتنع بها حيناً . وفي عهد الأمير عبد الله ، في أواخر القرن التاسع ، أعلن الخليقي الطاعة ، وعاونه الأمير بالرجال والمال على تجديد بطليوس ، فابتنى بها الجامع ، وابتنى أيضاً مسجداً داخل القصبة ، وعدة مساجد أخرى ، وهكذا قامت بطليوس كقاعدة أندلسية جديدة ، تحتل من ذلك الحين مكانها في تاريخ الأندلس (١) .

ولما انهارت الخلافة الأندلسية ، وقامت دول الطوائف ، كانت بطليوس قاعدة إمارة مستقلة في ظل بني الألفس ، الذين سطعت دولتهم في بطليوس وما حولها سبعين عاما (١٠٢٢ - ١٠٩٤ م) ، وكان منهم الأمير العالم الشاعر عمر بن الألفس الملقب بالمتوكل ، وإليها أيضاً ينتمي أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي اللغوي الشهير المتوفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، وكثير غيره من أكابر العلماء والأدباء .

وتقع بطليوس في منحني نهر وادي يانة ، على مقربة من الحدود البرتغالية ، في البقعة المثلثة التي يحتضنها النهر ، عند ملتقاه بفرعه المسمى نهر « سو » . ويحدها النهر من الشمال . وهي مدينة كبيرة عتيقة الطراز ، تجوز إليها فوق قنطرة حجرية عظيمة يبلغ طولها نحو خمسمائة متر ، وهي ترجع إلى العصر الروماني ، ثم جددتها المسلمون ، وجددها الإسبان بعد ذلك ، في عصر فيليب الثاني (القرن السادس عشر) . ويقابلها عند مدخل المدينة باب أثري من صنع القرن السادس عشر ، هو

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤٦ .

باب النخيل، P. de las Palmas، وهو عبارة عن عقد عريض يحيط به برجنا كبيران ، ومنه يدخل إلى المدينة .

وتبدو بطليوس بموقعها على النهر العريض الضخم ، فوق الربوة العالية التي تشرف عليه ، كأنها في مجموعها قلعة عظيمة . والواقع أن هذه المدينة التالدة تتمتع بموقع طبيعي منيع ، يذكرنا بما كان لها في سالف الدهر من أسباب الحصانة ، التي كانت تجعل منها أيام عهد الفتنة ، مركزاً من أشد مراكز الخروج والثورة على السلطة المركزية ، كما كانت تجعل منها أيام اشتداد الغزوات النصرانية ، مركزاً من أهم مراكز الدفاع الأمامية ، فشأنها في ذلك شأن قرينتها مدينة طليطلة .

القصة الأندلسية

وليس أدل على هذه الحقيقة التاريخية من أطلال قصبة بطليوس ، التي تشغل بقعة كبيرة فوق الربوة المشرفة على النهر شرقي الزاوية التي ينحرف إليها النهر ، حين ينساب إلى حدود البرتغال ، والتي يبدو أنها كانت من أعظم القصبات الأندلسية ضخامة ومنعة . وهي عبارة عن عدة مجموعات من الأطلال فرقها يد الزمن ، وعوامل التخريب والتغيير ؛ والظاهر أنه لم يبق من قصبة بطليوس القديمة ، من أيام بني الحليبي ، ثم بني الألفطس ، آثار تذكر ، وكذلك لم يبق شيء من منشأها أيام المرابطين . ذلك أن الهجمات والحصارات التي توالى على بطليوس في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، لم تبق على شيء من تحصيناتها القديمة . ونحن نعرف أن الموحدلين ، الذين حكموا الأندلس ، منذ أواسط القرن الثانى عشر ، قد اعتنوا بتحسين بطليوس بصفة خاصة ، لوقوعها في طرف المملكة الإسلامية ، وتعرضها بذلك لهجمات النصارى المستمرة . وأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإنشاء قصبة وأسوار جديدة للمدينة ، ومدنها بالمياه ، وقد كان ذلك فيما يظهر حوالى سنة ٥٦٣ هـ (١١٧٠ م) . ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأسوار والأبراج التي تحيط اليوم بأطلال قصبة بطليوس ، هي من إنشاء الموحدلين . ويوجد من هذه الأطلال حسب تقدم عدة مجموعات . فقسم منها يقع على مقربة من النهر مع جزء من السور ، يبدو أنه السور الخارجى للقلعة ،

وقسم آخر يبعد قليلا عن الأول، وقسم ثالث هو فيما يبدو أهم أقسام القصبة، وهو الذى يشمل باب القصبة الخارجى، ويقع هذا القسم فى الواجهة الغربية للقصبة، وهو فى حالة جيدة من الحفظ. ويفصل القصبة من المدينة ما بين البرج المسمى « برج إسبنتابروس »، والباب الرئيسى، ويتصل هذا البرج فى الزاوية الجنوبية الغربية بالسور، وتقع بينه وبين الباب الرئيسى، ثلاثة من الأبراج الخارجية (البرانية). ويقوم فى جنوب القصبة على مقربة من النهر برجان آخران. ومما



بطلبوس. البرج الموحدى من بقايا القصبة

يلفت النظر أن هذه الأبراج كلها مختلفة البناء والطرز. وأما باب القصبة الخارجى، فهو باب معقود يطل اليوم على الشارع المؤدى إلى سوق الفاكهة، ويليه ممر قصير صاعد يؤدى إلى المدخل الرئيسى، وهو عقد عال مزدوج، بنى قومه الخارجى من الحجارة الصلدة، ويبلغ اتساعه نحو أربعة أمتار، وارتفاعه نحو ثمانية، ومن ورائه فناء مستطيل، يحترقه عقد ثالث يؤدى إلى الخارج. ويقوم إلى يمين الباب الرئيسى، برج

فى حالة جيدة يبلغ ارتفاعه عن الأرض نحو ١٥ متراً، وهو يقع بين البابين. وهذا الجزء من أطلال القصبة، يبنى عماء كانت عليه من المنعة والإحكام. وقد حجب هذا القسم من القصبة، وبنيت على جانبيه المنازل والخوانيت، ولكن توجد عن يمين هذا القسم وبعده بقليل بقية أخرى من أسوار القلعة، وهى التى تمتد حتى البرج الموحدى.

وهذا البرج الموحدى ، وهو المسمى بالإسبانية كما تقدم «برج إسبنتا بروس» Torre de Espentaperros ، هو أهم الأبراج التى تقدم ذكرها ، وهو يقع على قيد خمسين متراً من قسم الأطلال الواقعة داخل المدينة ، والتى يتوسطها الباب الرئيسى ، وهذا البرج مثنى الأضلاع ، ويوصله بالأطلال المذكورة سور طويل ، يقوم عليه برجان صغيران للحماية . وقد أقيم فوق هذا البرج المثنى ، برج آخر أصغر ، وهو بناء دخيل أقيم بعد عصر «الإسترداد» فى القرن السادس عشر فوق البرج الموحدى ، ليكون برجاً للأجراس ، ثم نزعته منه الأجراس فيما بعد . ويبلغ ارتفاع البرجين معاً عن الأرض نحو ثلاثين متراً . ويوجد إلى وراء هذا البرج برج آخر ، أقيمت إلى جانبه كنيسة المستشفى العسكرى ، الذى يحتل هذا القسم من موقع القصبة .

وقد أقيم هذا المستشفى العسكرى منذ أكثر من قرن على هذا القسم من أقسام القصبة ، وهو القسم الذى يتوسطه الباب الرئيسى السابق ذكره ، ثم وسع تدريجياً حتى وصل إلى أنقاض الكنيسة القديمة ، التى كانت تسمى «سانتا ماريا صاحبة الحصن» Sta Maria del Castillo . وفى هذا القسم آثار أبنية قديمة ، قد غطتها الأبنية الحديثة . ونحن نعرف مما تقدم ، أن عبد الرحمن الحليقى منشىء بطليوس ، قد أنشأ مسجداً داخل القصبة . وقد حول هذا المسجد عقب «الإسترداد» إلى كنيسة ، رفعت فيما بعد إلى مركز «الكندراية» ، وسميت «سانتا ماريا دل كاستيو» . ولبثت هذه الكنيسة ، التى أقيمت على أنقاض جامع القصبة عصرأ ، كندراية بطليوس ، قبل أن تنشأ الكنيسة العظمى الحالية . وكانت كنيسة «سانتا ماريا» هذه كنيسة صغيرة ، وقد بقى من أنقاضها برجان أدمج أحدهما فى واجهة المستشفى الجنوبية . ولما جدد المستشفى ووسع ، أدخلت فى بنائه بقايا الكنيسة المذكورة . ومعنى ذلك أن المستشفى يحتل ضمن أبنيته موقع جامع القصبة القديم .

وقد صعدنا إلى البرج الموحدى السابق الذكر ، وألقينا منه نظرة على بطليوس ، وهى تبدو منه مستديرة الرقعة ، وتبدو دروبها الطويلة الضيقة ومنازلها البيضاء ، ومن حولها السهل ، وتبدو القصبة واقعة فى طرفها الشمالى الشرقى . وشاهدنا فى داخل البرج من وسطه دائرة من العقود الصلدة ، وفى أعلاه دائرة أخرى مماثلة ،

ثم يليها في القمة برج مربع يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، ويبدو هذا البرج من أعلى ، مقابلاً لبرج الباب الذي أشرنا إليه .
والخلاصة أن ضخامة قصبة بطليوس ومنعتها ، تبدوان في مختلف أجزائها ، وقد كانت تشغل رقعة كبيرة تمتد من ضفة النهر حتى الأسوار التي تبدو بعد البرج الموحدى (١) .

في متحف بطليوس

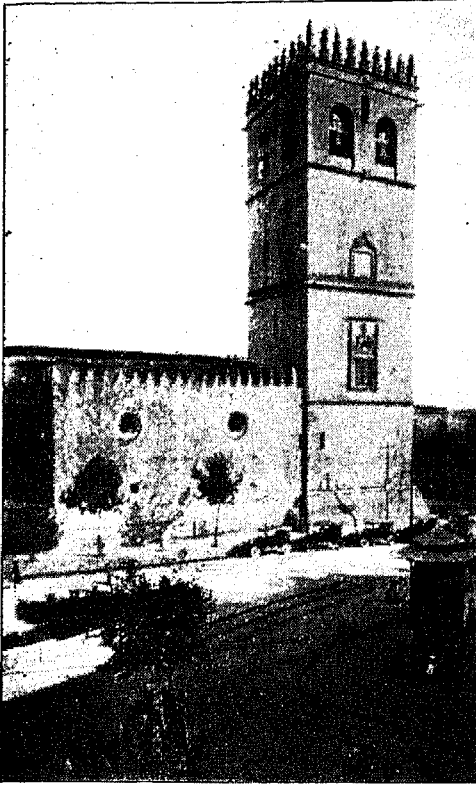
ويحتوى متحف بطليوس الأركيولوجى على عدة لوحات أندلسية ، أهمها لوحة رخامية صغيرة حجمها نحو ٣٠ × ٤٠ سنتيمتراً ، وقد كتب عليها بالخط الكوفى ما يأتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا قبر سابور الحاجب رحمه الله . وتوفى يوم الخميس لعشر ليال خلون من شهر رجب سنة ثلث عشرة وأربعمائة ، وكان يشهد ألا إله إلا الله » . وسابور الحاجب المشار إليه في هذه اللوحة ، هو سابور أحد الفتيان العامرين ، وقد استطاع أن يتغلب على بطليوس عقب الفتنة ، وأن يبسط حكمه عليها عدة أعوام ، حتى وفاته في سنة ١٠٢٢ م (٤١٣ هـ) ، وأعقبه في حكمها بنو الأفطس .

وتوجد صورتان للوحتين أخريين وجدتا أيضاً في مدينة بطليوس ، وكانتا من ذخائر متحفها ، ثم نقلتا إلى متحف مدريد الوطنى ، واكتفى بعرض صورتيهما الأولى وهى أيضاً بالخط الكوفى ، شاهد قبر هذا نصه :

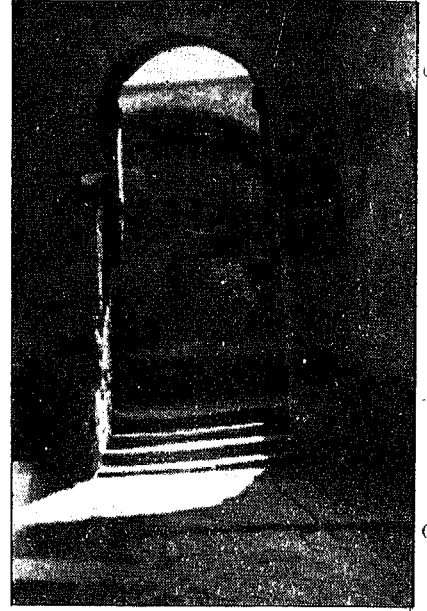
« بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر الشهيد المقتول ظلماً رحمه الله عبيد الله بن محمد بن أحمد الماردى بن المقتول قتلوه المثلثين يوم خروجهم ، وذلك يوم الأحد يوم تسعة وعشرين من رمضان المعظم عام تسعة وثلاثين وخمسمائة » .
والثانية كذلك شاهد قبر هذا نصه :

« بعد البسملة . كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام .
هذا قبر الشيخ الفقيه أبى القاسم خلف بن حسن بن فرحون البكرى نور الله ضريحه وقدس روحه . استشهد بشرقى جامع بطليوس حين غدر العدو لها فى

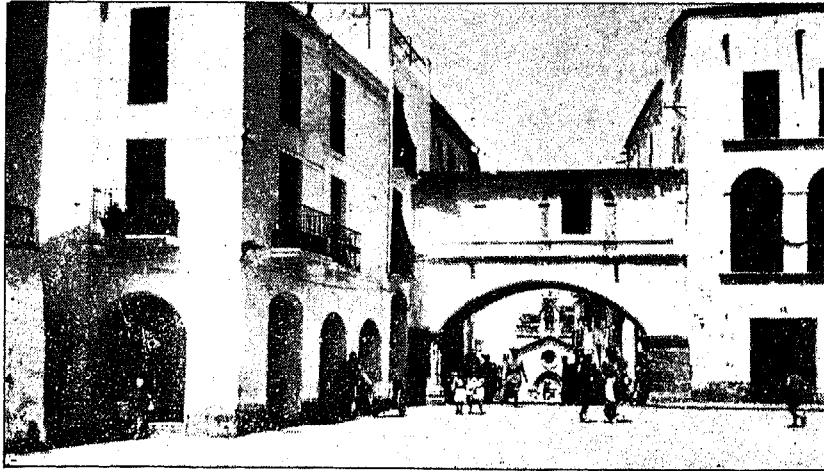
(١) راجع مقالا ضافياً عن قصبة بطليوس وأطلالها للعلامة المرحوم الأستاذ تورييس بالباس فى مجلة الأندلس : (Al-Andalus (1941, Fasc. I, p. 168-203) ، ومقالا آخر عن مسجد قصبة بطليوس ibid : (1943 Fasc. II. p. 467)



بطليوس . الكنيسة العظمى



بطليوس . باب من أبواب القصبية



بطليوس . « الميدان العالى » وقوسه المنخفض

في صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسةائة^(١).
وتوجد أخيراً بضع قطع من الآنية الخزفية الأندلسية .

معالم أثرية أخرى

وتقع الكنيسة العظمى في الجنوب الشرقي ، على نحو خمسمائة متر من القصبية في ميدان كبير هو ميدان اسبانيا . وهي متوسطة الحجم ، بنيت على شكل صليب عقدته المصلى ، وعلى جانبيه عقود قوطية ، وهيكلها كثير الزخرف ، ولكنها مظلمة ولا روعة فيها . وقد بنى برجها على مثل برج القصبية . وهي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر . ويوجد بجوار الكنيسة مربع كبير من الأروقة الفخمة ذات العقود القوطية ، زينت جدرانها السفلى بالفسيفساء الجميلة ، وصحبه عبارة عن حديقة صغيرة ذات عقود جميلة مماثلة .

وهناك عدة كنائس وأديرة أثرية ، منها كنيسة سانت أوجستين ، وهي كنيسة صغيرة ذات عقود جانبية على مثل الجامع ، وكانت قبل ذلك ديراً ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، والكنيسة المسماة « دير الحفاة » *Convento de las Descalzas* ، وهي صغيرة ذات عقود قوطية وزخارف كثيرة .

وهناك أيضاً كنيسة كونثبسيون *La Concepción* ، وتقع في وسط المدينة تقريباً . ويأوح لنا أنه إذا كانت الكنيسة العظمى تقع فوق أنقاض جامع بطليوس لقربها من سفح القصبية ، فإن كنيسة « كونثبسيون » فيما يرجح تحتل أيضاً مكان أحد المساجد الأخرى .

ويوجد في بطليوس غير أبواب القصبية وباب النخيل التي سبق ذكرها ، أبواب أثرية أخرى منها العقد الضخم الواقع في « الميدان العالى » *P. Alta* ، وهو عقد خفيض عريض يقع في مواجهة سوق الفاكهة ، على مقربة من باب القصبية ، « وباب العمود » وهو أحد أبواب بطليوس النصرانية ، ويقع في جنوبها ، وهو عقدان بينهما قبو يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً ، وباب « ترنداد » ويقع في القسم الغربي من الأسوار المسماة أسوار « فوبان » .

(١) تشير هذه اللوحة إلى واقعة مهاجمة البرتغاليين بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيذ لبطليوس ، لأول مرة (سنة ١١٦١ م) واستيلائهم عليها ، ثم استرداد المسلمين لها على الفور .

ولنعد إلى المدينة ذاتها ، فنقول إن بطليوس مدينة كبيرة الرقعة يبلغ سكانها زهاء خمسة وأربعين ألفاً . ويحد نهر وادي يانة المدينة القديمة من الشمال ، ومن ورائه توجد طائفة من الأحياء الجديدة تمتد حتى محطة السكة الحديدية . وأما المدينة القديمة فتمتد جنوباً وغرباً حتى أسوار « فوبان » ، وهي التي أنشأها الفرنسيون أيام حرب « وراثة العرش » في فاتحة القرن السابع عشر ، وسميت باسم منشئها المهندس والقائد الشهير فوبان ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة ، وتتجه بقيتها الجنوبية من الناحية الشرقية نحو أطلال القسبة لكي تتصل بأسوارها .

وللمدينة بطليوس طابع خاص يغلب عليه القدم والاحتشام ، ومع ذلك فهي تضم كثيراً من الشوارع والمباني الحديثة ، وتجتمع في قلبها وفي جانبها الشرقي شبكة كبيرة من الدروب الضيقة القديمة الصاعدة نحو ربوة القسبة ، ومعظم سكانها من الطبقات الفقيرة ، وتوجد في أطراف المدينة من الشمال والغرب ، جماعات من الغجر ، وقد علمت أن عددهم يبلغ نحو ألف وخمسمائة .

وقد كانت لبطليوس بموقعها الحصين على منحى نهر وادي يانة وعلى الحدود الإسبانية البرتغالية ، في العصور الوسطى ، أهمية عسكرية خاصة ، وقد حاول البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز انتزاعها من المسلمين ، المرة الأولى في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، وقد استردها المسلمون على الفور ، والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ، ولكن المسلمين عادوا فاستردوها ، واستمرت في أيديهم بعد ذلك عصر آخر . وأخيراً استولى عليها النصارى بقيادة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وذلك في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٦ هـ) .

وليس من العسير أن نتعرف معالم مدينة بطليوس الأندلسية ، فهي واضحة في شبكة الدروب التي تنحدر من غربى القسبة وجنوبها إلى قلب المدينة .

٢ - ماردة

Mérida

ماردة هي إحدى مدن ولاية بطليوس ، وهي تقع شرقي بطليوس ، على الضفة الشمالية لنهر وادي يانة ، في بسيت أخضر وافر الخصب ، وتبعد عن بطليوس نحو أربعين كيلومتراً .

وقد كانت ماردة مثل بطليوس ، منزل البربر والمولدين ، وكانت كثيرة الخروج والثورة على سلطة حكومة قرطبة . وقد سقطت في يد النصارى بعد سقوط بطليوس بنحو عامين ، في سنة ١٢٢٩ م (٦٢٨ هـ) .

ولكن ماردة ليست كبطليوس ، ذات طابع خاص واضح ، وإن كانت لها مع ذلك ملامح خاصة بها . وهي مثلثة الرقعة تقريباً ، ذات شوارع طويلة ، وميادين عديدة ، ويحدها من الجنوب نهر وادي يانة ، وعليه تقوم القنطرة الرومانية العظيمة ، على ستين عقداً . وهي كثيرة الدروب الضيقة المنعرجة ، التي هي طابع المدن الأندلسية القديمة ، وكثير من مبانيها الحديثة يحمل طابعاً أندلسياً من العقود والشبايك المعقودة والأفنية الأندلسية ، ويرى النخيل في شوارعها وميادينها وأحياناً في منازلها .

وتضم ماردة خمسة عشر ألفاً من السكان ، منهم أقلية كبيرة من الغجر تسكن بجوار القصبة ، وفي بعض أحياء أخرى .

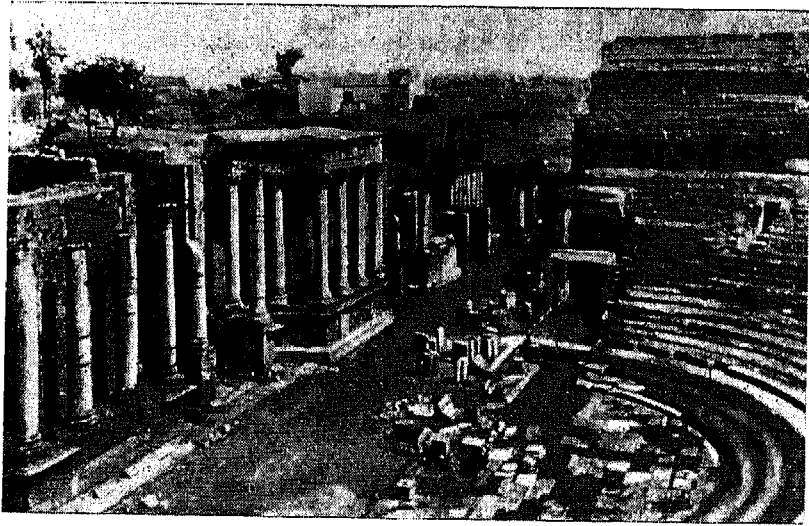
المعالم الأثرية

وفي ماردة طائفة من المعالم الأثرية الحليمة ، ولكن معظمها آثار رومانية ، وهي تدل بما كانت عليه ماردة في العصر الروماني ، من الأهمية والمنعة ، فقد كانت عندئذ تسمى باسمها الروماني Augusta Emerita ، ومن مقطعها الثاني اشتق اسمها الأندلسي « ماردة » .

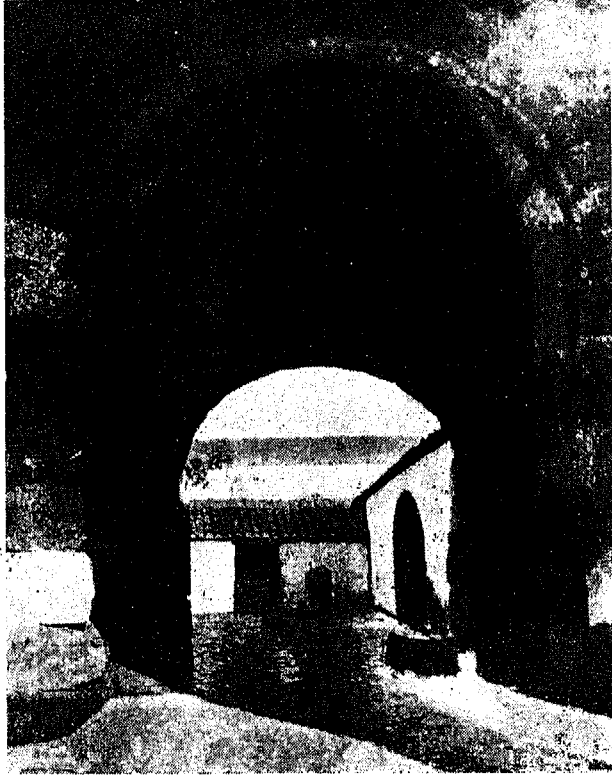
وفي مقدمة هذه الآثار : القنطرة الرومانية العظيمة التي سبقت الإشارة إليها ، والتي تقوم فوقها أعمدة الحسر المائي Acueducto ، التي كانت تحمل قنوات الماء



ماردة . القنطرة الرومانية



ماردة . منظر عام للمسرح الروماني



ماردة . العقد العربي داخل القسبة .

إلى القصر . وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية ، وهي أسوار عظيمة تضم في داخلها أطلال ما يسمى بالقسبة أو القصر . وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى قصر ماردة هنا ، وإلى القنطرة ذات العمدة التي كانت تحمل إليه الماء (١) . والقسبة هي أثر أندلسي بلا ريب ، وقد كانت قلعة رومانية وقوطية قديمة ، فأنشأ المسلمون على أنقاضها القسبة أو القصر ، وجددت هذه القسبة مراراً ، ولا سيما في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، في أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، كما يدل على ذلك نص اللوحة الأندلسية ، المحفوظة بمتحف ماردة ، والتي نتحدث عنها فيما بعد .

(١) الروض المعطار ص ١٧٦ .

وأطلال القسبة خرائب متفرقة ، ولكنها تدلى بيوائكها ، وأطلال أبراجها الحاذية للنهر ، بما كانت عليه من منعة وحصانة ، وهي بلاريب بقية القلعة الأندلسية القديمة ، التي كانت تحمي القصر وتشرف على المدينة .

ويوجد على مقربة من هذه الأطلال ، المنحدر المعروف بالجب ، وهو منحدر عميق تسيل إليه مياه الأمطار ، وينزل إليه بسلمين في كل زواق سالم .

وثاني الآثار الرومانية بعد القنطرة ، المسرح الروماني ، وهو مسرح حجري عظيم كامل تقريباً ، يقع خارج المدينة من ناحية الشمال الشرقي . وما زالت به صفوف من المقاعد الحجرية المتدرجة ، وأمامها المسرح ، وهو يشمل مساحة كبيرة ، ويقابله من الناحية الأخرى الأثر المسمى « بالأمفتياترو » وهو أيضاً مساحة عظيمة ، تقوم حولها المقاعد المدرجة في نصف دائرة كالمسرح ، وتفضى إليها مداخل كثيرة ذات عقود .

ويوجد في وسط المدينة أثر روماني آخر ، هو عبارة عن عقد روماني عظيم شاهق يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً ، وهو معقود من الحجارة الكبيرة الصلدة ويسمى « عقد تراجان » Arco de Trajano :

وأما فيما يتعلق بالكنائس ، فإن كنيسة ماردة العظمى تسمى سانتا ماريا ، وهي صغيرة الحجم ذات عقود قوطية ، وهي قديمة أيضاً ، وربما كانت تحتل موقع الجامع . بيد أن أقدم كنائس مارده هي كنيسة « سانتا أولاليا » ، وهي ترجع إلى عصر قديم جداً ، والمعروف أنها كانت قائمة أيام المسلمين ، وصرحها الحال هو صرحها المجدد بعد سقوط المدينة في يد النصارى ، وهو ذو عقود قوطية خفيفة . والقديسة أولاليا هي حامية المدينة .

هذا ومن الصعب إزاء نموض مواقع كنائس ماردة القديمة ، وعدم التحقق من أن كنيستها العظمى ، تحتل بالفعل موقع الجامع ، أن نحدد معالم المدينة الأندلسية بصفة واضحة ، بيد أنه يمكن من جهة أخرى ، أن نسترشد في ذلك بموقع القسبة وأطلالها الباقية ، فنقول إن المدينة الإسلامية كانت تتجه من القسبة نحو النهر ، ويؤيد ذلك أن أحياء ماردة القديمة تقع في هذه الرقعة . أما امتداد المدينة الحديثة فإنه يبدأ من خارج الأسوار .

نقوش أندلسية

وإذا كانت ماردة تخلو من الصروح الأندلسية الهامة ، فهي من الناحية الأخرى تحتفظ في متحفها بلوحة من أهم وأقدم اللوحات الأندلسية .
ومتحف ماردة متحف صغير ، ولكنه غني بالآثار والتماثيل الرومانية ، التي استخرجت من حفريات ماردة ، وبه مجموعة من النقود الأندلسية الصغيرة من دراهم وأمثالها .

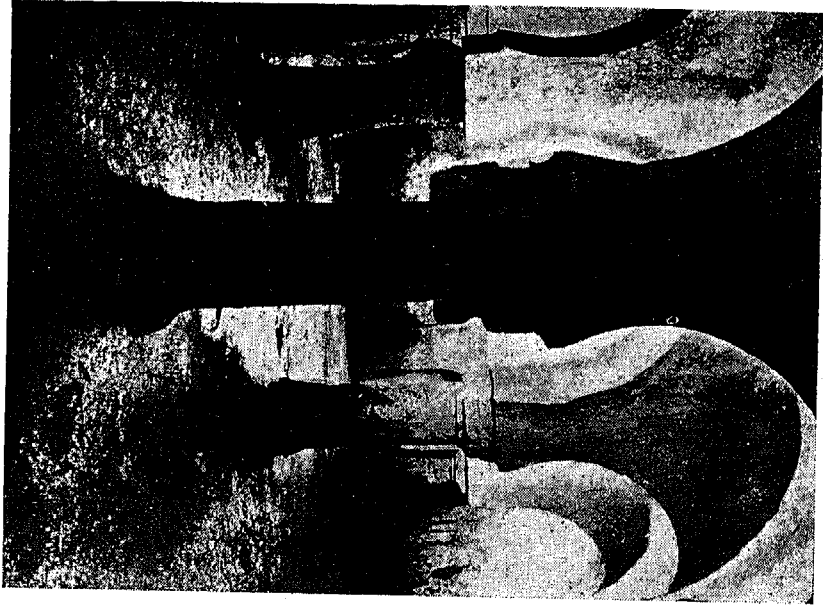
أما اللوحة الأندلسية المشار إليها ، فهي لوحة رخامية كبيرة طولها نحو مترين ، وعرضها نحو ثمانين سنتيمتراً ، وقد وجدت في سنة ١٩٠٢ في قسبة ماردة . وهي ملقاة في ركن مهمل من المتحف ، وكان يغمرها التراب والمهملات ، فرجونا حارس المتحف أن ينظفها ويجلوها ، وعدنا إلى المتحف عصرأ ، وعكفنا على قراءة نقوشها الكوفية وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله وعصمته لأهل طاعته . أمر ببناء هذا الحصن وبإعادته معقلاً لأهل الطاعة الأمير عبد الرحمن بن الحكم أعزه الله على يدي عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة (١) وجفار بن مكسر وشعيب بن موسى حاجب الساد في شهر ربيع الأول سنة عشرين ومائتين . »

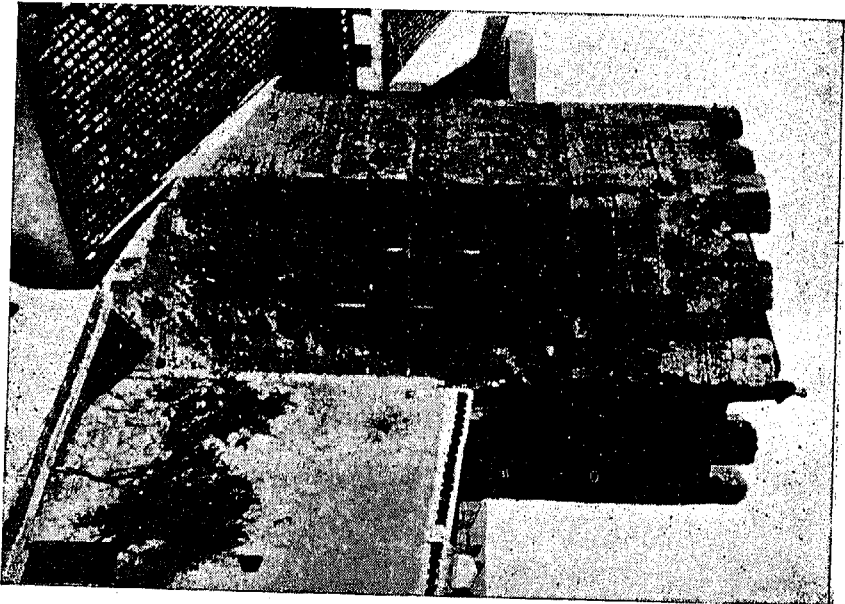
وهذه اللوحة الأثرية تشير إلى حادث تاريخي هام . فقد كانت ماردة من المدن الثائرة على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ؛ وكان يتزعم ثورتها سليمان ابن مرتين زعيم البربر ، فسار الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى ماردة وحاصرها بشدة . وحدث أثناء الحصار أن قتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده ، فانهارت الثورة ، وانفضت جموع الثائرين ، ودخل عبد الرحمن المدينة وأمر بتجديد قصبها ، لتكون ملاذاً لأولى الأمر من أوليائه ، والمدافعين عن سلطانه ، وكان ذلك سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) وهي السنة التي سجلت في اللوحة المذكورة .

ويوجد في الدار الأثرية التي يحتلها اليوم الفندق الوطني Parador Nacional ، فناء ذو عقود وأعمدة عربية ، ومنها عمودان أو ثلاثة عليها كتابات عربية ، ولكن

(١) في الروض المطار عبد الملك بن كليب بن ثعلبة (ص ١٧٧) .



تفرش . بعض المقود المرية الباقية



تفرش . البرج المرعي الكبير

ليس بالنقوش البارزة أو الحفر ، وإنما فقط بالكحت البسيط ، وهي أدعية وتحيات لا أهمية لها ، وربما كانت من صنع بعض الزوار المغاربة في القرن الماضي .

* * *

هذا ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نشير إلى ظاهرة أثرية لها دلالتها التاريخية الهامة . فقد رأيت مما تقدم ، أن مدينة ماردة تغص بالآثار الرومانية الهامة ، وقد كانت هذه الآثار كلها قائمة على حالها في عهدها الإسلامي ، حسبما يشير إلى ذلك صاحب الروض المعطار^(١) ، وبالرغم من كونها تعتبر في نظر المسلمين آثاراً وهياكل وثنية ، فإن المسلمين قد أبقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة ، وهو أمد استطال أكثر من أربعة قرون . ولئن دلت هذه الظاهرة على شيء ، فهو أن الأمة الأندلسية المسلمة ، كانت ترتفع في تقدير القيمة الفنية والأثرية لتراث العصور الماضية ، إلى مرتبة تسمو على الإعتبارات القومية والدينية ، وهذا ما أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب .

* * *

هذا ، وتوجد في هذه المنطقة من الأندلس الغربية الشمالية ، بعض آثار أندلسية أخرى ، نذكر منها ما يلي :

أولاً - توجد في مدينة تُرجالُه Trujillo ، الواقعة في شمال ماردة على مقربة من جنوبي نهر التاجه أطلال حصن أندلسي ، وبقيّة أسوار أندلسية ، وتوجد بهذا الحصن لوحة عربية هي شاهد قبر ، وقد سقطت ترجاله في أيدي النصارى في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ)^(٢) .

ثانياً - توجد بمدينة قشرش Cáceres ، الواقعة غربي ترجاله ، وشمالي بطليوس برج أندلسي ، وعقود عربية . وما زالت قشرش تحتفظ بطابع العصور الوسطى ، وبها أسوار وقصور وأبواب قديمة ، وتحتل كنيستها القديمة « سان ماتيو » موقع الجامع القديم .

(١) الروض المعطار ص ١٧٦ .

(٢) الروض المعطار ص ٦٣ .

٣ - ولبة

Huelva

الآن ننتقل من أرض الفرنتيره وولاية بطليوس ، إلى منطقة الغرب أوغربي الأندلس ، وهي المنطقة التي حرف اسمها العربي اليوم إلى كلمة Algarve الأوربية .

إن هذه المنطقة التي تمتد غربي مدينة إشبيلية على ساحل المحيط ، حتى جنوبي البرتغال ، ويخترقها نهر وادي يانة (وادي أنة) العظيم ، من أخصب المناطق في شبه الجزيرة الإسبانية ، وهي مما يلي جنوب غربي إشبيلية ، عبارة عن بسائط خضراء تمتد إلى مرمى البصر ، وتزرع بها مختلف المحاصيل ، ويتخللها قبائل من التلال ، وبها مراعي طيبة للماشية . وأكثر ما شاهدناه بها مزارع القمح والكروم وغابات الزيتون . ومما لفت نظرنا أن القطن يزرع فيها في رقاع قليلة ، ولكن شجيراته صغيرة ضئيلة .

وتمتد هذه البساتين بعد ذلك غرباً في اتجاه نهر وادي يانة ، وافرة الخصب متنوعة المحاصيل حتى حدود البرتغال ، بيد أنها قبيل مدينة ولبة تكثر بها التلال ، وتكثر غابات الزيتون .

ومدينة « ولبة » هي ثغر بحري كبير ، يقع على شاطئ المحيط الأطلنطي عند مصب نهر « أوديل » ، ويبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً ، وهي بيضاوية الرقعة ذات شوارع طويلة . ويزدان شارعها الرئيسي الطويل الذي يخترقها مما يلي البحر بصفين من النخيل Alameda ، وكذلك تزددان به بعض الميادين ، ولكن شوارعها الجانبية من الناحية الأخرى ضيقة .

وهي عتيقة الطراز والمظهر . بيد أنها لا تحمل أية مسحة أندلسية . وأقدم معالمها الأثرية كنيسة « سان بيدرو » وتقع في وسط المدينة ، وقد بنيت أولاً عقب سقوط المدينة في يد النصارى مكان المسجد الجامع ، ثم جددت بعد ذلك في القرن الخامس عشر ، وما زال طراز الجامع ظاهراً في قبتها التي على يمين الداخل ، ثم في عقودها الوسطى . ومما يلفت النظر أنه توجد في كل من جانبيها الشرقي والغربي ،

نافذة مستديرة عملت على هيئة نوافذ الجامع ، وأن بابها يقع في الجنوب ، مما يدل على أنه عمل مكان محراب الجامع .
أما كنيسها العظمى « الكندراثة » وهي المسماة بكنيسة الرحمة La Merced ، فهي قديمة أيضاً ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، ويبدو كذلك أثر الطراز الإسلامي ، في عقودها وفي قبتها التي تحاكي قبة المسجد .
وفي ولبة بقية قنطرة رومانية قديمة ، وتمثال ضخيم لكريستوف كولومبوس مكتشف أمريكا .



ولبة . ميدان وكنيسة سان بيدور

والأثر الأندلسي الوحيد الذي رأيناه في مدينة ولبة ، هو نافذة أثرية ذات عقدين أندلسيين ، بهما زخارف عربية ، وتقع هذه النافذة في واجهة منزل عادي يقع في شارع « الميناء » C. del Puerto
وهناك أثر أندلسي آخر في متحف ولبة الإقليمي هو لوحة من الفخار ، بيضاوية الشكل ، وهي عبارة عن شاهد قبر نقش على وجهه بالخط النسخ ما يأتي :

« الحمد لله وحده . توفي الشاب الطالب المرحوم أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن سعيد بن علي الجبلي رحمه الله وبرد ثراه عند

الزوال من يوم الإثنين الرابع عشر لذي قعدة عام أحد عشر وثمانى مائة» .
ونقش فى ذيلها « اليمن والإقبال ، اليمن والإقبال » .
ونقش على وجهها الآخر زخارف حول شجرة الحياة .
وتشتهر ولبة بنوع خاص بإتقان فنون الرقص الأندلسى ، وهى فى ذلك
فى مقدمة المدن الأندلسية .



ولبة . الشباك العربى ذو العقدين

وقد سقطت مدينة ولبة فى يد
القشتاليين فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م) ،
بعد سقوط إشبيلية بأعوام قلائل ،
وكان الأمير الموحدى السيد
أبو عبد الله ، الذى سقطت على يده
إشبيلية ، قد اشترط أن يعوض
عنها بولبة ولبة وشلوقة (سان لوقار)
وحصن القصر ، وهى كلها تقع غربى
إشبيلية ، ثم عاد النصارى ، فاستولوا
على هذه البلاد جميعاً خلال بضعة أعوام
ومما هو جدير بالذكر أن مدينة
ولبة ، هى مدينة أونبة القديمة ،
وهذا الإسم كانت تسمى فى العصر
الإسلامى .

٤ - لَبْلَة

Niebla

إن أهم ما تمتاز به مدينة لبلة من الناحية الأثرية ، هي أنها المدينة الوحيدة ، التي مازالت تحتفظ بأسوارها الأندلسية كاملة .

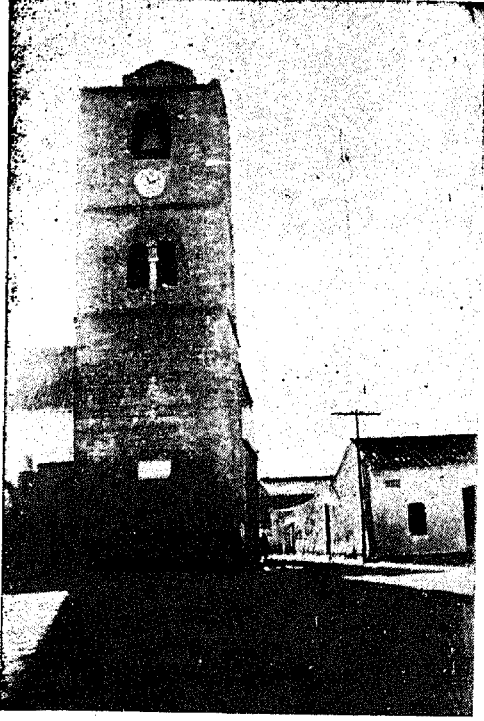
وتقع لبلة غربى مدينة إشبيلية على قيد سبعين كيلومتراً منها ، على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Rio Tinto ، وهى من أعمال ولاية ولبة ، وتبعد نحو ثلاثين كيلومتراً إلى شرقها ، وكانت أيام الرومان تسمى Llipla ، ومنها اشتق اسمها العربى لبلة ، وتعرف أيضاً فى الجغرافية العربية « بلبلة الحمراء » (١) .

والمنطقة الممتدة من إشبيلية غرباً إلى لبلة ، ولاسيما فى مرحلتها الأولى هى من أخصب المناطق وأغناها بمحاثق البرتقال ، وغابات الزيتون ، وحقول القمح البانعة ، وتتكون على الأغلب من رقاع خضراء منبسطة ، والوعر بها قليل .

وكانت لبلة أيام الدولة الإسلامية ، قاعدة هامة من قواعد غربى الأندلس ، واشتهرت أيام الإمارة والخلافة ، بثوراتها العديدة ضد حكومة قرطبة ، وبمن ظهر فيها من الزعماء والحوارج . وفى أيام الطوائف ، قامت فى لبلة إمارة مستقلة تحت حكم بنى اليحصبي ، واستمرت على استقلالها نحو ثلاثين عاماً ، حتى تغلب عليها المعتضد بن عباد ، وضمها إلى مملكة إشبيلية ، وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .

واستمرت لبلة فى يد المسلمين حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فى أواخر أيام حكم الموحدين لإسبانيا المسلمة ، وقامت بها فى ذلك الحين إمارة مستقلة أخرى تحت حكم ابن محفوظ . وحاول القشتاليون فى تلك الأثناء افتتاحها غير مرة ، وحاصروها فى سنة ١١٨٧ م ، واستولى عليها أسقف طليطلة خمينيس دى رادا فى سنة ١٢٣١ م لمدى قصير ، ثم عادت إلى المسلمين ، وأخيراً حاصرها ألفونسو العاشر ملك قشتالة (العالم) ، وانتهى بالاستيلاء عليها بعد حصار دام تسعة أشهر . ومما هو جدير بالذكر أن الموحدين استعملوا فى هذا الحصار المدافعة النصرارى ، آلات تشبه المدافع ، تقذف حجارة ومواد ملتهبة يضحها دوى

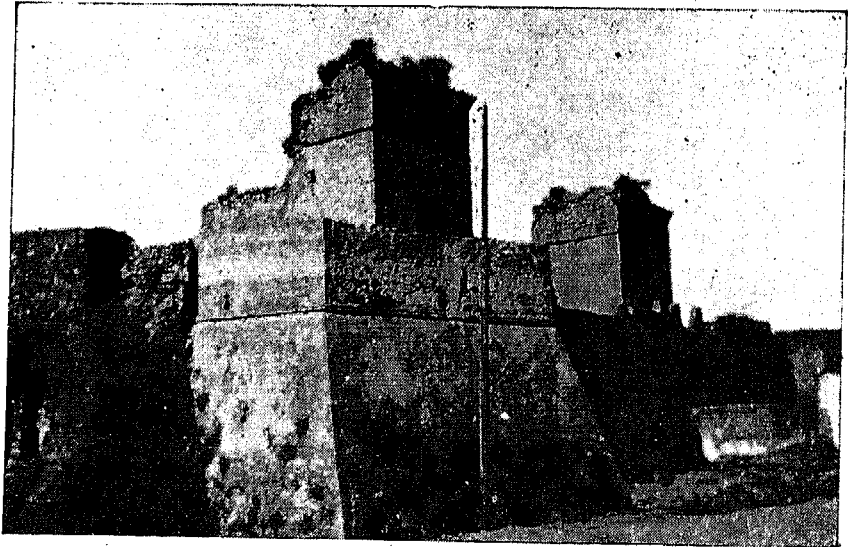
(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة لبلة . والروض المطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ .



لبلة . برج الكنيسة وهو منارة الجامع القديم



لبلة . واجهة القصر الأندلسي القديم



لبلة . بعض أطلال القصر الأندلسي

كالرعد ، مما يحمل على الاعتقاد ، بأنهم ربما كانوا قد وقفوا على سر البارود في هذا العصر المبكر .

وأول ما يلفت النظر في لبلبة ، هو منظر أسوارها القديمة العالية التي تحيط بها إحاطة تامة لإلأمن جهة النهر ، وهذه الأسوار التي تدور حول المدينة الأندلسية القديمة - وهي تقع فوق ربوة عالية ، مستديرة تقريبا - هي أسوارها الأندلسية ، وهي مازالت على حالها منذ جردها الموحدون في أواخر القرن الثاني عشر ، ويبلغ ارتفاعها في المتوسط نحو اثني عشر مترا ، ويبلغ محيطها نحو كيلو مترين .

والمدينة القديمة القائمة داخل الأسوار ، هي لبلبة الأندلسية ، وهي مازالت تحتفظ بخطوطها الأندلسية القديمة ، دون تعديلات تذكر ، ومازالت شوارعها ودروبها تحمل الطابع الأندلسي الواضح . وقد احتلت كنيساتها ، « سانتا ماريا » و« سان مرتين » موقعي المسجدين القديمين ، الشرقي والغربي ، وقد اندثرت الكنيسة الأخيرة ، وبقيت الكنيسة الأولى وحدها ، وهي تحتل موقع الجامع حسبما يجي .

ويقع خارج الأسوار ، شارع لبلبة الرئيسي الممتد غرباً بجنوب نحو ولبة ، وقد أقيم على جانبه ، المواجه للأسوار ، صف طويل من المنازل الحديثة يبلغ طوله نحو كيلومتر .

ولبلبة على العموم بلد هاديء ، لا يعدو سكانه بضعة آلاف ، وليست بها أية حركة عمرانية ظاهرة .

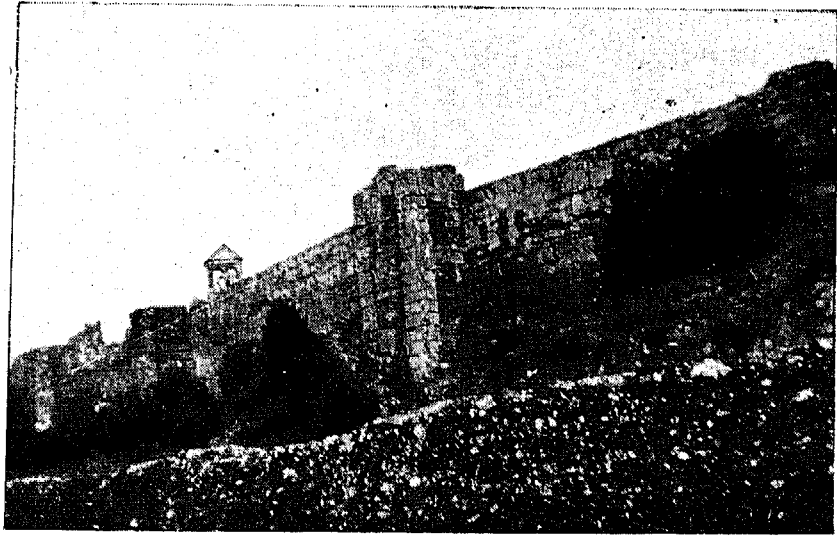
المعالم الأثرية

وأعظم معالم لبلبة الأثرية ، هو بلا ريب أسوارها الضخمة ، التي تمثل منعها القديمة ، وموقعها الحصين فوق الربوة العالية ، وهو منظر رائع حقاً ، لا يدانيه في روعته ومنعته ، سوى أسوار آبلبة الرومانية العربية .

وتتخلل أسوار لبلبة بوائك عديدة ، هي بوائك الأبراج القديمة ، وتتخللها كذلك خمسة أبواب قديمة معقودة ، أهمها الباب المتجه نحو الشرق ، ويسمى باب إشبيلية ، وتنتهي الأسوار من ناحيتها الشرقية إلى « النهر الأحمر » ، وهي من هذه الناحية بالية مهتمة .



لبلة . باب إشبيلية المتجه شرقا نحو طريق إشبيلية



لبلة . جانب من الأسوار الموحدية الكبرى

الكنيسة الرئيسية : هي كنيسة « سانتا ماريا » المتقدمة الذكر ، وهي كنيسة صغيرة متواضعة ، وهي قديمة وتحتل موقع المسجد القديم ، وما زالت بها عدة من معالم المسجد ، فبرجها حسبها هو ظاهر ، هو منارة المسجد القديم ، وهي مربعة موحدية الطراز ، قابلة الارتفاع ، وما زالت تحتفظ بكواتمها العربية ، وكذلك يبدو أن صحن الكنيسة ، إنما هو صحن المسجد القديم ، وما زال في جانبيه عقدان قديمان ، قد سدا بالبناء .

أطلال الحصن أو القصر : وهي بقية كبيرة من أطلال بناء ضخم ، منفردة حول فناءه الشاسع ، ومنها قطعة كبيرة ذات ضلعين ، وله واجهة كبيرة مخربة من الداخل ، ويسكن هذه الخرائب أقوام من الفقراء ، وهو كثير الرثاء تعاقه النفس .

وقد كان هذا موقع القصبة الأندلسية أو قصر لبلبة القديم Alcázar ، ولما سقطت لبلبة في يد القشتاليين في سنة ١٢٥٧ م ، وقعت بهذا الصرح الأندلسي تغيرات وإضافات كثيرة ، وفي سنة ١٣٦٩ منح هنرى (إنريكي) الثاني ملك قشتالة ، مدينة لبلبة ، مهراً لإحدى أميرات البيت المالك . ومنح زوجها لقب « الكونتية » ، وغدت لبلبة من ذلك الحين « كونتية » (إمارة) ، وتعاقب أصحابها الحدود على حصنها الأندلسي القديم بالتعديل والتجديد ، حتى غاضت معالمه الأندلسية ، وانتهى بأن خربته الزلازل في سنة ١٧٥٥ م ، وبقي على حاله من الحراب والعفاء حتى يومنا .

الآثار الأندلسية الباقية

في البرتغال

تمهيد

كانت شبه الجزيرة الإسبانية حينما افتتحها العرب ، وحدة جغرافية وسياسية واحدة ، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر منهو في الشمال والمحيط في الجنوب ، وبين نهر وادي يانة شرقاً والمحيط غرباً ، وهي التي يطلق عليها اليوم « البرتغال » داخلة في نطاق الأندلس المسلمة ، ومقسمة إلى عدة ولايات ، ولم توضع أسس البرتغال الحديثة قبل أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد بدأت قواعد هذه المنطقة الغربية من الأندلس تسقط في أيدي النصارى ، في عصر مبكر ، فسقطت مدينة بورتو (برتقال) في يدهم سنة ٧٦٥ م ، مع بعض القواعد الشمالية الأخرى ، وامتنع المسلمون في قواعدهم جنوبي نهر دويرة ، (الدورو) ، واستمروا يحكمون هذه المنطقة في ظل النظام الإقطاعى ، حتى أواخر عهد المرابطين ، وعندئذ بدأ سلطانهم فى الانحلال ، وأخذت هذه القواعد الغربية تسقط تباعاً في أيدي النصارى . وقويت الجيوش النصرانية الغازية ، بما كان يفد يومئذ على شواطئ البرتغال ، من الجماعات الدينية والصليبية المتطوعة لقتال المسلمين ، وكانت مدينة قُلمرية Coimbra أول قاعدة فقدها المسلمون إذ سقطت في يد فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . ثم تلتها أشبونة (لشبونة) وشنترين ، ثم قصر أبى دانس ، ثم يابرة ، ثم شلب وباجة وشنتمرية الغرب . وكان سقوط هذه القواعد الأندلسية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك حين اضطربت شئون الأندلس أيام اضطراب ، ودبت إليها عوامل الفتنة الشاملة ، وانهارت قواها الدفاعية ، فى أواخر عهد الموحدين .

* * *

وقد رأينا استكمالاً لعناصر هذا البحث الذى نعى فيه بتقصى الآثار الأندلسية الباقية ، فى سائر قواعد الأندلس الذاهبة ، أن نعبر إلى البرتغال ، وأن نجوس

خلال قواعدها الأندلسية القديمة ، فزرنا منها سبعة هي : أشبونة العاصمة ،
وشنرة ، وشنترين ، ويابرة ، وباجة ، وشلب ، وفارو أو شنتمرية الغرب .
وكان عبورنا إلى البرتغال من جنوب غربي إسبانيا ، عن طريق ولبة وأيامونتي ،
وذلك لكي نخترق ولاية الغرب الأندلسية القديمة Algarve ، ونتعرف خواصها
وطبيعتها .

وتمتد من ولبة نحو الغرب منطقة تكثر فيها التلال ، وتقل البساتن ، ومع
ذلك فمعظمها خضراء ، تغطيها غابات الزيتون والصفصاف ، وحدائق الفاكهة
ولاسيا التين ، فإنه يكثُر في هذه المنطقة كثرة هائلة ، وأشجاره ضخمة تغمرها
الثمار .

وقد لفت نظرنا أنه توجد قبيل الحدود البرتغالية بلدتان تحمل كلتاها اسما
عربياً ظاهراً ، أولاهما بلدة La Mezquita أي «المسجد» ، والثانية بلدة «الخرق»
Aljarque .

وعلى مقربة من حدود البرتغال تكثُر البقاع القفراء ، تغطيها غابات هزيلة
من أشجار التين والزيتون ، وتتخللها بعض حقول القطن والبقول ، وترى فيها
الآبار بكثرة ، تستعمل للرى ، ثم تليها حتى حدود البرتغال ، منطقة كبيرة من
المستنقعات والملاحات .

وتقع بلدة الحدود الإسبانية ، وهي ثغر أيامونتي الصغير ، على الضفة
اليمنى لمصب نهر وادي يانة في المحيط الأطلنطي ، وهو ثغر متواضع يعبر منه إلى
الضفة الأخرى ، إلى بلدة « فيلا ريال » البرتغالية ، في مراكب بحارية ساذجة ،
تقطع مصب النهر العريض في نحو عشرين دقيقة ، وفيلا ريال هي أيضاً بلدة صغيرة
ولكن نظيفة مشرقة .

١ - فارو

أو شنتمرية الغرب

Faro-Sta. Maria de Algarve

كانت « فارو » أول مدينة برتغالية قصدها ، وقد قطعت إليها طريق « الغرب » بالسيارة . ولا يكاد يختلف هذا الجزء من ولاية الغرب Algarve ، في طبيعته العامة عن نظيره الإسباني ، ولكن اليد العاملة قد أسبغت على المنطقة البرتغالية تنوعاً وخضرة ورواء لا توجد في المنطقة الإسبانية . وعلى مثل القسم الإسباني ، تكثر في هذا القسم أشجار الزيتون والفاكهة ، وبعض المحاصيل ولاسيما الذرة .

وتقع بلدة فارو على شاطئ المحيط الأطلنطي ، على خليج يتخذ شكل نصف دائرة ، وهذا الاسم الحديث للبلدة الأندلسية القديمة ، لا يثير اهتمامك إلا حين تعرف أن فارو ، ليست إلا مدينة « شنتمرية الغرب » الأندلسية ، التي كانت بها أيام الطوائف دولة صغيرة مستقلة ، هي دولة بني هرون ، الذين حكموها من سنة ١٠٢٦ إلى سنة ١٠٥٢ م . ثم حكمها بعد ذلك بنو عماد أمراء إشبيلية ، واستمرت بعد ذلك تحت حكم المسلمين أيام المرابطين ثم الموحدين . ثم سقطت في يد ألفونسو الثالث ملك البرتغال سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون .

ولإليك ما أورده في وصفها صاحب الروض المعطار : « وشنتمرية على معظم البحر الأعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد ، وهي مدينة متوسطة القدر ، حسنة التربة ، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة ، وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة التين والأعناب ، وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلاً » (١) .

وفارو مدينة صغيرة أنيقة مشرقة ، طيبة الهواء ، حديثة المظهر ، تحرقها

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٥ .

شوارع طويلة ضيقة إلا شارعها الكبير الواقع خارجها ، وبها ميادين حسنة مثل ميدان فرنسسكو كومس الواقع على البحر ، وميدان الكتدرائية . وليس في أحيائها الخارجية شئ من المظاهر الأندلسية ، لأن مدينة شنتمرية القديمة ، كانت حسبها ورد في وصفها السابق تقع لصق البحر ، وقد دثرت اليوم ، وإن كانت تدل عليها سلسلة من العقود ، والأطلال الواقعة على مقربة من البحر .

وأهم هذه العقود العقد المسمى « عقد الحراسة » Arco da Vila ، وهو عقد



فارو. عقد الحراسة

كبير مزدوج ، يفصل بين قوسية ، قبو طوله نحو عشرة أمتار ، ويطل على ميدان كومس ، وقد ذكر في لوحة ثبتت في داخله ، أنه شيد فوق موقع أحد أبواب المدينة القديمة . وفوقه بناء صغير يعاوه صليب وأجراس تحته ساعة دفاقة .

ومن هذا العقد بجور إلى ميدان الكتدرائية ، وهناك يوجد عقد آخر عربي الطراز ، وعلى بعد نحو مائة وخمسين متراً منه ، يوجد عقد ثالث منخفض نوعاً ، وكلاهما فيما يرجح ، من أبواب المدينة القديمة .

ويوجد عقد رابع ، عدل قوسه إلى مربع بشكل ظاهر ، وعلى جانبيه بقية كبيرة من أسوار المدينة القديمة .

وتقع هذه العقود كلها على مقربة من الكتدرائية ، في شبه سلسلة متصلة الخطط ، وعلى مقربة من البحر ، مما يدل على أنها كانت جميعاً أبواباً في أسوار المدينة الإسلامية .



فارو . الكنيسة العظمى



فارو . أحد أبواب المدينة الأندلسية



شلب . واجهة الحصن الخارجية

وتقع الكاتدرائية (الكنيسة العظمى) فى شمال المدينة ، فى ميدان يفضى إليه « عقد الحراسة » ، وهى كنيسة صغيرة ، ترجع إلى القرن الخامس عشر ، قوطية الطراز ، ذات واجهة حجرية ساذجة ، تقوم فوق عقد عربى منخفض ، وصحنها الداخلى جميل ، وقد عملت عقودها الوسطى والجانبية على طراز عقود الجامع ، وزينت عقودها الجانبية بزخارف أنيقة مدببة وبالفسيساء الأندلسية .

ويدل موقع الكاتدرائية فى وسط القسم القديم من المدينة ، وهو الذى تحمل دروبه ومنازله ملامح الطراز الأندلسى ، على أنها تحتل موقع الجامع الذى أشار إليه صاحب الروض المعطار فى وصفه المتقدم .

وفى متحف فارو الأركيولوجى ، وهو يقع خارجها فى نهاية شارعها الكبير الظليل Alameda فى كنيسة سان أنتونيو ، ثلاث لوحات عليها نقوش عربية وجدت كلها بمدينة شلب ، أولها وأهمها لوحة رخامية انشائية طولها ٩٦ سنتيمتراً ، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً ، وقد كتب عليها بالخط النسخ عشرة أسطر هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى ال على محمد وآله أمر ببناء هذا البرج الوحيد من . . أمير المؤمنين عبد الواحد . . [ابن] الخليفة أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن الخليفة أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن ابن على تقبل الله حسابه وتجاوز مرُسل ربه أرائكه فى شهر رمضان المعظم عام أربعة وعشرين وستائة » .

والظاهر أن البرج الذى تشير اللوحة إلى إنشائه هو من أبراج حصن شلب ، وأن مؤسسه ، وهو من أمراء الموحدين ، كان والياً لشلب فى هذه الفترة .

وأما اللوحتان الأخريان فهما من شواهد القبور العادية .

كذلك يوجد فى متحف فارو بعض آنية وقطع من الفخار الأندلسى .

وميناء فارو قليل العمق ، وهو لذلك لا يصلح إلا لإيواء السفن الصغيرة ، ومعظمها من سفن الصيد ، والصيد هو أهم صناعات فارو ، وبها حى عظيم للصيادين يقع شمال الميناء .

وتضم فارو من السكان اثنين وعشرين ألفاً .

٢ - شلب

Silves

ان المنطقة التي تمتد من فارو أو شنتمرية الغرب إلى مدينة شلب ، وهي أقصى مناطق ولاية الغرب البرتغالية ، هي منطقة متباينة الطبيعة ، تختلف بين البساتن والتلال ، ولكن تغلب عليها الخضرة ، وتغطيها أشجار الزيتون بكثرة . ويبدو هذا القسم من ولاية الغرب أكثر نضرة وخصباً ، من أى قسم آخر فيه ، وتكثر فيه الحدائق والحقول الياض ، وتبدو فيه آثار العناية الفائقة بخدمة الأرض وتنسيقها ، وحسن استغلالها .

دلفت إلى مدينة شلب في ضحى النهار ، واخترقت أحياءها البسيطة الساحرة ، ومخيلتي تضطرم بذكريات بعيدة . أجل إن شلب هذه هي بلدة الشاعر الكبير أبي بكر بن عمار وزير المعتمد على الله العبادى ، وقد ولد بقرية من أرباضها تسمى « شنبوس » (١) ، ثم كان بعد ذلك حاكمها من قبل المعتمد . وكان المعتمد أيام شبابه ، في عهد والده المعتضد ، حاكماً لشلب (٤٥٥ هـ - ١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه في حكمها يومئذ أمينه أبو بكر بن عمار ، وهو مثله فتي في عنفوانه . وقد تركت حياة المعتمد في شلب ، وما تقلب فيه في ربوعها الجميلة من مجالى اللهو والأنس ، في نفسه ذكريات عميقة ، تصورها لنا تلك الأبيات التي نظمها المعتمد مخاطباً لصديقه ورفيق صباه ابن عمار ، حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

الأحى أوطانى بشلب أبا بكر	وساهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب من فتي	له أبدأ شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم	فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بت أنعم جنحها	مخصبة الأرداف مجدبة الحصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي	فعال الصفايح البيض والأسل السمر

(١) وهي اليوم قرية Estombar البرتغالية .

وليل يسد النهر ليلا قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بانٍ منغم نضيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر
ويصف لنا صاحب القلائد ، قصر الشراحيب هذا وروعته وبهاءه ،
وما كان ينعم به المعتمد فيه أيام شبابه ، من ضروب اللهو والسعادة ، ثم يقول
مشيراً إلى شلب :

« وكان يعتدها مجنى آماله ، ومنتهى أعماله ، يميل إلى بهجة جنباؤها ،
وطيب نفتحاتها وهباتها ، والتفاف خائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها » (١) .
ويفيض صاحب الروض المعطار في ذكر شلب وسقوطها في يد النصارى ،
واسترداد المسلمين لها ، ويصفها بقوله :

« وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات ، وشرب أهلها من واديتها
الحارى إليها من جهة جنوبها ، وعليه أرجاء البلد ، والبحر منها في الغرب على
ثلاثة أميال ، والمدينة ذاتها حسنة البناء مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها
عرب من اليمن وغيرها » (٢) .

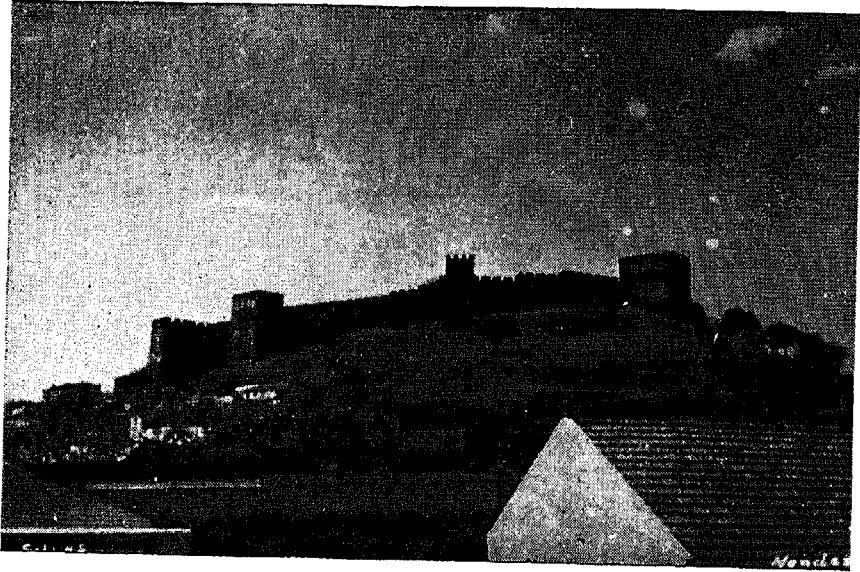
تلك هي شلب الأندلس التي ملأت ذكرياتها ذهني ، حينما جرت إليها أتقصي
ملاحظتها الأندلسية .

وكانت شلب أيام عهدنا الإسلامي قاعدة ولاية الغرب ، وقد قامت بها أيام
الطوائف دولة مستقلة في ظل بنى مزين (١٠٤٨ - ١٠٦٣ م) ثم استولى عليها
بنو عباد ، وأصبحت جزءاً من مملكة إشبيلية . وفي عهد المرابطين قامت بها ولاية
مستقلة ، ثم استولى عليها الموحدون ، وبقيت تحت حكمهم حتى انتزعها النصارى
منهم سنة ١١٨٩ م ، ثم استردها الموحدون في العام التالي ، واستمرت في أيديهم
حتى افتتحها النصارى من يد المنصور آخر ولاتها من الموحدين في سنة ١٢٤٢ م
(٦٤٠ هـ) ، وذلك في الوقت الذي فقد فيه المسلمون جنوبي البرتغال كله .

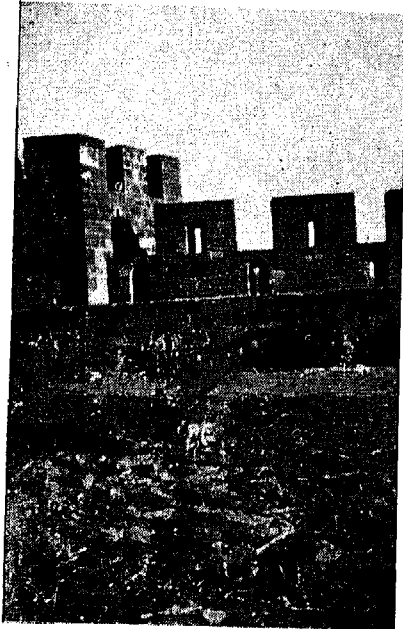
وشلب - وهي تنطق بالبرتغالية « سلقش » Silves - مدينة صغيرة
تقع في أقصى جنوبي البرتغال ، على مقربة من المحيط فوق ربوة متدرجة ، تشرف
على نهر أرااد Arade الذي يصب في المحيط ، قرب ثغر بورتماو الصغير .

(١) قلائد العقيان ص ٣٢ .

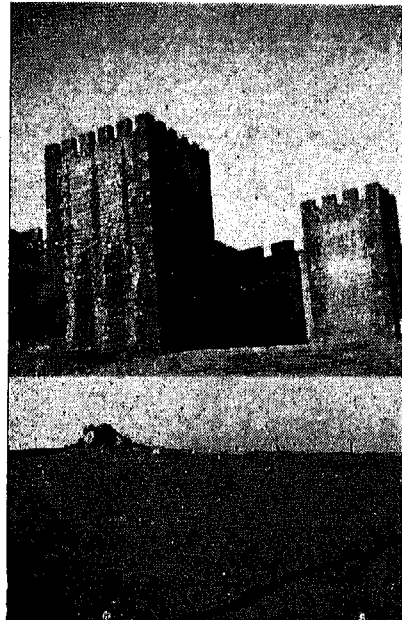
(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٦ .



شلب . منظر عام للحصن الأندلسي



شلب . أحد جوانب الحصن



شلب . بعض أبراج الحصن الداخلية

وتبدأ الربوة صاعدة من الوادى الذى يخترقه النهر ، حتى تستوى مع الحصن ، ودروبها قصيرة ملتوية ، وأحيائها غير منسقة ولكن جميلة مؤثرة ، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم ، ومظاهر العصور الوسطى ، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة ، وتحيط التلال العالية بالمدينة ، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر ، حيث تقوم القنطرة العربية القديمة ، وهى قنطرة حجرية ذات أربعة عقود ، تصل المدينة بالطريق الكبرى . وهنا على جانبي المدينة تمتد البساتن الخضراء والحقول البانعة .

وفى شلب أثر أندلسى هام ، هو حصنها القديم المنيع ، وهو حصن كبير يشغل رقعة شاسعة ، تدور حولها أسواره وأبراجه العديدة ، فى شبه دائرة . وتوجد من أبراجه ستة كاملة وعدة أخرى غير كاملة ، وله مدخل ضخم معقود يفضى إلى ساحة كبيرة سقفها مقبب ، وبرجه الكبير فوق المدخل ذو سقف معقود ، وفى نهايته برج مستوف آخر ، وهو ظاهر المناعة ، يقوم فوق صخرة عالية تشرف على المدينة كلها . والظاهر أنه كان يمتد إلى مسافة كبيرة أخرى ، إذ يوجد على مقربة منه فى طرف المدينة برجان آخران ، وعقد كبير ، وبقية أسوار ، وهى كلها من نفس الطراز ، ومن نفس الحجارة . والظاهر أيضاً أن الحصن (أو القصبية) كان يضم بين أسواره فى نفس الوقت قصر شلب ، الذى كان يقيم فيه الأمير أو الحاكم .

فهل تكون ثمة علاقة بين هذا الأثر ، وبين قصر الشراييب الذى تغنى به ابن عباد فى شعره المتقدم ؟ وهل يكون موقع الحصن متضمناً لموقع القصر المذكور ؟ ربما

ويدل موقع الحصن وأسواره السفلى ، ومظاهره كلها ، على ما كانت تتمتع به مدينة شلب فى العصور الوسطى من المنعة ، وقد كانت فى الواقع من أقوى وأمنع المدن الأندلسية النائية ، ولها أسوار وقلاع عظيمة .

وقد كان هذا الحصن الأندلسى يستعمل فى العصر الحديث سجناً .

وتقع الكنيسة العظمى فى مواجهة الحصن ، على نفس الربوة من ناحية المدينة ، وهى كنيسة صغيرة عتيقة ذات مدخل وعقود قوطية ، وقد كانت من قبل كتدرائية ، وشيدت فوق موقع جامع شلب منذ سقوط المدينة لأول مرة فى يد النصارى فى سنة ١١٨٩ م .



شلب. الكنيسة العظمى

ويوجد في وسط المدينة ظلل قديم ، هو عبارة عن ثلاثة عقود متصلة عالية ، يتلوها في طريق الحصن عقد خفيض ، وتتصل بهذه العقود أجزاء من سور قديم هو فيما يرجح سور المدينة الأندلسية القديمة . والظاهر من تجمع أحياء شلب الحديثة بين النهر وبين أسفل الربوة ، ومن مظاهر دروبها الصخرية الصاعدة نحو الحصن أو القصبية ، أنها تحتل مواقع المدينة الأندلسية دون تغيير كبير .

وشلب مدينة كثيرة الحركة والنشاط بالرغم من صغرها ، وتضم من السكان نحو اثني عشر ألفاً .

٣ - باجة

Beja

تقع باجة في النصف الجنوبي لولاية «ألنتيجو» Alentejo ، جنوب شرقي لشبونة . وتمتاز هذه المنطقة بتباين الطبيعة فيها ، ففي جنوب ولاية «ألنتيجو» مما يتصل منها بولاية الغرب ، تكثر التلال والرقاع الحرداء ، ولكن يلاحظ دائماً أن أثر اليد العاملة هنا ، وفي سائر بقاع البرتغال ، أكثر ظهوراً منها في البقاع الإسبانية المائلة ، سواء في البساتن أو في المرتفعات ، حيث تنمو الأشجار دائماً ، والمحاصيل أحياناً فوق التلال المتدرجة . وفي جنوبي باجة مباشرة تكثر البساتن الخضراء . ويلاحظ أن التربة هنا سوداء ، والأشجار قليلة ، ومعظم الرقاع حقول يانعة تغطيها المحاصيل المختلفة .

وباجة مدينة قديمة جداً ، وقد كانت في العصر الروماني تسمى Pax Julia ، ومن ثم كان الاسم الذي اختاره لها الفاتحون المسلمون . وتعرف الرواية الإسلامية هذه الحقيقة ، وتعرف معنى اسمها الروماني ، فقد ذكر لنا صاحب الروض المعطار في كلامه عن باجة ما يأتي :

«ومدينة باجة أقدم مدن الأندلس بنياناً ، وأولها اختطاطاً ، وإليها انتهى يوليش القيصر ، وهو الذي سماها «باجة» . وتفسير «باجة» في كلام العجم «الصالح» . وحوز باجة وخطتها واسعة ، ولها معقل موصوفة بالمنعة والحصانة» (١).

وقد ذكرت حينما وصلت إلى باجة اسمين شهيرين يتصلان بتاريخها ، ويتسبان إليها ، أولها عاش صاحبه في عصر الفتح الإسلامي ، هو الحبر العلامة إيزيدور «الباجي» ، وهو الذي ترك لنا باللاتينية رواية ضافية عن حوادث الفتح وما تلاه حتى سنة ٧٥٤م ، م وثانيتها العلامة الأندلسي الإمام القاضي أبو الوليد الباجي ، سليمان بن خلف شارح كتاب «الموطأ» ، والمتوفى سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١م).

وقد سقطت باجة في يد النصارى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، في الوقت الذي هاجم فيه البرتغاليون ، بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيذ ، مدينة بطليوس لأول

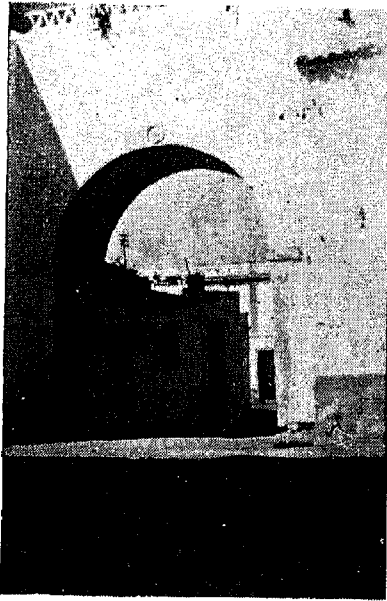
(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٦ .

مرة ، فاستولوا عليها ، ثم استردها المسلمون منهم على الفور ، واحتفظ النصراري بمدينة باجة ، وافتتحوا في نفس الوقت مدن البرتغال الوسطى ، وفي مقدمتها مدينة لشبونة (أشبونة) .

وباجة مدينة كبيرة تبدو غابرة عابسة قوية ، وتقع فوق ربوة صخرية مرتفعة وهي من الداخل حديثة المظهر ، بها شوارع وميادين شاسعة جميلة ، وبها كذلك طائفة من الدروب القديمة الضيقة ، ولكنها أنظف من أمثالها من دروب المدن الإسبانية الأندلسية وأوسع ، وهي قليلة الحركة قليلة المتاجر والمقاهي ، وشوارعها صاعدة ، وناحيتها الشمالية منحدرية نحو الوادي ، ومصعدة نحو داخل المدينة ، وربوة الحصن . وفي باجة من السكان نحو ثلاثين ألفاً

* * *

والحديث عن الآثار الأندلسية في باجة ذو مجال ضيق . والواقع أن باجة



باجة . عقد « يابرة »

لا تضم كثيراً من الآثار القديمة .

هنالك من هذه الآثار عقدان قديمان وبقية أسوار . فأما الأول فهو العقد المسمى الباب الأندلسي Porta Moura ، وهو قوس ضخيم يقع شمال المدينة عند مخرجها نحو الوادي ، يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، وعرضه نحو ستة ، وشمكه نحو مترين ، وهو مبني من الحجارة الصلدة القوية ، وإلى يساره بقية من سور قديم ، ويبدو من اسم هذا العقد ومن طرازه ، أنه من أبواب المدينة الأندلسية القديمة ، وأن

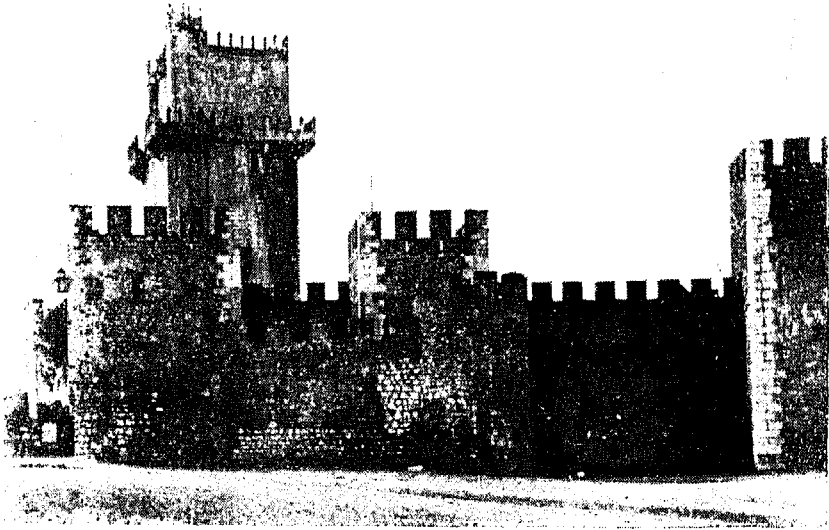
ما يتصل به من الأسوار ، إنما هو بقية من أسوارها .

والثاني هو العقد المسمى « عقد يابرة » Arco da Évora ، وهو عقد صخري قديم ، يقع تجاه برج الحصن الكبير ، الذي نتحدث عنه بعد ، والمرجح في شأنه أنه يرجع إلى أصل روماني .

وقد رأيت في باجة عقدين آخرين أحدهما عقد عريض مزدوج ، يقع على مقربة من دير «كونسيسوا» ، ويبدو من طرازه العرنى ، أنه من أبواب المدينة الأندلسية ، والثاني يقع على مقربة من دار البلدية ويبدو أنه حديث نوعاً ، كما يوجد عقد ثالث في نهاية المدينة من الجنوب ، يبدو كذلك أنه يرجع إلى العصر النصرانى . وأهم صروح باجة الأثرية هو بلالريب حصنها الواقع في طرفها الغربى ، على ربوة عالية تشرف على الوادى المجاور . وهو حصن متوسط الحجم أسس سنة ١٣٠٢ م ، فى عصر الملك دنيس ، على أنقاض حصن رومانى سابق ، وربما أيضاً على أنقاض حصن أندلسى ، سبق تشييده على أنقاض سلفه الرومانى ، ويبدو عليه طابع الحصون النصرانية ، وله برج كبير يرسو على الأرض يبلغ ارتفاعه واحداً وأربعين متراً ، وقد عملت فى وسطه نوافذ معقودة فوق عقد كل منها فراغ فى شكل الصليب ، وقبل نهايته بنحو خمسة أمتار توجد مشرفية تدور حوله ، ومنها ترى المدينة فى أروع مناظرها .

ويقال إن قسم الحصن الواقع فى ناحيته اليمنى ، والمواجه لكنيسة سنتياجو القرية ، يرجع إلى العصر الأندلسى ، وفيه برج كامل يليه برج آخر ، وله فناء ذو مدخل معقود .

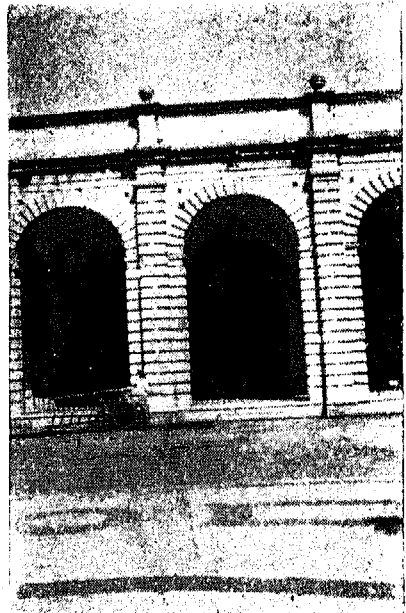
وتبدو باجة من أعلى البرج الكبير ، مدينة ضخمة مستديرة الرقعة ، عالية المباني ، واقعة فوق ربوة قليلة الإرتفاع ، ومن حولها بسائط شاسعة ، تغطيها المحاصيل ، ويرى النخيل ظاهراً فى بعض أماكنها الداخلية ، وتبدو كنيستها القديمة المسماة سانتاماريا فى طرفها الشرقى ، مقابل الحصن الذى يقع بعيداً فى طرفها الغربى . وكنيسة سانتا ماريا هذه هى أقدم كنائس باجة ، وهى كنيستها العظمى ، وهى صغيرة الحجم ، ولكن فخمة ذات عقود قوطية عالية وزخارف جميلة ، وتقع فى منخفض قريب من السوق ، ومن دير «كونسيسوا» الذى نتحدث عنه بعد . وتوجد ثمة عدة كنائس أثرية أخرى ، منها كنيسة سان أندريس وهى صومعة ذات طراز رومانى وأعمدة خارجية ، وتقع فى طرف المدينة بعد الحصن ، وكنيسة سانتياجو ، وهى حديثة وتقع بجوار الحصن ، وكنيسة الرحمة «مسركورديا» ، وهى عبارة عن مربع معقود فى كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود مسجدية الطراز ، وليس لها صحن ولا برج أجراس ، وتقع فى ميدان البلدية .



باجة . منظر عام للحصن



باجة . عقده داخل المدينة



باجة . كنيسة الرحمة ذات العقود العربية

وتوجد في متحف باجة طائفة من التحف الأندلسية . ويقع هذا المتحف في الدير المسمى دير « كونسيسوا » Concepción ، وهو دير قديم له صحن مربع على الطراز القوطي ، وقد زينت جدرانه بالزليخ الموريسكي المجلوب من إشبيلية ، وفي داخله مصلى مستطيل زينت جوانبه بزخارف وتمائيل مذهبة ، ترجع إلى عصر الإحياء .

وقد رأينا بين معروضات هذا المتحف عدة قطع أندلسية ، منها في الطابق الأسفل :

- (١) قطعة حجرية هي جزء من شاهد قبر ، عليه كلمات عربية مبتورة :
- (٢) لوحين آخرين من شه اهد القبور ، أولاهما شاهد قبر امرأة توفيت سنة ٤٤٠ هـ ، وثانيهما شاهد قبر لرجل توفي في سنة ٥٦١ هـ ، وهي لوحة غير كاملة ومكتوبة بأحرف كوفية .
- (٣) بضع قطع من الفخار الأندلسي ، وبضع لوحات من الموزايك الموريسكي .

ورأينا في هو الدير الأعلى أربع لوحات خشبية عليها كتابات عربية ، ثلاثة منها سطرت عليها آيات قرآنية ، والرابعة كتبت عليها بعض أدعية إسلامية . ومجموعة من الآنية الخزفية اللامعة ذات الزخارف البديعة ، وهي ترجع إلى عصر الموريسكيين .

٤ - يابرة

Evora

يابرة هي عاصمة ولاية «ألتيجو» ، وهي مثل باجة ترجع إلى العصر الروماني حيث كانت تسمى Eborac ، وما زالت تقوم بها بعض الآثار الرومانية الهامة . وتقع يابرة ، شمالي باجة ، وجنوب شرقي لشبونة ، على مقربة من مدينة بطليوس ، وبينها وبين باجة منطقة شاسعة من البساتن الخصبية ، تغطيها المحاصيل المختلفة ، وغيابات الزيتون .

وقد كانت يابرة أيام الطوائف ، من أعمال مملكة بطليوس ، التي حكمها بنو الأفطس حيناً ، حتى سقطت دولتهم بسقوط بطليوس في أيدي المرابطين سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وقتل المرابطون آخر ملوكها عمر المتوكل وولديه ، وكانت مأساة مروعة نظم في رثائها الشاعر الكبير ، عبد الحميد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

الدهر يفتح بعد العين بالأثر فبا البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
وابن عبدون هو من أهل يابرة ، وما زال اسمه يقرب باسمها ، في كتب التاريخ والأدب البرتغالية .

وقد سقطت يابرة في يد النصارى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ) ، استولى عليها بطريق المباغثة الفارس جيرالدو سمبافور (الباسل) ، في جماعة كبيرة من المتطوعين النصارى والمستعمرين والمغامرين ، ثم سلمها بعد ذلك للملك ألفونسو هنريكز ، فصارت جزءاً من مملكة البرتغال الناشئة . وحاول الموحدون استعادتها بعد ذلك ، بقيادة السلطان يعقوب المنصور ، فامتنعت عليهم وبقيت في حوزة النصارى .

* * *

ويابرة مدينة كبيرة حمية منسقة الشوارع ، فسيحة الميادين غنية بالمنشآت الأثرية ، من كنائس وقصور وعقود وغيرها ، ويوصل إليها خلال شارع طويل تظله الأشجار ، وتنفرد منه شوارع جانبية ظليلة أيضاً ، وعلى جانبيه عند مدخل المدينة حدائق غناء . وشوارعها على العموم طويلة مشرقة ، والدروب في أحيائها

الشعبية ضيقة ، ولكن نظيفة . وأكبر وأجمل ميادينها ميدان جيرالدو ، وهو اسم فاتحها ، وميدان الكتدرائية . وبها متزه عظيم أسفل القصر الملكي السابق . ومما لفت النظر أنها تضم عدة شوارع ذات جوانب معقودة متصلة . وهذا الطراز من الشوارع يسبغ عليها طابعاً خاصاً ، كذلك يوجد بها كثير من الشوارع الصاعدة ، التي تذكرنا بالدروب الأندلسية القديمة في المدن الإسبانية ، واللون الأبيض غالب على أبنيتها .

وتشغل يابرة رقعة كبيرة من الأرض مستديرة تقريباً ، ومعظمها قائم على بسيط مستو ، إلا بعض أحياء قليلة منها ، مثل الحى الصاعد الذى يتجه نحو الكتدرائية . والحركة في شوارعها هادئة ، منتظمة ، ويبلغ سكانها زهاء خمسة وثلاثين ألفاً .

ويوجد في يابرة طائفة من الآثار الرومانية الهامة ، أولها معبد رومانى يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وهو عبارة عن مربع تقوم فيه ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية الجميلة ، ويسمى « معبد ديانا » وهو اسم حديث نوعاً ، والمعبد في مجموعته بديع المنظر ، ويعتبر من أروع الآثار الرومانية في شبه الجزيرة الإسبانية وأكثرها سلامة وجدة ، وهو يقع فوق بقعة مرتفعة على مقربة من الكتدرائية .

وثانيها القنطرة الرومانية لحلب الماء وسط المدينة ، وقد بقيت منها عقود كثيرة في صنفين ، ولكن معظمها قد أدخل في الأبنية المجاورة ولم يبق مفتوحاً منها سوى ثلاثة عقود ، اثنان منها في إتجاه ، وواحد في إتجاه آخر . وتقع هذه القنطرة قرب دار البريد .

وثالثها العقد الرومانى الواقع بجوار دار البريد من الناحية الأخرى ، وهو المسمى عقد دونيا إيزابيل ، وهو عقد صخرى منيع منخفض ، يبلغ عرضه أربعة أمتار وارتفاعه أربعة ونصف ، وهو مثلث الأقسام ، وفوقه بقية ضئيلة من أسوار قديمة . والمقول إنه من أبواب الأسوار الرومانية القوطية التي كانت تحيط بالمدينة ، والتي أصلحها المسلمون واستخدموها فيما بعد . أما اسمه الحالى وهو عقد « دونيا إيزابيل » ، فيرجع إلى مجاورته لدار كانت لصاحبة هذا الاسم .

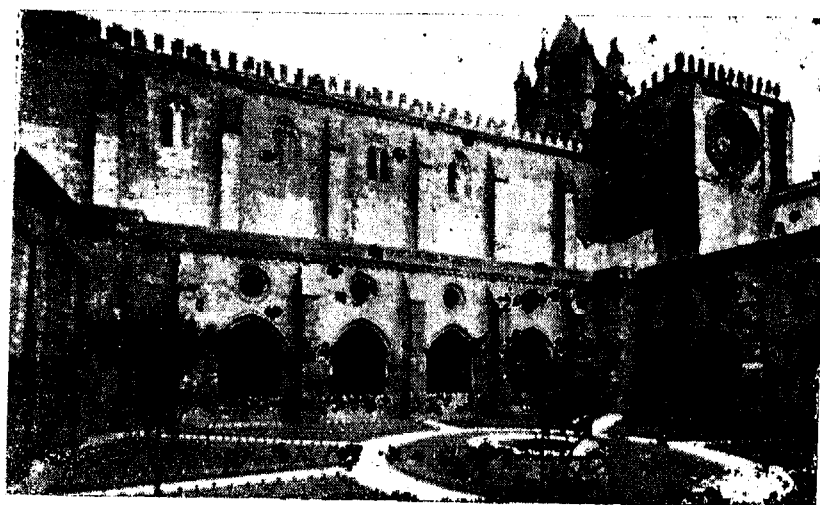
وأما عن أسوار يابرة القديمة ، فإنه يوجد منها جزء صغير داخل المدينة ، على مقربة من مؤخرة الكتدرائية ، وبها عقد . وقد تعذر علينا البت في أمرها نظراً لأنها قد غطيت بالبياض ، ولكننا نرجح أنها من الأسوار التي كانت قائمة في العهد الإسلامى ، سواء أكانت في الأصل رومانية أوقوطية .



يابرة . عقود القنطرة الرومانية



يابرة . واجهة الكنيسة العظمى



يابرة . الصحن الملاصق للكنيسة العظمى ذو العقود والمشارف العربية

وترجع كنيسة يابرة العظمى (الكتدرائية) La Se ، إلى أواخر القرن الثاني عشر . والظاهر أنها أقيمت في البداية على موقع المسجد الجامع عقب افتتاح النصرارى للمدينة ، يدل على ذلك موقعها وسط المدينة ، فوق مرتفع من الأرض ، وفي قلب الأحياء القديمة .

ثم قامت مكانها الكتدرائية الحالية منذ القرن الثالث عشر ، وهى كنيسة عظيمة فخمة ذات عقود قوطية عالية ، كثيرة الزخارف الذهبية ، وقد لفت نظرنا أن رواقها الأعلى الدائر حول عقودها ، قد زين بالشرفات العربية الجميلة ، وكذلك زينت أروقة الحانبين عن يمين الهيكل ويساره بمثل هذه الشرفات ، وهو ما يدل على أن الفن الأندلسى أو بعبارة أصح الفن المدججى ، كان ما يزال قوى التأثير في العمارة النصرانية .

وثانى كنائس يابرة في الأهمية والقدم هى كنيسة سان فرنسيسكو ، وهى ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد بنيت على طراز خاص فأقيمت عقودها في الحانبين على مثل عقود الجامع ، وعملت في جوانب العقود الكبيرة عقود صغيرة ، وصحفا عبارة عن بهو قوطى طويل ، يمتد من الباب حتى الهيكل ، وهى بادية الروعة والفخامة .

وتوجد ثمة عدة كنائس وأديرة أثرية أخرى ، منها دير وكنيسة « لاجراسا » La Graça ، وهو صرح يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، وقد خربت الكنيسة وحول الدير إلى ثكنة عسكرية ، وله صحن أندلسى جميل ذو عقود عربية وأعمدة رشيقة . وكنيسة سان براس ، وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وهى عبارة عن معبد ، يبدو بعقوده وجنباة المستديرة على شكل قلعة ، ويقع خارج يابرة ، في طريقها الكبير الظليل .

وفي يابرة جامعة قديمة يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر ، وهى عبارة عن كلية واحدة للآداب ، ولها فناء جميل ذو جوانب معقودة على الطراز الأندلسى . ومتحف يابرة الإقليمى غنى بالآثار الرومانية من تماثيل ولوحات ونواويس وغيرها ، وبه كذلك طائفة حسنة من آثار عصر الإحياء . وقد رأينا فيه من الآثار الأندلسية ثلاث لوحات من الرخام ، عليها كتابة وزخارف عربية من آيات قرآنية وغيرها ، كما رأينا رأس عمود صغير ذى زخارف عربية .

٥ - أشبونة

Lisboa

إن مدينة أشبونة أو لشبونة (بالبرتغالية لشبوا) عاصمة البرتغال ، هي بلا ريب من أجمل وأحدث العواصم الأوربية .

والتحدث عن العاصمة البرتغالية ، وعن ضواحيها ومظاهرها العمرانية الحديثة ، وعن تنسيق خططها ، وضخامة أحيائها وميادينها ، يقتضى إفاضة لا يتسع لها موضوع هذا الكتاب ، الذى نحاول أن نتقصى فيه الآثار الأندلسية الباقية ، وأن نوثرها بالتعيين والوصف ، ومن ثم فإننا نكتفى بأن نتحدث عن العاصمة البرتغالية الحديثة حديثاً سريعاً عابراً .

وتتمتع لشبونة بموقع طبيعى بديع على مصب نهر التاجه ، فى المحيط الأطلنطى ، وتشغل سلسلة من التلال المتدرجة التى تقع غربى هذا المصب. ومن الغريب المدهش أن هذه العاصمة العصرية الجميلة ، لاتصل إليها الخطوط الحديدية الممتدة من الجنوب والشرق (من اسبانيا) مباشرة ، بل يجب أن تعبر إليها مصب النهر فى سفينة بخارية . وقد آتست مرارة هذه المفاجأة ، حينما وصلت إلى لشبونة فى المساء المتأخر ، قادماً من باجة ويابرة ، وعجبت كيف تقصر البرتغال - هذه البلاد الغنية ذات الإمبراطورية الإستعمارية الضخمة العاتية^(١) - عن أن تقيم لعاصمتها جسراً حديثاً على مصب النهر ، يربطها بالجنوب والشرق .

وتنقسم لشبونة إلى قسمين عظيمين ، لشبونة الشرقية وتسمى « ألفاما » Alfama وهى المدينة القديمة ، ولشبونة الغربية وهى المدينة الحديثة .

ولشبونة مدينة عظيمة حقاً ، وافرة الروعة والبهاء ، ذات شوارع فسيحة وميادين ضخمة ، وأحياء عصرية جميلة ، تغص بالصروح العالية الفخمة من أحدث طراز . وهى تضم عدة من الشوارع المديدة الضخمة ، قلما يجتمع مثلها فى عاصمة أوربية متوسطة ، مثل شارع « الأميرال ريس » و« شارع الجمهورية » و« شارع الهند » و« شارع ٢٤ يولية » وغيرها . بيد أن أشهر شوارعها وأجملها ،

(١) شهدت وأنا بالهند (ديسمبر ١٩٦١) انهيار أول حجر فى صرح إمبراطورية البرتغال الإستعمارية ، وذلك باستيلاء الهند على مستعمرة « جوا » البرتغالية القديمة .

هو بلاريب شارع الحرية Avenida da Liberdade الذى يحترق قسمها الحيوى ، ممتداً من ميدان المركز دى پومبال ، وهو من أعظم وأبدع ميادينها ، حتى ميدان رسيو Rassio ، ويمتاز شارع الحرية بسعته وجمال تنسيقته ، وما يتوسطه من المتزهات الظليلة الجميلة من أوله إلى آخره . وتجتمع أحياء الأعمال والتجارة على جانبي هذا الشارع الفخم ، وحول ميدان رسيو ، والميدان الذى يليه وهو ميدان «رستورادورس» . وتجتمع فى هذه المنطقة أعظم المتاجر والمقاهى والمنتديات ويرى النخيل فى مدينة لشبونة ، فى الميادين والشوارع والمتزهات ، وأحياناً فى المنازل على نمط ما هو حادث فى المدن الإسبانية الجنوبية .

ويبلغ سكان هذه العاصمة الضخمة أكثر من سبعمائة ألف نسمة . تلك هى مدينة لشبونة الحديثة . ومن بعد هذين الميدانين العظيمين رسيو ورستورادورس ، تتجه المدينة شرقاً نحو النهر . ويحترقها فى هذا القسم عدة من الدروب والأحياء التاريخية القديمة . وهذا القسم من لشبونة هو الذى يسمى «ألفاما» حسبما تقدم وهو الذى يهمننا هنا .

* * *

والواقع أن لشبونة مدينة قديمة ترجع إلى العصر الرومانى ، وكانت عندئذ تسمى «أليسيبو» Olisipo . فلما افتتحها المسلمون عقب فتح اسبانيا بقليل ، سحوها «الأشبونة» أو «أشبونة» (١) . وكانت أيام الدولة الإسلامية تابعة لكورة باجة . وحكمها المسلمون زهاء أربعة قرون ونصف . ثم استولى عليها البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز فى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، بعد حصار دام بضعة أشهر ، وكان يعاونه عندئذ فى قتال المسلمين جماعات من المتطوعة الصليبيين من الإنجليز والهولنديين ، الذين كانوا فى طريقهم إلى الشام . وفى سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون بقيادة السلطان يعقوب المنصور استعادتها ، فلم يفلحوا .

ومما هو جدير بالذكر أن أشبونة ، كانت أيام المسلمين ، هى الميناء الذى خرج منه الأخوة المغررون فى مركبهم لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) . وتتلخص قصة هذه المغامرة البحرية الشهيرة ، التى ينفرد الشريف الإدريسي بذكرها فى معجمه الجغرافى ، فى أن ثمانية أخوة أو أبناء عم ، خرجوا

(١) الروض المطار ص ١٦ .

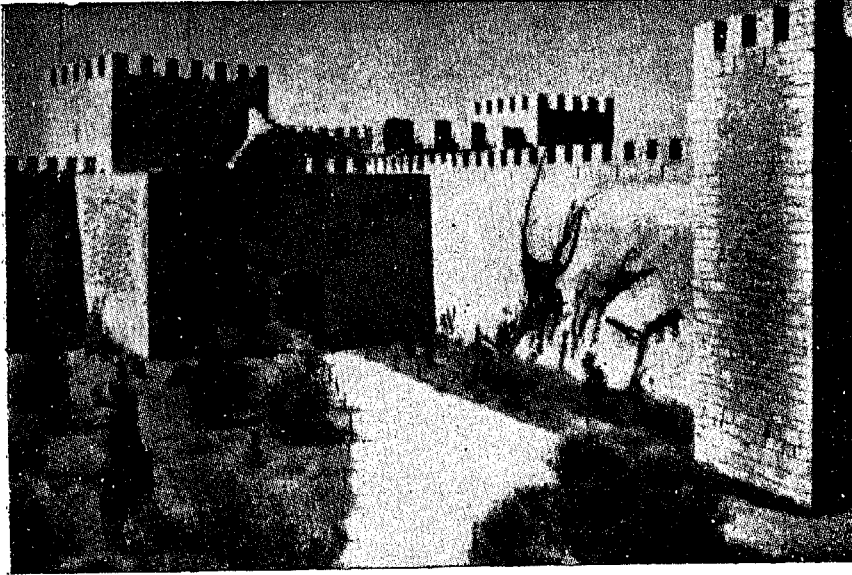
من ثغر أشبونة ، في مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفي لأشهر ، وساروا في « بحر الظلمات » في اتجاه الغرب أحد عشر يوماً ، ثم ساروا جنوباً مدى إثني عشر يوماً أخرى ، في بحر كدر على الأمواج ، حتى وصلوا إلى جزيرة بها أغنام كثيرة ، لا تؤكل لحومها لمرارتها ، فتركوها واستمروا في المسير نحو الجنوب ، مدى إثني عشر يوماً أخرى ، حتى لاحت لهم جزيرة ، رأوا بها رجالاً عمالقة ، ونساء فائقات في الحسن ، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياماً ، حتى جرت الرياح الشرقية ، فوضعهم في سفينة معصوبى الأعين ، وسارت بهم أياماً حتى رست في مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبي . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة ، أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكنارى ، أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربى السنغال ؛ ويمكن كذلك إذا توسعنا في تقدير المدى الذى وصل إليه الأخوة المغرّرون في رحلتهم نحو الجنوب ، وإذا تركنا جانباً ما تدلى به قصة جزيرة العمالقة ، أن نفترض أن الإخوة المغرّرين ، ربما وصلوا في رحلتهم جنوباً حتى مياه أمريكا الجنوبية الشرقية (١) .

ولا يوجد اليوم في لشبونة (أشبونة) ما يذكرنا بماضيها الأندلسى ، سوى بعض أطلال دوارس ، تجتمع فوق الربوة العالية التى تتوسط قسمها الشرقى « ألفاما » ، وبعض عقود قديمة تعين لنا موضع أسوارها الإسلامية . ولن يفوت الباحث المتجول فى هذا القسم من لشبونة ، أن يستشف من خواصه ودروبه الصاعدة ملامح المدينة الأندلسية .

فأما هذه الأطلال الدوارس التى تجتمع فوق الربوة العالية فى « ألفاما » ، فهى أطلال القصبية الأندلسية القديمة ، وهى التى تسمى اليوم بحصن القديس جورج Castelo da St. Jorge ، وهى أطلال مازالت تحمل بالرغم ما توالى عليها من التغيير والتعديل ، ملامح طرازها العربى .

وتشرف هذه الربوة على المدينة القديمة كلها ، وتشرف على مصب نهر التاجه . وتقع أطلال الحصن فى طرفها المشرف على النهر ، وهى عبارة عن مجموعة كبيرة مفرقة من العقود والأبراج والأسوار ، ومدخل الحصن عقد عربى ، وكذلك

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى نزهة المشتاق للشرىف الإدريسى ، المختصر (طبع رومة) ص ١٨٢ - ١٨٥ ، وراجع مقالانى فى ذلك الموضوع نشر فى مجلة الهلال فى عدد يوليه سنة ١٩٣٤ .



أشبونة . أطلال القصبية الأندلسية المسماة حصن القديس جورج

عقد مدخل الفناء الداخلى ، الذى تحيط به أبراج الحصن . ويوجد ثمة بعد هذا الفناء الأول ، فناء آخر يوصل اليه عقد ثالث . وأقدم أجزاء الحصن فيما يبدو ، هو الجزء الواقع على يمين برجه الرئيسى - برج المدخل - وهو الذى يبدو طرازه العربى واضحاً . وقد بقيت صفوف من سارياته الداخلية على حالها القديم ، وأصلح البعض الآخر ، وأضيفت إليه أبراج من صنع متأخر . وفيه صف من الغرف العليا . والسفلية التى تحتها من ناحية واجهة المدخل ، يبدو أنها كانت تستعمل سجناً فى بعض العصور . وتوجد حول الحصن أطلال كثيرة مبعثرة هنا وهناك ، مما يدل على أنه كان يشغل مساحة أكثر من تلك التى يشغلها الآن . وتقع خارج الحصن بقية سور قديم ، يبدو أنه جزء من سور الحصن الخارجى ، وأمامه عقد مجدد ، ولكن الجزء الذى فوقه من السور يدل على قدمه ، كما يدل على أنه كان مدخل الحصن من ناحية المدينة .

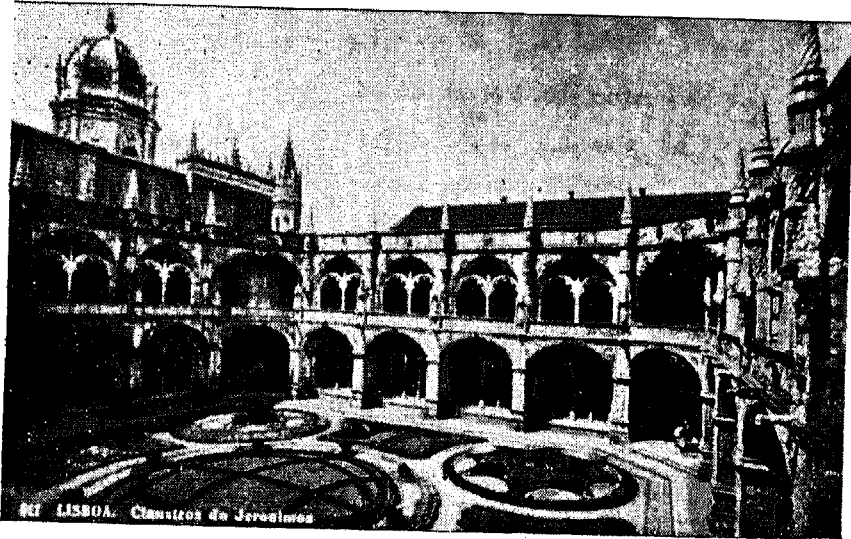
وتقدم مشارف الحصن من على ، منظراً رائعاً لمدينة لشبونة ، مظلة على نهر التاجه ومصبه ذى اللسان الداخلى ، ويعتبر هذا الأثر اليوم أثراً قومياً ، وتحيط به حديقة غناء .



عقد أبواب البحر أحد الأبواب الأندلسية



أشبونة . الكنيسة العظمى



أشبونة . كنيسة سان جير و نمو

وتقع كتدراثة لشبونة أو كنيسة العظمى La Se ، على مقربة من ربوة الحصن وعلى مقربة من النهر . والمعروف بوجه التحقيق أنها تحتل موقع جامع لشبونة القديم . وكان الملك ألفونسو هنريكز ، قد حول الجامع عقب فتح المدينة ، إلى كنيسة كاثوليكية في سنة ١١٥٠ م ، ثم أقيمت الكتدراثة فوق أنقاض الجامع ، ولكن هذه الكتدراثة الأولى هدمتها الزلازل ، فجددت في أواخر القرن الرابع عشر . وهي كنيسة ضخمة قوطية الطراز ذات مدخل فخم ، وقد عملت لأروقها الوسطى القائمة فوق عقودها السفلى ، عقود عربية على مثل عقود كنيسة يابرة ، وفي داخلها قبر القديس فنسنت حامي مدينة لشبونة .

ويربط بين الكتدراثة وبين حصن سان جورج الواقع فوق الربوة ممر سرى ، هو الذى كان يوصل بين الجامع والقصبة الأندلسية .

وموقع الكتدراثة مكان الجامع فى وسط لشبونة الشرقية (ألفاما) ، وهى التى مازالت تحتفظ بدروبها القديمة الصاعدة ، يدل دلالة واضحة على أن خطط المدينة الأندلسية ، كانت تشغل هذه الرقعة من المدينة الحديثة .

ويحدد نهاية المدينة الأندلسية إلى اليوم ، عدة عقود قديمة تقع على مقربة من النهر فى خط متصل ، مما يدل على أنها كانت من أبواب المدينة الإسلامية . وهذه العقود هى :

(١) العقد المسمى « بالعقد المظلم » Arco Escuro وهو يقع فى نهاية المدينة على النهر ، وهو قوس عتيق عمقه نحو أربعة أمتار .

(٢) عقد أبواب البحر Arco das Portas do Mar وهو يقع على مقربة من العقد الأول ، وفى صفه على استقامته ، وهو يضارعه فى الطراز ، ولكنه أعمق منه قليلا .

(٣) عقد يسوع Arco da Jesus ، وهو يبعد عن العقد الثانى بنحو مائتى متر ، وهو أوسع من قرينيه وأعمق منهما ، يبلغ عمقه نحو ثمانية أمتار ، ومن ورائه ربوة عليها دروب ومسالك عتيقة ضيقة .

ويقع الحصن أو القصبة على بعد من هذه العقود فى اتجاه الغرب . ويحتفظ متحف لشبونة الأركيولوجى ، بمجموعة من النقد الإسلامى الأندلسى : ومعالم لشبونة الأثرية الأخرى من دينية وغيرها لاتقع تحت حصر ، وليس

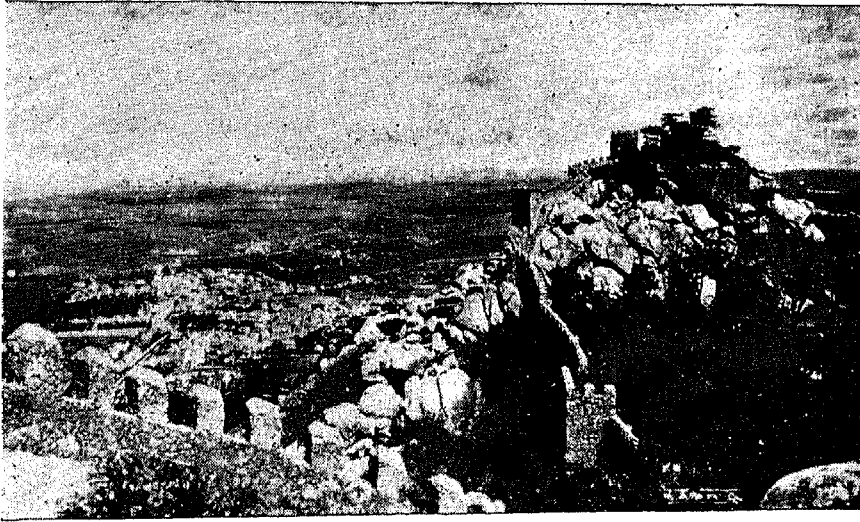
هنا مكان التحدث عنها . ونكتفى بأن نختتم هذه الإمامة الموجزة ، بالإشارة إلى كنيسة « سان چيرونمو » الواقعة خارج المدينة الحديثة ، وهي من أعظم وأروع الكنائس التي شهدناها ، وقد بنيت على الطراز القوطي ، وزينت بأجمل زخارف عصر الإحياء ، ولها واجهة عظيمة من أروع ما ترى العين . وفي داخلها فناء جميل شاسع ذو عقود قوطية ، وهو القسم الذي كان مخصصاً للدير ، وبها مقابر طائفة من عظماء البرتغال ، مثل الرحالة فاسكو داجاما ، والشاعر كموثيس وغيرهما . ونختتم أخيراً بالإشارة إلى متحف الركائب الملكية ، وهو في الواقع فريد في نوعه ، يضم طائفة كبيرة من العربات الملكية المذهبة ، من كل طراز ، ومن كل عصر .

٦ - شنترة

Cintra

هي مدينة صغيرة تقع غربى لشبونة ، على قيد خمسة وعشرين كيلومتر منها ، وتعتبر من ضواحيها .

وتقع شنترة في سفح جبل عال ، في بسطرائع تغطيه الخضرة اليانعة ، والحدائق الغناء ، وتتمتع بموقع طبيعي ساحر . وقد جعلت منها مناظرها الطبيعية الجميلة ، وجوها البديع ، مقصد المتزهين ، والمتجعين للراحة والاستجمام .

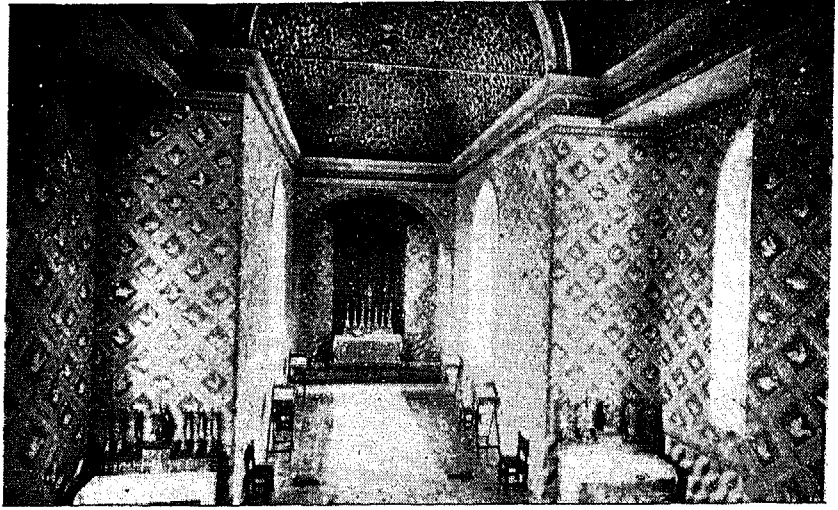


شنترة . منظر عام للحصن الأندلسى في أعلى الربوة

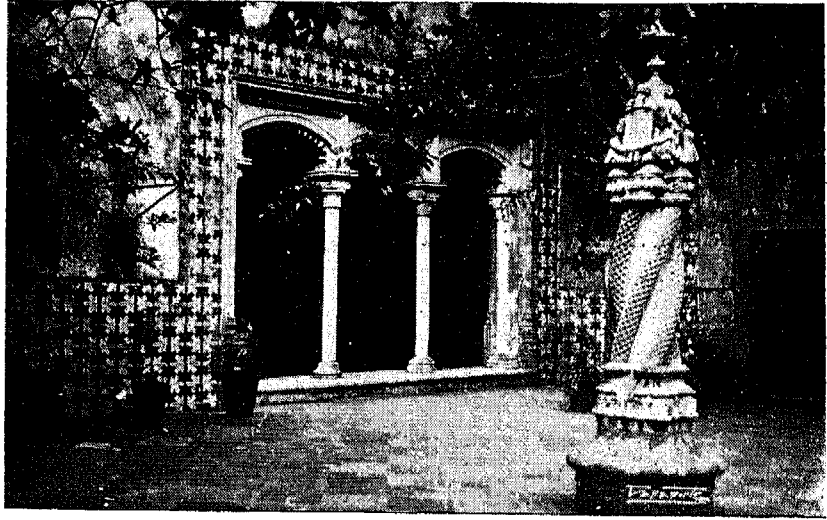
والظاهر أنها كانت تتمتع على كر العصور ، بهذه الخواص الطبيعية الخدابة . فقد جاء في وصفها في الروض المعطار ما يأتى :

« من مدائن الأشبونة بالأندلس على مقربة من البحر ، ويغشاها ضباب دائم لا ينقطع ، وهى صحيحة الهوى تطول أعمار أهلها ، ولها حصنان في غاية المناعة» (١) .

(١) الروض المعطار ص ١١٢ .



شجرة . مصلى قصر الحراسة ، وكان مسجداً قديماً



شجرة . عقود الحمامات بقصر الحراسة

وتغنى بجمالها شعراء العصر الحديث ، وفي مقدمتهم كموثيس شاعر البرتغال الأكبر ، ولورد بيرون وغيرهما

وكانت شنترة في العهد الإسلامي كما هي اليوم ضاحية أشبونة الجميلة ، وقد لبثت في أيدي المسلمين أكثر من أربعة قرون ، ثم سقطت في يد النصارى ، فيما يرجح في نفس الوقت الذي سقطت فيه أشبونة أعنى في سنة ١١٤٧ م (٥٤٢هـ) . وما زالت شنترة تضم بعض المعالم الأندلسية الأثرية ، وأهمها الحصن الأندلسي Castelo de Mouros ، وهو يقع في أعلى الجبل الذي تقع المدينة في سفحه ، ويشرف عليها من ارتفاع شاهق ، على نمط القصبية الأندلسية ، وما زالت أسواره وأبراجه الخارجية في حالة جيدة . ولكنه مهدم من الداخل ، وفيه بقية مسجد خرب . ويقع إلى يمين الحصن فوق الجبل قصر « بينا » ، وهو حديث النشأة ، يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان مقاماً للبرنس فون كوبورج .

ويقع في أسفل الجبل في السفح الذي يطل عليه الحصن ، أجمل صرح أثري في شنترة ، وهو وإن لم يكن أندلسي النشأة ، إلا أنه قد بنى على طراز أندلسي . فائق ، ويطلق على هذا الصرح اسم « قصر الحراسة الوطني » P. Nacional de Vila . ويرجع بناؤه إلى القرن الرابع عشر .

ويضم هذا القصر عدة أبناء وغرف أندلسية الطراز ، منها قاعة الطعام ، وقد زينت جدرانها بالزليخ « القيشاني » الأندلسي الجميل ، وفي وسطها نافورة ، وبها زلعة عربية ، وسقفها مزين بالمقرنصات الخشبية العربية . ومنها هو الاستقبال الكبير ، وقد زين عرشه بمقرنصات عربية ، وله مشرقية جميلة ذات عقود عربية تطل على المدينة .

ويوجد في وسط القصر مصلى كبير مسقف بالخشب المقرنص ، وفي صدره عقد ، وقيل لنا إنه كان مسجداً خاصاً ، فحول إلى مصلى نصراني ، وقد يبدو من هيئته وطرزه ما يوئيد ذلك القول .

وفي فناء القصر توجد نافورة وحمام على الطراز العربي ، ذو ثلاثة عقود رخامية جميلة .

ويبدو قصر شنترة على وجه العموم ، إسلامي الطراز في سائر جنباته ومظاهره ، وهو يدل على ما كان للفن الأندلسي ، من عظيم الوحي والتأثير في تلك العصور .

٧ - شنترين

Santarem

ذكرت ، وأنا أسير وئيداً في الطريق الجبلي الصاعد إلى مدينة شنترين ،
ابنها الكاتب الأندلسي الأشهر ، ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب « الذخيرة » ،
الذى وضع مصنفه التاريخي والأدبي الرائق ، قبل سقوط شنترين في أيدي النصارى
بأعوام قلائل ، وغادرها حسبما يحدثنا في مقدمة « الذخيرة » إلى إشبيلية ،
مضطرب الأحوال ، كسير الفؤاد ، قبل أن تقع الطامة ، وتسقط المدينة في أيدي
القوى المتربصة بها (١) .

وشنترين مدينة قديمة ترجع إلى العهد الروماني ، وهي من مدن ولاية
إسترمادوره البرتغالية ، تقع في شمال شرقي أشبونة على قيد خمسين كيلومتراً منها ،
على الضفة اليسرى لنهر التاجه . وكانت أيام المسلمين نظراً لحصانة موقعها في
منعطف النهر ، من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ،
ولها في ميدان الجهاد تاريخ مؤثر . فقد سقطت في يد النصارى لأول مرة في
سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ،
ولكن المسلمين استردوها ، واستمر سلطانهم بها عصر آخر . ولما اشتد ساعد
مملكة البرتغال الناشئة ، وأخذ ملكها ألفونسو هنريكيز ، يغير على المدن الإسلامية
المجاورة ، كانت شنترين من المدن التي استولى عليها ، وكان سقوطها في يد
النصارى للمرة الثانية سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وفي سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ)
حاول الموحدون استردادها بقيادة الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ففشلت المحاولة
وقتل أبو يعقوب تحت أسوارها ، أو توفى بعد ذلك بأيام قلائل من الجراح التي
أصابته في الموقعة .

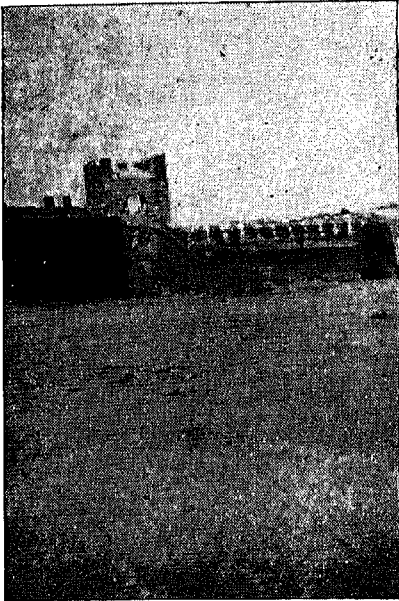
وتحتل شنترين ربوة عالية تطل على بسائط خضراء يانعة ، تغطيها المحاصيل
والحدائق وغابات الزيتون ، وهي مدينة متوسطة الحجم مشرقة الطالع ، بها شوارع
وميادين حسنة ، وشوارعها الجانبية ضيقة ، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو اثنين
وأحياناً ثلاثة ، وهي هادئة الحركة ، جافة الهواء . ويبلغ ارتفاعها فوق سطح

(١) مقدمة الذخيرة (طبعة جامعة القاهرة) ص ٨ .

الوادي نحو ثلاثمائة متر ، ويبلغ سكانها حسبما علمت أربعة عشر ألف نسمة .
ويقع قسم من المدينة على ربوة مقابلة أخرى ، أقل ارتفاعاً من الربوة
الرئيسية ، وتقع بعض أحيائها على السفح المنحدر نحو السهل .

وتبدو شتيرين على وجه العموم ذات طابع خاص ، وترسم على دروبها
الضيقة الرطبة الآخذة من شارعها الرئيسي ، ملامح المدينة الأندلسية بالرغم من
ثوبها النصراني ، وإنه ليخالجك هذا الشعور بنوع خاص ، حين تنحدر إلى أزقتها
الصاعدة الضيقة وتتأمل طراز منازلها القديم ، وأكثر ما يبدو هذا الطابع قوة في
الأحياء الواقعة على الربوة الصغرى .

وما زالت شتيرين تحتفظ ببعض معالمها الأثرية الأندلسية ، فهناك من



أسوارها القديمة ، قطعة كبيرة في حالة
جيدة تتكون من زاويتين ، وتقع في
طرف المدينة الشمالي ، وراء الكنيسة
العظمى ، وعلى مقربة منها توجد
قطعة أخرى ، تحد الآن متنزه المدينة
الواقع خارجها ، ولكن ما بقي منها
لا يتعدى ارتفاعه نحو مترين ولا يتعدى
طوله مائة متر . وتشرف الربوة التي
يحيط بها السور والتي يتوسطها المتنزه
الكبير ، على نهر التاجه قبالتها ، وهو
يجري تحتها وينحني عندها .

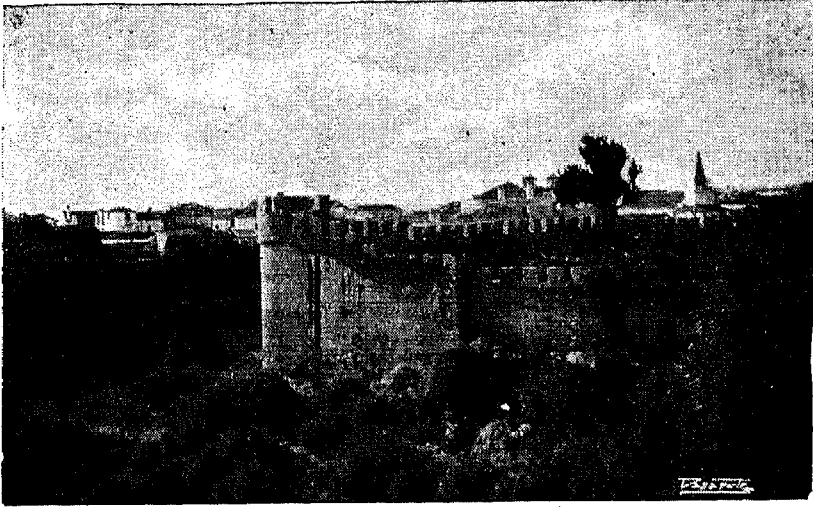
ويوجد تحت السور في نهاية

الحديقة ، عقد عربي يسمى عقد «آتمارما» شتيرين . بقية من الأسوار الأندلسية

Arco d'Atamrma ، ويقال إنه هو الباب الذي دخل منه الملك ألفونسو هنريكينز
المدينة ، عقب سقوطها في يد النصراني .

كذلك توجد قطعة ثالثة من الأسوار القديمة ، في طرف المدينة عند مدخلها ،
وهو مما يحدد موقعها القديم .

أما بالنسبة للكنائس فإن شتيرين تضم عدة كنائس أثرية ، منها الكنيسة العظمى



شترين . أطلال القصبه الأندلسية خارج المدينة ، وهى المسماة اليوم « أبواب الشمس »



شترين . كنيسة الكسوف من الداخل

المسماة كنيسة سان فرنسيسكو ، وهي كنيسة كبيرة ذات عقود عالية قوطية الطراز ، وهي قديمة ترجع إلى القرن الثالث عشر ، وقد جددت كلها ، ولكن إفريز مدخلها قديم جداً ، والظاهر من موقعها في طرف المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية ، أنها بنيت فوق موقع جامع القصبية ، التي كانت تحتل هذه البقعة .

ومنها كنيسة « ألكسوفيا » Alcaçovas وهي أقدم كنائسها ، وقد أنشأها فرسان المعبد (الداوية) منذ عصر الفتح النصراني ، أي في منتصف القرن الثاني عشر ، وتقع في طرف المدينة الشرقي ، وهي ذات عقود عربية .

ومنها أيضاً كنيسة القديس يوحنا Sao Joao ، وهي اليوم متحف ، ويدل برج أجراسها الذي هو منارة مسجد قديم ، على أنها بنيت فوق موقع هذا المسجد .

وكنيسة « بيدادي » Piedade ، وهي صرح صغير ذو عقود عربية .

وثمة أثر آخر يقع خارج المدينة في شمالها الشرقي ، على مقربة من الأسوار القديمة يسمى نافورة فجيراس Figueiras ، وهو عبارة عن بناء يتكون من ثلاثة عقود ، اثنان جانبيين والثالث في الواجهة ، وعليه قبة قوطية ، وتحتها نافورة ماء ، وهو أثر نصراني يرجع إلى القرن الثالث عشر .

خاتمة

١ - تراث الأندلس الفكرى

لابد لنا ونحن نتحدث عن الآثار الأندلسية الباقية ، أن نتحدث عن تراث الأندلس الفكرى الذى أبقت عليه يد الزمن إلى يومنا ، كما أبقت على الصروح والآثار التى وصفناها فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب . ولسنا نغنى بتراث الأندلس الفكرى هنا ، ما حققه مسلمو الأندلس من ضروب التقدم فى ميدان العلوم والآداب والفنون ، فإن الكلام فى ذلك هو من صميم البحث فى نواحي الحضارة الأندلسية ، وإنما نقصد أن نشير إلى مجموعات الكتب ، التى ورثتها اسبانيا عن الأمة الأندلسية ، والتى مازالت إلى اليوم محفوظة بها .

ولا مرأى فى أن أعظم مجموعة من هذا النوع ، هى مجموعة الكتب العربية بمكتبة الإسكوريال . ولهذا المجموعة الفريدة من تراث المكتبات الأندلسية ، قصة مؤثرة أيضاً . فإنه لما سقطت مدينة غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى يد الإسبان فى فاتحة سنة ١٤٩٢ ، م كانت ما تزال غاصة بالمكتبات والمجموعات الخاصة ، من نفاثس التراث الأندلسى ، هذا عدا ما كان محفوظاً فى غيرها من المدن الإسلامية الأخرى ، التى افتتحها الإسبان فى هذا الوقت ، مثل وادى آش ومالقة وألمرية ورنده وغيرها . وفى سنة ١٤٩٩ أعنى بعد سقوط غرناطة بأعوام قلائل ، بدأت السياسة الإسبانية فى تنفيذ خططها المبيتة فى تنصير المسلمين ، والقضاء على مقوماتهم الروحية والفكرية والاجتماعية ، فدعتهم إلى التنصير وتوسلت إلى فرضه عليهم بمختلف الوسائل . ورأى الكردينال خمينيس مطران طليطلة ، وبطل هذه السياسة الموضوع ، أن يقرن هذه المحاولة بمحاولة القضاء على آثار التفكير الأندلسى ، لكى يحرم أبناء الأمة المغلوبة ، من قوتهم الروحى والعقلى ، فأمر بجمع آثار التفكير الأندلسى من أنحاء غرناطة وغيرها ، وجمعت الكتب الأندلسية أكاداساً مكدسة فى ساحات غرناطة ، واحتفل بإحراقها فى حفل من أعمال الإيمان Auto-da-fe ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم ، وهبت الجامعة الكالا « القلعة » دى هنارس . وبلغ ما هلك من الكتب العربية فى تلك الحنة ، أكثر من مائة ألف كتاب ، وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالاً .

ومن الغريب أن هذا العمل الذي يشين أى مجتمع متمدن ، والذي يندد به كثير من أقطاب التفكير الأوربي ، يجد بين العلماء الإسبان المحدثين ، من يؤيده ويشيد به وبتأججه في حماية سياسة التنصير الإسبانية . ويكفي أن نشير إلى رسالة المستشرق سيمونيت في هذا الموضوع ، وإلى ما يبيده فيها من حماسة بالغة ، في الدفاع عن تصرف الكردينال خمينيس (١) .

واستمرت إسبانيا النصرانية في تعقبها للكتب العربية ومطاردتها ، ثم حظر استعمال اللغة العربية على الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وفرضت عليهم اللغة القشتالية في الكتابة والتعامل ، وخذت بذلك آخر جذوات التفكير الأندلسي ،



قصر الاسكوريال

ولم تبق يد التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربية ، جمعت وحملت فيما بعد إلى قصر الإسكوريال ، لتودع فيه في المكتبة الملكية ، لا كآثار عقلية ينتفع به ، ولكن كتحفة وغنيمة من غنائم النصر الإسباني .

ويقع قصر الإسكوريال في الضاحية المسماة باسمه ، وهي تقع على مقربة من مدريد في واد عميق تحف به الجبال . وقد أنشأ الملك فيليب الثاني هذا القصر

(١) F. J. Simonet : El Cardenal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos.

سنة ١٥٥٧ م ، تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كنتان ، وتنويهاً بذكرى القديس لورنسو ، الذي استمد منه العون والنصر في تلك الموقعة . ويعتبر قصر الإسكوريال من أعظم الصروح الملكية في أوروبا ، وهو يضم مقاماً ملكياً ، وكنيسة ، وديراً ، ومكتبة ومعهداً دينياً ، ومدفناً ملكياً ، وهي جميعاً آية في الروعة والفخامة .

والذي يهمننا هنا من هذا الصرح العظيم ، هو مكتبته الشهيرة التي تتوى في أقبيتها ، البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . وهي تقع في جناحه الأيمن ، وإلى جانبها يقع المعهد الدينى الذى يشرف عليه الآباء الأوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون في الوقت نفسه على المكتبة . وتضم المكتبة جهوداً شاسعاً فخماً تعرض فيه طائفة من المخطوطات النفيسة النادرة التي تحتويها المكتبة ، ومنها مصحف ملكى كريم كان ملكاً للمنصور السعدى سلطان المغرب ، وقد زينت صفحانه بنقوش ذهبية رائعة .

ومكتبة الإسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية ، فهي تحوى ستين ألف مجلد فقط ، ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها ، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط . ويبلغ ماتحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفاً وتسعمائة وعشرين مجلداً .

وترجع هذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها ، جبهة الباحثين من سائر أنحاء العالم ، إلى عصر فيليب الثانى ذاته ، وكانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة ، ومما كان يشتره سفراء الملك من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار ، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جمعت بعد سقوط غرناطة ، من غرناطة نفسها ، ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة . ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث ، حينما استولت السفن الإسبانية في مياه المغرب ، فيما بين آسفى وأغادير في سنة ١٦١٢ م ، على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاي زيدان سلطان مراکش ، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون ، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الإسكوريال ، في أوائل القرن السابع عشر ، نحو عشرة آلاف مجلد .

ولبثت هذه الآلاف العشرة ، من المخطوطات الأندلسية والمغربية ، في

قصر الإسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . ففي سنة ١٦٧١ ، شب فى القصر حريق التهم معظم هذا الكنز التريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين ، هى التى تشوى اليوم فى أقبية الإسكوريال .

ومما هو جدير بالذكر ، أن سلاطين المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان محذورهم فى ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهدية ، إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعى لهذا التراث ، خصوصاً وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاي زيدان الشهيرة ، ومن ثم فقد بعث مولاي اسماعيل عاهل المغرب الكبير ، فى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسائى ، سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا وكان من مهمته إلى جانب السعى فى تحرير الأسرى المغاربة الموجودين بإسبانيا ، أن يسعى فى استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير فى تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح فى تحقيق الشطر الثانى . وفى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ، أرسل مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ، ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز فى مهمته بشأن الكتب نجاحاً يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ، ليس من بينها شىء من محتويات الإسكوريال (١) .

وكانت الحكومة الإسبانية خلال هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء هذه الآثار العربية ، عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى ، إلى تفكير اسبانيا النصرانية . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المجموعة النفيسة ، ويؤثرون أن تكتب كتبهم من جانب واحد ، ومن ثم كانت كتبهم فى هذه العصور تفيض

(١) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتاباً عن مهمته ، فكتب الأول محمد بن عبد الوهاب الغسائى كتابه المسمى « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (تطوان سنة ١٩٣٩) ، وكتب الثانى كتابه المسمى « نتيجة الاجتهاد فى المهادة والجهاد » (تطوان ١٩٤١) . وكل يقص فى كتابه ، سيرة رحلته ، وأحوال اسبانيا فى عصره ، وما حقق من نتائج مهمته . وقد سبق أن اقتبسنا فيما تقدم بعض فقرات من هذا الكتاب أو ذاك .

بالتحامل والتعصب ، في كل ما يتعلق باسبانيا المسلمة وتاريخها وحضارتها .
وأخيراً تنهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المجموعة من الناحية العلمية والتاريخية ،
فندبت لمراجعتها والتعريف بها عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ،
هو ميخائيل الغزيري اللبناني ، الذي يعرف في الغرب باسم « كازيري » Casiri .
فكف على دراستها بضعة أعوام ، وانتهى بأن وضع عنها فهرسه الشهير باللاتينية
المسمى « المكتبة العربية الإسبانية في الإسكوريال » Bibliotheca Arabico - Hispana
Escorialensis في جزئين كبيرين ، ظهر أولهما في سنة ١٧٦٠ والثاني في سنة
١٧٧٠ ، ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية ، مقرونة في أحيان
كثيرة بالشرح والتعليق والاقتباس المستفيض . ونحن نقتصر على ذكر أقسام هذه
المجموعة حسبما وردت في فهرس الغزيري على النحو الآتي :

يبدأ الفهرس بذكر كتب اللغة العربية وعلومها ، وهي تشمل من المخطوط
رقم ١ حتى رقم ١٥٩ . ثم يليها الشعر وأبوابه وعلومه ، ويشمل هذا القسم من
رقم ١٦٨ إلى ٤٨٨ . ثم الفلسفة ، وما يتعلق بها ، وتشمل من رقم ٤٨٩ إلى ٧٠٥ .
ثم الأخلاق والسياسة ، وتشمل من رقم ٧٠٦ إلى ٧٨٤ . ثم الطب والتاريخ
الطبيعي وتشمل من رقم ٨٧٥ إلى ٩٠١ ، ثم الرياضة والهندسة والفلك ، وتشمل
من رقم ٩٠٢ إلى ٩٨٥ ، ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن ، وتشمل من رقم ٩٨٦
إلى ١٦١٧ . ثم الآثار النصرانية ، وتشمل من رقم ١٦١٨ إلى ١٦٢٨ ، وهذه هي
محتويات الجزء الأول من الفهرس . ويحتوى الجزء الثاني على كتب الجغرافيا ،
وتشمل من رقم ١٦٢٩ إلى ١٦٣٥ . ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ إلى ١٨٥١ .
وهذا الرقم هو نهاية فهرس الغزيري .

وفي أواخر القرن الماضي قام المستشرق الفرنسي هارتفج ديرنبور ، بجهود
جديد ، لدراسة المجموعة العربية في الإسكوريال ، وبدأ وضع فهرس جديد
بالفرنسية عنوانه « المخطوطات العربية في الإسكوريال » Les Manuscrits Arabes
de l'Escorial ، وقد اتبع فيه تقريباً طريقة الغزيري وترقيمه ، واستطاع أن
يعثر خلال دراسته على نحو مائة مخطوط غربي جديد ، لم يتناولها سلفه ، إذ يصل
في تعدادها إلى الرقم ١٩٥٥ . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى الجزء
الأول ، محتويًا على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة ، وذلك من
رقم ١ حتى رقم ٧٠٨ ، وقسمًا صغيراً من الجزء الثاني محتويًا على كتب الأخلاق والسياسة .

ثم توفي مؤلفه دون إتمامه ، وأصدر من بعد ذلك الأستاذ ليثي بروفنسال جزءاً جديداً ،
يحتوي على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ ، (٥٠ رقم ١٢٥٦ إلى ١٨٥٢) .
على أن فهرس الغزيري ما زال بالرغم من قدمه ، ومما وجه إليه من المآخذ ،
هو المعول عليه ، وهو دائماً مرجع الباحثين (١) .
وقد أتينا نحن خلال رحلتنا الإسبانية المتوالية ، أن نتردد على مكتبة الإسكوريال
مراراً وتكراراً ، وأن ندرس فيها طائفة كبيرة من المخطوطات الأندلسية ،
ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ اسبانيا المسلمة ونظمها .

* * *

هذا وتوجد أيضاً مخطوطات أندلسية قليلة ، في بعض المكتبات الإسبانية
الأخرى مثل مكتبة مدريد الوطنية ، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية ، ومكتبة
دير ساكرومونتى بغرناطة ، وكذلك في بعض المكتبات الخاصة .
ومما هو جدير بالذكر ، أن كثيراً من المخطوطات الأندلسية قد تسرب
عقب سقوط غرناطة ، وحواضر الأندلس الأخرى ، إلى المغرب ، مع من هاجر
إليهم من أبناء الأمة المغلوبة ، وما زال البحث الحديث إلى يومنا ، يظفر من آن لآخر
في مدن المغرب ، وفي بواديه ، بالعثور على بعض الكتب الأندلسية ، التي ظن
أنها دثرت وبادت .

وإلى جانب هذه المجموعة العربية الباقية من آثار التفكير الأندلسي ، توجد
بقية مؤثرة أخرى من تراث الأمة الأندلسية ، يرجع إلى عصر استشهادها ، بعد
أن نصرت ، وغدت طائفة الموريسكيين أو العرب المنتصرين . فقد اضطروا لترك
العرب المنتصرون بعد أن أرغموا على ترك لغتهم العربية ، وألزموا باستعمال اللغة
القشتالية في الكتابة والتعامل ، أن يلجأوا إلى استعمال وسيلة جديدة للكتابة العربية ،
يحافظون بها على تراث دينهم الذي لبثوا يعتنقونه خفية في أعماق سرائرهم ، فكانوا
يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، ويتزججون إليها كثيراً من أحكام الإسلام
والآيات القرآنية ، والحديث والفقہ ، والصلوات والأدعية النبوية . وتسمى هذه
الكتابة « بالألميامادو » Aljamiado أعني « الأعجمية » . ويوجد الكثير من
هذه الكتب الموريسكية ، في مكتبة مدريد الوطنية ، وبعض المكتبات الإسبانية
الأخرى . وقد شهدنا منها الكثير خلال محوئنا في مدريد ، ونقلنا منها نماذج عديدة .

(١) نلصنا معظم ما ورد في هذا الفصل من بحث أتم وأوفى ، يتضمنه الفصل الثاني والعشرون من
كتابتنا « مواقف حساسة في تاريخ الإسلام » (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٩ - ٢٦٨ .

٢ - الآثار المعنوية

حكّم المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية قروناً ، واستطال حكمهم في الجنوب ، حيث قامت مملكة غرناطة ، زهاء ثمانية قرون . وكانت نظم الحكومة الإسلامية ، وتقاليد الحياة الاجتماعية الإسلامية ، وكل ما هنالك من مظاهر الحضارة الأندلسية في التفكير وفي الفنون ، وفي سائر مقومات الحياة العامة والخاصة ، كانت كلها تحدث أثرها في شبه الجزيرة الإسبانية ، في الممالك النصرانية المجاورة ، التي كانت تتصل خلال الحرب والسلم بجاراتها المسلمة أوثق اتصال . وكان النصارى الإسبان ، الذين يعيشون في ظل الحكومات الإسلامية ، وهم المستعربون أو النصارى المعاهدون من جهة ، والمسلمون الذين يعيشون في ظل الحكومات النصرانية وهم المدجنون^(١) من جهة أخرى ، كانت هاتان الطائفتان ، اللتان لعبتا في تاريخ الأندلس أعظم دور ، حلقة الاتصال الوثيق ، في نقل الموثرات الحضارية ، من فريق إلى آخر ، وإن كان من المحقق أن هذه الموثرات ، كانت أعمق وأشد انطباعاً ، في اسبانيا النصرانية منها في اسبانيا المسلمة ، إذ كانت الحضارة الأندلسية يومئذ ، أرقى من نظائرها وأشد تفوقاً وازدهاراً .

ولم ينقطع هذا التأثير القوي للحضارة الإسلامية ، في حضارة اسبانيا النصرانية ، حتى في العصر الذي أخذ فيه نجم الدولة الإسلامية في الأفول ، وتضاءلت رقعة الأندلس المسلمة ، حتى انحصرت في حدود مملكة غرناطة الصغيرة . ذلك أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت بالرغم من تضاول سلاطينها الإقليميين والحربي ، تتمتع بحضارة رفيعة ، وكانت علومها وفنونها ، وأوضاع حياتها الاجتماعية ، مازالت تحدث أثرها في جيرانها النصارى الإسبان ، وكان المهندسون والعرفاء الغرناطيون ، يشتركون مع زملائهم النصارى ، في إنشاء القصور والصروح القشتالية ، وفي تجميلها وزخرفتها ، وأحياناً في زخرفة الكنائس النصرانية ذاتها . ولما سقطت غرناطة ، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس ، لبثت آثار الحضارة الأندلسية المحتضرة عصرًا ، تنسرب إلى اسبانيا النصرانية ، ولبثت

(١) المستعربون هم بالإسبانية Los Mozarabes ، والمدجنون هم Los Mudéjares .

الفنون والصناعات الإسلامية مستقى خصباً لمجتمع السادة الجدد للشعب المغلوب ،
وظهرت آثار الهندسة والزخارف الأندلسية ، في كثير من الصروح والكنائس
الإسبانية ، التي أقيمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان الموريسكيون
أو العرب المنتصرون عندئذ ، يحملون ما تبقى من تراث آبائهم وأجدادهم
المسلمين ، في مختلف الفنون والصناعات ، ويحتفظون بكثير من تفوقهم وبراعتهم
الفنية والزخرفية . وتبدو آثار هذه البراعة ، في زخارف كثير من كنائس القرن
السادس عشر ، وفي زخارف الآنية الخزفية الموريسكية الرائعة ، التي تحتفظ
المتاحف الإسبانية بكثير منها .

ولم يغمط البحث الإسباني المستنير في عصرنا ، الحضارة الأندلسية حقها ،
ولم يحاول أن يغض من أهمية آثارها ، في تكوين حضارة اسبانيا النصرانية . وفيما
يلي بعض ما ورد في بحث قيم ، للعلامة المستشرق الإسباني جونثالث بالثيا ، عن
« آثار الحضارة الأندلسية » :

« إن العمارة المدنية والدينية في بعض نواحيها ، والفنون الرفيعة ، والحياة المرفهة
بين النصراني الإسبان ، كانت تقوم على تراث المسلم الأندلسي ، وكان الزليخ
الأندلسي يزين الأبراج المدجنية في بلاد أراجوان ، وكان عريف مسلم ، هو
الذي أشرف على زخرفة مصليات الدير الملكي في برغش ، الذي أنشأه ألفونسو
الثامن ، وكذلك المصلى الملكي في قرطبة ، الذي أنشأه هنرى الثاني .

« ولقد كان المنزل القشتالي ، يعكس نفس تكوين المنزل الأندلسي ، وحتى
القصور الملكية ، كانت صورة من القصور الأندلسية ، مثل قصر إشبيلية الفخم ،
الذي أمر بإنشائه بيدرو الأول سنة ١٣٦٤ م ، وهو قصر نصف إسلامي ، عمل
فيه عرفاء طليطليون وغرناطيون وإشبيليون .

« ثم إن الفن المدجتي ، قد تسرب إلى كل منشآت شبه الجزيرة ، فكنيسة
« سان خوان التوبة » في طليطلة ، والكنيسة العظمى (La Seo) في سرقسطة ،
وكتدرائية ترويل ، هي أمثلة واضحة من آلاف الأمثلة ، التي يمكن ذكرها .
« والواقع أنه لا مجال للدهشة ، من تكدرس هذه المآثر الحضارية العربية
الأندلسية ، في الحضارة المسيحية لشبه الجزيرة الإسبانية . ذلك أن الحياة المشتركة
مدى قرون عديدة للحضارتين ، كان لا بد لها أن تحدث أثرها . على أن هذا الأثر

لم يقف عند شبه الجزيرة الإسبانية ، بل لقد ترك في أوروبا بأسرها ، آثاراً يمكن
تقصيها» (١).

ولقد تحدثت خلال وجودي في مدريد ، مع صديقي العلامة المؤرخ
الإسباني الأستاذ منديث بيدال Menéndez Pidal ، وهو من أعظم المفكرين
والنقطة المعاصرين ، فيما خلفته الأمة الأندلسية من الآثار الباقية ، في حضارة
إسبانيا النصرانية وفي حياتها وتقاليدها ، وفيما يراه من مظاهر هذه الآثار ، فأدلى
إلى بما يأتي ، وقد سجلته أثناء حديثي معه :

« أجل ، لقد تركت الأمة الأندلسية آثاراً واضحة في الحضارة الإسبانية ،

وفي الحياة الإسبانية العامة ، وفي تقاليد إسبانيا وعاداتها . وإذا تركنا الآثار والصورح
المادية جانباً ، فإن مظاهر هذه الآثار المعنوية كثيرة . ودعك من الآثار اللغوية
فإن هذه معروفة ، وهي ماثلة في كثير من نظمنا ، ويكفي أن نذكر كلمات :
Alférez, Almojarife, Alguacil, Alcaide, Alcalde وغيرها ، للتعبير عن
بعض المناصب العسكرية والقضائية . وفي تقاليد الملوكية الإسبانية ، يبدو أثر
التقاليد الملوكية الأندلسية ، فثلاً يقرن ذكر الملك بعبارة حفظه الله Que Dios
guarda وهو اصطلاح عربي . ويبدو هذا الأثر في كثير من العادات والتقاليد
الإسبانية في التعامل والأسواق ، وفيما ينادى به الباعة على سلعهم ، وهي نداءات
مسجعة ، ترجع إلى أصول أندلسية ، وفي الدعوات الحناثرية ، حيث يقال عن
المتوفى (رحمه الله) ، وفي مظاهر التحية . وفي قصة « السيد » El Cid « أن التحية
تكون بتقبيل الكتف » ، وهي عبارة أندلسية . وهكذا نجد أثر التقاليد والعادات
الأندلسية ماثلاً في كثير من مظاهر الحياة الإسبانية » .

والواقع أننا شهدنا خلال رحلاتنا المتعددة إلى إسبانيا ، وتجولنا في سائر
نواحيها ومدنها الأندلسية والنصرانية ، من أحوال الأمة الإسبانية ، ومن مظاهر
حياتها المادية والأدبية ، ومن تقاليدها وعاداتها ، كثيراً مما يشير إليه هذا العلامة
الكبير في أقواله الموجزة ، وأدركنا بالمشاهدة والملاحظة ، عمق هذه الآثار التي
خلفتها الأمة الأندلسية ، في وريثة أرضها وحضارتها ، الأمة الإسبانية .
وأشد ما تبدو هذه الآثار في جنوبي إسبانيا ، أعنى في منطقة الأندلس

A. Gonzalez Palencia : *Influencia de la Civilización Árabe*. (Madrid 1931) (١)

الحقيقية ، وهى التى تتكون من ولايات ألمرية ، ومالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية . ولقد شعرنا حين التجوال فى هذه المنطقة ، أننا نجوس خلال أمة شرقية ، أكثر منها غربية ، وأن العادات والتقاليد الأوربية المحضة تكاد تختفى ، تحت أكداس من العادات والتقاليد الشرقية . ولا غرو فإن مملكة غرناطة الإسلامية ، لبثت تحت معظم أراضي هذه الرقعة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، ولبت الموريسكون أو العرب المنصرون بعد ذلك ، يعيشون فيها جماعات كبيرة زهاء قرن آخر ، ومن ثم كانت ولايات الأندلس ، آخر مستودع لثراث الحضارة والتقاليد الأندلسية ، وكانت آثار هذه الحضارة والتقاليد ، أرسخ فيها وأبى من أى جزء آخر من اسبانيا . ولقد عشنا أوقافاً فى أنحاء هذا المجتمع الإشباني . الذى يحمل الكثير من مظاهر الأمة الأندلسية الذاتية وتقاليدها ، فماذا رأينا ؟ رأينا أولاً من الناحية العنصرية أن سكان هذه المنطقة ، ملاحظهم شرقية عربية أكثر منها أوربية ، فقدودهم متوسطة ، وعيونهم وشعورهم فى الأغلب سوداء ، وألوانهم مشربة بالسمر . وأشد ما تبدو هذه الملامح الشرقية العربية فى أهل غرناطة وما إليها ، فهناك يشعر الإنسان حقاً بأنه يعيش فى مجتمع يمت بأوثق الصلات العنصرية ، إلى الأمة الأندلسية الذاتية ، فالوجوه عربية سمراء ، واللامح دقيقة ، والشعور فاتحة ، والعيون سوداء ، ونساء غرناطة هن من اللأى وصفهن ابن الخطيب فى عصره أعنى فى القرن الرابع عشر الميلادى . مازلن يبدن نفس أوصافه ، فهو يشير إليهن بقوله :

« وحریمهم حریم جمیل موصوف بالحسن ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور . وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاوره ، إلا أن الطول ينذر فيهن » (١) .

وهذا ما ينطبق حتى اليوم على نساء غرناطة أشد الانطباق .

وهذه الخواص العنصرية الأندلسية ، التى تنطبع أشد الانطباع ، على ملامح سكان اسبانيا الجنوبية ، وولايات الأندلس بنوع خاص ، يجب ألا تدهش أحداً . فإن كثيراً من أولئك الإسبان بالرغم من نصرانيتهم ، تجرى فى عروقهم دماء أسلافهم مسلمى الأندلس . ومن الخطأ أن يقال إن اسبانيا النصرانية ، استطاعت

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة فى سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥

بأساليب القمع الذريع ، الذى فرضته على الأمة الشهيدة ، أن تقضى على السلالة العربية الأندلسية . ذلك أن كثيراً من المدجنين كانوا قبل سقوط الأندلس الهائى ، قد اندمجوا فى المجتمعات الإسبانية التى يعيشون فيها ، وكان الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان أمراً ذاتماً ، ولاسيما فى عصور الانحلال الأخيرة . ولما فرضت اسبانيا التنصير على الأمة الأندلسية المغلوبة ، تسرب كثير من العرب المنتصرين إلى المجتمع الإسبانى الأصيل ، واندمجوا فيه . وكان من هؤلاء العرب المنتصرين بعض الفروع المملوكية ، من سلالة بنى نصر ملوك غرناطة ، إذ تنصر عقب سقوط الجاضرة الإسلامية الأخيرة ، ولدا السلطان أبى الحسن من زوجه النصرانية نصر وسعد ، وأسبغ عليهما لقب الدوقات ، وتنصر بعض الزعماء من القادة والوزراء ممثل بنى الثغرى زعماء نغمارة ، وبنى يحيى النيار بطل بسطة وأمرية الشهير بسيدى يحيى ، وأسرة بنديغش الوزراء . وقد اشتهرت الأسرة الأخيرة بالأخص فى تاريخ اسبانيا فيما بعد ، ونبغ منها عدد من القادة والأخبار ، وعرفت باسم Los Venegas وحذا حذو هؤلاء الزعماء فى التنصير ، كثير من الأعيان والأكابر ، واندمجوا فى عليقة المجتمع القشتالى . ولما قضت اسبانيا بنى الموريسكيين (العرب المنتصرين) نهائياً من أراضيها ، تسربت ألوف وألوف منهم ، إلى داخل الأراضى الإسبانية ، وكان كثير من السادة الإقطاعيين الإسبان ، يخفون عمالهم ومزارعهم من الموريسكيين ويحسونهم من النفى ، ضناً بعونهم وبراعتهم فى فلاحة الأرض . وهكذا استطاعت جماعات كبيرة من الأندلسيين المسلمين والمدجنين ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ومن بعدهم جماعات كبيرة من العرب المنتصرين ، خلال القرن السادس عشر ، أن تندمج اندماجاً تاماً فى المجتمع النصرانى ، وكانت بعض الأسر الإسبانية العريقة تفخر بأرومتها الأندلسية ، ولاسيما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حينما بدأ انحلال اسبانيا^(١) . ولن يدهشك اليوم أن تسمع مثل هذا الاعتزاز بالأرومة الأندلسية من بعض الإسبان ، فى بلاد أندلسية عريقة مثل إشبيلية وغرناطة . وإلى جانب هذه الخواص العنصرية والمادية ، توجد ثمة طائفة من الخواص

(١) يقص علينا الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا سنة ١٦٩١ م فى رحلته ، بعض الأخبار المتعلقة بذلك (راجع «رحلة الوزير فى افتكاك الأسير» السالفة الذكر ص ١٣) .

الأدبية ، التي تبدو في كثير من الصفات الأخلاقية والتقاليد والعادات . فقد ورث الإسبان كثيراً من صفات أسلافهم وتقاليدهم ؛ فهم أهل بشاشة و تواضع وطيبة ، وهم يميلون إلى الدعة ، ويعشقون ألوان المرح ، ويكثرون من الغناء والرقص ، وينسبون كثيراً من ألوان مرحهم وأغانيمهم إلى أصول أندلسية ، وهم يبالغون في التحية والحفاوة ، ويبتدرونك بقولهم «أولا» Oia (أهلاً) على الطريقة الشرقية ، ويتبادل الأقرباء منهم والأخصاء القبلات حتى في الطرقات ، وفيهم أحياناً نزق وسرعة انفعال وغضب ، ولكن تزول لأقل ترضية ، ولهم بعض عادات ذات مسحة شرقية وإسلامية أحياناً ، فهم مثلاً يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد تناوله ، وفي كثير من الفنادق الفخمة ، ترى المغسل قائماً في قاعة الطعام ، وهي عادة شرقية إسلامية محضة .

وتتسرب هذه الآثار المعنوية ، التي ورثها إسبانيا النصرانية عن الأمة الأندلسية ، إلى اللغة الإسبانية بقوة . فاللغة الإسبانية هي اللغة اللاتينية الوحيدة التي توجد بين حروفها (الخاء) J, ge, gi (والثاء) Z, ce ci ، وتمثل في كلماتها بكثرة . وفي اللغة الإسبانية كلمات كثيرة جداً ، ترجع إلى أصول عربية ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة إسبانية تبدأ «بأل» AI هي عربية الأصل ، تبدأ بأداة التعريف العربية . ونحن نكتفي هنا بأن نورد نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة :

Alguacil	الوزير (والآن المحضر)
Alcaide	الحاكم . القائد (محافظ السجن)
Alcalde	القاضي . العمدة (رئيس البلدية)
Almojarife	المشرف
Alférez	الفارس حامل العلم (والآن ملازم ثان)
Alamin	الأمين (المختسب)
Ala:ife	العريف

Almogávares	المغاورون (١)
	ومنها في أسماء الأزهار:
Azucenas	السوسن
Jazmines	الياسمين
Arrayán	الريحان
Azahar	الزهر
	ومنها في أسماء المحاصيل:
Albaricoque	البرقوق (المشمش)
Alcachofa	الخرشوف
Alcanfor	الكافور
Alfóncigo	الفستق
Aceituna	الزيتون
Aceite	الزيت
Arroz	الأرز
Azucar	السكر
	ومنها في شئون الري:
Albufera	البحيرة
Albuhera	
Alcántra	القنطرة
Zafareche	الضهرية
Azuda	السد
Acequia	المسقى
Aceña	السانية (الساقية)
Alberca	البركة
Aljibe	الحب
	ومنها في الحرف:
Albañil	البناء

(١) وهم الجنود القديون أو المجاهدون .

Albeitar	البيطار
Alfájeme	الحجام
Alfarero	الفتحار
ومنها كلمات أخرى متنوعة :	
Alqueria	القرية
Arrabal	الربض أو الضاحية
Aldea	الضبيعة
Almacén	المخزن
Alacena	الخزانة
Funda - Alhóndiga	الفندق
Alcázar	القصر
Alcaiceria	القيصرية
Mezquita	المسجد
Alcazba	القنطرة أو القلعة
Aldaba	الضبية
Candil	القنديل
Axarfe	الشرفة
Aljama	الجماعة
Zambra	الزمر
Axarabe	الشراب
Almizcle	المسك
Aljofar	الجوهر
Alcahaz	القفص
Aljez	الحص
Aljuba	الحبة
Almohada	المخدة
Albacea	الوصية
Alafia	العافية

هذه نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة .
واللغة الإسبانية مليئة بعدد لا حصر له من هذه الكلمات ، وقد ألفت في ذلك
معاجم خاصة ، لتبيان الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية (١) .
والخلاصة أن الأمة الإسبانية ، تمت إلى الأمة الأندلسية الذاهبة ، بكثير من
الظواهر العنصرية والحضارية والاجتماعية ، وتمثل هذه الظواهر بنوع خاص في أهل
الولايات الجنوبية ، الذين كان اتصالهم بالمسلمين أشد وأطول مدى . وقد استطاعت
السياسة الإسبانية في عصور التزمت والتحامل ، بوسائلها العنيفة المغرقة ، ومن
ورائها الكنيسة تضطرم بغضاً للأمة الشهيدة ودينها وحضارتها ، أن تسحق تراثها
المادى ، وأن تقضى على معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولكنها لم تستطع ،
وما كان لها أن تستطيع ، أن تقضى على تراثها المعنوى والحضارى ، فهذا التراث
ما يزال إلى يومنا متغلغلا في روحها وطبائعها ، وفي كثير من مناحى حياتها العامة
والخاصة ، سنة الأجيال وقانون الطبيعة الخالد .

(١) منها معجم من تأليف العلامة Dozy عنوانه : Glossaire des Mots Espagnol et Portugais dérivés de l'Arabe ، وآخر من تأليف المستشرق الإسباني L.de Eguilaz y Yanguaz عنوانه Glossario de las Palabras Espanolas de Origen Oriental

جدول تاريخي

يبين تواريخ سقوط القواعد والمدن الأندلسية
في أيدي الإسبان والبرتغاليين

- أبدة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م .
- أبلة : سقطت نحو سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٣ م .
- أرشدونة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م .
- أركش : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م .
- إستجة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧ م .
- أسترقه : سقطت في سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م .
- أشبونة : استولى عليها البرتغاليون في سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .
- إشبيلية : استولى عليها فرناندو الثالث سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م .
- الجزيرة الخضراء : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤٢ م .
- الحامة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م .
- ألش : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م .
- ألرية : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م .
- أوريولة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م .
- باجة : سقطت في أيدي البرتغاليين سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م .
- بسطة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م .
- بطلوس : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٧ م .
- بلد الوليد : سقطت في أوائل القرن العاشر الميلادي .
- بلش مالقة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م .
- بلنسية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م .
- بياسة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٢٥ هـ - ١٢٢٧ م .
- تظيلة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م .
- جبل طارق : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م .

- جيان : استولى عليها القشتاليون سنة ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م .
دانية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م .
رندة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م .
روطة : استولى عليها ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة سنة ٥٣٤ هـ - ١١٣٩ م .
سرقسطة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م .
سمورة : سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م .
شاطبة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م .
شريش الفرنتيره : سقطت في يد ألفونسو العالم سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م .
شقوية : سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م .
شلب : سقطت في أيدي البرتغاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م .
شلمنقة : سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م .
شلوبانية : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م .
شنتره : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .
شنترين : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .
شتمرية الغرب : استولى عليها البرتغاليون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م .
شنت منكش : سقطت في منتصف القرن العاشر الميلادي .
طرطوشة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م .
طرطونة : سقطت في أيدي القطلان سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٨٠ م .
طريف : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩٢ م .
طليطلة : استولى عليها ألفونسو السادس سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م .
غرناطة : سلمت للملكين في ربيع الأول ٨٩٧ هـ - يناير ١٤٩٢ م .
قادس : استولى عليها ألفونسو العالم سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م .
قرطبة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م .
قرطاجنة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م .
قرمونة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م .
قسطلونة : سقطت في أوائل القرن الثالث عشر .
قلعة جابر : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م .

- قلمرية : استولى عليها فرناندو الأول سنة ٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م .
- لاردة : استولى عليها القطلان سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م .
- لبلة : استولى عليها ألفونسو العالم سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م .
- لقنت : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م .
- لُك : سقطت في سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م .
- لورقة : سقطت في أيدي الأرجونيين نحو سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٨ م .
- لوشة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م .
- ماردة : استولى عليها القشتاليون سنة ٦٢٨ هـ - ١٢٢٩ م .
- مالقة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م .
- متريل : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م .
- مجريط : سقطت في يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٣ م .
- مريلة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م .
- مريبطر : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م .
- مرسية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م .
- مكلين ، حصن : سقط في أيدي القشتاليين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م .
- المنكب : سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨١ م .
- ميورقة (والجزائر الشرقية) : افتتحها الأرجونيون سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م .
- وادي آش : سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م .
- وادي الحجارة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م .
- وشقة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م .
- ولبة : سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م .
- يابرة : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٥ م .

فهرست الموضوعات

ص	ص
١٠٨ آثار أخرى	٩ مقدمة
١١٣ ٢ - تطيلة	خطاب إلى المؤلف من الأستاذ
١١٤ ٣ - لاردة	١٤ بيدال
١١٧ ٤ - طرّ كونة	١٦ تصدير للطبعة الثانية
١٢٠ ٥ - طرطوشة	الكتاب الأول
١٢٤ ٦ - ميورقة	القواعد الأندلسية الكبرى
١٢٧ المعالم الأثرية	١٨ ١ - قرطبة
١٣٣ وثيقة عربية بتقسيم ميورقة	٣٥ ٢ - أطلال الزهراء
١٣٦ مدينة سولير	٤٥ ٣ - إشبيلية
١٣٧ ٧ - قسطلونة	لاخير الدا ٥١
١٣٩ ٨ - شاطبة	قصر إشبيلية ٥٧
١٤٠ الحصن والأسوار	دار پلاتوس ٦٤
١٤٥ ٩ - دانية	بعض النقوش العربية الأخرى
١٤٨ ١٠ - لقت	الأسوار الموحدية ٦٧
١٥١ مدينة ألس	قلعة جابر ٦٩
١٥٢ ١١ - أوريولة	٤ - قرمونة ٧٠
١٥٥ ١٢ - قرطاجنة	الآثار الأندلسية ٧٣
الكتاب الثالث	٥ - إستجة ٧٦
مملكة غرناطة وما إليها	٦ - طليطلة ٨٠
١ - غرناطة ١٦٠	الكنيسة العظمى ٨٣
معالمها وآثارها الأندلسية الباقية	علماء السلطان أبي الحسن المريني
١٦٧ ١٦٧ حتى البيازين	الآثار الأندلسية ٨٨
١٧٠ ميدان باب الرملة	القصور وروح أخرى ٩٥
١٧٠ القيسرية	٧ - بلنسية ٩٣
الكنيسة العظمى ١٧١	٨ - مرسية ٩٩
المدرسة والخان والمنازل الأندلسية	الكتاب الثاني
١٧٢ آثار	الثغر الأعلى وشرق الأندلس
٢٩ - آثار	١ - سرقسطة ١٠٤
	قصر الجعفرية ١٠٥

ص	
٢٥٤	١٠ — بلش مالقة
٢٥٦	١١ — مربلة
٢٥٧	سهيل
٢٥٨	١٢ — المنكب
٢٦٢	١٣ — شلوبانية
٢٦٤	١٤ — مبريل
٢٦٥	١٥ — ألمرية
٢٦٦	القصة
٢٧١	١٦ — رندة
٢٧٢	المعالم والآثار الأندلسية
٢٧٣	القطرة العربية
٢٧٤	الحمامات العربية
٢٧٤	المنارة
٢٧٤	قصر الأمير أبي مالك
٢٧٦	منزل الملك العربي
٢٧٨	١٧ — مدينة طريف
٢٧٩	الحصن
٢٨٢	١٨ — الجزيرة الخضراء
٢٨٤	١٩ — جبل طارق
٢٩١	الآثار الأندلسية
٢٩٤	معالم أخرى
٢٩٧	٢٠ — شريش القرننيرة
٢٩٨	المعالم الأثرية
٣٠٢	٢١ — قادس
	الكتاب الرابع
	نافار وقشتالة القديمة
٣٠٦	تمهيد
٣٠٧	١ — ببلونة
٣٠٨	تحفة أندلسية

ص	
١٧٤	الأبواب والأسوار
١٧٥	قصر شليل
١٧٨	متاحف الآثار والصور
١٨٢	وصف الغزال لغرناطة
١٨٤	قصر الحمراء
١٩٣	فناء الريجان
١٩٦	بهو السفراء
١٩٨	قاعة الأختين
١٩٩	فناء الأسود
٢٣٠	قاعة نبي سراج
٢٠٣	قاعة الملوك
٢٠٤	منظرة اللندراخا
٢٠٥	متزين الملكة
٢٠٦	الزاوية والروضة
٢٠٨	المسجد والكنيسة
٢٠٨	نقوش الأبراج
٢٠٩	قصر الإمبراطور شارلكان
٢١١	قصر جنة العريف
٢١٥	٢ — وادي آش
٢١٨	٣ — مكلين
٢٢١	٤ — جيان
٢٢٢	المعالم الأثرية
٢٢٨	٥ — بياسة وأبيدة
٢٣٢	٦ — لورقة وبسطة
٢٣٥	٧ — لوشة
٢٣٨	٨ — أرشدونة
٢٤٢	٩ — مالقة
٢٤٣	القصة
٢٤٦	حصن جبل فاره
٢٤٨	سوق مالقة
٢٥٠	الكنيسة العظمى

ص		ص	
٢٧٣	القصبه الأندلسية	٣١٠	٢ - برغش
٢٧٦	في متحف بطليوس	٣١٢	الدير الملكي
٢٧٨	معالم أثرية أخرى	٣١٦	في متحف برجوس
٣٨٠	٢ - ماردة	٣١٨	٣ - بلد الوليد
٣٨٠	المعالم الأثرية	٣١٩	حصن شنت منكش
٣٨٤	نقوش أندلسية	٣٢٢	٤ - شقوبية
٣٨٧	٣ - ولبة	٣٢٦	٥ - آبله
	الآثار الأندلسية في البرتغال	٣٢٨	٦ - وادي الحجارة
٣٩٥	تمهيد	٣٣١	٧ - ملريد
٣٩٧	١ - فارو أو شنتمرية الغرب	٣٣٥	متحف بلنسية دي دون خوان
٤٠١	٢ - شلب	٣٣٨	المتحف الوطني
٤٠٦	٣ - باجة	٣٤٠	متحف لازارو
٤١١	٤ - يابرة	٣٤٠	المكتبة الوطنية
٤١٥	٥ - أشبونة		الكتاب الخامس
٤٢٢	٦ - شنرة		ليون وجليقية والأسترياس
٤٢٥	٧ - شنترين	٣٤٢	١ - شنت ياقب
	جامعة	٣٤٩	٢ - ليون
٤٣٠	١ - تراث الأندلس الفكرى	٣٥٢	٣ - سمورة
٤٣٦	٢ - الآثار المعنوية	٣٥٧	٤ - شلمنقة
	جدول تاريخى يبين ستموط	٣٦١	٥ - أوفيدو
٤٤٥	القواعد الأندلسية	٣٦٦	٦ - كوفادنجا
			الكتاب السادس
			الأندلس الغربية والبرتغال
		٣٧٢	١ - بطليوس

فهرست الصور والخرائط

ص	ص
٧٢ مدخل مدينة قرمونة	٣ ... أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
٧٢ باب إشبيلية بقرمونة	٤ منظر عام لمدينة الحمراء
٧٥ باب قرطبة بقرمونة	٥ نافورة فناء الأسود
٧٥ أطلال القصر القديم بقرمونة	٦ جامع قرطبة . جناح عبد الرحمن الداخل
٧٧ منظر جزئي للمدينة إستيجة	٧ منارة المنصور أو الخير الدا
٧٧ كنيسة إستيجة العظمى	٨ عقد من عقود قصر الجعفرية
٧٧ عقد عربي بكنيسة إستيجة	٢٣ محن الجامع بقرطبة
٨٠ باب الشمس بطليطلة	٢٣ عقود محراب الجامع
٨١ منظر جزئي لطليطلة	٢٥ باب القديسة كاتالينا
٨١ القنطرة العربية بطليطلة	٢٧ جامع قرطبة . جناح الحاجب المنصور
٨٤ كنيسة طليطلة العظمى	٣٢ جامع قرطبة . الناحية الجنوبية
٨٧ شارع بطليطلة	٣٢ القنطرة العربية بقرطبة
٨٩ جامع كريستودى لوث	٣٣ باب المدور
٩١ « القصر » بطليطلة	٣٧ زخارف من بقايا الزهراء
٩١ الأسوار الأندلسية بطليطلة	٤١ بعض عقود وزخارف المجلس المونس
٩٤ كنيسة بلنسية العظمى	٤٣ بعض أطلال مدينة الزهراء
٩٧ قلعة الجلبابين ببلنسية	٤٣ وعل الزهراء
٩٧ باب معقود بمرينيطر	٥٠ كنيسة إشبيلية العظمى
١٠٠ شارع معقود بمرسية	٥٠ باب الغفران من الداخل
١٠١ كنيسة مرسية العظمى	٥٢ تفاصيل من زخارف لآخر الدا
١٠١ القنطرة الحجرية على نهر شقورة	٥٣ لآخر الدا أو منارة المنصور
١٠٦ واجهة قصر الجعفرية القديم بسرقسطة	٥٥ منارة جامع الكتبية بمرآكش
١٠٧ قصر الجعفرية كما هو الآن	٥٩ بهو السفراء بقصر إشبيلية
١٠٧ كنيسة العمود	٥٩ جناح الملوك الأندلسيين
١٠٩ عقد من عقود قصر الجعفرية القديم	٦١ مدخل فناء العذارى
١١٠ كنيسة سرقسطة العظمى	٦١ فناء العذارى بقصر إشبيلية
١١١ عقد العميد بسرقسطة	٦٥ فناء دار بلاطوس
١١٥ أطلال قصبة لاردة	٦٥ فناء دار أندلسية بإشبيلية
١١٦ أحد عقود القصبة	٦٧ برج الذهب
١١٩ كنيسة طركونة العظمى	٦٨ الأسوار الموحدية بإشبيلية
١١٩ الأسوار الرومانية بطركونة	٦٩ أطلال قلعة جابر

ص		ص	
١٩٥	ساحة البركة	١٢١	كنيسة طرطوشة العظمى
١٩٥	قاعة الأختين	١٢٣	أطلال قصبة طرطوشة
٢٠٠	جانب من عقود فناء الأسود	١٢٣	فناء الدير ذو العقود العربية
٢٠١	قبة فناء الأسود الوسطى	١٢٥	منظر عام للمدينة ميورقة
٢٠٦	منظرة الملكة	١٢٨	قصر المدينة
٢٠٧	كنيسة سانتا ماري (الحمراء)	١٢٩	كنيسة ميورقة العظمى
٢١٣	واجهة قصر جنة العريف	١٢٩	فناء الملكة بقصر المدينة
٢١٣	البهو الداخلى لجنحة العريف	١٣٠	عقد باب المدينة
٢١٤	عقود البهو الداخلى لجنحة العريف	١٣١	فناء دير سان فرانسيسكو
٢١٧	بعض أبراج قصبة وأدى آش	١٣١	حصن بلشير
٢١٧	أطلال أندلسية بوادى آش	١٣٥	صفحة من مخطوط تقسيم ميورقة
٢١٧	كنيسة وادى آش	١٤١	جبل شاطبة الذى فوقه الحصن
٢١٩	أطلال حصن مككين	١٤١	أحد أبراج الحصن
٢١٩	أحد أبراج حصن مككين	١٤٢	أطلال حصن شاطبة
٢١٩	الكنيسة فوق مشارف الحصن	١٤٤	زخارف عقد عربى بشاطبة
٢٢٣	أطلال قصبة جيان	١٤٦	قصبة دائية
٢٢٣	البرج الأعظم بالقصبة	١٤٨	أطلال قصبة لقنت
٢٢٣	الحمامات العربية بجيان	١٥٠	كنيسة سانتا ماريا بلقنت
٢٢٥	المصلى العربى بقصبة جيان	١٥٣	أطلال قصبة أوريو له
٢٢٥	جانب من أبراج القصبة	١٥٤	دير سان دومنغو ذو العقود العربية
٢٢٥	كنيسة جيان العظمى	١٥٦	حصن الأندلسيين بقرطاجنة
٢٢٦	كنيسة سانتا مجدلينا بجيان	١٥٧	ميناء قرطاجنة
٢٢٩	أطلال القصبة الأندلسية بأبدة	١٥٧	حصن لا كنسيسيون
٢٢٩	باب غرناطة بأسوار أبدة	١٦٨	باب فحص اللوز بقرطاجنة
٢٣١	كنيسة أبدة العظمى	١٦٩	بقية عقود جامع البيازين
٢٣١	باب روسال بأبدة	١٧٣	كنيسة غرناطة العظمى
٢٣٦	أطلال قصبة لوشة	١٧٣	المصلى الملكى
٢٣٩	منظر عام لمدينة أرشدونة	١٧٣	ضريح فرديناند وإيسابيلا
٢٣٩	أطلال قصبة أرشدونة	١٧٥	باب إليرة
٢٤١	عقود المعبد بقصبة أرشدونة	١٧٧	واجهة قصر شنيل
٢٤١	هيكل المعبد بقصبة أرشدونة	١٧٧	عقود قصر شنيل
٢٤٣	واجهة قصبة مالقة	١٧٧	فناء منزل أندلسى
٢٤٥	واجهة المباني الداخلية لقصبة مالقة	١٧٧	عقد مدخل الفندق
٢٤٥	جبل فاره	١٨١	زلعة خزفية بمتحف الحمراء
٢٤٥	أطلال حصن جبل فاره	١٨٥	باب الرمان مدخل الحمراء
٢٤٧	باب قوس المسيح	١٨٥	ميدان باب الشريعة
٢٤٧	باب السوق الأندلسى	١٨٧	باب الشريعة
٢٤٧	العقود الغرناطية لقصبة مالقة	١٨٧	باب الشراب
٢٤٩	البورتكول فناء القصبة	١٨٧	برج الحرايسة

ص		ص	
٣٢٣	عقد سان أندريس	٢٥١	كنيسة مالقة العظمى
٣٢٥	قصر شقوبية	٢٥٣	بقايا الحصن بألورة
٣٢٧	أسوار آيلة	٢٥٣	حصن قرطمة
٣٢٩	القنطرة العربية بوادى الحجارة	٢٥٣	كنيسة سانتا ماريا (بلش مالقة)
٣٢٩	برج العلمين بوادى الحجارة	٢٥٩	منظر عام لثغر المنكب
٣٣٧	صورة لإقرار أبي عبد الله وخاتمه	٢٥٩	أطلال حصن المنكب
٣٣٧	رخارف قطعة من البسط الأندلسي	٢٦٣	منظر عام لشلوبانية وحصنها
٣٣٧	قنديل من مسجد الحمراء	٢٦٣	كنيسة شلوبانية العظمى
٣٤٣	شارع معقود بشتت ياقب	٢٦٧	حدائق قصبة ألمرية
٣٤٥	كنيسة شنت ياقب العظمى	٢٦٧	منظر عام لقصبة ألمرية والميناء
٣٤٦	قبر القديس ياقب	٢٦٩	قصبة ألمرية وأبراجها
٣٥٠	كنيسة ليون العظمى	٢٧٠	كنيسة ألمرية العظمى
٣٥٣	حصن سمورة	٢٧٣	القنطرة العربية برندة
٣٥٣	كنيسة سمورة العظمى	٢٧٥	حمامات رندة
٣٥٥	صندوقان عربيان بكنيسة سمورة	٢٧٥	المنارة العربية برندة
٣٥٩	جامعة شلمنقة	٢٧٥	باب المقابر برندة
٣٥٩	كنيسة شلمنقة العظمى	٢٨١	باب شريش بطريف
٣٥٩	دار الأصداف بشلمنقة	٢٨١	حصن طريف
٣٦٣	كنيسة دل نارا نكو بأوفييدو	٢٨٩	صخرة جبل طارق
٣٦٣	كنيسة سان ميغل	٢٨٩	مدينة جبل طارق
٣٦٤	جامعة أوفييدو	٢٩٢	الحمامات العربية بجبل طارق
٣٦٩	وادي كوفادنجا	٢٩٣	الحصن الأندلسي بجبل طارق
٣٦٩	صخرة كوفادنجا	٢٩٣	مدخل الحصن الأندلسي
٣٧٤	البرج الموحدى ببطليوس	٢٩٣	إحدى واجهات الحصن
٣٧٧	باب القصبة	٢٩٥	الحصن الأندلسي والميناء
٣٧٧	كنيسة بطليوس العظمى	٣٠١	كنيسة شريش العظمى
٣٧٧	الميدان العالى (بطليوس)	٣٠١	أبراج قصر شريش
٣٨١	القنطرة الرومانية بماردة	٣٠١	عقد عربي بالقصر
٣٨١	المسرح الروماني بماردة	٣٠٣	كنيسة قانس العظمى
٣٨٢	عقد عربي بقصبة ماردة	٣٠٨	من صور صندوق بنبلونة
٣٨٥	البرج العربي الكبير بقشرش	٣١١	كنيسة برغش العظمى
٣٨٥	بعض العقود العربية بقشرش	٣١٣	الدير الملكي ببرغش
٣٨٨	كنيسة سان بيدرو بولبة	٣١٥	زخارف مدجنية بالدير الملكي
٣٨٩	الشباك العربي بولبة	٣١٥	عقد مدجنى بمتحف برغش
٣٩١	واجهة القصر الأندلسي بلبله	٣٢١	عقود متحف بلد الوليد
٣٩١	برج كنيسة لبله	٣٢١	واجهة منزل ثرقانتس
٣٩١	بعض أطلال القصر الأندلسي	٣٢١	حصن شنت منكش
٣٩٣	جانب من أسوار لبله الموحدية	٣٢٣	القنطرة الرومانية بشقوبية
٣٩٣	باب إشبيلية من أبوابها العربية	٣٢٣	بقية الأسوار الأندلسية

٤٢٧	كنيسة الكسوف	٣٩٨	عقد الحراسة بفارو
٤٣١	قصر الإسكوريال	٣٩٨	باب أندلسي بفارو
... ..	أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس	٣٩٩	كنيسة فارو العظمى
٢٠٨ ص	مجموعة الحمراء : أمام ص	٣٩٩	وأجهة حصن شلب
... ..	أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس	٤٠٣	منظر عام لحصن شلب
... ..	زخارف بهو السفراء	٤٠٣	بعض الأبراج الداخلية
... ..	منظر عام لفناء الأسود	٤٠٣	أحد جوانب الحصن
... ..	بهو البركة	٤٠٥	كنيسة شلب
... ..	بهو السفراء	٤٠٧	عقد بايرة بباجة
... ..	قاعة بنى سراج	٤٠٩	حصن باجة
٣٢٠ ص	مجموعة الكتاب الرابع : أمام ص	٤٠٩	كنيسة الرحمة بباجة
... ..	صندوق عاجي لعبد الملك المنصور	٤٠٩	عقد داخل باجة
... ..	لوحة أندلسية من الخزف المنحوب	٤١٣	كنيسة يايرة العظمى
... ..	عباءة أبي عبد الله	٤١٣	عقود القنطرة الرومانية
... ..	سيف على العطار	٤١٣	صحن الكنيسة ذو العقود العربية
... ..	العلم الموحد الذي غنمه الإسبان	٤١٨	أطلال القصبة الأندلسية بأشبونة
	الخرائط :	٤١٩	كنيسة أشبونة العظمى
٩ أمام	إسبانيا المسلمة	٤١٩	عقد أبواب البحر
١٦٣	غرناطة الإسلامية	٤١٩	كنيسة سان چير نمو
١٩١	مدينة الحمراء	٤٢٢	حصن شترة
٢٨٥	مضيق جبل طارق	٤٢٣	مصلى قصر الحراسة
٢٨٧	جبل طارق	٤٢٣	عقود الحمامات العربية
		٤٢٦	الأسوار الأندلسية بشنترين
		٤٢٧	أطلال القصبة الأندلسية

فهرست القبائل والطوائف والدول

بنو هرون ؟ ٣٩٧
 بنو هود ؟ ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٢٦
 بنو اليحصبي ؟ ٣٩٠
 البيزيون ؟ ١٢٠ ، ١٢٦
 الخنويون ؟ ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ٢٩١
 الخلافة الأندلسية ؟ ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ١١٥ ، ١٣٧ ،
 ١٥٢ ، ٣٠٣ ، ٣٧٢ ، ٣٩٠
 الدولة الأموية ؟ ٢٠ ، ٣١
 الدولة العامرية ؟ ٣٦
 الدولة النصرية ؟ ١٦٥ ، ١٧٤
 الرومان ؟ ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ،
 ١٤٩
 الصليبيون ؟ ١٢
 الطوائف (ودول) ؟ ١٨ ، ٣٦ ، ٦٩ ،
 ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ،
 ١٨٩ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٣٧٢ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ،
 العرب ؟ ١٥ ، ٩٠ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ،
 ١٥٨ ، ١٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣٤٩ ، ٣٨٠ ،
 ٣٩٥
 العجر ؟ ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٦ ، ١٦٤ ،
 ١٦٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
 الفتیان العامريون ؟ ٣٧٦
 فرسان المعبد (الداوية) ؟ ١٢٠ ، ١٢٨ ،
 ٤٢٨
 الفرنسيون ؟ ٢١٠ ، ٣٧٩ ، ٤٣٢
 الفنيقيون ؟ ١٣٩ ، ٢٤٨
 القرطاجنيون ؟ ١٢٥ ، ١٥٦
 القشتاليون ؟ ١٨ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥١ ،
 ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،
 ٢٣٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ،

الآباء الأوغسطينيون ؟ ٤٣٢
 الإخوة المفررون ؟ ٤١٦ ، ٤١٧
 الإسلام ؟ ١٢ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٩٦ ،
 الإسبان ؟ ١٤ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ٩٣ ،
 ٩٦ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ،
 ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ،
 ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٦٦ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٧ ، ٤٣٦ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤١
 الأمة الأندلسية ؟ ٤٤١ ، ٤٤٤
 الإنجليز ؟ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٤١٦ ،
 آل بنيفش ؟ ١٧٩ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٤٤٠ ،
 آل ثفرا ؟ ١٨٠
 البربر ؟ ٣٦ ، ٨٠ ، ١٨٩ ، ٢٣٨ ، ٣٨٠ ،
 البرتغاليون ؟ ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ،
 البنادقة ؟ ١٦٥
 بنو الأفضس ؟ ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ،
 ٤١١
 بنو أمية ؟ ٣٥
 بنو تجيب (التجيبون) ؟ ١٠٤ ، ٣٠٧ ،
 بنو الثغرى ؟ ٤٤٠
 بنو الخليلي ؟ ٣٧٣
 بنو حود ؟ ٢٤٣
 بنو ذو التون ؟ ٣٣١
 بنو سراج ؟ ٢٠٣
 بنو صمادح ؟ ٢٦٦
 بنو عباد ؟ ٤٥ ، ٧١ ، ٣٥٧ ، ٤٠٢ ،
 بنو عمارة ؟ ٢٤٨ ، ٤٤٠
 بنو قسي ؟ ٣٠٧
 بنو مريم ؟ ٢٧٦ ، ٤٠٢ ،
 بنو نصر ؟ ٦٠ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٠ ، ٤٤٠ ،

ملكة سرقسطة ؛ ١٠٥
ملكة غرناطة ؛ ١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٨٦
١٨٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨
٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦
٢٧١ ، ٣٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩
ملكة قرطبة ؛ ٣٤٩
ملكة ليون ؛ ٣٤٩
ملكة نافار ؛ ٣٠٧
الموحدون ؛ ١٨ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨
٥١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠
١٦٩ ، ٢٢١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ ، ٣٧٣
٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
٤١٦ ، ٤٢٥
الموريثيون (العرب المنتصرون) ؛ ٩٣
٩٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١
٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٣٤٠ ، ٤١٠ ، ٤٣١
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
المولديون ؛ ٨٠ ، ١٨٩ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢
٣٨٠
النصارى ؛ ١٥ ، ٢٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٠
٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٢
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٨
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٢
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨
٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦
٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠
٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩
٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢
٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٢٤
٤٢٥ ، ٤٢٦
النصارى المعاهدون ؛ ١٥ ، ٤٣٦
الهولنديون ؛ ٢٨٨ ، ٤١٦
اليهود ؛ ٨٣ ، ١٦٢ ، ١٦٥

٢٨٦ ، ٣٠٣ ، ٣٢٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
القطلان ؛ ١٢٦ ، ١٢٥
القرط ؛ ٩٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢
٢٩٧ ، ٣٦٧
المدجنون ؛ ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦٠
٦٢ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٢
٣١٧ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠
المرابطون ؛ ١٨ ، ٢٠ ، ٣١٢ ، ٣٧٣
٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤١١
المسلمون ؛ ١١ ، ١٥ ، ١٨ ، ٣٣ ، ٧٠
٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٠
٩٤ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٠
١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥١
١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٢٠
٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨
٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦
٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٠
٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥
٣٤٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦١
٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩
٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧
٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٢٤
٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
المغاربة ؛ ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٣٨٦
المللكة القوطية ؛ ٨٠
المللكة النصرانية الشمالية ؛ ٣٦١ ، ٣٦٢
٣٦٦
ملكة أراجون ؛ ١١٢ ، ٣٠٩
ملكة إشبيلية ؛ ٧١ ، ٢٢١ ، ٣٩٠
ملكة البرتغال ؛ ٤١١
ملكة ألمرية ؛ ٢٢١
ملكة بطليوس ؛ ٤١٦
ملكة جليقية ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩
ملكة دانية ؛ ١٢٦
ملكة طليطلة ؛ ٣٣١

فهرست البلدان والأماكن

أسوار لبلة ؛ ٣٩٢
 أسوار ليون ؛ ٣٥٠
 أسوار يابرة ؛ ٤١٢
 أشبونة (لشبونة) ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٩ ، ٤١١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٤١٨ - ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٢
 إشبيلية (ولاية) ؛ ١٩ ، ١٨ ، ١٦ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٥ - ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ - ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٦٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٣٥٧ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
 إشبونة ؛ ٢٥٦
 أشكر ؛ ١٦١
 إشكريال ؛ أنظر الإسكوريال
 أعمدة هرقل ؛ ٢٨٤
 أغادير ؛ ٤٣٢
 إفراغة ؛ ١١٤
 إفريقية ؛ ٢٨٤ ، ٢٧٨
 الأبراج الحمراء ؛ ١٨٤ ، ١٩٢
 الأبواب الجنوبية (جبل طارق) ؛ ٢٩٠
 الأرك ؛ موقعة ؛ ٥١ ، ٦٣
 الأسترياس ؛ ٣٠٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
 الإسكوريال (ومكتبته) ؛ ٨٨ ، ٣٤٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤
 الأسوار الموحدية ؛ ٦٣ ، ٦٨
 الألب ؛ جبال ؛ ٣٤٢ ، ٣٦١
 الأمفتياتر الروماني (ماردة) ؛ ٣٨٣
 الأندلس ؛ ٩ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١

(١)

أبدة ؛ ١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
 آبلية ؛ ١١ ، ٣٠٦ ، ٣٢٦
 أبواب الماء ؛ ٢٩٤
 أبواب كاسمنت ؛ ٢٩٤
 أجيير ؛ ١٦١
 أراجون ؛ ١٢٠ ، ٨٣ ، ٤٣٧
 أرجونة ؛ ٢٢٢
 أرحبة ؛ ١٦١
 أرشدونة ؛ ٢٣٨ ، ٢٤٠
 أركش ؛ ٢٩٧
 أرمليا ؛ ١٧٦
 إسبانيا ؛ ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ - ٤٤١
 إسبانيا المسلمة ؛ ٣٦ ، ٢٩٦ ، ٣٩٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧
 إسبولا ؛ ١٢٦
 إستجة ؛ ٦٦ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٩
 إسترامادورة ؛ ولاية ؛ ٤٢٥
 أسترق ؛ ٣٦١
 آسق ؛ ٤٣٢
 أسوار أبدة ؛ ٢٣٠
 أسوار آبلية ؛ ٣٢٦
 أسوار العرب ؛ ٢٨٤
 أسوار بظليوس ؛ ٣٧٣
 أسوار سمورة ؛ ٣٥٤
 أسوار شاطبية ؛ ١٤٢
 أسوار غرناطة ؛ ١٧٥
 أسوار قوبان ؛ ٣٧٨ ، ٣٧٩

السباط ؛ ٢٠ ، ٣١	٢٠٧ ، ١٩٢ ، ١٨٨ ، ١٨٢ ، ١٦٥
السيبكة ؛ ١٦٢ ، ١٨٦	٢٣٣ ، ٢٢١ ، ٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٩
السور الأندلسي (جبل طارق) ؛ ٢٩١ ، ٢٩٤	٢٧٠ ، ٢٦٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٤ ، ٢٤٤
أش ؛ ١٥١ ، ١٥٢	٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٧٨
الشام ؛ ٤١٦	٣١٨ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٢٩٩ ، ٢٩٦
الشرو (مالقة) ؛ ٢٥٠	٣٧٢ ، ٣٦٦ ، ٣٤٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٣
الصخرة (كوفادنجا) ؛ ٣٦٧ ، ٣٧٠	٤٤٠ ، ٤٣٩ ، ٤٣٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥
العقاب ، موقعة ؛ ١٢ ، ٢٣٠ ، ٣١٣ ، ٣١٤	البرج الأبيض ؛ ٢٤٨
الغرب ، ولاية ؛ ١٢٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠	البريق ؛ ١٣٩
٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦	البيسط ؛ ١٦١
ألفاما (أشبونة) ؛ ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠	البشرات ؛ ٢٠٧
ألفرنثيره ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٨٧	البندقية ؛ ١٥٤
القصبة الحمراء ؛ ١٨٩	البهو الذهبي ؛ ١٠٦ ، ١٠٨
القصبة القديمة ؛ ١٦٢	ألتيسا ؛ ١٤٥
القصر الأسقي (قرطبة) ؛ ٣١	ألخدرالس ؛ ٢٩٧
القصر الأموي ؛ ٣١	الجزائر الشرقية ؛ ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦
القصر الأندلسي (جبل طارق) ؛ ٢٩١	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
القصر الخليفي (الزهراء) ؛ ٣٨	الجزيرة (شاطية) ؛ ١٣٩
القصر العربي (الحمراء) ؛ ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٧	الجزيرة الخضراء ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
القصر (أش) ؛ ١٥١	٢٨٤
القصر (طليطلة) ؛ ٨٢ ، ٩٠	الحامة ؛ ١٤٤ ، ١٦١
القصر (شريش) ؛ ٢٩٨ ، ٢٩٩	ألحجار ؛ ٢٢٢
القصر (لبله) ؛ ٣٩٣	الحمراء ، حفصة ، قصبة ؛ ٩ ، ١٠ ، ١٢
القصر (إشبيلية) ؛ ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠	٥٨ ، ٨٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٤٣٧	١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦
ألقيسرية ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١	١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦
ألكالا (مدريد) ؛ ٣٣٣	١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ -
الكديية (بلنسية) ؛ ٩٨	٢١١ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠
الكديية (ميورقة) ؛ ١٣٦	الحمراء ، القلعة ؛ ١٨٩ ، ١٩٢
المارستان النصرى ؛ ١٧٨ ، ١٧٩	ألخان (الفندق الجديد) ؛ ١٧٣ ، ١٧٤
ألمرية ؛ ٩٨ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٨١	ألخرق (البرتغال) ؛ ٣٩٦
٢٢٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨	ألحميسى ؛ ١٣٩
٢٧٠ ، ٣٣٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠	ألخندق ، موقعة ؛ ٣٢٠ ، ٣٥٢
المنصورية ؛ ٣٣٩	الداية (الضيعة) ؛ ٩٨
المنكب ؛ ١٦ ، ١٦١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠	الدير الملكي ؛ ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤
٢٦١ ، ٢٦٢	الروضمة (الحمراء) ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
ألنتيجو (ولاية) ؛ ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٣	ألريونداس ؛ ٣٦٦
النسا ؛ ٣٤٢	الزاهرة ؛ ١٨٩
ألورة ؛ ٢٥٢	الزهراء ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
ألسيسيو (أشبونة) ؛ ٤١٦	٤٢ ، ٤٤ ، ١٨٩ ، ٣٣٨

باب القبة (الزهراء) ؟ ٣٩
 باب الكحل (ميورقة) ؟ ١٢٧ ، ١٣٤
 باب المدى (ميورقة) ؟ ١٣٤
 باب المقابر (رندة) ؟ ٢٧٧
 باب المنظرة (ميورقة) ؟ ١٢٧
 باب النخيل (بطليوس) ؟ ٣٧٣
 باب النخيل (قرطبة) ؟ ٣٠ ، ٢٢٢
 باب برتيم (ميورقة) ؟ ١٢٧
 باب يساجرا (طليلطة) ؟ ٨٢
 باب بلايو (ليون) ؟ ٣٥٠
 باب بنى نمارة (غرناطة) ؟ ١٨٤
 باب ترنداد (بطليوس) ؟ ٣٧٨
 باب تيرا (قادس) ؟ ٣٠٣
 باب سان أندريس (شقوية) ؟ ٣٢٥
 باب سيدة (غرناطة) ؟ ١٧٥
 باب شريش (طريف) ؟ ٢٧٩
 باب شنت إشتين (قرطبة) ؟ ٢٢
 باب غرناطة (الحمراء) ؟ ١٨٨
 باب غرناطة (أبدة) ؟ ٢٣٠
 باب قرطبة (قرمونة) ؟ ٧١ ، ٧٣
 باب مكارينا (إشبيلية) ؟ ٦٧
 باجة ؟ ٢٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٥
 البارود ، سهل ؟ ٣٣٢
 بالمادى ميورقة ؟ أنظر ميورقة
 بالنسيا ؟ ٣٣٩
 ببشتر ؟ ٢٥٢
 بجانة ؟ ٢٦٥
 بحر الظلمات ؟ ٢٨٤ ، ٤١٧
 البرتغال ؟ ٤٨ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٤
 البرج الأبيض (جبل فاره) ؟ ٢٤٨
 برج إسبنتابروس (البرج الموحدى) ؟ ٣٧٥ ، ٣٧٦
 برج الآكام ؟ ١٩٠
 برج الأسيرة ؟ ١٩٠
 برج الأميرات ؟ ١٩٠ ، ٢٠٨
 برج الجلبين ؟ ٩٥
 برج الحراسة ؟ ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢

أمريكا ؟ ٤٦ ، ٣٨٨
 أمريكا الجنوبية ؟ ٤١٧
 أنتكرويل ؟ ١٦٢
 إنجلترا ؟ ٢٨٨
 أندرش ؟ ٣٣٤
 أوريولة ؟ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
 أوسيا ، صحرة ؟ ٣٦٧ ، ٣٦٨
 أوفيلدو ؟ ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦
 أونبة (ولبة) ؟ ٣٨٩
 أياموتى ؟ ٣٩٦
 إيريا ؟ ٣٤٤

ب - ث

باب إشبيلية (قرمونة) ؟ ٧١ ، ٧٣
 باب إشبيلية (لبلة) ؟ ٣٩٢
 الباب الأندلسى (باجة) ؟ ٤٠٧
 الباب الملكى (غرناطة) ؟ ١٦٢
 باب البحر (ميورقة) ؟ ١٢٨
 باب البلد (ميورقة) ؟ ١٢٧ ، ١٣٤
 باب البلياط (ميورقة) ؟ ١٢٧ ، ١٣٤
 باب البنيدة (غرناطة) ؟ ١٧٥
 باب البيازين (غرناطة) ؟ ١٦٨ ، ١٧٤
 باب البيرة (غرناطة) ؟ ١٧٤ ، ١٧٥
 باب الحديد (ميورقة) ؟ ١٢٧
 باب الخيانة (سمورة) ؟ ٣٥٤
 باب الرمان (الحمراء) ؟ ١٦٠ ، ١٨٤
 باب الزيادة (الحمراء) ؟ ١٦٨ ، ١٧٤
 باب السدة (الزهراء) ؟ ٣٩
 باب السراج (ميورقة) ؟ ١٢٧
 باب السلاح (الحمراء) ؟ ١٩٢
 باب الشراب (الحمراء) ؟ ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢
 باب الشريعة (الحمراء) ؟ ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٢
 باب الشزرى ، موقعة ؟ ١٢
 باب الطباق السبع (الحمراء) ؟ ١٩٢
 باب العمود (بطليوس) ؟ ٣٧٨
 باب الغدور (الحمراء) ؟ ١٩٢
 باب الغفران (إشبيلية) ؟ ٤٩
 باب الغفران (قرطبة) ؟ ٢٢

بني فري ؛ ٩٨
 بني قاسم ؛ ٩٨
 بني قنديل ؛ ١٤٩
 بني لوبة ؛ ١٤٥
 بني مرفيل ؛ ١٤٥
 بني مسلم ؛ ١٣٩
 بهو البركة (بهو الريحان) ؛ ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٩
 بهو السفراء (إشبيلية) ؛ ٥٨
 بهو السفراء (بهو فارش) ؛ ١٩٠ ، ١٩٣ ،
 ١٩٦
 بهو الملوك (إشبيلية) ؛ ٦٢
 بوئال ؛ ٩٨
 بورتو (برتقال) ؛ ٣٩٥
 بياسة ؛ ١٦ ، ٢٢٨ ، ٣١٤
 بيت المقدس ؛ ٣٤٨
 بيغ ؛ ٢٢٢
 ترجاله ؛ ٣٨٦
 تطيلة ؛ ١١٣ ، ١١٤
 توري دلمار ؛ ٢٥٤
 تولوسة ، هضاب ؛ ٣١٤
 الثغر الأعلى ؛ ١٠٤ ، ١١٤ ، ٣٣١

ج - خ

جامع أبدة ؛ ٢٣٢
 جامع ابن عديس ؛ ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٦٦
 جامع أرشدونة ؛ ٢٤٠
 جامع إستجة ؛ ٧٨
 جامع إشبيلية ؛ ٢٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٦
 الجامع الأبيض ؛ ١١٠ ، ١١٣
 جامع البيازين ؛ ١٦٨
 جامع الجزيرة الخضراء ؛ ٢٨٢
 جامع الكتبية (مراکش) ؛ ٥٥
 جامع ألمرية ؛ ٢٧٠
 جامع بسطة ؛ ٢٣٤
 جامع بطليوس ؛ ٣٧٢ ، ٣٧٨
 جامع تطيلة ؛ ١١٣
 جامع جيان ؛ ٢٢١ ، ٢٢٤

برج الذهب ؛ ٦٣ ، ٦٧
 برج الراهب ؛ ٢٦٠
 برج الروموس ؛ ١٩٠
 برج العقائل ؛ ١٩٠
 برج العلمين ؛ ٣٢٨
 برج قلهرة (ألس) ؛ ١٥١
 برج قمارش ؛ ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦
 برج الكوارتو ؛ ٩٥
 برج الماء ؛ ١٩٠
 برج المتزين ؛ ١٩٠ ، ٢٠٥
 برج سانتا كروت ؛ ٧٦ ، ٧٨
 برشلونة ؛ ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١١٤ ،
 ١١٧ ، ١٢٥
 برغش ؛ ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٥٧
 بركونة ؛ ٢٢٢
 بريانة ؛ ١٣٨
 بسطة ؛ ١٦١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٤٤٠
 بطليوس (وولاية) ؛ ٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٦ ،
 ٤١١
 بلاد البشكنس ؛ أنظر نافار
 بلد الوليد ؛ ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
 ٣٥٧

بلش مالقة ؛ ٢٥٤ ، ٢٥٥
 بلنسية ؛ ٩ ، ١١ ، ١٨ ، ٤٥ ، ٩٣ ،
 ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،
 ١٥٦ ، ٢٢١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ، ٣١١
 بنبلونة ؛ ١١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
 بنو عبدوس ؛ ٢٦٥
 بنوط (غرناطة) ؛ ٢١٨
 بني أربج ؛ ١٤٥
 بني الشدوي ؛ ١٤٥
 بني جاسر ؛ ١٤٥
 بني دلبيج ؛ ١٤٥
 بني دورم ؛ ١٤٥
 بني سالم ؛ ١٣٦
 بني علي ؛ ١٣٦
 بني عيسى ؛ ١٤٥
 بني فايز ؛ ١٣٩

- جامعة غرناطة الإسلامية ؛ ١٧٣
 جامعة قرطبة ؛ ٢٢
 جامعة يابرة ؛ ٤١٤
 جانديا ؛ ١٤٣
 جبال سير امورينا ؛ ٣٠ ، ١٨
 جبال سير انقادا ؛ ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٤
 ٢٣٣ ، ٢١٨ ، ٢١٥ ، ٢١١
 جبال كنتيريا ؛ ٣٦١
 جبال مراكش ؛ ٢٧٨
 جبل آتيليا ؛ ٢٨٤
 جبل الفتح ؛ ٢٨٦
 جبل برنيسا ؛ ١٤٠
 جبل خنيس ؛ ٣٦٧ ، ٣٧٠
 جبل طارق ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤
 ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦
 جبل طارق ، مدينة ؛ ٢٨٨
 جبل غدر ؛ ٢٦٦
 جبل فاره ؛ ٢٥١
 جبل كالبى ؛ ٢٨٤
 جبل وادي الرملة ؛ ٣٢٢ ، ٣٣١
 جران بيا (مدريد) ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٣
 جزائر البليار ؛ انظر الجزائر الشرقية
 جزر الرأس الأخضر ؛ ٤١٧
 جزر الكناري ؛ ٤١٧
 جزيرة العالقة ؛ ٤١٧
 جليقية ؛ ٣٠٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٦١
 جناح الأسود (الحمراء) ؛ ١٩٣
 جناح الملك بيدرو (القصر) ؛ ٦٢
 جناح الملوك الأندلسيين (القصر) ؛ ٥٨ ، ٦٠
 جناح الملوك الكاثوليك (القصر) ؛ ٥٨
 جناح فيليب الثاني (القصر) ؛ ٥٨
 جناح قمارش (الحمراء) ؛ ١٩٣
 جيان (وولاية) ؛ ٩ ، ١٦ ، ١٦١ ، ٤
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٤
 ٣٣٩
 حدائق الملكة (غرناطة) ؛ ١٧٦
 الحصن الأندلسي (جبل طارق) ؛ ٢٩٤ ، ٢٩١
 الحصن الأندلسي (شنترة) ؛ ٤٢٤
 حصن الأندلسيين (قرطاجنة) ؛ ١٥٦
 حصن أوراكا (سمورة) ؛ ٣٥٤
 جامع دائية ؛ ١٤٧
 جامع رندة ؛ ٢٧٣
 جامع سرقسطة ؛ ١١٠
 جامع شاطبة ؛ ١٤٣
 جامع شريش ؛ ٣٠٠
 جامع شلب ؛ ٤٠٤
 جامع طرطوشة ؛ ١٢١
 جامع طركونة ؛ ١١٧
 جامع طليطلة ؛ ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧
 جامع غرناطة ؛ ١٧١ ، ١٨٢
 جامع فارو ؛ ٤٠٠
 جامع قانس ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣
 جامع قرطبة ؛ ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤
 ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤
 ٢٠٩ ، ٣٤٤
 جامع قرمونة ؛ ٧٤
 جامع قصبة بطليوس ؛ ٣٧٥
 جامع قصبة شنترين ؛ ٤٢٨
 جامع لبلبة ؛ ٣٩٢
 جامع لشبونة ؛ ٤٢٠
 جامع لقتن ؛ ١٥٠
 جامع لوشة ؛ ٢٣٦
 جامع ماردة ؛ ٣٨٣
 جامع مالقة ؛ ٢٥١
 جامع ميورقة ؛ ١٢٧
 جامع وادي آش ؛ ٢١٦
 جامع وادي الحجارة ؛ ٣٣٠
 جامع ولبة ؛ ٣٨٦
 جامع يابرة ؛ ٤١٤
 جامعة أكسفورد ؛ ٣٥٨
 جامعة ألكالا دي هنارس ؛ ٤٣٠
 جامعة أوفيديو ؛ ٣٦٤ ، ٣٦٥
 جامعة باريس ؛ ١٦٥ ، ٣٥٨
 جامعة بلد الوليد ؛ ٣١٨
 جامعة بولونيا ؛ ٣٥٨
 جامعة شلمنتة ؛ ١٦٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 جامعة شنت ياقب ؛ ٣٤٧
 جامعة غرناطة ؛ ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٤
 ٣٥٧ ، ١٦٧

١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ،
 ١٩٢ ، ٢١٠ ، ٣٣٨ ،
 حتى الرصافة (بلنسية) ؛ ٩٣
 حتى الروح القدس ؛ ١٩ ، ٣٣
 حتى القصر القديم ؛ ٣٠
 حتى سان فرنسيسكو (رندة) ؛ ٢٧٧
 حتى سانتا كروث ؛ ٦٨
 خليج بسكونية ؛ ٣٦١
 خوسيه أنطونيو (مدريد) ؛ ٣٣٢
 د - ز

دار الأصداف (شلمنقة) ؛ ٣٥٨ ، ٣٦٠
 دار الرماية ، (غرناطة) ؛ ١٧٤
 دار السرور ؛ ١٠٥ ، ١٠٦
 دار الفصح (غرناطة) ؛ ١٧٤
 دار المحفوظات التاريخية ؛ ٣٤
 دار المحفوظات العامة ؛ ٣٢٠
 دار پلاتوس ؛ ٦٤ ، ٦٦
 دار محفوظات الحمراء ؛ ٢٠٩
 دار محفوظات الهند ؛ ٤٦٢
 دار محفوظات بلدية بلنسية ؛ ٩٦
 دار محفوظات ملكة بلنسية ؛ ٩٦
 دار محفوظات بلدية ميورقة ؛ ١٣٣
 دار محفوظات بنبلونة ؛ ٣٠٨
 دائية ؛ ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 دير الحفاة (ببليوس) ؛ ٣٧٨
 دير الكاوسين ؛ ٦٧
 دير ساكرومتي (غرناطة) ؛ ١٦٤ ، ١٦٩ ،
 ١٨٠
 دير سانتا ماريادى جراثيا (آبلة) ؛ ٣٢٦
 دير سان خير نمو ؛ ٣٥
 دير سان دومنجو ؛ ١٥٤
 دير سان فرنسيسكو ؛ ١٢٧
 دير سان كلمنتي ؛ ٣٤٠
 دير سان ماركوس ؛ ٣٥١
 دير فونسكا ؛ ٣٤٧
 دير كونسيسوا (باجة) ؛ ٤٠٨ ، ٤١٠
 دير لاجراسا (يايرة) ؛ ٤١٤
 دير ليرى ؛ ٣٠٩
 الرباط ؛ ٥٤

حصن الرابطة ؛ انظر حصن سهيل
 حصن القديس جورج ؛ ٤١٧ ، ٤٢٠
 حصن القديسة بربارة ؛ ١٤٩
 حصن القصر ؛ ٣٨٩
 حصن اللوز ؛ ١٦١
 حصن المنظر الجميل (ميورقة) ؛ ١٣٣
 حصن المنكب ؛ ٢٦٠
 حصن أليورة ؛ ٢٢٠
 حصن باجة ؛ ٤٠٨
 حصن جبل فاره ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٨
 حصن جيان ؛ ٢٢٢ ، ٢٢٤
 حصن دائية ؛ ١٤٧
 حصن روطه ؛ ١١٣
 حصن سانتا كاتالينا ؛ ٢٢٢
 حصن سان تلمو ؛ ٢٧٠
 حصن سان فرناندو ؛ ١٥٠
 حصن سهيل ؛ ٢٥٣
 حصن شاطبة ؛ ١٤٠ ، ١٤٢
 حصن شلب ؛ ٤٠٤
 حصن شلوبانية ؛ ٢٦٢
 حصن (قلعة) شنت منكش ؛ ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
 ٣٣٤
 حصن طريف ؛ ٢٧٩ ، ٢٨٠
 حصن كنسيسيون ؛ ١٥٨
 حصن مجريط ؛ ٣٣١
 حصن مربلة ؛ ٢٥٧
 حصن مكلين ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
 حصن موتي أجودو ؛ ١٠٠
 حدائق القصر ؛ ٣٠ ، ٦٤
 الحمامات العربية (بسطة) ؛ ٢٣٤
 الحمامات العربية (جبل طارق) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٤
 الحمامات العربية (جيان) ؛ ٢٢٦
 الحمامات العربية (رندة) ؛ ٢٧٤
 الحمامات العربية (مرسية) ؛ ٩٩
 الحمامات العربية (ميورقة) ؛ ١٣٢
 حمامات الأميرال (بلنسية) ؛ ٩٥
 حمامات الحمراء ؛ ١٩٨ ، ٢٩٤
 حمام كايا ؛ ٩٠
 حصص ؛ ٤٥
 حتى البيازين ؛ ٦٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧

شريش الفرنتيره ؛ ٩ ، ٢٧٧ ، ٢٩٧ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ،
 شقوبية ؛ ١١ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ،
 ٣٢٦
 شكلانا (الفرنتيره) ؛ ٢٨٣ ،
 شلب ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
 شلمنقة ؛ ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ،
 شلوبانية ؛ ١٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٨ ،
 ٢٦٤
 شنبوس (البرتغال) ؛ ٤٠١ ،
 شنترة ؛ ٣٩٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
 شنترين ؛ ٤٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٤٥ ،
 ٤٢٦
 شنتمرية الغرب ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠١
 شنت منكش (سيانقا) ؛ انظر حصن شنت
 منكش
 شنت ياقب ، مدينة ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
 صومعة جامع لإشبيلية ؛ انظر منارة جامع لإشبيلية
 طرطوشة ؛ ١٣ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ ، ١٣٧ ،
 طركونة ؛ ١١ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٢٠
 طريف ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
 طليطلة ؛ ٩ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٨٨ ،
 ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣ ،
 طنجة ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٣ ،
 عدوة المغرب (العدوة) ؛ ٤٧ ، ٢٤٤ ،
 العقد المظلم (أشبونة) ؛ ٤٢٠ ،
 عقد أبواب البحر (أشبونة) ؛ ٤٢٠ ،
 عقد أمارما (شنترين) ؛ ٤٢٦ ،
 عقد الحراسة (فارو) ؛ ٣٩٨ ،
 عقد العميد (سرقسطة) ؛ ١٠٨ ،
 عقد المدينة (ميورقة) ؛ ١٢٨ ،
 عقد تراچان (ماردة) ؛ ١١ ، ٣٨٣ ،
 عقد روسال (أبدة) ؛ ٢٣٠ ،

ربض البيازين ؛ انظر حى البيازين
 ربض البيضاء ؛ ١٦٢ ،
 ربض الفخارين ؛ ١٦٢ ،
 ربض المرابطين ؛ ١٦٢ ،
 ربض المنصور ؛ ١٦٢ ،
 ربض قمارش ؛ ١٦٢ ،
 رحبة باب الزيادة ؛ ١٦٨ ،
 ردة ؛ ٩ ، ١٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٩٧ ، ٤٣٠ ،
 روس (بياسة) ؛ ٢٣٠ ،
 روضة خالون ؛ ١١٣ ،
 رومة ؛ ٣٣ ،
 زفرة العرب الأخيرة ؛ ١٣٣ ،

س — غ

ساجنتو ؛ ١١ ، ٩٨ ،
 ساحل الشمس ؛ ٢٥٦ ،
 سالادو ، موقعة ؛ ٨٥ ، ٢٨٢ ،
 سان بنيتو (مرسية) ؛ ٩٩ ،
 سانتافييه ؛ ١٦١ ،
 سان روكي ؛ ٢٨٨ ،
 سان فرناندو (الفرنتيره) ؛ ٢٨٣ ،
 سان كنتان (موقعة) ؛ ٤٣٢ ،
 سان لوقار ؛ ٣٨٩ ،
 سبتة ؛ ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠٣ ،
 سردانية ، جزيرة ؛ ١٤٦ ،
 سرقسطة ؛ ٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٢٦ ، ١٨١ ، ٣٢٥ ،
 سموره ؛ ٣٢٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
 ٣٦١
 السنغال ؛ ٤١٧ ،
 سهيل ؛ ٢٥٧ ،
 سوق مالقة ؛ ٢٤٨ ،
 سولير ؛ ١٣٦ ،
 سويسرة ؛ ٣٤٢ ،
 شاطبة ؛ ٩ ، ١٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ،
 ٢٢١
 شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ١١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

قاعة الأختين ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٥
 قاعة السفراء (القصر) ٥٨ ، ٦٠
 قاعة العدل (القصر) ٥٨
 قاعة الملوك (الحمراء) ٢٠٣
 قاعة بى سراج ٢٠٣
 قبر القديس ياقب ٣٤٧
 قبر بلايو ٣٦٨
 قرطاجنة ٩٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 قرطبة ٩ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤
 ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٩
 ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٨١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٧
 ٣٧٢ ، ٣٩٠ ، ٤٣٧
 قرطبة القديمة ٣٦
 قرطمة (مالقة) ٢٥٢
 قرمونة ١٦ ، ٧١ ، ٧٩
 قسطلونة (السهل) ١٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨
 قسطنطينية ٢٠ ، ٢١
 قشتالة ٤٥ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ٢٢٢
 ٢٢٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩
 ٣٥٧
 قشتالة القديمة ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣٢٢
 قشرش ٣٨٦
 قصبة أرشدونة ٢٢٣ ، ٢٤٠
 قصبة ألمرية ٢٦٦ ، ٢٦٨
 قصبة أوريولة ١٥٢
 قصبة بطليوس ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ٣٧٦ ، ٣٧٩
 قصبة بلش ٢٥٤
 قصبة جيان ٢٢١
 قصبة زنده ٢٧٢
 قصبة شاطبة ١٤٢
 قصبة طريف ٢٧٩ ، ٢٨٠
 قصبة فاس ٨٦
 قصبة لاردة ١١٤
 قصبة لبلة ٣٩٣
 قصبة لقنت ١٤٨ ، ١٥٠
 قصبة لوشة ٢٣٥ ، ٢٣٦
 قصبة ماردة ٣٨٢ ، ٣٨٣
 قصبة مالقة ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨

عقد سان لورنزو (جيان) ٢٢٤
 عقد يابرة (باجة) ٤٠٧
 عقد يسوع (أشبونة) ٤٢٠
 غدر (ألمرية) ٢٦٥
 غرناطة (وولاية) ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩
 ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩
 ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٢ ، ١٦٠ ، ١٦١
 ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ -
 ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠
 ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢
 ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧
 ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٥١ ، ٤٣٠
 ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠

ف - ق

فارو ؛ انظر شتمرية الغرب
 فاس : ٢٠٧
 فرنسا ؛ ١٤٦
 فخر الفرنتيره ؛ ٢٨٣
 فلبيا مرتين ؛ ٢٩٧
 فناء الأسود ؛ ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
 ٢٠٧
 فناء البركة ؛ انظر هيو البركة
 الفناء الشرقى (الزهراء) ؛ ٣٨
 فناء السرو (الحمراء) ؛ ١٩٨
 فناء الصيد (القصر) ؛ ٥٨
 فناء العذارى (القصر) ؛ ٥٨ ، ٦٠
 فناء العرائس (القصر) ؛ ٥٨ ، ٦٢
 الفناء الغربى (الزهراء) ؛ ٣٨ ، ٣٩
 فناء اللندراخا ؛ ٢٠٥
 فناء الملكة (ميورقة) ؛ ١٢٨
 فناء النارنج (قرطبة) ؛ ٢٢
 فناء النارنج أو البرتقال (إشبيلية) ؛ ٤٩
 فونجرولا (سهيل) ؛ ٢٥٧
 فيلا ريال ؛ ٣٩٦
 قانس ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

قنطرة القنطرة (طليطلة) ؛ ٨٢ ، ٩٠
 قنطرة بنوط ؛ ٢١٨
 قنطرة رندة العربية ؛ ٢٧٣
 قنطرة سان تلمو (إشبيلية) ؛ ٦٣
 قنطرة شقوبية الرومانية ؛ ٣٢٢ ، ٣٢٤
 قنطرة شلب العربية ؛ ٤٠٤
 قنطرة شنيل ؛ ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨
 قنطرة قرطبة الأندلسية ؛ ٣١
 قنطرة ماردة الرومانية ؛ ٣٨٠ ، ٣٨٢
 قنطرة وادي الحجارة ؛ ٣٣٠
 قوس المسيح (مالقة) ؛ ٢٤٤
 قونقة ؛ ٣١٦ ، ٣٣٩
 — ك —
 كاتلان باي (جبل طارق) ؛ ٢٩٠
 كاستيليانا ، متنزّه (مدريد) ؛ ٣٣٣
 كانجاس دى أونيس ؛ ٣٦٦
 كندرائية إشبيلية ؛ ٢٠ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ،
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٣٠٠
 كندرائية ألمرية ؛ ٢٦٨
 كندرائية أوقيينو ؛ ٣٦٢
 كندرائية برجوس ؛ ٣١٠ ، ٣١١
 كندرائية بلد الوليد ؛ ٣١٨
 كندرائية بلنسية ؛ ٩٥
 كندرائية بنبلونة ؛ ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٦
 كندرائية تطيلة ؛ ١١٣
 كندرائية ترويل ؛ ٤٣٧
 كندرائية جيان ؛ ٢٢١ ، ٢٢٤
 كندرائية دانية ؛ ١٤٧
 كندرائية سرقسطة ؛ ١١٠ ، ١١٢
 كندرائية سمورة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦
 كندرائية شريش (الكونخياتا) ؛ ٣٠٠
 كندرائية شلمنقة ؛ ٣٥٨ ، ٣٦٠
 كندرائية شنت ياقب ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦
 كندرائية طركونة ؛ ١١٨
 كندرائية طليطلة ؛ ٢٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥
 ٨٧ ، ٨٨
 كندرائية غرناطة ؛ ١٧١
 كندرائية فارو ؛ ٣٩٨ ، ٤٠٠
 كندرائية كوفادنجا ؛ ٣٧٠

قصبه وادي آش ؛ ٢١٥ ، ٢١٦
 قصر أبي دانس ؛ ٣٩٥
 قصر الإسكوريال ؛ ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٢ ، ٤٣٣
 قصر الأمير أبي مالك ؛ ٢٧٤
 قصر الجعفرية ؛ ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ٣٢٤
 قصر الحراسة (شنترة) ؛ ٤٢٤
 قصر الحمراء ؛ ٢٦ ، ٣٣ ، ٥٨ ، ١٧٤ ،
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩
 قصر الزاهرة ؛ ٣٣٩
 قصر السباع ؛ ١٩٦
 قصر السيد ؛ انظر قصر شنيل
 قصر الشراحيب (شلب) ؛ ٤٠٤
 قصر آل قزمان ؛ ٣٥١
 قصر المدينة (ميورقة) ؛ ١٢٧ ، ١٢٨
 قصر المشرق (مدريد) ؛ ٣٣٣
 قصر المعتمد بن عباد ؛ ٦٢ ، ٦٣
 قصر المؤنس (الزهراء) ؛ ٣٥
 قصر يارود (مدريد) ؛ ٣٣٣
 قصر بني هود ؛ ١٠٥
 قصر بينا (شنترة) ؛ ٤٢٤
 قصر جنة العريف ؛ ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤
 قصر خلمريث (شنت ياقب) ؛ ٣٤٧
 قصر شارلكان ؛ ١٧٨ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٩
 قصر شقوبية ؛ ٣٢٥
 قصر شلب ؛ ٤٠٤
 قصر شنيل ؛ ١٧٥ ، ١٧٦
 قصر مرشانة (قرمونة) ؛ ٧٤
 قصر مندوسا (وادي الحجارة) ؛ ٣٣٠
 قصر مونثيري (شلمنقة) ؛ ٣٥٨ ، ٣٦٠
 قلعة جابر ؛ ٦٩ ، ٧٠
 قلعة سمورة ؛ ٣٥٤
 قلعة طرطوشة ؛ ١٢١
 قلعة مجريط ؛ ٣٣٢
 قلعة يحصب ؛ ٢١٨
 قلعية ؛ ٣٩٤
 قنطرة الحجر (سرقسطة) ؛ ١٠٤

- كنيسة سائتا مجدلينيا (جيان) ؛ ٢٢٦
 كنيسة سنتياجو (أوريولة) ؛ ١٥٣
 كنيسة سنتياجو (باجة) ؛ ٤٠٨
 كنيسة سنتياجو (شريس) ؛ ٣٠٠
 كنيسة سنتياجو (قرطبة) ؛ ٣٤
 كنيسة سنتياجو (مالقة) ؛ ٢٥٠
 كنيسة سائتا مارييا العظمى (أبدة) ؛ ٢٣٢
 كنيسة سائتا مارييا (إستجة) ؛ ٧٩
 كنيسة سائتا مارييا (الحمراء) ؛ ٢٦ ، ١٩٠ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٨
 كنيسة سائتا ماريادلنارنكو (أوفيديو) ؛ ٣٦٢
 كنيسة سائتا مارييا العظمى (باجة) ؛ ٤٠٨
 كنيسة سائتا مارييا ذات الحصن (ببليوس) ؛
 ٣٧٥
 كنيسة سائتا مارييا (بلش) ؛ ٢٥٤
 كنيسة سائتا مارييا (بلنسية) ؛ ٩٥
 كنيسة سائتا مارييا دي بلانكا (طليطلة) ؛ ٨٩
 كنيسة سائتا مارييا (لبلة) ؛ ٣٩٢ ، ٣٩٣
 كنيسة سائتا مارييا (لقتت) ؛ ١٥٠
 كنيسة سائتا مارييا (ماردة) ؛ ٣٨٣
 كنيسة سائتا مارييا (وادي الحجارة) ؛ ٣٢٨
 كنيسة سان جيرنمو (أشبونة) ؛ ٤٢١
 كنيسة سان خوان (المرية) ؛ ٢٧٠
 كنيسة سان خوان (بلش) ؛ ٢٥٤
 كنيسة سان خوان دي لوس ريس (غرناطة) ؛
 ١٦٩
 كنيسة سان خوان التوبة (طليطلة) ؛ ٤٣٧
 كنيسة سان خوان دي لابلما (إشبيلية) ؛ ٦٧
 كنيسة سان خوسى (البيازين) ؛ ١٦٨
 كنيسة سان دومنغو (مالقة) ؛ ٢٥٠
 كنيسة سان دونزويو (شريس) ؛ ٣٠٠
 كنيسة سان سالفادور (إشبيلية) ؛ ٥١ ، ٦٦
 كنيسة سان سالفادور (البيازين) ؛ ١٦٨
 كنيسة سان سالفادور (طليطلة) ؛ ٨٩
 كنيسة سان سالفادور (قرطبة) ؛ ٣٤
 كنيسة سان فرنسيسكو (إستجة) ؛ ٧٩
 كنيسة سان فرنسيسكو (شترين) ؛ ٤٢٨
 كنيسة سان فرنسيسكو (يابرة) ؛ ٤٠٤
 كنيسة سان لويس (غرناطة) ؛ ١٦٩
 كنيسة سان ماتيو (شريس) ؛ ٣٠٠
 كندرائية ليون ؛ ٣٥٠
 كندرائية مالقة ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١
 كندرائية وادى آش ؛ ٢١٥ ، ٢١٦
 كندرائية ولبة ؛ ٣٨٧
 كندرائية يابرة ؛ ٤١٢ ، ٤١٤
 كنيسة أبلة العظمى ؛ ٣٢٦
 كنيسة أرشدونة العظمى ؛ ٢٤٠
 كنيسة أشبونة العظمى ؛ ٤٢٠
 كنيسة الجزيرة العظمى ؛ ٢٨٢
 كنيسة الرحمة (شريس) ؛ ٣٠٠
 كنيسة الصخرة (كوفانجا) ؛ ٣٧٠
 كنيسة القديس بطرس ؛ ٣٣ ، ٤٦
 كنيسة القديس ميچل (ميورقة) ؛ ١٢٧
 كنيسة القديسة أجيلا ؛ ٧٠
 كنيسة القديسة مريم ذات النخيل (الجزيرة) ؛
 ٢٨٢
 كنيسة القديس يوحنا أبى الفوارس (قرطبة) ؛
 ٣٣
 كنيسة القديس يوحنا (شترين) ؛ ٤٢٨
 كنيسة ألكسوفيا (شترين) ؛ ٤٢٨
 كنيسة المنكب العظمى ؛ ٢٦١
 كنيسة أنونثياتا (لاردة) ؛ ١١٥
 كنيسة أنونثياسيون (بسطة) ؛ ٢٣٤
 كنيسة أوريولة العظمى ؛ ١٥٣
 كنيسة أيا صوفيا ؛ ٣٥٤
 كنيسة ببليوس العظمى ؛ ٣٧٨
 كنيسة بيدادى (شترين) ؛ ٤٢٨
 كنيسة رندة العظمى ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
 كنيبة سان أدفونسو (جيان) ؛ ٢٢٧
 كنيسة سان أندريس (باجة) ؛ ٤٠٨
 كنيسة سان أندريس (بلنسية) ؛ ٩٥
 كنيسة سان أندريس (جيان) ؛ ٢٢٧
 كنيسة سان أوجستن (ببليوس) ؛ ٣٧٨
 كنيسة سان إيزيدورو (أوفيديو) ؛ ٣٦٢
 كنيسة سان إيزيدورو (ليون) ؛ ٣٥١
 كنيسة سان بابلو (أبدة) ؛ ٢٣٢
 كنيسة سان بلايو (سنتياجو) ؛ ٣٤٧
 كنيسة سان بيدرو (ولبة) ؛ ٣٨٧
 كنيسة سائتا أولاليا (ماردة) ؛ ٣٨٣
 كنيسة سائتا كروث (إستجة) ؛ ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٦

ل - م

لاخير الدا ؛ انظر منارة جامع إشبيلية
 لاردة ؛ ١١٤ ، ١١٦
 لاكورونا ؛ ٣٤٢
 لالنيا ؛ ٢٨٨
 لامنشا ، ولاية ؛ ٢٢٨
 لبانتو ، موقعة ؛ ٣١٦
 لبلبة (وولاية) ؛ ١٣ ، ١٦ ، ٣٩٠
 ٢٩٢ ، ٣٩٤
 لشبونة ؛ أنظر أشبونة
 لقنت (وولاية) ؛ ٩٨ ، ١٤٥ ، ١٤٨
 ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣
 لك ، مدينة ؛ ٣٦١
 لورقة ؛ ٢٣٣
 لوس باريوس ؛ ٢٨٨
 لوشة ؛ ١٦١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٣٣٥
 لونخا بلنسية ؛ ٩٥
 لونخا سرقسطة ؛ ١١١
 لونخا ميورقة ؛ ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦
 ليون ، مدينة ؛ ٣٩ ، ٦٠ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤
 ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧
 ماردة ؛ ١١٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤
 ٣٨٦
 مالطة ؛ ٢٩٦
 مالقة ؛ ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ٩٨ ، ١٤٢
 ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٥
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩
 مانا كور ؛ ١٣٢
 مانيسس (بلنسية) ؛ ٩٨
 متحف إشبيلية الأركيولوجي ؛ ٥١ ، ٦٦
 ٦٧
 متحف إشبيلية الإقليمي ؛ ٦٧
 متحف البرادو ؛ ٣٣٣
 متحف الحمراء ؛ ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٩٣
 متحف الدير الملكي ؛ ٣١٦
 متحف الزهراء ؛ ٣٣ ، ٤٠
 متحف باجة ؛ ٤١٠
 متحف برجوس ؛ ٣١٦

كنيسة سان ماتيو (طريف) ؛ ٢٧٩
 كنيسة سان ماركوس (إشبيلية) ؛ ٥٧
 كنيسة سان ماسمو (بسطة) ؛ ٢٣٤
 كنيسة سان مرتين (لبلبة) ؛ ٣٩٢
 كنيسة سان ميغل (شريش) ؛ ٣٠٠
 كنيسة سان ميغل دي ليو (أوفيليو) ؛ ٣٦٤
 كنيسة رفدة العظمى ؛ ٢٧٣ ، ٢٧٤
 كنيسة سرقسطة العظمى ؛ ٤٣٧
 كنيسة سيدة المدينة (مجريط) ؛ ٣٣٢
 كنيسة سيدة النصر (مالقة) ؛ ٢٥٠
 كنيسة شاطبة العظمى ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
 كنيسة شقوبية العظمى ؛ ٣٢٢ ، ٣٢٤
 كنيسة شلب العظمى ؛ ٤٠٤
 كنيسة شلويانية ؛ ٢٦٢
 كنيسة شترين العظمى ؛ ٤٢٦
 كنيسة طرطوشة العظمى ؛ ١٢٠ ، ١٢١
 كنيسة عذراء الرأس (متريل) ؛ ٢٦٤
 كنيسة قادس العظمى ؛ ٣٠٢
 كنيسة قرطاجنة العظمى ؛ ١٥٨
 كنيسة قرطبة الجامعة ؛ ٢٠
 كنيسة قرمونة العظمى ؛ ٧٤ ، ٧١
 كنيسة قسطلونة ؛ ١٣٧
 كنيسة كلبريثيا (شلمنقة) ؛ ٣٦٠
 كنيسة كونسبسيون (بطليوس) ؛ ٣٧٨
 كنيسة لاثودا (لاردة) ؛ ١١٥
 كنيسة لاجراسا (يابرة) ؛ ٤١٤
 كنيسة لاردة العظمى ؛ ١١٥
 كنيسة لاسيو (سرقسطة) ؛ ١٠٨ ، ١١٠
 كنيسة لوشة الكبرى ؛ ٢٣٦
 كنيسة مارياسالومي (سنتياجو) ؛ ٣٤٧
 كنيسة مرسية العظمى ؛ ١٠٠
 كنيسة مسيح النصر (مالقة) ؛ ٢٥٠
 كنيسة مكلين ؛ ٢٢٠
 كنيسة ميورقة العظمى ؛ ١٢٧
 كنيسة وادي الحجارة العظمى ؛ ٣٣٠
 كورسيكا ، جزيرة ؛ ١٤٦
 الكوريدا (مدريد) ؛ ٣٣٣
 كوفادنجا ؛ ٣٦٦ ، ٣٦٧
 كوفادنجا ، موقعة ؛ ٣٦٨

- متحف بطليوس ؟ ٣٧٦
 متحف بلدية غرناطة ؟ ١٦٧ ، ١٨٢
 متحف بلنسية دي دون خوان ؟ ٣٣٥
 متحف جبل طارق ؟ ٢٩٢ ، ٢٩٤
 متحف جنة العريف ؟ ١٨٠ ، ١٨١
 متحف دارالراية ؟ ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨١
 متحف سرقسطة ؟ ١١١
 متحف شاطبة ؟ ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 متحف طرطوشة ؟ ١٢٢
 متحف طركونة ؟ ١١٨ ، ١٢٢
 متحف غرناطة الأركيولوجي ؟ ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٠
 متحف فارو ؟ ٤٠٠
 متحف قرطاجنة ؟ ١٥٨
 متحف قرطبة الأركيولوجي ؟ ٣٧
 متحف قسطلونة ؟ ١٣٧
 متحف كنيسة طركونة ؟ ١٤٨
 متحف لازارو ؟ ٣٤٠
 متحف لشبونة ؟ ٤٢٠
 متحف لوليانا (ميورقة) ؟ ١٣٠
 متحف ماردة ؟ ٣٨٢ ، ٣٨٤
 متحف مدريد الوطني ؟ ١٠٨ ، ٢٠٨ ، ٣٣٨ ، ٣٧٦
 متحف مدريد الحربى ؟ ٣٣٣ ، ٣٣٥
 متحف ميورقة الأسقى ؟ ١٣٢
 متحف يابرة ؟ ٤١٤
 مترييل ؟ ١٦ ، ١٦١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤
 متزين الملكة ؟ ٢٠٥
 مجريط ؟ ٣٣١
 المجلس المونس (الزهراء) ؟ ٣٩
 مجلس الذهب ؟ أنظر دار السرور
 مجلس الغربية (الزهراء) ؟ ٣٨ ، ٣٩
 المجلبي (بلنسية) ؟ ٩٥
 محراب الجامع (قرطبة) ؟ ٣١
 مدرسة غرناطة النصرية ؟ ١٧٣
 مدريد ؟ ١٢ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١
 ٤٣٥ ، ٤٣٣ ، ٣٣٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٥
 المدينة الخليفة (الزهراء) ؟ ٣٩ ، ٤٠
 مدينة الفتح ؟ ٢٨٦
 مدينة مجاهد ؟ ١٢٦
 مراکش ؟ ٤٨ ، ٤٩ ، ١٦٦
 مربلة ؟ ١٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 مربيطر ؟ أنظر ساجنتو
 المرج (غرناطة) ؟ ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢
 مرسى المنكب ؟ ٢٥٨
 مرسى سهيل ؟ ٢٥٧
 مرسية (وولاية) ؟ ٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 ١٦١ ، ٢٢١ ، ٢٣٣
 مرصد طرطوشة ؟ ١٢٢
 مسجد آيلة ؟ ٣٢٦ ، ٣٢٧
 مسجد أوريولة الجامع ؟ ١٥٣
 مسجد البيازين ؟ ١٦٨
 مسجد التائبين ؟ ١٦٩
 مسجد الحمراء ؟ ٢٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 مسجد القصبية (لاردة) ؟ ١١٥
 مسجد المرابطين ؟ ١٦٨
 مسجد باب المردوم (كريستودي لوث) ؟ ٨٨
 مسجد طركونة ؟ ١١٨
 مسجد مجريط ؟ ٣٣١ ، ٣٣٢
 المسجد ، بلدة ؟ ٣٩٦
 المسرح الرومانى (ماردة) ؟ ٣٨٣
 مصلى الملوك الكاثوليك (القصير) ؟ ٦٢
 مصلى بيدرو الرابع (الجعفرية) ؟ ١٠٨
 مصلى عذراء كوفادنجا ؟ ٣٦٨
 مضيق جبل طارق ؟ ٢٨٤
 معبد ديانا (يابرة) ؟ ٩ ، ١١ ، ٤١٢
 معبد عذراء الرحمة (أرشدونة) ؟ ٢٤٠
 المغرب ؟ ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٧ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٣٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥
 مكتبة أكاديمية التاريخ ؟ ٤٣٥
 مكتبة الإسكوريال ؟ ٣٤٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥
 مكتبة دير ساكروموني ؟ ٤٣٥
 مكتبة مدريد الوطنية ؟ ٣٤٠ ، ٤٣٥

٣٠٧ ، ١٢٠ ، ١١٤
 نهر يسوجرا ؛ ٣٢٠
 نهر تورمس ؛ ٣٥٧
 نهر توريا ؛ ٩٤
 نهر حدره ؛ ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧٦
 ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٢
 نهر خالون ؛ ١١٣
 نهر دويره ؛ ٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٤٨
 ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٩٥
 نهر رينوثا (كوفادنجيا) ؛ ٣٧٠
 نهر ريوجراندى ؛ ١٦١
 نهر سجرى ؛ ١١٤ ، ١١٥
 نهر سو ؛ ٣٧٢
 نهر شقر ؛ ١٣٩
 نهر شقورة ؛ ٩٩
 نهر شنيل ؛ ٧٦ ، ٧٩ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ٢٣٥
 نهر فريو ؛ ٣٢٤
 نهر مخارس ؛ ١٣٧
 نهر مثنارس ؛ ٣٣١ ، ٣٣٣
 نهر منهو ؛ ٣٩٥
 نهر وادى آش ؛ ٢١٥
 نهر وادى المدينة ؛ ٢٤٢ ، ٢٥٠
 نهر وادى لبين ؛ ٢٧١
 نهر وادى لكته ؛ ٢٩٧ ، ٣٠٢
 نهر وادى يانه ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧
 ٣٩٥ ، ٣٩٦
 نهر هنارس ؛ ٣٢٨ ، ٣٣٠
 نيمه ؛ ٢٠
 وادى آش ؛ ٩ ، ١٦١ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 ٢٣٣ ، ٤٣٠
 وادى الحجارة ؛ ٣٢٨ ، ٣٣١
 وادى شقورة ؛ ٩٩
 وادى شنيل ؛ ١٨٣
 وشقة ؛ ١١٤
 ولبة (وولاية) ؛ ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩
 ٣٩٠ ، ٣٩٦
 هيكل جامع قرطبة ؛ ٢٦ ، ٢٩
 يابرة ، ٩ ، ١١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١١
 ٤١٢ ، ٤١٥
 يابسة ، جزيرة ؛ ١٢٤ ، ١٤٥
 يدرا (بياسة) ؛ ٢٣٠

مككين ، قرية ؛ ٢١٨
 منارة جامع إشبيلية (لاخير الدا) ؛ ١٢
 ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦
 ٥٧ ، ٦٣ ، ١٦٩ ، ٢٦٢ ، ٣٠٠
 منارة جامع الكتبية (مراكش) ؛ ٥٤
 منارة جامع قرطبة ؛ ٢١ ، ٢٨
 منارة حسان ؛ ٥٤
 منارة رندة العربية ؛ ٢٧٤
 منظره اللندراخا ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٥
 منورقة ، جزيرة ؛ ١٢٤
 موقعة اللسانة ؛ ٣٣٥
 موقعة شنونة ؛ ٢٩٧
 موتى فريو ؛ ١٦١
 المهديّة ؛ ٢٨٤
 ميدان الأحياب (الحمرام) ؛ ١٨٨
 ميدان باب إليرة ؛ ١٦٤
 ميدان باب الرمله ؛ ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ميدان باب الشمس (مدريد) ؛ ٣٣٣
 ميدان ثبليلس (مدريد) ؛ ٣٣٣
 ميدان شلمنقة الكبير ؛ ٣٥٧
 ميورقة ، جزيرة ؛ ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٦
 ميورقة ، مدينة ؛ ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٢٧ -
 ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦

ن - ي

نافار (نبره) ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨
 نافورة الأسود (الحمرام) ؛ ١٩٩ ، ٢٠٢
 نافورة فجيراس (شترين) ؛ ٤٢٨
 فرخا ؛ ٢٥٨
 نهر أراد ؛ ٤٠٢
 نهر إرلانتون ؛ ٣١٠
 النهر الأحمر ؛ ٣٩٠
 نهر أندرش ؛ ٢٦٦
 نهر أوديل ؛ ٣٨٧
 نهر البيضاء ؛ ١٣٩
 نهر التاجه ؛ ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٣٣١
 ٣٨٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٥
 نهر الوادى الكبير ؛ ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦
 ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٦
 ١٠٤ ، ١٦١ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٠
 نهر لبيرو ؛ ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣

فهرست الأعلام

أبو بكر بن زهر ؛ ٤٧ ، ٤٩
 أبو سعيد ، السيد ؛ ٢٨٥
 أبو عبد الرحمن بن ظاهر ؛ ١٠٠
 أبو عبد الله ، السيد ؛ ٣٨٩
 أبو عبد الله السعيد (الناصر) ؛ ٥٤
 أبو عبد الله المنصور ، السلطان ؛ ١٨٢
 أبو عبد الله محمد ؛ ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٢
 ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٣٣٤
 أبو علي الشلوين ، الإمام ؛ ٢٦٢
 أبو عنان ، السلطان ؛ ٢٨٨
 أبو مالك المري ، الأمير ؛ ٢٧٦
 أبو محمد البطليوسي ؛ ٣٧٢
 أبو يعقوب ، السيد ؛ ٢٨٥
 أبو يعقوب ، يوسف ، الخليفة ؛ ٤٦ ، ٤٧
 ٤٨ ، ٦٣ ، ٣٧٣ ، ٤٢٥
 أبو يوسف المري ، السلطان ؛ ٢٩٩
 أبو يوسف يعقوب ؛ انظر يعقوب المنصور
 أحمد بن باسة ، العريف ؛ ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٧٥
 أحمد بن سليمان بن هود ، المقتدر ؛ ١٠٥
 أذفونث (ألفونسو) ؛ ٥٢
 أردنيو الرابع ؛ ٣٩
 إسحق ، السيد ؛ ١٧٦
 إسكندر الرابع ، البابا ؛ ٣٥٨
 إسكندر السادس (بورجيا) ؛ ١٤٣
 إسحاق ، مولاي ؛ ٢٩ ، ٤٣٣
 الإخوة المغررون ؛ ٤١٧
 الإسترداد (لاريكونكستا) ؛ ٩ ، ١٥ ،
 ١٥٨
 الأنحميادو ؛ ٤٣٩
 الإنفانت فيليب ؛ ١٧٦
 الأوتودافيه ؛ ١٠٨
 ألبا ، دوقات ؛ ٦٤
 البارود ؛ ٣٩٠
 أبرفانيز (أبرهانس) ؛ ٣٢٨

— ١ —

ابن الأحمر ؛ ١٩٠ ، ٢٧٦
 ابن الأفتس ، عمر المتوكل ؛ ٣٧٢ ، ٤١١
 ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٢٠٧ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤٨ ، ٤٣٩
 ابن يسام الشنتريني ؛ ٤٢٥
 ابن بطوطة ؛ ٢٥٧ ، ٢٧١
 ابن خاتمة ، أبو جعفر ؛ ٢٦٦
 ابن رشد ؛ ١٩
 ابن زمرك ؛ ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ابن صاحب الصلاة ؛ ٤٧ ، ٥١ ، ٦٦ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٦
 ابن عباد ، المعتضد ؛ ٣٩٠
 ابن عباد ، المعتمد ؛ ٤٩ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٤
 ابن عبدون ، عبد الحميد ؛ ٤١١
 ابن عمار ، أبو بكر ؛ ١٠٠ ، ٤٠١
 ابن محفوظ ؛ ٣٩٠
 ابن مردنيش ؛ ٣٣٨
 ابن ميمون ؛ ١٩
 ابن هلال ؛ ١١٤
 أبو إسحق إبراهيم ، السيد ؛ ٤٨
 أبو الحسن المري ، سلطان المغرب ؛ ٨٥ ،
 ٨٦ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦
 أبو الحسن ، سلطان غرناطة ؛ ٢٠٤ ، ٢١٥
 أبو الطيب الرندي ، صالح بن شريف ؛ ٤٥ ،
 ١٣٩ ، ٢٢١
 أبو القاسم بن حججاج ؛ ٦٧
 أبو العلاء ، السيد ؛ ٦٣
 أبو الليث الصقلي ؛ ٥٦
 أبو الوليد إسحاق ، السلطان ؛ ١٧٣ ، ١٧٨ ،
 ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٨
 أبو الوليد الباجي ؛ ٤٠٦
 أبو بكر الساق ؛ ٤٧
 أبو بكر الطرطوشي ؛ ١٢٢

المنصور بن أبي عامر؛ ١٩٩ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٧٩ ،
 ١٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
 المنصور السعدي ، السلطان ؛ ٤٣١
 المنصور الموحدى (والى شلب) ؛ ٤٠٢
 أمادوردى لوس ريوس ؛ ٢٨ ، ٦٠ ، ٦٦ ،
 ٣١٧ ، ٣١٦
 أورাকা ، الملكة ؛ ٣٥٤
 أولاليا ، القديسة ؛ ٣٨٣
 إيرقنج ، واشنطون ؛ ٢٠٦
 لؤزيدور الباجى ؛ ٤٠٦
 إيسابيللا ملكة قشتالة ؛ ١٩ ، ٦٤ ، ٨٢ ،
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٣٤
 إيسابيللا ملكة البرتغال ؛ ١٠٦

ب — ث

باديس بن حبوس ؛ ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٦
 باراديو ، المصور ؛ ١٨٢
 براز بن محمد ، أبواسحق ؛ ٢٨٥
 برنجار الثالث ، كونت برشلونة ؛ ١١٨
 بروفنسال ، ليث ؛ ٢٠٧ ، ٤٣٥
 پلاتوس ، الحاكم الرومانى ؛ ٦٦
 پلايو (بلاجيوس) ؛ ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
 بلول بن جلداسن ؛ ٤٧ ، ٤٨
 بوسكو ، بلاثكيث ؛ ٣٨ ، ٣٩
 بيدال ، رامون منديث ؛ ٩ ، ١٣ ، ١٥ ،
 ٤٣٨
 بيدرو الأول ؛ ٦٠ ، ٦٣ ، ٤٣٦
 بيدرو الثالث (القاسى) ؛ ٧٤
 بيدرودى جرافادا (سيدى يحيى) ؛ ١٨١
 بيرون ، لورد ؛ ٤٢٤
 تراچان ، الامبراطور ؛ ٣٢٤
 توريس بالباس ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٦
 تيودمير ، أمير تدمر ؛ ١٥٢
 تيودمير ، الأسقف ؛ ٣٤٤
 ثرفانتس ، ميغل ؛ ٣١٩ ، ٣٣٢
 ثورليا ، خوسيد ؛ ٣١٨ ، ٣١٩

ج — ز

جومات مورينو الكبير ؛ ٢١٠

ألتاميرا ، رافائيل ؛ ٣٤٤
 إل جريكو ، دومينيكو ؛ ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠
 الحكم المستنصر ؛ ٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩ ،
 ٧٩ ، ١٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤
 السمح بن مالك ؛ ٣١
 السيد الكميادور ؛ ٩٦ ، ١٥٦ ، ٣١١ ،
 ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٤٣٨
 الشريف الإدريسي ؛ ٤١٦ ، ٤١٧
 الغزال القاسى ، أحمد بن مهدي ؛ ٢٩ ، ٣٠ ،
 ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١٥٣ ، ١٧٩ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٣٣
 الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٤٣٤ ، ٤٣٥
 الفتنة الكبرى ؛ ٣٧٢
 الفن الأندلسى ؛ ٣٦ ، ٦٤
 الفن المدجنى ؛ ٢٦ ، ٦٤
 ألفونسو الأول ؛ ٣٧٠
 ألفونسو الأول الأراجونى ؛ ١٠٤ ، ١١٠
 ألفونسو الثالث ؛ ٣١٠
 ألفونسو الثالث البرتغالى ؛ ٣٩٧
 ألفونسو السادس ؛ ٨٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ،
 ٤٢٥
 ألفونسو الثامن ؛ ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٧
 ألفونسو التاسع ؛ ٣٥٨ ، ٣٧٩ ، ٤٣٦
 ألفونسو العاشر (العالم) ؛ ٢٥ ، ١٥٤ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠
 ألفونسو الحادى عشر ؛ ٣١ ، ٢٨٢
 ألفونسو ريمونديس ؛ ١١٣
 ألفونسو هنريكيز ؛ ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ،
 ٤٢٦
 المأمون بن ذى النون ؛ ٣٣٢
 المقرى ؛ ١٩٨ ، ١٩٩
 الملكان الكاثوليكيان (فرديناند وإيسابيللا) ؛
 ١٩ ، ٦٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٦٠ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠
 ألويسو ما نريكى ، الأسقف ؛ ٢٦
 المتوكل بن هود ؛ ١٨٠

- جومث مورينو ؛ ٣٣ ، ١٠٨ ، ٢٧٠ ، ٣١٣
 جونثالث پالنتيا ؛ ٣٤٠ ، ٤٣٧
 جونثالثو دي كورديا ؛ ١٩
 جويبا ؛ ٣٤٧
 جيرا الدوسمبافور ؛ ٤٢٢
 حسن بن يحيى بن حمود ؛ ٢٤٣
 حرب وراثه العرش ؛ ٣٧٩
 خايمي الأول (الفاتح) ؛ ٩٥ ، ١٢٦ ،
 ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٦
 تلمريث ، الإسقف ؛ ٣٤٦
 خنيس ، الكردينال ؛ ٤٣٠
 خنيس دي رادا ، الأسقف ؛ ٣٩٠
 خينا دي أوفيدو ؛ ٣١١ ، ٣١٢
 خوان الثاني ؛ ٦٤
 خير الدين ، أمير البحر ؛ ٢٦٤
 خيران العامري ؛ ٢٦٦ ، ٢٧٠
 دري الصغير ؛ ٣٥٤
 دي رفييرا ، الجنرال ؛ ٢٩٧
 ديرنيور ، هارتفج ؛ ٤٣٤
 ديوان التحقيق ؛ ٩٠ ، ١٠٨
 رامون برنجار الثالث ؛ ١١٨
 رامون برنجار الرابع ؛ ١١٤ ، ١٢٠
 رامير والثاني ؛ ٣٢٠
 ردريلك ملك القوط ؛ ٩٠
 ري رغون ؛ ١٣٣ ، ١٣٤
 زهير العامري ؛ ٢٦٦
 زيدان ، مولاي ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٣
- س - ع
- سابور الحاجب ؛ ٣٧٦
 سارتا ووكريس ؛ ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 سانشو الثالث (النبيل) ؛ ٣٠٨
 سانشو الشجاع ؛ ٢٧٨ ، ٢٩٩
 سان فرناندو (فرناندو الثالث) ؛ ١٢ ، ٢٠ ،
 ٢٥ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ١٥٦ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٣١٠
 سيبون ، القائد الروماني ؛ ١٥٦
 سعد بن أبي الحسن النصري ؛ ٤٤٠
 سعد بن سالم الثغري ؛ ٣٣١
- سليمان بن مرتين ؛ ٣٨٤
 سوريانو موريليو ؛ ١٣٣
 سير بن أبي بكر اللبتوني ؛ ٣٣٨
 سيف الدولة بن هود ؛ ١١٣
 سيمونيت ، المستشرق ؛ ٤٣١
 شارلكان الإمبراطور ؛ ٢٦ ، ٦٤ ، ٨٢ ،
 ٩٠ ، ٩٦ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٨ ، ٢٩٠ ، ٣٥١
 شارلمان ، الإمبراطور ؛ ١٢
 شعيب بن موسى ؛ ٣٨٤
 شنت ياقب (القديس) ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٤
 صيخ البشكنسية ؛ ٧٩
 طارق بن زياد ؛ ٢٨٤
 طريف بن مالك ؛ ٢٧٨
 عائشة الحره ؛ ٢٦٤
 عبد الرحمن الخليقي ؛ ٣٧٢
 عبد الرحمن الداخل ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٥٢
 عبد الرحمن الناصر ؛ ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ،
 ٣٨ ، ٤٠ ، ٧٩ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ٢٦٦ ،
 ٢٨٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٥٢
 عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٦ ،
 ١٢٦ ، ١٥٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤
 عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ؛ ٢٥٧
 عبد الرحمن بن محمد ؛ ٧٨
 عبد العزيز المنصور ؛ ٢٦٦
 عبد العزيز بن موسى ؛ ١٥٢
 عبد الله ، الأمير ؛ ٢٠ ، ٢٦ ، ٣٧٢
 عبد الله بن بلقين ؛ ٢٤٤
 عبد الله بن كليب ؛ ٣٨٤
 عبد الله بن موسى بن نصير ؛ ١٢٦
 عبد الملك المنصور ؛ ٣٠٨
 عبد المؤمن بن علي ، الخليفة ؛ ٤٧ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٤٠٠
 عثمان ، الخليفة ؛ ٢٨
 عصام الخولاني ؛ ١٢٦
 علي العطار ؛ ٣٣٥
 علي بن مجاهد ؛ ١٢٦
 عمر بن حفصون ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٢

محمد بن أبي عامر ؛ انظر المنصور بن أبي عامر
 محمد بن الأحمر (الأول) ؛ ١٩٠ ، ٢٢٢
 محمد بن الأحمر الفقيه (الثاني) ؛ ١٧٦ ،
 ٢٤٨ ، ١٩٠
 محمد بن الأحمر الخلع (الثالث) ؛ ٢٠٨
 محمد بن سعد (الزغل) ؛ ٢٢٠ ، ٢١٥
 محمد بن سعيد ؛ ٤٨
 محمد بن عبد الرحمن ؛ ٢٠ ، ٣٠ ، ٣٣١
 محمد بن عبد الله (سلطان المغرب) ؛ ٣٠ ،
 ٤٣٣
 محمد بن عبد الوهاب الغساني ؛ ٢٩ ، ٨٦ ،
 ٤٤٠ ، ٤٣٣
 محمد ، الغنى بالله ؛ ١٧٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
 مدينا سالى ، أسرة ؛ ٦٤
 مريم زوجة أبي عبد الله ؛ ٣٣٥
 مسلمة الجريطي ، أبو القاسم ؛ ٣٣١
 موريليو ؛ ٣٤٧
 موسى بن الأزرق الفهري ؛ ٣٣٨
 موسى بن موسى بن قسى ؛ ١١٣
 موسى بن نصير ؛ ١١٠
 ميسور بن الحكم ؛ ٣٣٩
 نصر بن أبي الحسن ؛ ٤٤٠
 هزدر وبال ، القائد ؛ ١٥٥
 هشام المؤيد ؛ ٣٥ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٣٣٩
 هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢٠ ، ٢٢
 هنرى الثانى ؛ ٣٩٣ ، ٤٣٧
 هيرود ؛ ٣٤٣
 ياقوت الحموى ؛ ١٥٠
 يحيى النيار ؛ ١٨١ ، ٤٤٠
 يعقوب المنصور ، أبو يوسف (الخليفة) ؛
 ٥١ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٤١١
 يعقوب بن عبد الحق المريني ؛ ٨٦
 يعيش الملقى ؛ ٢٨٥
 يوحنا ابنة فرديناند الخامس ؛ ١٧١
 يوسف أبو الحجاج ؛ ٨٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
 ١٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٤٨
 ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨
 يوليان ، الكونت ؛ ٩٠

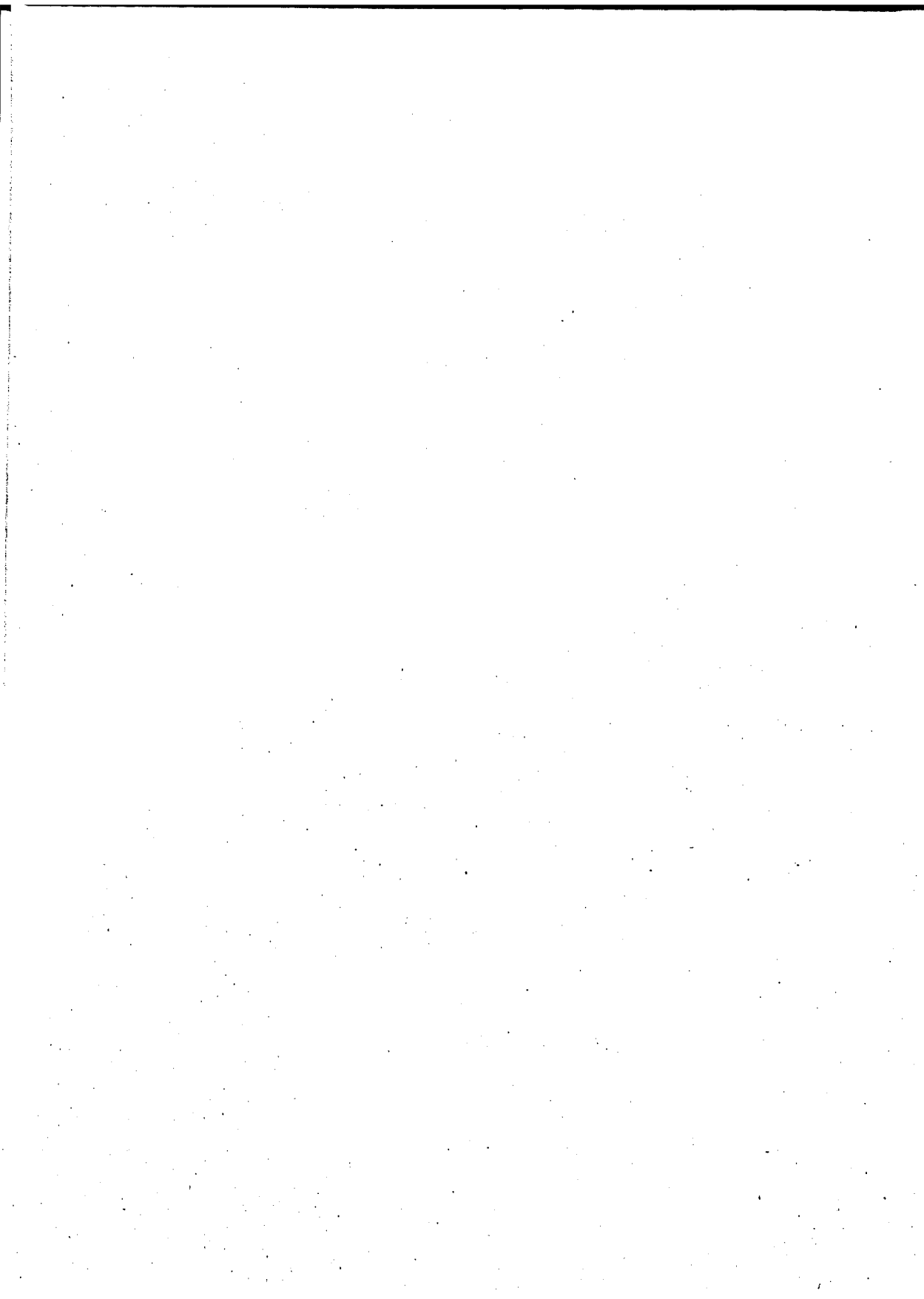
عمر بن عديس ؛ ٤٧ ، ٦٦
 عيسى ، المسيح ؛ ٢٩

ف - ك

فاسكو داجاما ؛ ٤٢١
 فرناندث جيررا ؛ ١٨٠ ، ١٨١
 فرناندو الأول ؛ ٣٩٥
 فرناندو الرابع ؛ ٢٢٦
 فرناندو (فرديناند) الخامس ؛ ٦٤ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥١
 فلورندا القوطية ؛ ٩٠
 فنسنت ، القديس ؛ ٤٢٠
 فويان ؛ ٣٧٩
 فون كوبرج ، البرنس ؛ ٤٢٤
 فيليب الثاني ؛ ١٦١ ، ١٧٠ ، ٢٠٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٧٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٢
 فيليب الثالث ؛ ٦٤ ، ٤٣٢
 فيليب الخامس ؛ ٦٤ ، ٢٠٩
 فيليب الجميل ؛ ١٧١
 قيصر ؛ ٢١
 كارديناس ، أنتونيو ؛ ٢١٠
 كارلوس الثاني ؛ ٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠
 كارلوس الثالث ؛ ٣٠ ، ١٨٢ ، ٢٨٢ ،
 ٣١٢ ، ٤٧٣
 كارلوس الخامس ؛ ٢٠٩
 كستيخون ، رافائيل ؛ ٤٠
 كالكستوس الثالث ، البابا ؛ ١٤٣
 كريستوف كولبوس ؛ ٤٩ ، ٣٠٩ ، ٣٨٨
 كليمنت السابع ، البابا ؛ ١٦٥
 كوثيس ، الشاعر ؛ ٤٢١ ، ٤٢٢
 كوديرا ، المستشرق ؛ ١١٠
 كوتزيراس ، رافائيل ؛ ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٧ ،
 ٦٤ ، ٢١٠ ، ٢٥٧
 لورنسو ، القديس ؛ ٤٣٢

م - ي

مجاهد العامري ؛ ١٢٦ ، ١٤٦
 محمد ، النبي ؛ ٢٩



LOS MONUMENTOS MOROS

EN ESPAÑA Y PORTUGAL

Estudio Histórico y Arqueológico

POR

MOHAMED ABDULLA ENAN

Segunda Edición

Imprenta Lagnat ul Talif

El Cairo, 1962

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية



رقم الحساب
10000000

رقم الفاتورة
10000000

السياسة
5000000

العدد
10000000

